منشورات كلية الآداب والتربية
جامعة قار يونس

مجلة كلية الآداب والتربية

العدد الحادي عشر
١٩٨٢ م
١٤٠٢ هـ

مجلة

كلية الآداب والتربية

منشورات كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس
بنغازي
جامعة الدول العربية
الجماهيرية العربية الليبية
الشعبية الاشتراكية

مجلة كلية الآداب والتربية

هيئة التحرير

دكتور رجب بودبوس أمين التحرير
دكتور عبد الله الهمالي عضوا
دكتور رمضان حسن زلمه عضوا

العدد الثاني عشر

١٤٠١ و.ر - ١٩٨٢ م

مجلة كلية الآداب والتربية

مجلة علمية ثقافية تصدر سنويا عن كلية الآداب بجامعة قاريونس ،

ولا تعبر الآراء التي تنشر بالمجلة إلا عن رأي أصحابها ولا تمثل وجهات نظر الكلية ولا هيئة التحرير .

تحتفظ الكلية بجميع حقوق الطبع ولا يسمح باعادته إلا بإذن مسبق .

جميع المراسلات ومواد التحرير ترسل الى العنوان التالي :

مجلة كلية الآداب والتربية

جامعة قاريونس

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

بنغازي

الثمن للنسخة الواحدة ١٠٠٠ درهم او ما يعادلها

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

مقالات

	الصفحة
١ ـ ... والعقل ...	١١
د. رجب بودبوس	
٢ ـ ... بن ابن خلدون والحبيب كوت ...	٢٢
د. عبد الباقي زيدان	
٣ ـ الانسان والطبيب والدرس : حنين بن اسحاق العبادي ...	٦٩
د. رشيد الجميل	
٤ ـ الرياضيات الكبرى عند ليبنتز ...	١٠٣
د. محمد الشكري	

بحوث

١ ـ العلاقة بين الجنس والنفس ...	١٢٢
د. محمد بالروين	
٢ ـ مدينة بنغازي وقسم تخطيط المدن ...	١٤١
د. الهادي بولقمة	

الصفحة

٣ ـ دراسة تجريبية على عينة من المقدمين لبرنامج التدريب والتأهيل
الذاتي لمستفيدي فايروس العوز المناعي البشري ... ٢٦١
د. محمد مصطفى نجيب

٤ ـ التعبير الاجتماعي نظريا وتطبيقيا
أ ـ في مفهوم التعبير الاجتماعي ٢٨٩
د. عبد القادر عرابي
د. عبد الله الهمالي

ب ـ دراسة تحليلية لمفهوم التعبير وتطوره ومجالاته
ومقارنته بمفاهيم أخرى مشابهة في الوسط العربي ٣٠٥
د. عبد القادر عرابي
د. عبد الله الهمالي

٥ ـ نظام التدريب في المجتمع العربي الليبي الواقع ـ
دراسة ميدانية ٣٣٩
د. عبد الله الهمالي
د. عبد القادر عرابي

٦ ـ التركيب العمري والنوعي للسكان بمدينة بنغازي ٣٨١
د. فتحي عبد الله قياقي

٧ ـ أسس الإعلان في النظام الصادري ٤٠٧
علي المنتصر فرفار

٨ ـ دراسة نحو لأبي الحسن المارني ٤٤٧
د. عبد العطي سويد

مقـالات

الديـن والعقـل

للدكتور رجب بودبوس

قسم علم النفس

الدين والعقل

للدكتور رجب بودبوس

ان المتأمل في الدين والعقل يدرك له ان هناك تعارضا جذريا بينهما : فالعقل محدود ، منطقي لا يستطيع تعقل التناقض ، لا يستطيع تعقل الا الحس والذي يمكن ادراكه بأدوات الحس المختلفة ؛ فالعقل في النهاية ليس الا خلاصة أدوات الحس والرابط بينها ؛ وبدون هذه المتاهد لا يعقل العقل شيئا .

بينما يقوم الدين على مفارقات : الله الذي لا يدرك ولا يحد بزمان ولا مكان ، ومع ذلك يجب الايمان به ، كيف نؤمن بما لا نستطيع ادراكه ؟ ولكي نؤمن به لا نستطيع ادراكه كانت الرسالات السماوية والرسل ؛ ولكن هذه بدورها تطرح على العقل مشكلات عدة ناقشها المتكلمون ولم يحسموا فيها القول منذ عدة قرون ، وهناك ايضا مسألة اليمث : هل اذا متنا وكنا تراب نبعث من جديد ؟ وتعرض للمساءلة ؟ ثم قضية الروح والجسد هذه الثنائية التي تحتشد على صخرتها عشرات المذاهب الفسيرية دون أن نجد لها حلا يقنع العقل به .

ان الله الخير الذي يدعونا الدين الى الايمان به ؛ لا نستطيع أن نوفق بينه وبين الشر ، ان الشر موجود بنفس القوة والفعالية التي للخير ؛ فكيف يستقيم وجود الله الخير مع الشر ؟ واذا كان الله مصدر الخير فما هو مصدر الشر ؟ هل ننتهي هنا ايضا الى التسليم بثنائية ؟ واذا كان لله مصدر الخير والشر فان هذا يطرح قضيتين أساسيتين ؟

١ ـ مشكلة الحرية الانسانية

« كيف أوفق بين حريتي كانسان وبين هذا الاله الذي أخضع له ؟

ثم هل في هذه الحالة فعلي ينسب الي ؟ اذا كان الخير والشر مصدرهما الله فانني في الحقيقة لست فاعلا لعملي . ويصبح الامر كما وضحه « ماييرانش » وكما قال به الكثيرون غيره من مفكري الاسلام والمسيحية واليهودية « ان الانسان لا يفعل وانما الله يفعل بواسطة الانسان . ان تريد رفع يدك او ان تخطو خطوة : لست أنت الفاعل فان هو الذي يحرك يدك وقدميك » ، وفي هذه الحالة فان حرية الانسان تصبح لا معنى لها وفعله لا وجود له » وفي هذا المفهوم فان العقل يصبح مشلولا . وتصبح الحقائق آتية من خارج الانسان ، والعقل الخلاق لحقائقه يصبح بين أمرين : اما ينحني أمام « الدين » واما يرفض الدين ، ما يسمع حقائقه واما تصمم له وتفرض عليه !

ولكن هذا الموقف العاجز لم يستمر طويلا . اذ تحول العقل ، لكي يحافظ على ايجابيته : الى « التمرد » . غير أن هذا التمرد تجاوز حدوده، حين نفى العقل كل ما لا يستطيع ادراكه ، وبما أن الله اساس الدين وانه لا يمكن ادراكه ، فان بعض عمد الى نفي الله وبعض الادلة المستخدم به « المؤمنون » على وجود الله ، حيث اعتقد العقلانيون أن هذه الادلة نفسها تناقض العقل بالرغم من أنه أريد بها اقناع العقل . فالدليل العائي يعني أن كل ما في الوجود يهدف الى غاية ، اذن هذه الغاية سابقة ، وهذا ما ينفي حرية الانسان وفعله ، الدليل الوجودي ، دليل العمل والفاعل كلها تهاوت أمام نقد العقل وهكذا استطاع برتراند راسل ان يمحض الادلة التي وضعها المؤمنون واحدا تلو الآخر[1] ، كما استطاع الباحثون

---

(١) برتراند راسل ـ محاضرة « لماذا لست مسيحيا » ٦ مارس ١٩٢٧ .

دونباخ نقد أدلة وجود الله المقترحة من قبل ديكارت[٢] ، بل ان البعض الآخر لم يكتف بهذا بل تطرف في رفض الموقف الديني ، وردّ الدين وتصوراته المختلفة الى الانسان : الانسان خالق الدين ، الانسان خالق الله وليس الله خالق الانسان ، فالله ليس شيئا آخر غير الانسان الكامل ، أي أن كل ما ينقص الانسان ، أو كل نواقص الانسان يعوض عنها في تصور « الله » ، الانسان عاجز اذن لأن قدر الانسان ضعيف اذن الله قوي ، والجنة والحياة الاخرى ليست الا لجعل هذه الحياة محتملة انها « يمكن الانسان من تحمل فكرة : الفناء أو العدم » ، وهي ليست الا تعويضا أيضا عن هذه الحياة ، ان التعويض عن جحيم الحياة يتم في خلق جنة فيما وراء هذه الحياة حيث يضع الانسان فيها كل ما ينقصه في هذه الحياة ، وهكذا اعتبر الدين ، انطلاقا من كتاب « جوهر المسيحية » لفويرباخ ظاهرة اجتماعية انعكاسا للظروف الاجتماعية أو تعويضا عن القهر الاجتماعي .

« عود على بدء » :

الا ان العقل يقترف عدة مغالطات في نفي وجود الله ورفض « الدين » .

١ ــ ان كون العقل لايستطيع ادراك الله ، «مفهوم العقلي للادراك » ولا يستطيع ادراك « يدعو في الدين من متناقضات ، لا يستلزم بالضرورة ــ ومن وجهة نظر العقل نفسه ــ رفض الدين ولا نفي وجود الله ، والا كان على العقل أن يرفض وينفي وجود كل شيء ، وهذا الموقف العقلي المتطرف هو الذي قاد الى مثالبه بركلي ولاادرية دفيدهيوم .

---

(٢) البارون دولباخ « نظام الطبيعة » .

٢ ــ واذا ما تفحصنا مذاهب علم الكفيزيقا ، خاصة المعاصرة ، نجد ان العقل قد اضطر الى الاعتراف بالتناقض وقبوله ، بل وبناء مذهب في الوجود على أساسه على أنقاض المنطق القديم الرافض للتناقض ونظرة بسيطة في فكر هيجل ، ومارتس ، وسارتر وغيرهم تؤكد لنا ذلك .

٣ ــ ان العقل لا يستطيع تعقل نفسه ، ولهذا كان أولى به ان ينفي نفسه ، وهذا ما حدث فعلا في عدد مذاهب خطيرة ، أي مذاهب « العبث » كالوجودية مثلا حين ارتد العقل على نفسه ، فقط علينا ان نفهم العبث هنا بالمعنى الفلسفي وليس بالمعنى الاخلاقي .

٤ ــ ان عدم قدرة العقل على ادراك الله ، ونعقل مفارقات الدين يعني ان المجال ليس مجاله .

٥ ــ ان النفي كالاثبات : ان نفي وجود الله كاثبات وجود الله من وجهة نظر العقل نفسه . أن نفي وجود ملة سوداء في هذا المكان يعني انك تدرك عدم وجودها ويستوي الامر عندك في الحكم بالنفي ، فكلاهما على العقل ألا يقطع في الامر بأن تواضع .

ثم اني اريد أن أسأل أولئك الذين يريدون اثبات عدم وجود الله بأدلة وبراهين ، أولئك الذين حشدوا هذا القول ونسجوا على منواله ماذا اردوا ان يقيموا الدليل على وجوده من أنه لا يمكن لأي دليل أو برهان أن يثبت أو ينفي وجود الله ، وعلى ذلك رغم وجود مئات الادلة على وجود الله لا زال هناك من لا يؤمن ، ورغم وجود عدد من الادلة على عدم وجود الله لا زال المؤمنون كثرة ، اذ ما هو الدليل ؟ ان الدليل ليس له من قوة اقناعية الا ما يستمده منا ، بمعنى ان الدليل يستمد قوته الاقناعية من كوننا نريده ، منحها ايجابا أو سلبا ويفقد هذه القوة حين لا نريده كذلك . وبعد ذلك تأتي الحجج الثانوية التي تدعم ايجابية الدليل أو سلبيته ، اذ ليس هناك من دليل مقنع بذاته » .

ثم ان الدليل يعتمد على ما يسمى العقل ، وهذا ليس الا اسما لمجموعة من العمليات الفكرية ، والعقل الذي يراد منه اثبات وجود الله أو نفيه هو عاجز عن اثبات نفسه . وجميع يعرف ذلك ، لأنه ان العقل محدود وبالتالي ليس بامكانه الاحاطة باللامحدود . انه عاجز عن تفسير أقل الاشياء ، وأدق العلوم يرتكز على مسلمات لا يمكن تبريرها علما : ان العقل أصبح بعوينه سحرية تزيدها دائما الى جانبها لكي تسحر الخصوم . انه « صنم كل الاصنام » ان « الاصل من الايمان هو الايمان » رغم ما في هذا القول من تناقض ، ان كنت مؤمنا وتريد تدعيم هذا الايمان ، فان ايمانك هو الذي يدعم نفسه بأن يضفي على الادلة طابع الاقناع ، أما اذا لم تكن مؤمنا فلن تصل الى الايمان لا بالحجة والدليل ولا بالاقناع ، وانما قد تنتهي « باياس » حين تدرك أن الطريق اللامتناهي الذي ارتبين فيه قد هد قواك وأضنى روحك واوهن البياض شعر رأسك فتتكئ حينئذ على عقيلك محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه ، فترمي على أعتاب اول مسجد يقابلك ! ان الصعلوك لم يعد جائعا في الشتاء الذي غادره وانما لان الامواج العاتية قد حطمت مراكبه وصدعت سفينته ، قد عاد لينقذ سفينته !

ان كل الادلة دائما بالنسبة لحجج ارسطو ، والقديس انسلم والقديس اوغسطين والامام الغزالي والشيخ محمد عبده ، والاخرين مثل درباخ رشيوم وماركس ورسل ، ولقد سبق للسوفسطائيين أن برهنوا على ذلك ، ان المنطق لا يسري على الوجود ، انه أداة لضبط تفكيرنا ليس لضبط وجوده ، فهو وجود له قضيه فكرية حتى يمكن للمنطق أن يبرهن عليها سلبا وايجابا ، ان الدليل منطقيا على قضية معينة لا يعني بالضرورة وجودها خارج الفكر ، ولا يمكن أن تقصر وجود الله على الفكر ، ان الله قضية ووجوديه خارجه عن مجال المنطق واختصاصات العقل ، والطريقة الوحيدة التي يمكن ادراك هذه القضية الوجودية بها

هي ، الايمان ، أعني معارف هذه القضية الوجودية وجودي بكل تناقضاتها التي تبدو للعقل ، ان قانون عدم التناقض والوسط المرفوع وغير ذلك من قوانين المنطق لا يمكن أن تصدق الا على افكارنا وليس على وجوده وبالاحرى ليس على وجود الله .

الالحاد موقف سياسي :

اذن ظريا لا شيء يبرر الالحاد ، ومع ذلك يجب علينا أن نبحث عن أسباب البشرية له ، ولا نكتفي بمجرد بيان تعارضه ، ان هذا الحماس الديني في نفي الدين ، هذا التفاني المستميت في الدعوة الى الالحاد والرغبة العارمة في اقناع الناس به ، لا يمكن تبريره من حيث الايمان أو الالحاد ، فايمان الفرد او الحاده في هذه الحالة لا يخصني ولا يمس غيره ، اذن علينا البحث عن أسباب الالحاد في المجال العملي ، ان نضال الملحدين ضد الدين وضد الله يجعلنا نقرر منذ البداية بأن وراء هذا الالحاد أمور اخرى وليس مجرد الايمان أو عدم الايمان بوجود الله ، وان الغرب المتقبل لا يواجه الملاحدة على هذا الاساس وانما لانهم يشكلون خطر من نواحي أخرى .

ان الصراع في هذا الموضوع يخفي في حقيقته سرا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، فاحيانا تومن حين تخلف قريبه ما عن دينها وسيلة للسيطرة على قوميات أخرى ، ان الامريكي الذي يلحد بالاله ويتبنى المسيحي فانه يلحد بدين الرجل الابيض الذي استخدم الكنيسة لاستعباده من الداخل .

ان الصراع على الفكر الانساني والملم بواقع الانسان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي عبر التاريخ يدرك ان الدين وسيلة لحكم الشعوب والسيطرة عليها هي وسيلة الدين ، اذ ليس هناك وسيلة

انجح من ربط الوضع الاجتماعي والاقتصادي بالله وجعل له حارس خزائن الاغنياء ، وحامي حمى الملوك وسند البابوات ومصدر القوانين التي تكرس العلاقات الظالمة ، ان بوناپرت يعبر على هذا اصدق تعبير اذ يقول : « انني في مصر من اتباع محمد ، وفي فرنسا كاثوليكي ، وفي حقيقة الامر لست هذا ولا ذاك ، وجئت الى هذا لانه ليس هناك الا الدين الذي يستطيع ان يقدم لنظام الحكم سندا قويا ودائما » ويضيف متنبئا اكثر في نصح الذين على شاكلته : ان المجتمع لا يمكن ان يعيش بدون عدم مساواة في الثروة ، وعدم المساواة لا توجد بدون دين : عندما يموت انسان من الثراء بينما في جانب آخر يعاني من الجوعة ، لا يمكن منع الاول من الهجوم على الثاني الا ان كان هناك سلطة تقول له وتقنعه بان الله يريد هذا لا بد وان يوجد فقراء واغنياء ، والمساواة ستكون في الجنة[3] » وفي هذه الحالة فان اي تمرد ضد الاثرياء وضد الملوك وضد البابوات والعمائم وبصورة عامة ضد العلاقات القائمة يتحول الى تمرد ضد الله ويعاقب به : ليس الله بالتأكيد لهؤلاء الرأسمالي الكبير. وملك الملوك والصبر الاعظم !! ففي ١٨٠١ حاجم البابا مشروع الاتفاقيات العامة والذي كان آنذاك مكسبا تقدميا واعتبره أمرا لا يمكن هيوبه وخروج عن طاعة الله[4] اذ مشاركة الملك في الحكم هي مشاركة لله في ملكه ! وقد وقف الكنيسة ضد الحرية ، حرية العقيدة وحرية الضمير وحرية التعبير في القرن التاسع عشر ، وتعد « الحق المقدس » بعنف ١٧٩٠ « بمواد التي تنص على حرية الانسان في اعلان حقوق الانسان[5] » كما تحولت المساجد الى اماكن للتعذيب والمذبحة وتتبع الغريمة .

---

[3] تاريخ الفكر الحر ، ص ٩٢ .

[4] تاريخ الفكر الحر ، ص ٩٦ .

[5] تاريخ الفكر الحر ص ٨٤ ، ص ٩٦ .

وخطب ساده عن جهنم : دعن الاء الجبار الذي ينتقم من كل من تسول له نفسه تنكر راحة السادة !

وراء هذه : الكنيسة ، الكنيسة — وهي رمز لكل النعم والرجيم الدنيا — سادة ظلوك وسلطة الظالمة ، وخدم الفقراء والمضطهدين من أجل السلام والسادة ! ثم يجد كثير من المفكرين مدفوعة من الإلحاد بدين وبهذا الإله ، الظالم ، ان الشيخ الذي يخطب في الحسين تتلألأ في العيون سيقارن عبيد ، سادة سيظلون سادة لأن هذه إرادة الله ، ويكرر مقولة القديس أوغسطين التي مفادها أن العبودية عقاب من الله ، فيبدو لازما جب تحريرهم لأن في هذا عصيان لله .

وهنا أصبح الخيار أمام المضطهدين هينا : إما قبول العبودية أو عصيان الله ، فحاروا ، أو بمعنى أدق رجح بعضهم كفة عصيان الله .

إن الكنيسة تهدف من وراء هذا إلى عزل هؤلاء عن الجماهير ، وتحريضهم عليها حتى يسهل عليها القضاء عليهم ، كما تهدف إلى نقل الصراع إلى مستوى سياسي لا تستطيع عنده الجماهير مناصرة ولا تسنده وبالتالي تحد من تأثيره في الجماهير .

أما الملائكة فإنهم يرسلون بالعالم لتحقيق هدف سياسي ، تحطيم هذه العبودية التي تستند إليها العلاقات الظالمة ، أتقولون إن الله هو الذي أعطاهم القوة والقدرة ، جعلكم سوطا وسادة وحولهم إلى عبيد كاذبون ، مزورون ، خادعون ، فقد من سيحكم الله غير موجود ، أنتم

---

(٢) ذكرنا من قبل توجيه في الباستيل ، وهاجروا في لندن ١٧٥٢ ، كما أحرق القاضي الشاعر ١٧٦٢ كما اضطر [illegible] الى الفرار ، على هذا الاضطهاد من [illegible] والدين

الذين أحلتم لأنفسكم الثروة ونصبتم من أنفسكم سادة ، واستعبدتموه وجعلتم من أنفسكم متحدثين باسم الله لا يوجد الا في مخيلتكم !

ان الالحاد اذن الحاد سياسي بكل ما تحمله كلمة سياسي من معنى موجه ضد ركيزة نظام و العلاقات الطبقية ، اذ كان يستحيل مواجهة نظام بدون مواجهة الكنيسة المتحالفة مع النظام . ان الكثيرين من أنصار الثورة الفرنسية كانوا أعداء الدين لأنهم رأوا فيه قوة رجعية تواجه العقل بالعنف[٧] . ولا ينكر عليم أطاقر الكنيسة لا بتحرير الناس من سيطرتها وانكشف عن خداعها الجماهير ، لقد اعتنق الكنيسة الكاثوليكية غداة الثورة الفرنسية ان الجمهوريين كفرة ومارقين وان الملكيين هم عباد الله الصالحين الذين يهم بعث المسيح . كما أعلنت قداسة أخرى في وقتنا هذا أن « الجمهورية » كفر والحاد ، ما هو الرد المطلوب على هذا التحدي ؟ انه الالحاد . لكن علينا أن نميز بدقة بين الدين الكنسي ودين الله . والالحاد بالدين الكنسي لا يعني الالحاد بدين الله .

ان الملحد في حقيقته قد يكون اكثر المؤمنين : الا يؤمن بحرية الانسان بكرامة الانسان ، بمستقبل الانسان وبعدالة ومساواة ؟ ألا يهدف الى القضاء على القهر والعبودية ؟ أليست هذه هي مبادئ الدين الصحيح ؟ أليست هذه ارادة الله الحقيقية ؟ أليس هؤلاء أقرب الى الله من أولئك « المؤمنين » الذين يخرجون عباد الله ويقنعونهم بالطاعة والخنوع وبالفقر والعبودية !!

ان الالحاد اذن موقف سياسي ، ولا يمكن تجاوزه الا على هذا المستوى اما مستواه الفردي فلا قيمة له ولا أهمية ، ومحاولة نقله الى

---

[٧] تاريخ الفكر الحر ، ص ٨٥ .

صراع بين الانسان والله أو بين الدين والعلم هي خلاف لحقيقة الصراع ومحاولة لاخفاء جوهر الصراع، وجعل الالحاد سلوك « دون كيشوتي » ضد طواحين الهواء «

ان الالحاد في كل العلاقات تقاعة ببرئه بما يسبب له « رغبة ان يكون هو فاعلا نفسه لسادة سيد الجميع ، للشر نفسه لحجم ازرية هذا اقرب الى الايمان من ايمان البسطاء وذوي العاهات «

ان الصراع ليس بين الدين والعلم « فلكل مجاله الذي لا يستطيع تجاوزه « ولكل موضوعه الخاص به « ولكنه في حقيقته صراع بين اناس استعانوا التحرر من وهم العبودية للكنيسة وسلوكها وكهنتها وأوهامها ضد « خام كسي « يعمل بكل جهده على أن يبني البشر عالما صالحا الى الشيوع تحت سيادة الله بدون استغلال « وعلى يد الكنيسة يتحول الدين الذي في جوهره ثوري الى « افيون « للشعب «

ان فصلنا الدين ـ بعد فهم هذه الحقيقة ـ هو فصل مزدوج « تحرير الدين من سيطرة الكنيسة « وتحرير الجماهير من خرافاتهم « وعندها تتحول الحسن يحاربون طواحين الهواء « الحاد مناضل «

د. رجب بودبوس

الموازنة
بين ابن خلدون وأوجيست كونت

بقلم :
الدكتور زيدان عبد الباقي

الموازنة

بين ابن خلدون واوجيست كونت

بقلم : الدكتور زيدان عبد الباقي

اختلفت الآراء حول تحديد اسم مؤسس علم الاجتماع . فالعرب يقولون انه ابن خلدون والانجليز يقولون انه هربرت سبنسر ، والفرنسيون بعضهم يقول انه سان سيمون والبعض الآخر يقول انه أوجيست كونت والتشيكيون يقولون انه ، كيتليه ، ... ولكن الدراسة الموضوعية او المنهجية تؤكد انه كانت لهذا العلم نشأتان ، الاولى في المنطقة العربية ، وعلى يد عبد الرحمن بن خلدون فيما بين سنة ١٣٣٢ وسنة ١٤٠٦ ميلادية ... والثانية كانت بعد ذلك بحوالي ٤٥٠ سنة ، أي فيما بين سنة ١٧٩٨ و ١٨٥٧ ميلادية في أوروبا ، وعلى يدي أوجيست كونت ، وكانت كل نشأة منهما مستقلة تماما عن الاخرى بالرغم من تشابه اسس العلم واهدافه هنا وهناك ، وعلى ذلك فان الموازنة هنا سوف تركز على كل من ابن خلدون واجيست كونت من خلال مجموعة من المقومات الاساسية لشخصية كل منهما وافكاره الابتكارية .

اولا ـ نشأتهما : ابن خلدون واوجيست كونت :

تتميز نشأة كل منهما بظروف تختلف عن الآخر اختلافا جذريا ، وكما سيتبين لنا ذلك من الفقرتين التاليتين :

١ ـ نشأة ابن خلدون :

ابن خلدون هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون المصري ، واسمه عبد الرحمن وكنيته أبو زيد ، ولقبه ولي الدين ، وشهرته ابن خلدون . ولد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هجرية (٢٧ مايو ١٣٣٢ ميلادية) في فترة مظلمة من تاريخ البشرية حين كانت الحضارة الإسلامية في طريق الأفول ... والحضارة الأوروبية تمشي في ظلام القرون الوسطى . ولما بلغ سن التعليم تولى والده تعليمه القرآن الكريم وتجويده ، بالإضافة الى دراسة العلوم الشرعية واللغوية على يدي عدد كبير من أشهر علماء تونس لعهده ، كما درس الحديث والرياضيات وعلوم المنطق والفلسفة بمستوى التواضع الذي كان سائدا يومئذ . وكان كل ذلك حينما لطريقة التعليم السائدة يومئذ ، حين يتجمع عدد ما من طلاب العلم حول أحد العلماء في أحد أركان مسجد من المساجد ، ثم إن يحيط الطالب علما بهذا العالم ، فيتركه الى عالم آخر ، وهكذا ... وذلك لعدم وجود مدارس أو معاهد أو جامعات يومئذ .

وكان اتجاه ابن خلدون يومئذ أن يتشرع للعلم كما فعل والده من قبل ، ولكن لم تأت الرياح بما تشتهي السفن ، حيث ... عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ـ عاقه عن متابعة الدراسة حادثان : أولهما ، وفاة أبيه ومعلم من كان يأخذ عليهم العلم من شيوخه بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح العالم في منتصف القرن الثامن الهجري ، وثانيهما : هجرة معظم العلماء والآباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس الى المغرب ، وترتيبا على ذلك غادر ابن خلدون اهتمامه في حياة حيث انصرف عن العلم واشتغل بالوظائف العامة والسياسة ، وتقلب في كثير من الوظائف وفي دواوين الكثيرين من الملوك والأمراء في بلاد المغرب

والاندلس والشام ومصر ، حيث اشتغل كاتبا وأستاذا وقاضيا للقضاة ، وحاجبا ـ رئيسا للوزراء ـ وكان قد رحل الى مصر سنة ٧٨٤ هجرية ، وتوفي فيها عن ستة وسبعين عاما ، في السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هجرية (١٦ مارس ١٤٠٦ ميلادية) ، وكان حينئذ يشغل وظيفة قاضي القضاة المالكية في مصر ، وقد دفن في مقابر الصوفية ، خارج باب النصر ـ أحد أبواب سور القاهرة القديم ـ في اتجاه حي الرديانية ، وهو حي « العباسية » بالقاهرة الآن ، ولكن لا يعرف على وجه التحديد أين يوجد القبر ؟ حيث تحولت تلك المنطقة الى حي سكني ، ولا أثر فيه للقبر .

ومن ذلك يتضح أن ابن خلدون لم يتح له فرصة التعليم المنظم في مدارس او جامعات ، كما انه لم يستكمل ذلك التعليم الذي كان يوفره له آباؤه ومعاصروه ... وذلك بالاضافة الى اختلاف اتجاهاته الفكرية عن اتجاهات معاصريه ممن كانوا مهتمين بالنواحي التاريخية والفكرية ، فقد كان المفكرون يومئذ ينقسمون الى ثلاث شعب[1] هي :

١) ـ البحوث التاريخية الخالصة :

وهي البحوث التي يقتصر اصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه ، وما هي عليه الآن ، دون محاولة استخلاص بعض النتائج من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها ، وقد سار على هذا النحو جميع البحاث في التاريخ العام من قبل ابن خلدون ، حيث رأيهم في كتابة تواريخهم لمسائل تاريخ العلم يحتوون

---

(١) تاريخ العلامة ابن خلدون ، الطبعة الاولى ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٤٩ ـ الجزء الاول ، ص ٢١٦ .

ان حين الى آخر ، وحسب المناسبات الى دراسة النظم السياسية وما يتصل بالقضاء والاقتصاد والتربية وغير ذلك من بحوث في غلق الظواهر الاجتماعية ، حيث يحاول الى وصف ما كانت عليه هذه النظم الاجتماعية في الشعوب التي يدرسونها بدراسة من حيث تطورها وتغيرها الاجتماعية ، وسار على هذا النهج ايضا جميع الذين درسوا تاريخ النظم الاجتماعية في صورة مستقلة عن أبحاث تاريخ العام ، فجعلوا موضوع دراساتهم تاريخ مجموعة معينة من هذه النظم ، كما اقتصر هؤلاء كذلك على وصف هذه النظم وبيان ما كانت عليه ، ومدى تغيره ، كما فعل ابن خلدون في دراسته للملل والنحل ، وكما فعل الذين يلجؤون في دراساتهم لتاريخ التشريع ، وتاريخ القضاء ، وتاريخ التربية ، وتاريخ الدين ... الخ .

ومن الواضح ان مثل هذه البحوث لا يدخل في نطاق علم الاجتماع ، على اعتبار ان ذلك العلم لا يقف عند حد وصف الظواهر الاجتماعية ، كما ان غرضه ليس مجرد عرضها فوصف ، بل انه يرمي الى تعليلها للكشف عن طبيعتها وعن العلاقات التي تربط بينها ، وما تخضع له من قوانين عامة ، وقد يستخدم الوصف في الوصول الى تلك القوانين ، ولكن هذا الوصف يستخدم ليكون مجرد تمهيد للغرض الاساس ، وهو ربط الاسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واستخلاص القوانين العامة التي تحدد العلاقات بين تلك الظواهر .

٢) ـ بحوث وعظية وارشادية :

وهي تلك البحوث التي تدعو الى المبادىء التي تقررها نظم المجتمع وما يسوده من معتقدات وتقاليد ارتضاها المجتمع وتبناها الرأي العام وذلك بيان محاسنها وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها في نفوسهم ، وحثهم

على التمسك بها ، وتحذيرهم من تعدي حدودها : وايضاح ما ينبغي أن يحذروه في تطبيقها ، وتلك هي الطريقة التي سلكها بعض علماء الدين والحضارة والاخلاق : وبعض البحث في المجلات السياسية والدينية ، مثل ابن مسكويه في كتابه « تهذيب الاخلاق » والغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » والماوردي في كتابه « الاحكام السلطانية » والطرطوشي في كتابه « سراج الملوك » ، ... وما الى ذلك .

ومن الواضح أن هذه البحوث لا تدخل — أيضا — في نطاق علم الاجتماع ، على اعتبار أن ذلك العلم — كما هو معروف — لا شأن له بالوعظ والارشاد ، ولا بالدعوة الى المبادىء ، وانما يتناول بالدراسة مشكلات المجتمع ، كما يتناول علم الكيمياء الظواهر الطبيعية ، بهدف مجرد الوقوف على حقيقتها والعلاقات التي ترتبط بينها .

٣) — بحوث فيما ينبغي ان يكون :

وهي بحوث هدفها الرئيس هو ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية طبقا للتطور الذي ينظر منه كل منهم الى المجتمع ، بمعنى أنها دراسات اصلاحية ترمي الى تغيير النظم واصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذي يلائم تطلعات اصحابها في الطمأنينة والسعادة والطمأنينة وما الى ذلك ، ومن امثلتها بحوث افلاطون في كتابه « الجمهورية » والقوانين وارسطو في كتابه « الاخلاق والسياسة » والفارابي في كتابه « آراء اهل المدينة الفاضلة » ، ... حيث كان هدف كل منهم الوصول الى المجتمع الذي ينبغي أن يكون في مختلف ظواهره ، او في بعضها ، حتى يكون مجتمعا فاضلا في نظره ، ووفق ما يذهب اليه من آراء فلسفية ومختلف شئون الاجتماع والاخلاق ومقومات الحكم وما الى ذلك .

ومن الواضح — أيضا — أن هذه البحوث لا تدخل في نطاق علم

الاجتماع ، على اعتبار أن هذا العلم ـ كما هو معروف ـ لا شأن له بما ينبغي أن تكون ، وإنما يتناول بالدراسة ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه والعلاقات التي تربط بين مختلف الظواهر الاجتماعية .

نخلص من هذا إلى أنه لا يوجد بين الدراسات الاجتماعية السابقة على ، ما تقدمه ابن خلدون ، نوع من الدراسات التي تتفق في أغراضها ومناهجها مع ما نسميه الآن علم الاجتماع ، أي أنه قبل ظهور تلك الدراسة ، لم يكن علم الاجتماع قد نشأ بعد . وإذا قبل أن خلدون ـ لأسباب على ذلك ـ لم يفكر أحد في تلك العلم ، وضع أساس له ، وهل السبب في ذلك يرجع إلى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التي يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح إلا بعد أن يكتمل لدينا أن هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير في نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة مثل القوانين التي يخضع لها السير في تزايده وتناقصه ، والليل والنهار في اختلافهما باختلاف الفصول ... وهذه الحقيقة لم يصل إليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون ، فضلا عن أن تبريرها كان هو السبيل على التفكير الباحث جميعه ، ذلك أن الظواهر الاجتماعية كانت تعتقد أنها خارجة عن نطاق القوانين ، ورهينة لرغبات القادة ووجهاء الرعاء والمشرعين ودعاة الإصلاح الاجتماعي ، ومن هنا لم يكن من اليسير حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على النحو الذي تدرس به في ضوء المناهج العلمية لعلم الاجتماع بصورته الحديثة[1] .

وعلى ذلك فإن المفكرين الذين سبقوا ابن خلدون أو عاصروه لم يتناولوا قضايا ومسائل علم الاجتماع من قريب أو من بعيد .

(*) الدكتور زيدان عبد الباقي : الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون ، الطبعة الثالثة ، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ص ١٢٠ ـ ١٢٥ .

٢ ـ نشأة أوجيست كونت :

ولد أوجيست كونت سنة ١٧٩٨ ميلادية في فترة امتلأت بالمفكرين الاجتماعيين الذين عرفوا بأصحاب النظريات الخيالية ، والتي تأثر رجالها بالأحوال الاقتصادية السائدة ، وما أحدثته الثورة الفرنسية من تحول اقتصادي وسياسي ، غير أنهم جانبوا الصواب في أسس دراساتهم ومناهج بحوثهم ، كما تناولوا كثيرا من المسائل بأسلوب فلسفي في ضوء مبادئ رأسمالية يستحيل تحقيقها ، وأشهر رجال هذه الطائفة « سان سيمون » وشارل فورير Fourier وكابيه Cabet وقد ذهب الأخيران إلى محاولة تطبيق الأفكار الشيوعية تطبيقا عمليا ، ولكن محاولتهما سرعان ما انتهت بالفشل .

على حين كان سان سيمون واقعيا بعض الشيء ومثاليا ، حيث قرر أن تطور الإنسانية فترة تقوم على دراسة الواقع ، وعلى انطلاق التيار الفكري والعلمي من أحكام الماضي وحقائقه ، كما كان يؤمن بفكرة التقدم[1] ، إيمانا شديدا ، حيث أكد أن الإنسانية سير دائما نحو التقدم المطرد ، والسعادة المنشودة ، وأن العصر الذهبي للإنسانية لم يكن أبدا وراء ظهورنا ولكنه مثل أمامنا ، مثل في تحسين الوضع الاجتماعي ، فآباؤنا لم يشعروا به أبدا ، غير أن أطفالنا سوف يستمتعون يوما به ، وعلى عاتقنا يقع عبء تمهيد الطريق أمامهم إليه »[2] وقد استعرض سان سيمون في مؤلفه عن إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي ،

De la Reorganization de la Société Européenne, 1814 in (T; Oeuvres de Simon et d'Enfantin, T.XV.

«L'age d'or du genre humain ne si point derrière nous[1] se trouve devant il est dans la perfection de l'ordre social, nos pères ne l'ont point vu, nos enfants y arriveront un jour. C'est à nous de leur en Frayer La route».

استعرض التطور التاريخي للانسانية ... وكان بوسعه أوجيست كونت يعمل سكرتيرا له . ولا سيما في الفترة التي عاش فيها سان سيمون بادخال جميع العلوم في وحدة منهجية ، حيث تتضح فائدتها ، وتتعرف على أساسها المشترك الذي يراه وهو « العلم العام » أو « الفلسفة الوضعية » وقد أكد « دوركايم » أن هذه الفكرة هي التي مهدت الطريق الى فلسفة « كونت » الوضعية .

ويلاحظ أن كلمة « وضعي » positif عند سان سيمون تعني «فعال» actif وملازم للطبيعة الشيء immanent ومستقل استقلالا ذاتيا autonome على حين أن كلمة « فلسفة » تعني دراسة الشاهد الانساني في جانبيه الجسمي والفردي ، وجانبيه المادي والروحي . ومن هنا فقد أطلق على الدراسات التي تتناولها المدرسة الوضعية اسم : علم الانسان « Science de l'homme أو الفزيولوجيا الاجتماعية Physiologie Sociale وعلى ذلك فان الفلسفة الوضعية عند سان سيمون تعني علم الاجتماع .

وكان « كونت » بالاضافة الى هذا الناضج العلمي الاجتماعي الذي يعيش فيه قد تخرج من مدرسة الهندسة العسكرية بباريس ، وكان قد كتب كثيرا من المقالات اثناء زمالته العلمية لسان سيمون ، وقد كتب مرة عن زمالته العلمية هذه لسان سيمون ، الى صديقه « فالات Valat في ١٧ ابريل سنة ١٨٢٦ يقول « ان اتصالي بسان سيمون قد غنى ما لم يكن في امكاني أن أعرفه لو قضيت عشرات السنين في اختيار الكتب وحدها ... ثم عاد بعد انفصاله عنه وهاجمه هجوما قاسيا ، وأنكر أي فضل له عليه .

وهكذا تهيأت الظروف العلمية والعملية لأوجست كونت لكي يتوصل الى ابتكار علم الاجتماع ، من حيث الدرس التعليمي الذي تلقاه في مدرسة الهندسة العسكرية ، وهي تشبه كليات الهندسة في دول

العالي ... بالاضافة الى الانتاج العلمي الذي هيأه له سان سيمون ومعاصروه واهتم به سان سيمون نفسه الموضوعات الاجتماعية وتطبيقات الثورة الفرنسية لأوجيست كونت بالاشتراك في بحث مشاكل المجتمع الفرنسي وعادة تنظيمه .

ثانيا ـ الانتاج العلمي لابن خلدون وكونت :

لقد كان لكل منهما مؤلفاته العلمية التي لا تزال موضع دراسة واهتمام الجماعات حتى الآن ، وهي :

ا ـ الانتاج العلمي لابن خلدون :

لقد ألف ابن خلدون كتابه الكبير المعروف بـ « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ويتكون هذا الكتاب من سبع مجلدات أشهرها هو المجلد الأول الذي أطلق عليه اسم « مقدمة ابن خلدون » وهو الذي يحتوي على كافة الدراسات المتعلقة بعلمه المبتكر « علم الاجتماع » ويشتمل على :

(ا) خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته ، وتقع في نحو سبع صفحات ، وقد عرض فيه المؤلف لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر عللهم ووجوه التقص في بحوثهم ، وأشار الى الاسباب التي دعته الى تأليف الكتاب كله بمجلداته السبعة ، وبيان طريقته وأقسامه ... الخ .

(ب) المقدمة في فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيئا من أسبابها ... وتقع في نحو الاثنين وعشرين صفحة ، وعنوانها نفسه موضح لما تشتمل عليه .

(ب) الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة ، وما يعرض فيه من البدو والحضر ، والغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وتعليمها ، وما لذلك من العلل والاسباب ، ويمتد في نحو ستمائة وخمسين صفحة . وهذا القسم الرئيس فيما نسميه الآن « مقدمة ابن خلدون » .

ويشتمل هذا القسم الرئيس على ما يأتي :

ـ تمهيد يقع في نحو سبع صفحات ، تكلم فيه أيضا عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ فيه وفي رواية حوادثه ، والاسباب التي دعته الى البحث الذي يفتتح به الكتاب الاول من مؤلفه الكبير ، وبين الحوادث الاساسية التي يشتمل عليها الكتاب وموضوع كل بحث .

ـ ستة فصول رئيسية تعرض لمواهر الاجتماع الانساني وهي :

الفصل الاول في العمران البشري على الجملة ويشتمل على ست مقدمات : المقدمة الاولى في أن الاجتماع الانساني ضروري ، والمقدمات من الثانية الى الخامسة ، تتناول بعضها جغرافية من التركيز على تأثير البيئة الجغرافية في أرزاق البشر وأخلاقهم وطرق معاشهم ، بينما تشير المقدمة السادسة الى أمور اعتقادية تتعلق بالوحي والرؤيا والسحر والطيرة وما الى ذلك .

الفصل الثاني في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل ، ويشتمل على تمهيد وعشرين موضوعا ، تتناول الموضوعات العشر الاولى منها الشعوب البدوية ونشأتها وبعض شؤونها الاجتماعية والعمران البدائي ... وتعرض الموضوعات التسعة عشر الاخيرة لمحة من نظم الحكم والسياسة المتعلقة بالشعوب البدوية وغيرها .

الفصل الثالث في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية ، ويشتمل على أربعة وثلاثين موضوعا ، تعرض جميعها لنظم الحكم وشئون السياسة .

الفصل الرابع في البلدان والامصار وسائر العمران ، ويشتمل على اثنين وعشرين موضوعا تعرض لنشأة المدن والامصار وعوامل التجمع الانساني ، وما تمتاز به المدن عن غيرها من مختلف الوجوه العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والفنية .

الفصل الخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال ويشتمل على ثلاثة وثلاثين موضوعا ، تعرض كلها لشئون الاقتصاد .

الفصل السادس في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال ، ويشتمل على احدى وستين موضوعا حول مختلف العلوم .

بينما تناول ابن خلدون في بقية المجلدات أمورا شتى تتصل بالتاريخ والادب والاديان وما اليها .

وقد ظل هذا الكتاب مجهولا الى أن ترجم المجلد الاول منه المعروف « بمقدمة ابن خلدون » في منتصف القرن التاسع عشر عندما قام المستشرق الفرنسي « كاترمير » Quatremère بطبع المقدمة باللغة الفرنسية بعد ترجمتها من العربية ، حيث ظهرت كاملة في فرنسا سنة ١٨٥٨ وذلك في نفس السنة التي ظهرت فيها أول طبعة للمقدمة باللغة العربية في مصر .

حيث نقلوا سمع نشر الهوريني[1] عن السلطة الفارسية ، وهي النسخة التي اعتمدها ابن خلدون لأبي فارس عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى في زمانه .

ويلاحظ انه لم يكتب الذيوع والانتشار لمقدمة ابن خلدون قبل عصرنا ، لا بعد أن تناولها « بون سدرو » و « شولتز » حيث نشر الأول ترجمة بالألمانية سنة ١٨١٢ م « لاستدلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الاولى للهجرة » اعتمد فيها ابن خلدون وبحوثه في المقدمة . وأطلق عليه لقب « موتسكيو العرب » ثم نشر مقالا في المجلة الآسيوية بالفرنسية سنة ١٨٢٧ كشف فيه عن اسم ابن خلدون واصالة بحوثه في المقدمة وعلق تشكيره رسالة نشره . وذهب الى انه لا يكاد يوجد من بين مؤلفات الشرق « يستحق أن يترجم ترجمة كاملة » كما تستحق ذلك مقدمة ابن خلدون . ونشر « شولتز » سنة ١٨٢٥ مقالا في المجلة الآسيوية اعلن فيه عزمه على نشر المقدمة وأبان عن مبلغ أهميتها وخطرها . وبعد أن أتى على نشر المقدمة وترجمتها ترجمة كاملة ... وقد تحققت تلك الدعوة بواسطة « كاترمير » كما تقدم .

هذا ولو أن ابن خلدون أنشأ مدرسة من المؤرخين — كما هي عادة مفكري الاسلام بوجه — لواصله وتبعه أفكاره وآراؤه . فما كان هناك داع لجهود أوربيي القرن ، والسؤال الذي ليست له اجابة سهلة ، وربما ليست له اجابة على الاطلاق هو . لماذا لم تكن لابن خلدون مدرسة فكرية وهو ما هو بهذا الحجم العلمي الكبير ؟...

---

(١) كتاب « المقدمة للعلامة المؤرخ الفيلسوف والبرغ ، ابن خلدون ، ترجمة من لغة العرب الأكابر ، الطبعة التي اشرف عليها الشيخ « نصر الهوريني » ، القاهرة ١٨٥٨ ، والمؤسسة بدار الكتب بالقاهرة .

وهل يرجع ذلك الى أن افكاره كانت مرفوضة مثلا ؟ أو لان معاصريه حسدهم وباء الطاعون ؟ أو لان هذا الكتاب لم يأخذه معه الى مصر ؟ أو لان ابن خلدون كان يسبق بفكره معاصريه بمئات السنين ، وبالتالي لم يكن مفهوما منهم ؟ ... الخ .

٢ ـ الانتاج العلمي لاوجيست كونت :

كتب أوجيست كونت كثيرا من المقالات العلمية التي نشرت في مجلة « المنظم » التي كان يصدرها سان سيمون . وكتب أيضا مقالا سنة ١٨٢٢ بعنوان « نشرة عن الاعمال العلمية الضرورية لاعادة تنظيم المجتمع »[٦] وفي هذا المقال أوضح أنه نتيجة لطبيعة التفكير الانساني نفسه ، فان لكل فرع من فروع معرفته مسار يمر فيه في سيره عبر التاريخ بثلاث حالات نظرية مختلفة هي : الحالة الثيولوجية أو الخيالية ، ثم الحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيرا الحالة العلمية أو الوضعية ، وتلك الحالات التي اعتبرها قانونا ـ أو التي زعم أنها قانون ـ هي التي مهدت له الطريق للوصول الى ابتكار علم الاجتماع .

وبعد انفصاله عن سان سيمون بعد زمالة علمية استمرت سبع سنوات ، وكان عمره قد أصبح ٢٧ سنة ، عكف « كونت » على القراءة والتحصيل والقاء المحاضرات . وتمكن ست سنوات من ١٨٤٢ الى ١٨٤٨ بعد في مؤلفه الكبير الذي يتكون من أربعة أجزاء بعنوان « منهاج السياسة الوضعية »[٧] وقد تناول في هذا المؤلف موضوعات متنوعة

---

(٦) Prospectus des travaux scientifiques necessaires pour reorganiser la société.

(٧) Le Systeme de politique positive.

يدور حول نظام الأسرة الوسيطة ، والاجتماع في جانبيه : الساكنة ـ أو الإستاتيكية ـ Statique Sociale والمتحركة ـ أو الديناميكية الاجتماعية ـ Dynamique Sociale .

وفي الحالة الساكنة يعني بدراسة وتحليل كل من نوع من الخصائص الجمعية في المجتمعات الإنسانية ، فيتناول : الدين ، الملكية ، الأسرة ، اللغة ، والتنظيم السياسي بالدراسة والتحليل ... وفي الحالة المتحركة يتناول فكرة التقدم الإنساني بالدراسة والتحليل العميقين ، واختتم هذا المؤلف بتحديد معالم طريقه في مستقبل الإنسانية والحياة العالمية ... الخ ، وقد صدرت له بعد ذلك مؤلفات عديدة ، ولكنها كلها كانت أقل أهمية من مؤلفه الكبير هذا .

وكل هذه المؤلفات تطبع ـ ولا تزال ـ وتوزع في كل دول العالم ، حتى ساعدت الطباعة التي اكتشفت بواسطة « جوتنبرج » بعد وفاة ابن خلدون بحوالي مائتين عام تقريبا ، على ذيوع وانتشار مؤلفات أوجيست كونت ، بعكس الحال مع ابن خلدون .

ثالثا ـ الأسباب التي دعتها لإنشاء علم الاجتماع :

كانت لكل منهما مبرراته في هذا الصدد ، فضلا عن اختلاف أهداف كل منهما من وراء ابتكار هذا العلم ، مع تعداد الأسباب والدوافع التي دعتهما إلى البحث والتنقيب .

١ ـ الأسباب التي دعت ابن خلدون لإنشاء علم الاجتماع :

دعاه إلى ذلك رغبته في تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة ، عن طريق ابتكار أداة يستطيع بواسطتها المؤرخون أن يميزوا بين ما يحتمل الصدق وما لا يمكن أن يكون صادقا من الأخبار المتداولة

بواقعات العمران ، فيستبعدوا ما لا يحتمل الصدق استبعادا تاما من اول الامر ، وتقتصر جهودهم وتحرياتهم التاريخية على القسم الثاني وحده ، وهو ما يحتمل الصدق ، أي ما يمكن وقوعه في شأن من شئون الاجتماع الانساني ، وحوادثه .

٢ ـ الاسباب التي دعت كونت لانشاء علم الاجتماع :

على حين أن ما دعا أوجيست كونت الى انشاء دراسة جديدة لظواهر الاجتماع هو حرصه على اصلاح المجتمع وتخليصه من عوامل الاضطراب والفساد ، وذلك لانه رأى المجتمع الانساني في عصره قد شمله الفساد من مختلف جوانبه ، وكان أسباب هذا الفساد ترجع ـ في نظره ـ الى فساد الاخلاق ، وأن السبب في فساد الاخلاق يرجع الى فساد أساليب التفكير ، واضطراب طرق الفهم ، وكان دليله على ذلك أن الناس في عصره كانوا يخضعون بمنهجين متناقضين كل التناقض في فهم الاشياء :

١ ـ فاذا كان الناس يشهد ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فانهم يحاولون فهمها على أساس الطريقة الوضعية ـ أو العلمية ـ وهي الطريقة التي تعتمد البحث عن طبيعة الظاهرة وأسبابها المباشرة وما تخضع له من قوانين .

٢ ـ واذا كانوا يشهد ظاهرة من ظواهر الاجتماع الانساني فانهم يسلكون حيالها طريقا آخر ، أطلق عليه « كونت » اسم « الطريقة الدينية الميتافيزيقية » وهي الطريقة التي يصرف فيها النظر عن طبيعة الظاهرة وأسبابها المباشرة وما تخضع له من قوانين ، وتتهم على أنها :

(أ) نتاج قوة متخصصة مريدة كقوة الآلهة ، وذلك هي ما سماها الطريقة الدينية .

(ب) أو من نتاج قوة مبهمة ميتافيزيقية مناسبة للظاهرة نفسها

كتوه النفس في الإنسان أو الأدب في المجتمع ، وغايته هي دراستها وطريقه لتقويمه .

وما كان هذان الطريقان متعارضين كل التعارض ، فقد أدى وجودهما واستمرارهما جنبا إلى جنب في الحياة الناس ، والمجتمعات البشرية معا في خير القوانين الاجتماعية . أدى إلى الحياة الاضطراب كبير في التفكير الإنساني ، بل إلى الحد من أسى ما يمكن حدوثه من اضطراب في التفكير وفي مصادر المعرفة . إذ ليس من شيوع التعصب على في التفكير ، ولا الاضطراب في الفهم ، وترتب على ذلك وصف حالة التفكير الاجتماعي في فرنسا يومئذ : بالفوضى العقلية » .

وعن طريقة « كونت سوس » في ترتيب القضايا والنتائج بعضها على بعض يقول « كونت » : إن هذه الفوضى العقلية قد أدت إلى فساد الأخلاق والسلوك ، لأن كل ما يترتب على تفكير من اضطراب وفساد ، يرتد حتما فسادا في تفكير الناس في الأخلاق والسلوك ، وقد أدى فساد الأخلاق والسلوك — وهما في النتيجة الثانية — إلى فساد شامل في مختلف فروع الحياة الاجتماعية — ثم أدى هذا الفساد العميق الذي تعانيه من الأخلاق والمثل ، إلى فساد حتى نظمهم وقوانينهم : فقد جرى فروع الحياة الاجتماعية وتنوعت أشكالها ، وهكذا في حال المجتمعات الإسلامية والعربية ، وقد يذكرنا بقول الشاعر العربي أحمد شوقي :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكان من رأي « كونت » أنه لا سبيل إلى الإصلاح الاجتماعي ، إلا بإصلاح الفكر الإنساني ، فإصلاح ما فسد من الأخلاق ، يصلح — بالتبعية — جميع فروع الحياة الاجتماعية ، ويرشد مختلف أنواع السلوك ، ويزداد النسق الاجتماعي تضامنا وتماسكا .

واستقر رأي « كونت » على أن القضاء على تلك الفوضى العقلية والنتائج المترتبة عليها يحتاج الى القضاء على الطريقة المتناقضة في التفكير وفهم الاحداث والوقائع والاشياء . ووجد « كونت » أن هناك ثلاثة وسائل لتحقيق هذا الهدف وهي :

١ ـ العمل على التوفيق بين طريقتي التفكير والفهم المتناقضتين في زمانه .

بحيث لايحدث وجودهما معا ـ في أذهان الناس ـ اضطرابا في تفكيرهم ، ولكنه اكتشف استحالة ذلك من الناحية العملية ، لانها بصدد طريقتين متناقضتين كل التناقض من جميع النواحي ، احداهما وهي الطريقة الوضعية التي لا تبحث الا عن السبب المباشر للظاهرة ، بينما الاخرى وهي الطريقة الدينية الميتافيزيقية لا تبحث الا عن سببها غير المباشر ، ومن علتها الاولى التي تتمثل في هوى شخصيه مريدة ، أو في قوى مبهمة :

ـ احداهما تقوم على الايمان بأن الظواهر خاضعة لقوانين ، والاخرى تقوم على الاعتقاد بأنها غير خاضعة لقوانين .

ـ احداهما لا تبحث الا عن القوانين ، والاخرى تبحث عن كل شيء الا عن القوانين .

ـ احداهما توجه كل عنايتها الى دراسة الظاهرة نفسها ، والاخرى تقطع النظر عن الظاهرة وتتجه الى البحث عن موضعها الاول او سببها الاول .

ومن الواضح أن هاتين الطريقتين ، وقد بلغ الخلاف بينهما هذا المبلغ ، من المستحيل التوفيق بينهما ، وبالتالي يستحيل اجتماعهما على أية صورة في أذهان الناس ، بدون احداث اضطراب كبير في التفكير ، وبدون عائد ايجابي برغم ذلك .

٢ ـ او القضاء على الطريقة الوضعية في فهم الاشياء ، وجعل الناس يفهمون جميع الظواهر عليها الطريقة الدينية الميتافيزيقية ، ذلك الطريقة ـ كما يقول كونت ـ اذا امكن تحققها ، تحقق الوحدة في الفكر ، وزوال اسباب الاضطراب ، ولكنه اكتشف عدم امكانها عمليا ، لأن الاخذ بها يحتاج الى أن يحجر من انطلاق الناس كل ما توصلت اليه العلوم الرياضية والطبيعية من نتائج وقوانين ، على اعتبار أن هذه النتائج والقوانين هي التي جعلت الناس يفهمون كثيرا من الظواهر تبعا لطريقتها الوضعية ، وعلى ذلك فهذه الطريقة على فرض تحقيق هذا والمستحيل ، فمن المستحيل جميد الفكر الانساني عن هذا الحال ، ومن المستحيل ـ ايضا ـ أن يحول بينه وبين الاجتهاد الى كشف القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية ، وبالتالي سيعود مرة أخرى ـ نتيجة لذلك ـ الى الفوضى العقلية التي اردة تحقيق الناس من اوزارها .

٣ ـ او القضاء على الطريقة الدينية الميتافيزيقية في فهم الاشياء وجعل الناس يفهمون جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية طبقا للطريقة الوضعية ، ولم يبق امامه ـ كما كون ـ الا هذه الطريقة .

ولكنه تبين ـ ايضا ـ انها غير ممكنة الا اذا فهم الناس الظواهر الاجتماعية هذه الطريقة الوضعية ، ولانهم لاذوا الى جهد ـ وطبقا لرأيه ـ يفهمون جميع الظواهر الكونية طبقا لطريقته الوضعية . ويفهمون الظواهر الاجتماعية طبقا الطريقة الدينية الميتافيزيقية ، وفي هذا يقول : انه اذا امكننا جعل الناس يفهمون الظواهر الاجتماعية ، طريقة نفسها التي يفهمون بها الظواهر الكونية وهي الطريقة الوضعية ، فانه بذلك يتحقق الانسجام في التفكير ، ويصبح في الامكان الاتجاه بالتفكير الى فهم الوقائع والاحداث والظواهر على طريقة واحدة .

بيد أنه تأكيدا بالناس لا يمكن أن يفهموا الظواهر الاجتماعية طبقا للطريقة الوضعية الا اذا توافر شرطان هما :

- الاول ان تسير هذه الظواهر - في الواقع ونفس الامر - وفق قوانين ، لا وفق الاهواء والمصادفات ، لان فهم الشيء بطريقة وضعية هو عبارة عن فهم القانون الذي يخضع له ، فاذا كان الشيء بحسب طبيعته غير خاضع لقوانين ، فانه من المستحيل ان يفهم فهما وضعيا ، وهذا الشرط - من وجهة نظر كونت - كان - ولا يزال - متوافرا في الظواهر الاجتماعية باعتبارها جزءا من الكون ، وكل أجزاء الكون تخضع لقوانين ولا تخضع للامر ، والمصادفات .

- والثاني ان تكون هذه القوانين معروفة للناس ليتمكنوا من فهم الظواهر الاجتماعية ، وفق ما تضعه هذه القوانين من حدود ، وما ترسمه من معالم ، ولكن معرفة الناس لهذه القوانين لا تتحقق الا اذا كشف البحث عن هذه القوانين ، ولا يمكن الكشف عنها الا اذا درست الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية ، تهدف الى بيان طبيعتها والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض ، وتربطها بغيرها ، وما ينجم عن هذه العلاقات من نتائج في نشأة هذه الظواهر وتطورها واختلافها باختلاف المجتمعات والازمان .

وعلى هذه الدراسة يتوقف اذن اصلاح الفكر والمجتمع ، وعلى اصلاح التفكير يتوقف اصلاح الاخلاق ، وعلى اصلاح الاخلاق يتوقف الاصلاح الاجتماعي ، الذي كان « كونت » مطالبا بايجاد السبيل اليه ، فقد قام هو بنفسه باتباع هذه السبيل ، أي بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية تؤدي الى الكشف عما تخضع له هذه الظواهر من قوانين .

ومن هنا اعتبر دوركايم هذه الظواهر الاجتماعية بهذا الاسلوب ، اعتبرها علما جديدا واطلق عليه اسم « علم الفيزيقا الاجتماعية » Physique Sociale ويشير دوركايم بأنه : الكشف عن طبيعة الاجتماع الانساني ، ووصفه بأنه يشبه علم الفيزيقا في الكائنات الاخرى ، ثم عاد واطلق عليه اسم : علم الاجتماع « Sociologie ».

وهذه الكلمة : علم الاجتماع « Sociologie » مؤلفة من مقطعين أولهما Societas وهي كلمة لاتينية معناها : الجماعة » وثانيهما Logos وهي كلمة يونانية معناها « علم أو بحث » وبذلك تومئ الى علم الاجتماع ، وهو مسعى الفضل في هذه التسمية .

ويتضح لنا أن كلا من ابن خلدون واوجست كونت ، قد رأى ضرورة انشاء علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية ، ورأى كليهما رأى أن يكون هذا العلم موضوعيا ، يرمي الى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر ، وما تخضع له من قوانين ، ورأى كليهما ـ أيضا ـ قد توصل الى ابتكار هذا العلم منفصلا عن الآخر ، وان اوجست كونت ـ بالرغم من ترجمة مقدمة ابن خلدون في عصره ـ لم يأخذ شيئا من هذه المقدمة .

وبعد أن انتهينا الى توصل اليه كل منهما واحدة ، وهي ابتكار علم جديد يتناول الظواهر الاجتماعية بالدراسة الموضوعية للكشف عما بينها من علاقات ربما تمكننا من قوانين ، عندئذ توجد بينهما بعض الفروق وهي :

Timashell, N.S. Sociological Theory: Its Nature and [illegible] Random House N.Y., 1957, ch. 1.

١ ــ الأول أن الأسباب التي دعت ابن خلدون الى انشاء هذا العلم ، غير الأسباب التي دعت أوجيست كونت اليه ، ويمكن ايضاح ذلك على النحو التالي :

(أ) فقد دعا ابن خلدون الى انشاء علم الاجتماع ــ أو علم العمران البشري كما سماه ــ ما رآه من تخبط المؤرخين وعدم تمييزهم بين الصحيح والكاذب من أخبار التاريخ المتصلة بشئون الاجتماع ، وحرصه على انشاء أداة تعصمهم من هذه الأخطاء ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الأسباب التي استند اليها ابن خلدون أسباب واقعية صحيحة ، فمعظم التاريخ كان في عهده مملوءا بالأخطاء ، ومعظم هذه الأخطاء كان مستمدا الجهل بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية .

(ب) وقد دعا أوجيست كونت الى انشاء هذا العلم ما رآه ــ أو خيل اليه ــ من اضطراب الناس في فهم الأشياء وحرصه على تحقيق الانسجام والوحدة في تفكيرهم ، ويلاحظ أن هذه الأسباب شبه خيالية ــ وليست واقعية مثلما هي لدى ابن خلدون ــ بل يمكن القول انه استمدها من فلسفته ومن فهمه الخاص لتطور التفكير الانساني ، ومن مبادئه السابقة على بعض أنه لم يستمدها من الواقع ولا من الملاحظة الموضوعية لحقائق الأشياء ، ذلك أن زعمه بأن جميع الناس في عصره يتصورون ظواهر الطبيعة فهما وهميا لم يتحقق لا في عصره ولا في العصر الحالي ، حيث لا يزال كثير من الناس يتصورون الظواهر الطبيعية فهما غير علمي ، وكذلك زعمه بأن جميع الناس يتصورون الظواهر الاجتماعية فهما دينيا ميتافيزيقيا غير صحيح ، فقد كان في عهده كثير من المستنيرين يتصورون هذه الظواهر فهما علميا .

٢ ــ والثاني أن ابن خلدون كان أكثر تعمقا للحياة الواقعية وأشد اعتمادا على التجربة الاجتماعية ، سواء في بحوثه الاجتماعية أو في بحوثه التاريخية ..

بينما كان أوجست كونت حاليا ، حيث تصور أنه أول من توصل الى علم الاجتماع ، في الوقت الذي كان ابن خلدون قد سبقه اليه بنحو خمسة قرون من الزمان ، فضلا عن الدراسات والنتائج الاجتماعية الموضوعية التي توصل اليها رسميا ـ ولا تزال أستاذة ـ اميل دوركايم الفرنسي مثل سيمون ، وكذلك فلسفة التاريخ لدى « كوندورسيه ومونتسكيو » والدراسات الاجتماعية « لتوكفيل » ومن اليهم حتى هناك الاقتصاد مثل علماء مدرسة « المرتوفرط » في فرنسا وعلماء مدرسة لاهوار بزعامة آدم سميث في انجلترا ، وايضا الدراسات السكانية مالتس ... كل تلك الدراسات الهامة التي مهدت الطريق لأوجست كونت لكي يضع لها المسمى الأخير ، ثم يعلن توصله ـ وحده ـ الى علم جديد وهو علم الاجتماع »

رابعا ـ موضوع العلم عند ابن خلدون وكونت :

لقد اتفق كلاهما مع الآخر في هذا المجال ، الى أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة الظواهر الاجتماعية وما بينها من علاقات وما يحكمها من قوانين ، ومن الخير لمناقشة ان كلاهما بالرغم من معرفته للظواهر الاجتماعية ، فان واحدا منهما لم يهتم بتعريفها كما فعل « اميل دوركايم » بعد ذلك ، اذ عرفها بأنها « كل ضرب من السلوك يباشر نوعا من الضغط الخارجي على الافراد ، أو هي أيضا « كل سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكذلك ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتخذها أفرادا في الحالات المختلفة »[1] .

---

(1) الدكتور ربيع ـ عالم الفكر الاجتماعي ـ مرجع سابق ، صفحة ٢٠٠ .

وإذا كان ابن خلدون قد اكتفى - في مقدمته - بالتمثيل لها بقوله : « لما كانت طبيعة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضها على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما يتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والعلوم والصنائع وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال » فان « كونت » أيضا قد اكتفى بان قرر بانه اذا كان علم النفس ليس اذا موضوع مستقل لان ممائله وظواهره يتصل بعضها ببعض ، ويتوقف على تزود الجسم واجهزته وظائف الاعضاء وأعمال الجهاز العصبي ، وهذا القسم يدخل في نطاق العلوم الطبيعية ، ويتصل بعضها ويتوقف على الحياة الاجتماعية وتزود الاجتماع ، وهذا القسم يجب أن يلحق بعلم الاجتماع ، فانه - ترتيبا على ذلك - قرر بان الانسانية كلها هي موضوع علم الاجتماع ، وهي الحقيقة الجديرة بالبحث من وجهة نظره »[١٠] .

خامسا - اغراض علم الاجتماع عند ابن خلدون وكونت :

والاغراض المباشرة لعلم الاجتماع عنده - أيضا - تدنى كثيرا ، على حين أن الاغراض غير المباشرة مختلفة لدى كل منهما .

(أ) فابن خلدون كان يرمي الى أن تكون الدراسة في نهاية الامر وسيلة لتصحيح الاخبار التاريخية .

(ب) وأوجيست كونت كان يرمي الى أن تكون هذه الدراسة في نهاية الامر وسيلة للاصلاح الاجتماعي ، عن طريق اصلاح الفكر ، فاصلاح الاخلاق .

---

(١٠) دكتور زيدان عبد الباقي : التفكير الاجتماعي ، مرجع سابق ، صفحة ٢٤٥ .

سادسا ـ منهاج الدراسة لدى ابن خلدون وكونت :

يتفق ابن خلدون وكونت على ان المنهاج العلمي هو الاساس الذي يقوم عليه علم الاجتماع ، اي المنهاج الذي يعتمد على الملاحظة العلمية والتجربة والاستقراء ، على غرار الاسلوب السائد في العلوم الكونية ، غير ان كلا منهما لم يلتزم بقواعد المنهاج الذي اعلنه ، اذ نلاحظ ابتعاد ابن خلدون عن هذا المنهاج بعدا شكليا ، بحيث يمكن تداركه ، على حين ان كونت ـ لا نقول ـ تعمد ـ وانما نقول ـ اخرجه ـ قصرا ـ جذريا عن قواعد المنهاج العلمي بصوره يستحيل معها تدارك الموقف الا بهدم كل ما جاء به من نظريات وتصورات واقامتها على اسس منهجية من جديد .

سابعا ـ اقسام الدراسة عند ابن خلدون وكونت :

لقد جاء كل منهما باقسام تختلف عن الآخر ، وان كانت في مجموعها متكاملة .

١ ـ فبالنسبة لابن خلدون : فانه قد قسم علم الاجتماع اقساما ينطوي كل قسم منها على مائدة من الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها ، والوقوف على كل مائدة فصلا معينا او جزءا من احد الفصول في مقدمته .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن خلدون قد ركز في دراسته لكل مائدة من هذه الموائد على ان يمزج بين النظريات المجردة والدراسات التجريبية ، وانما اذا استعرنا مصطلحات « كونت » نقول ان ابن خلدون قد عنى في دراسته لكل مائدة متجانسة من الظواهر الاجتماعية بالمزج بين ناحيتها الاستاتيكية (الساكنة) والديناميكية (المتطورة او المتحركة) لكي يتناول بالدراسة عناصر كل ظاهرة واجزاءها ووظائفها .

وما الى ذلك من مسائل الدراسة الاستاتيكية (الاستقرارية أو التقريرية) ويدرس في الوقت نفسه ديناميكيتها (تطورها) والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور ، ان كان لها ناحية تطورية ، ومن ثم فهو لم يفصل بين هاتين الناحيتين ، ولم يجعل لكل ناحية منهما قسما مستقلا في دراسته كما فعل « كونت » وانما أقام تقسيمه لبحثه على أساس تقسيم الظواهر الاجتماعية الى طوائف تشمل كل طائفة منها على مجموعة من الظواهر المتجانسة في الطبيعة والاتجاه ، وكان تقسيمه بعد التقسيم والالتزام به في البحث دقيقا كل الدقة ، بمعنى انه كان كلما تناول ظاهرة أو أكثر من هذه الظواهر فانها بعدا من جانبيها الاستاتيكي (التقريري) والديناميكي (التطوري) .

٢ ــ وبالنسبة لأوجيست كونت ، فقد قسم علم الاجتماع الذي شعبتين من خلال دراسته لنظام التربية الوضعية والاجتماع في حالتيه الساكنة أو الاستاتيكية الاجتماعية Statique Sociale والمتحركة أو الديناميكية Dynamique Sociale وتفصيل ذلك كما يلي :

(أ) هي الشعبة الأول وهي « الاستاتيكة الاجتماعي » التي تدرس الاجتماع الانساني في تفاصيله ، ومن ناحية استقراره ، وهذه الشعبة أيضا تسير بخاصيتين اثنين ــ ايضا ــ وهما :

ــ الأول منهما وتدرس الاجتماع الانساني في تفاصيله لا في جملته كما تفعل الشعبة الديناميكية فهي تعرض لكل ناحية من نواحيه على حدتها ، وتشرح كل مجموعة من النظم التي تقوم عليها هذه الناحية ، ثم تنتقل الى الناحية الاخرى وهكذا .

ــ والثانية منهما تدرس الظواهر الاجتماعية من ناحية استقرارها ــ لا من ناحية تطورها ــ بمعنى أنها لا ترمي الى بيان الطريقة التي

تنتقل بها هذه الامور من حال الى حال ، أنه تعمل السمة الديناميكية ، وانما ترمي الى شرح الاجزاء والعناصر التي تتألف منها الظواهر الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها ، وعلاقة هذه العناصر والوظائف ببعضها البعض . فهذه السمة في ميادين الاجتماع الانساني تشبه علم التشريح في ميادين العلوم الطبيعية . فكلاهما يرمي الى تشريح الاشياء لبيان أجزائها وطبيعتها والعناصر التي تتألف منها ، وما الى ذلك من الامور . وكلاهما يقطع النظر من ناحية التطور . ولا شأن له بدراسة الطرق التي تسير عليها ظواهره في انتقالها من حال الى حال .

(ب) وفي السمة الثانية (الديناميك الاجتماعي) نقوم كونت بهذه السمة واوقف عليها ثلاثة ارباع جهوده . اذ هي تدرس الاجتماع الانساني في جملته ومن مختلف نواحي تطوره . ولذلك فهذه السمة تمتاز بخاصتين

ـ الاولى منهما وتدرس الاجتماع الانساني في جملته دراسة تكاملية بمعنى انها لا تدرس كل ناحية من نواحيه على حدتها ، وانما تنظر اليه في عمومه بقطع النظر عن تفاصيل الامور التي يتألف منها ، ذلك ان الاجتماع الانساني يشتمل ـ في نظره ـ في حدة نظم وظواهر منها السياسي ، ومنها القضائي ، ومنها الاقتصادي ، ومنها العلمي ومنها الديني ، ومنها الريفي ، ومنها الحضري ... وما الى ذلك ، فالديناميك الاجتماعي لا ينظر الى كل مجموعة من هذه الظواهر على حدتها ، ولا شأن له بهذه التفاصيل ، وانما ينظر للاجتماع الانساني في جملته .

ـ والثانية منهما تدرس الاجتماع الانساني من ناحية تطوره ، أي أن موضوعها الكشف عن القوانين التي يسير عليها هذا الاجتماع في انتقاله من حال الى حال .

ولا ريب ان المنهاج الذي سار عليه ابن خلدون هو افضل المسارين واداهما الى المنهاج العلمي الموضوعي . وذلك انه من المتعذر في علم الاجتماع الفصل بين الناحيتين الاستاتيكية والديناميكية كما فعل « كونت » على اعتبار ان العناصر التي تتكون منها كل ظاهرة اجتماعية والوظائف التي تقوم بها ... كل ذلك وما اليه من الامور الاستاتيكية (التشريحية) التي تؤثر في اتجاه الظاهرة وترسم طريق انتقالها من حال الى حال ، اي تؤثر في تجمعها ديناميكي — كما ان اتجاهها الديناميكي — اي انتقالها من حال الى حال — يغير من عناصرها وطبيعتها ، وما تقوم به من وظائف ، اي يؤثر تأثيرا كبيرا في هيئتها الاستاتيكية والديناميكية . ومن ثم فان الفصل بين الناحيتين لا يتفق مع القواعد التكاملية ، او مع ما يعرف حاليا بالمنهاج المجالي . وبالتالي فهو فصل تعسفي لا يتفق مع طبائع الظواهر الاجتماعية .

وقد فطن دوركايم واتباعه مدرسته الى عدم استقامة هذا الفصل بين الجوانب الاستاتيكية والديناميكية للظواهر الاجتماعية ، وذلك من خلال دراساتهم للناحيتين الفزيولوجية والمورفولوجية . وقد ظنوا انهم بذلك مجددين . وما علموا ان ابن خلدون قد سبقهم الى ذلك . فقد طلب ابن خلدون ان يكون بحث الظواهر الاجتماعية في مجموعتين من النحو التالي :

(أ) ظواهر تتعلق بجسم المجتمع او ما تعرف « بالمورفولوجيا الاجتماعية » وهي مجموعة من الظواهر التي تتصل بالبدو والحضر ، واصول المدنيات القديمة التي وقف عليها الفصل الثاني من مقدمته ، وتوزيع أفراد الانسانية على المساحة التي تشغلها ، والنظم التي تسير عليها المجتمعات في هجرة أفرادها وكثافتهم وتضخمهم والمسائل التي تتعلق بتخطيط القرى والمدن ، وقيام الأمصار والشروط التي تتعلق

بنوعيها ومراحلها ، والوظائف التي تؤديها ، حيث يكمن في الباب الأول أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر وفي غيرها من شئون الاجتماع ، وهي الدعامة التي انطلق عليها ابن خلدون اسم (المورفولوجيا الاجتماعية) La morphologie Sociale أو « علم البيئة الاجتماعية » وابن هو ومدرسته ـ كما فصلنا ـ أسبق أول من ادخلها في مسائل علم الاجتماع .

(ب) ظواهر تتعلق بالنظم العمرانية : أي النظم الاجتماعية ، وتختلف هذه النظم باختلاف وجوه النشاط العمراني (الاجتماعي) ، ومن هنا فقد تناول بالدراسة كل مجموعة متجانسة فيها على حدة ، حيث خصص الفصل الثالث من مقدمته لدراسة الظواهر السياسية ، والفصل الخامس لدراسة الظواهر الاقتصادية ، والفصل السادس لدراسة الظواهر العربية ... وعرض في ثنايا دراساته لعدد كثير من الظواهر الأسرية والأخلاقية والجمالية واللغوية والدينية[1] .

النتائج التي توصل اليها كل من ابن خلدون وكونت :

لقد توصل كل من ابن خلدون وكونت نتائج تتفق مع اتجاهات واهتمامات كل منهما ، ومن ثم جاءت النتائج متباينة .

١ ـ فبالنسبة لابن خلدون ، فانه لم يتعرض ـ كما فعل كونت ـ أن يستخلص قانونا عاما للتاريخ ، تطور ، ولا للناحية « الاستقرار » وانما درس كل مجموعة من مجموعات الظواهر الاجتماعية على حدتها ،

---

(١) الدكتور زيدان عبد الباقي . التفكير الاجتماعي ... مرجع سابق ، صفحة ١٢٧ ، وانظر مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ ، جـ ١ صفحات ١ ـ ٥٥٠ .

واستخلص من دراسته ما هدته اليها ملاحظاته من أفكار وقوانين ، مثل تلك التي أوضحناها في الفترة السابقة .

ومما تجدر الاشارة اليه أن كافة القوانين والآراء التي قدمها ابن خلدون مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الامم التي شاهدها أو عرف تاريخها ، بدون أن يستوحي أي مبدأ فلسفي أو يتأثر برأي مبيت من قبل — كما سنرى — عندما نعرض للنتائج التي توصل اليها « كونت » . وبالتالي فقد كان منهاج ابن خلدون أدنى الى المنهاج العلمي من منهاج « كونت » ، وكانت قوانينه أقوى أساسا وأقرب الى طبائع الأمور ، والى الواقع من القوانين التي انتهى اليها « كونت »[12] .

بيد أن كثيرا من النظريات والقوانين التي توصل اليها ابن خلدون لا تكاد تصدق الا على الامم التي لاحظها ، وهي شعوب العرب والبربر والشعوب التي تشبهها في التكوين وشئون الاجتماع ، بل لا تصدق على هذه الامم نفسها الا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها ، وهي المرحلة التي شاهدها أو انتهى اليها نفسه .

فقد توصل ابن خلدون الى كثير من القوانين والتعميمات التي لا يزال بعضها محل تقدير من وجهة النظر العلمية ، ومن أهمها :

(أ) قانون الاطوار الثلاثة للمجتمع الانساني :

فقد كان ابن خلدون مؤرخا قبل أن يكون عالما اجتماعيا ، وكانت دراسته التاريخية تركز حول الدولة الاسلامية الاولى ، وانتهت به الدراسة الى التعرف على أسباب نشأة الدولة وازدهارها واضمحلالها .

---

(12) مقدمة ابن خلدون : تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مرجع سابق ، ج ٣ صفحات ٨٩٣ ـ ٩٧٢ .

ومن هذه الدراسة تتبين لنا قانون اجتماعي يحكم حركة المجتمعات الانسانية ، وهو « قانون الاطوار الثلاثة للمجتمع الانساني » ، ذلك انه كان يرى أن المجتمع يولد كما يولد الفرد ، ويمر — كما يمر الكائن الحي في أدوار الطفولة ، الشباب والتكوين ، والنضج والرجولة ، الازدهار ، ثم الشيخوخة والهرم ، والمجتمع من وجهة نظره جسم مركب ، والنظم الموجودة به هي بمثابة أعضاء هذا الجسم ، والحركة الاجتماعية في نظره مستمرة وتؤدي وظيفته بشكل آلي ، فهي لا تنقطع ، والمجتمعات الانسانية لا تقف ، والموت الاجتماعي أو فناء نظم المجتمع هو نقطة بداية ونهاية ، فحيث ينتهي مجتمع ما ، من الضروري أن يستأنف السير مجتمع آخر ، والمجتمعات الانسانية وان كانت تخضع بالضرورة لتتابع هذه الادوار ، فان خضوعها ليس بدرجة واحدة ، كما أن المدة التي تتطلبها كل مرحلة تختلف عن الاخرى ، ولهذا نجتمع عن الآخر ، بمعنى أن بعض المجتمعات قد تبقى طويلا في مرحلة الطفولة ، أو في مرحلة النضج ... او في مرحلة الهرم ، وقد ينتهي مجتمع ما ، حياته في المرحلة الاولى أو الثانية ... وقد يقوم نهايته في احدى المراحل ... الخ .

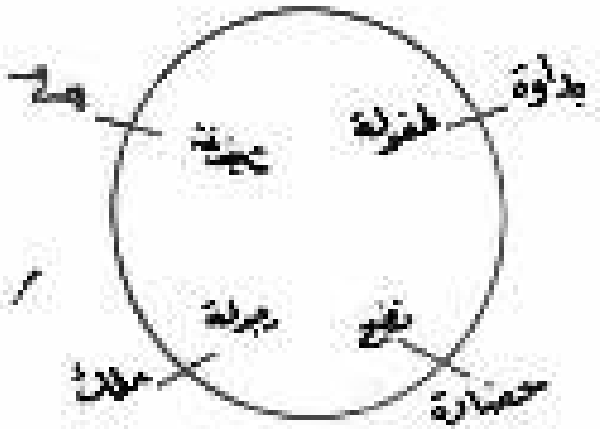
ولم يكن تقسيمه للمراحل السابقة على أساس حيوي ، وانما على أساس اجتماعي ، ومن مساهماته للمجتمع الاسلامي ، حيث :

١ — اعتبر مرحلة الشباب والتكوين في جسم الانسان ، وتقابلها المرحلة القبلية في المجتمع ، تلك المرحلة التي تقوم على العصبية والقبيلة والشعوبية الدينية .

٢ — اعتبر مرحلة النضج في جسم الانسان بمثابة المرحلة الحضرية في المجتمع ، حيث الانفراد بالمجد والسلطان .

٣ ـ اعتبر مرحلة الرجولة في الجسم الانساني ، مقابلة لمرحلة الملك في المجتمع حيث الركون الى السكون والدعة ، والاستتباع بثمرات الحضارة .

٤ ـ واعتبر مرحلة الشيخوخة في جسم الانسان مقابلة لمرحلة الهرم في المجتمع ، حيث يتفرق السداد الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والدينية . واذا كانت الشيخوخة في الجسم الانساني تنهي بموت الانسان ، فان الهرم في المجتمع ينهي أيضا بموت المجتمع ، اذ قيل : فان الهرم اذا نزل بدولة ، فانه لا يرتفع » . ومن ثم فلا جدوى من الاصلاح الاجتماعي . والشكل التالي يوضح قانون ابن خلدون :



شكل رقم (١)

يبين مراحل المجتمع من البداوة الى الهرم

طبقا لقانون الاطوار الثلاثة

وقانونه هذا يعتمد على التشاؤم ، فقد أوضح ابن خلدون أن المجتمع يمر بمراحل أربعة ثابتة لا تتغير ، بمعنى أنه يشبه المجتمع بدائرة مقسمة الى أربعة أجزاء ، على :

- الجزء الاول منها مرحلة البداوة او المرحلة البدائية ، عصر النبي عليه الصلاة والسلام » .
- وعلى الربع او الجزء الثاني مرحلة الحضارة ، عصر الخلفاء الراشدين وجانب من العصر الاموي » .
- وعلى الربع او الجزء الثالث مرحلة الملك ، العصر العباسي الاول » .
- وعلى الربع او الجزء الرابع مرحلة الهرم او الشيخوخة ، العصر العباسي الثاني » .

وقد استشهد ابن خلدون على ما جاء في الجزء الثالث بقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . وتصور ابن خلدون ان المجتمع يسير على هذه الدائرة من فترة الى أخرى ، مارا بالمراحل السابقة دون تغيير ، وذلك افتراض تمليه التشاؤم ، فقد كان من رأيه أن الحضر يؤدي الى آثار سيئة في الجسم والعقل ، وأن الترف يؤدي الى فساد الاخلاق نتيجة لجوء الافراد الى السكون والدعة والاستمتاع بطيبات الحضر ، ومن هنا تقل درجة الانتماء القومي ، وتصاب مظاهرة الحضارة بالتخلف ، وتضمحل شيئا فشيئا الى أن ينتهي المجتمع .

ومما لا شك فيه أن دراسات ابن خلدون هذه ـ كما يقول المستشرقون ـ تميل الى التشاؤم ، ويرجع ذلك الى أن ابن خلدون قد شاهد الدولة الاسلامية ، وكانت مستذة شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ،

ثم وهي تتمزق الى دويلات صغيرة متصارعة ، والحالة عودتها سيئة ، كما كانت من قبل . وهذا ما دفعه الى تشبيه الدولة بالفرد . وما دام الفرد مصيره الفناء ، فكذلك الدولة . وهو تشبيه خاطئ منطلق من حيث الشكل ، أما من حيث المضمون ، فهو تشبيه بين أشياء غير متجانسة ، أو بين كيفيات مقاماتها مختلفة . ومن هنا فهو تشبيه غير علمي ، ولا يؤخذ به في علم الاجتماع المعاصر .

هذا وكانت لابن خلدون نظرية في التقدم ، وأخرى في السياسة ، وثالثة في النواحي الاقتصادية ، ورابعة في النواحي الديموجرافية ، وخامسة في النظام التربوي وسادسة في النظام الاخلاقي[13] ... وكانت كلها تميل الى الموضوعية والواقعية ، بحيث لم يعمد فيها الى المبادىء الفلسفية ليستمد منها قانونه ، أو نظرياته كما فعل اوجيست كونت ، وكما سنرى في الفقرة التالية .

ولكن الخطأ الذي وقع فيه ابن خلدون ـ في هذا الصدد يرجع الى نقص كبير في العينات التي تمثل المجتمعات التي ابدى رأيه فيها ، كما أنه لم يستقرىء الظواهر الاجتماعية الا عند أمم معينة ، وفي عصور خاصة . وانتهى من هذا الاستقراء لظواهر قد لا تمثل ـ حتى ـ مجتمعات بحوثه ، الى افكار وقوانين ظن أنها تصدق في كل زمان ومكان ... وخطأ العينات الذي وقع فيه ابن خلدون هنا ، لا يقارن بأخطاء اوجيست كونت التي انحرف فيها عن المنهج السليم انحرافا جوهريا ، كما اشرنا الى ذلك من قبل .

ـ وبالنسبة لأوجيست كونت ، فقد درس « الديناميك الاجتماعي » وموضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات

---

(١٣) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، مرجع سابق ، جـ ٤ صفحات ٩٧٤ ـ ١١٣١ .

الانسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تحققه الانسانية في تطورها ، وقد توصل كونت عن الديناميك الاجتماعي نفسه على قانونين اخرين له وهما : قانون الادوار الثلاثة ، وقانون تطور الانسانية ، وفيما يلي عرض موجز لهاتين الفرضيتين :

(أ) قانون كونت عن الادوار الثلاثة :

انتهى كونت من دراسته للديناميك الاجتماعي الى الكشف عن قانون عام اسماه « قانون الحالات الثلاثة » Lo des trois etas ويتلخص في أن العقل الانساني او التفكير الانساني قد اجتاز في تطوره كل فرع من فروع المعرفة خلال ثلاثة ادوار هي :

أ ـ الدور التيولوجي ، الديني ، أي حينما كان العقل يفسر على أسلوب الفهم الديني ، أي عندما كان يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى شخصية مريدة خارجة عن الظاهرة نفسها كالآلهة والارواح والشياطين وما اليها ، مثل تفسيره لظاهرة المطر بنسبتها الى الله جلت قدرته ، أو الى إله السماء ، وهذه الطريقة من الفهم لا تتجه الى فهم الظاهرة ، ولا الى فهم سببها المباشر ، وانما تتجه الى فهم خالقها وسببها الاول ، حيث تنسبها الى قوة شخصية مريدة خارجة عن الظاهرة ، أي أنها لا تبحث عن فهم الظاهرة ، وانما هي محاولة لفهم خالق الظاهرة وموجدها .

ب ـ الدور الميتافيزيقي ، او ، التجريدي ، أي حينما كان العقل يفسر الظواهر بنسبتها الى قوى مبهمة غير شخصية ، أو الى معان مجردة أو قوى ميتافيزيقية وعلل اولى لا يقوى على تبيانها ، مثل تفسير ظاهرة النمو في النبات بنسبتها الى قوة الإنبات المستكنة في ذات النبات ، وكذلك التغيرات والتحللات التي تحدث في الاجسام نتيجة قوة كيميائية

معينة ، والحياة بمظاهرها المختلفة نتيجة وجود القوة الحيوية ، والسلوك والتفاعل الاجتماعي بين الناس نتيجة وجود « ارادة الحياة » أو « الطاقة الحيوية » ... الخ .

جـ ـ الدور الوضعي ـ أو ـ العلمي . أي بعد أن اصبح العقل يذهب في تفسيره لظواهر يسببها الى القوانين التي تحكمها والاسباب المباشرة التي تؤثر فيها ، مثل تفسير ظاهرة النمو بنسبتها الى العوامل الفيزيقية والكيميائية والقوانين المؤلفة لهذه الظاهرة . وليس بعد هذا الدور ، دور آخر مقبل ، بل ان قصارى الفكر الانساني بعدها أن يرهف الاجهزة التي يستخدمها ، ويدقق في التفاصيل التي يتناولها بالدراسة ، ويكمل النواقص ، ويتفق على ترتيب المعطيات العلمية التجارب .

وقد رجع كونت الى تاريخ العلوم ، والى تاريخ الانسانية لتأييد صحة قانونه ، ووجد ـ كما زعم ـ بالدراسة والبحث ، ان كل فرع من فروع المعرفة ، وهو بصدد تفسير ظواهره ، قد مر في الدراسة بالدور اللاهوتي ، فالمرحلة الاهوتية ، ثم بالدور الميتافيزيقي ، وأخيرا وصلت غالبية العلوم الى الدور الوضعي ، وعقد مشابهة بين مراحل الحياة الانسانية ومراحل حياة الفرد ، بمعنى أن المرحلة البيولوجية تشبه مرحلة الطفولة ، والمرحلة الميتافيزيقية تقابل مرحلة المراهقة والشباب ، والمرحلة الوضعية التي استقرت عليها الانسانية تشبه مرحلة الرجولة والاكتمال التي يصل اليها الفرد ، أي ان الانسانية في أدوار تقدمها ، شأنها شأن الفرد في مراحل نشأته ونموه وتقدمه ، فالفرد في نشأته وتكامله يعيد عمر الانسانية ، فهو في سلوكه لاهوتي ، وفي شبابه ميتافيزيقي ، وفي رجولته وضعي ، وأضاف الى ذلك ان كل مظاهر الفنون والآداب والحضارة والعلوم ومراحلها لا يمكن فهمها الا في ضوء

تاريخ التطور العقلي . فالديناميك الاجتماعي شأنه شأن الاستاتيك الاجتماعي يعبر عن مرحلة معينة من مراحل التفكير الانساني .

ومن الواضح أن كل الادلة التي تستند في الاستشهاد بها تخرج بقانونه من نطاق التطور العقلي ، الى تطور الانسانية عامة ، مما يجعله قانونا ميتافيزيقيا شاء البناء من عدة وجوه :

— فليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن الانسانية كلها كانت تسير على وتيرة واحدة في فهم الاشياء ، وفي ادراك الظواهر ، وفي تطور هذا الادراك ، فالمجتمعات الانسانية حتى وقتنا هذا ليست سواء ، فكيف كانت كذلك في عهده ؟

— وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن كل حقيقة سلك الفكر الانساني في فهمها هذه السبل الثلاثة ، مرتبة على الصورة التي ذكرها ، فمن الحقائق ، ما فهمه الانسان فهما وضعيا من بادئ الامر ، كبعض الحقائق الرياضية .

— وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن هذه الادوار وحدها هي التي تردد بينها التفكير الانساني في فهم الاشياء ، فهناك أدوار أخرى كثيرة سلكها الانسان الحضري والريفي والبدائي في ادراك الظواهر متأثرا بنفسه وعاداته وأحواله وتقاليده وعقائده ومختلف القوالب التي يلزمه مجتمعه بأن يصب فيها فكره وفهمه للكون وما وراءه .

— وليس بصحيح ما زعمه « كونت » في قانونه من أن تصور الظواهر الاجتماعية لا يتأثر الا بتطور التفكير ، فتصور شئون المجتمع ينجم عن أمور أخرى كثيرة ، بل لعل الاصح أن يقال ان تطور التفكير في معظم مظاهره نتيجة تطور الحياة الاجتماعية ، لا سيما لهذا التطور .

وكذلك بالنسبة للاستاتيكا الاجتماعي ، ويقصد به « كونت » دراسة المجتمعات الانسانية من حيث تفصيلاتها وجزئياتها ، ومن حيث العناصر والنظم الاجتماعية في حالة استقرارها واعتبارها كائنة في فترة معينة من تاريخها ، بقصد الوقوف على القوانين التي تحكم سيرها وتعمل على تقدمها ، على اعتبار أن الحقيقة الأساسية في النظم الاجتماعية تتمثل في الاتساق العام consensus universals ويقصد به الارتباط الضروري بين عناصر المجتمع .

ويعد الاتساق العام من وجهة نظر « كونت » بمثابة الأساس الحقيقي للتضامن ، كما يعد كذلك أساسا لتقسيم العمل الاجتماعي . وهنا نلمح مرة أخرى مقابلة بين المجتمع والكائن الحي . فهما وهناك يتم انجاز وظائف معينة يترتب عليها وجود كائنات قائمة على التضامن . ويلخص قانون التضامن — طبقا لذلك — أن ظاهر الحياة الاجتماعية تتضامن بعضها مع بعض ، وتسير أعمال كل مجموعة من الظواهر الاجتماعية متسقة مع أعمال ما عداها . وتتضامن جميعها على حفظ المجتمع وصيانة حياته ، فهي تشبه أجهزة الجسم الحي ، اذ يختص كل منها بوظيفة تختلف عن وظيفة « عضو » ولكن هذه الوظائف كلها تتسق بعضها مع البعض ، وتتضافر على حفظ الكائن الحي وصيانة حياته . ولكن ما يجب تأكيده هنا انه مع أن « كونت » استخدم القياس التشبيهي بين المجتمع والكائن الحي ، الا أنه لم يخلط بينهما بأية حال .

وعلى الرغم من ذلك فان قانون التضامن هذا لا يقل فسادا عن قانون الحالات الثلاث :

— فليس بصحيح أن جميع مظاهر الحياة الاجتماعية يتسق بعضها مع البعض الآخر ، وتتضافر بعضها مع بعض بهذا الاتساق والتضامن الذين تصورهما كونت . ففي كل مجتمع انساني بجانب النظم المقررة

توجد بينهما علاقة تربط كل موضوع منهما بالنظم والمبادئ بنظم أخرى على مرتبة شبيهة ، مع ان كليهما من مظاهر الحياة الاجتماعية ومن عناصرها .

ومن جهة أخرى فان في كل مجتمع نجد فكرا لا يخضع لمنطق التفكير العادي ، وانما نظنها من حيث التعبير على انها امور سحرية كبعض المعتقدات الدينية . ونجد بجانبها فكرا آخر يقوم على دعائم يستمدها تفكيره العادي وتوالي معه ، ومن الواضح ان هذين النوعين متباينان كل التباين ، فلا تضارب بينهما ولا اتساق مع ان كليهما من مظاهر الحياة الاجتماعية وعناصرها .

ومن ناحية ثالثة كونت مع تسليمه بان اسباب التفكير وفهم الاشياء في عصره كانت متنافرة مع بعضها بعض كل التنافر الى حد الفوضى عقلية ، الامر الذي دعاه الى اعتبار علم الاجتماع للقضاء على هذه الفوضى العقلية ... فكيف يستقيم هذا مع ما قرره في هذا القانون من أن التضامن أو الاتساق هو قاعدة في مظاهر الاجتماع الانساني .

هذا وترجع أسباب اخفاق كونت في تقريره : قانون الحالات الثلاث ، وقانون التضامن الى أنه يعتمد على تأييد وجهات نظره ، فضلا عن اعتماده على مبادئه الفلسفية في قبول هذين القانونين .

وهناك لاوجيست كونت نظرية في التقدم الانساني ، وأخرى في الاسرة وثالثة في التربية ورابعة في الدين ، وابتداعه لديانة جديدة هي ديانة الانسانية La Religion de l'Humanité يبغوها الحب وأساسها النظام وغايتها التقدم[1] ، وهذه الديانة هي التي تجعل — كما زعم —

(1) L'amour pour principe L'ordre pour base. Le progrès pour but.

من الانسانية جمعاء و الاله الذي يجب ان نقدسه ، ومن هذا نرى ان فكرة « الانسانية » لدى كونت تحل محل فكرة « الله » ، ولكن فشله — حتى — في اقناع نفسه بهذه الديانة ، فضلا عن فشله في اقناع الآخرين ادى به — الى الوقوع ضحية المرض العصبي في اخريات ايامه ، الامر الذي دفعه الى ترك المهمة للناس للايمان بالاديان السماوية ، او بدينه — أو بالاحرى — بهرائه المقترح ، واشهى كونت من تحليله الديني الى ضرورة « احياء ذكرى الرجال العظماء والفلاسفة الذين أدوا اعمالا جليلة وخدمات لا تقدر للجنس البشري » ومعنى ذلك هو الاحياء بالعبادة والتقديس الى طائفة من بني الانسان . وهي فكرة فجة لم يجد من يؤيدها ، وهي لا تتفق مع مبادىء علم الاجتماع الذي يعتبر الدين ضرورة لمجتمعه ، ومن ثم فهو « هي او ملكتي الشاعر » وليس عاملا للانشاء كما يقول — او كما يرغب — كونت[١٤] » .

خلاصة للموازنة :

— أن ابن خلدون قد انتهت دراساته بوضع علم جديد وهو « علم العمران » وان الاسباب التي دعته لانشاء هذا العلم هي أن يجعل منه اداة لتمحيص حقائق التاريخ ، وهي أسباب واقعية لا فلسفية ، وحدد له منهاجا علميا لا غنى عنه في المناهج الحديثة ، كما تناول بالدراسة العديد من الظواهر الاجتماعية وكان استخدامه لمنهجه استخداما علميا الى حد كبير ، في قانونه ذي الاطوار الثلاثة ، ومن ثم كان لنا أن نفخر بذلك المفكر العربي المسلم الذي توصل الى ابتكار علم الاجتماع قبل أن يتوصل اليه علماء أوروبا بنحو خمسة قرون .

---

(١٤) دكتور ربيعان عبد الباقي : علم الاجتماع الديني ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨١ صفحات ٥٢ — ١٠٩ .

أما كونت فقد :

(أ) ادعى أن الأسباب التي دعته الى انشاء علم الاجتماع ، هي أن الناس كانوا في زمانه يفهمون الظواهر فهما خاطئا ، وعلى هذا ليس بصحيح ، وذلك لأن الأسباب التي دعته الى انشاء علم الاجتماع أسباب خيالية ، ومن رجع تفكيره الخاص ، كما برهنا على ذلك من قبل .

(ب) قال كونت ، بتوحيد منهجه أو فيزيقا ، ولكنه فرنسا يقاومه الميتافيزيقيون ، الأمر الذي أضاع قيمة القواعد المنهجية التي قال بها .

(جـ) انتهى كونت من دراسته الديناميك الاجتماعي الى القول بقانونه ذي الأدوار الثلاثة الذي أرجع أنه استخلصه من تطور الانسانية ، هذا القانون يعوزه ـ كما قدمنا ـ أساس ميتافيزيقي ، لأن الانسانية ككل لا تتحرك في صورة متماثلة .

(د) قال بأن تطور الظواهر الاجتماعية يرجع الى تطور التفكير ، مع أن العكس هو الصحيح .

(هـ) انتهى كونت من دراسته الاستاتيك الاجتماعي الى قانون التضامن consensus ، وهذا ـ أيضا ـ تفكير فلسفي ، يرفضه مناهج البحث الحديثة في علم الاجتماع .

(و) لم يدرك كونت الذي أقام علم الاجتماع أن الدين ضرورة اجتماعية وأن الدين ظاهرة اجتماعية من صفاتها التلقائية ، والتعبير عن مقتضيات العمران وأحوال المجتمع ، وأنه لا يمكن أن يفرض على جيل بكثرة ، ولا على مجتمع من المجتمعات بالقهر والتهديد ، وان كان قد خلف من الزلة للناس بديانته السافرة الذكر في أخريات أيامه .

ترى : أليس من حقنا أن نفخر كل الفخر بمفكرنا العظيم ، عالم الاجتماع الأول في العالم ، ومنشىء هذا العلم « عبد الرحمن بن خلدون » ؟ ... بلى .

* * *

المراجع العربية والأجنبية

أولا ـ المراجع العربية

١ ـ الدكتور زيدان عبد الباقي : الفكر الاجتماعي ، نشأته وتطوره ، الطبعة الثالثة ، مكتبة عريب ، القاهرة ١٩٨١ .

٢ ـ الدكتور زيدان عبد الباقي : علم الاجتماع الديني ، الطبعة الأولى ، مكتبة عريب ، القاهرة ١٩٨١ .

٣ ـ الأستاذ الدكتور محمد حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ـ تعريب محمد عبد الله عنان ـ القاهرة ١٩٢٥ .

٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، الطبعات الثلاث التي أشرف عليها الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، وقد طبعت كلها في القاهرة ، الأولى سنة ١٨٥٨ والثانية سنة ١٢٨٤ هـ في عهد الخديوي اسماعيل والثالثة سنة ١٢٩٨ هجرية في عهد الخديوي توفيق ... وقد صدرت عن مطابع بولاق مصر القاهرة ، والطبعتان الثانية والثالثة موجودتان بمكتبة المركز بجامعة قاريونس ـ بنغازي ليبيا ـ تحت رقم ٩٠٣/٧ .

٥ ـ الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي : مقدمة ابن خلدون (تحقيق وضبط واستكمال النقص فيها وتحليل محتوياتها وإيضاح المراد من ألفاظها ...) مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٢ ، وهي أربعة أجزاء بأيامها كما يلي :

ـ الجزء الاول من صفحة ١ الى صفحة ٥٤٥ طبعة ثانية ويحتوي على الباب الاول من المقدمة .

ـ الجزء الثاني من صفحة ٥٤٧ الى صفحة ٦٣٠ طبعة ثانية ويحتوي على الباب الثاني من المقدمة .

ـ الجزء الثالث من صفحة ٨٢٩ الى صفحة ٩٧٢ طبعة اولى ويحتوي على البابين الرابع والخامس من المقدمة .

ـ الجزء الرابع من صفحة ٩٧٤ الى صفحة ١١٣١ طبعة أولى ويحتوي على الباب الرابع من المقدمة .

وتحقيق الدكتور وافي لهذه المقدمة جعل منها مرجعا ميسورا للقارىء العادي والقارىء المتخصص بالاضافة الى استكمال الناقص منها ـ وهو كثير ـ في الطبعات المتداولة في العالم العربي من تلك المقدمة . وهو عمل علمي كبير يستحق الاشادة والتقدير .

٦ ـ تاريخ العلامة ابن خلدون : منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٥٩ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية

1 — Comte, A. : Le Systeme de politique positive, Paris, 1854

2 — Durkheim, E. : Les Régles des Le Méthode Sociologique Nouvième Edition, Librairie Félix Alcan, Paris 1938.

3 — Lukes, S. : Durkheim, E. : His Li and Work, Historical and critical study London, 1937 pp. 137 - 172

4 — Timasheff, N.S. : Sociological Theory, Its Nature and Growth. Second printing, House, N.Y., 1957, ch. I.

الانسان والطبيب والمترجم

حنين بن اسحق العبادي

(١٩٤ ـ ٢٦٠ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨٧٣ م)

الدكتور رشيد الجميلي

الانسان والطبيب والمترجم

حنين بن اسحق العبادي

(١٩٤ ـ ٢٦٠ هـ / ٨٠٩ ـ ٨٧٣ م)

الدكتور رشيد الجميلي

يعتبر حنين بن اسحق العبادي[1] ، احد مشاهير النقلة الذين مثلوا

---

١ ـ العبادي ، بفتح العين وتخفيف الباء والعباد بالتشديد قبائل شتى من بطون العرب ، اشتهروا على الصحراوية بالحيرة والنسبة اليها عبادي ، قال الشاعر :

يسقيها من بني العباد رشا ... منتسب سيد الاسد

= ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس احمد ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ١٣٩ (بيروت ، ١٩٥٧) =

اما ابو العباس شمس الدين احمد المعروف بابن خلكان ، فيختلف مع ابن ابي اصيبعة في معالجة ضبط كلمة العبادي حيث يقول : « العبادي : بكسر العين المهملة ، وفتح الباء الموحدة ، هذه النسبة الى عباد الحيرة » = وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ج ١ ، ص ١٨٦ (بيروت ، ١٩٦٩) .

وقال قوم العباد نريد ان ننسب بعيد الله ، ثم قالوا : العبيد اسم يشارك فيه المخلوق الخالق في النسبة لانه يقال عبيد الله وعبيد فلان ، والعباد ، اسم اختص الله به ، فيقال عباد الله ولا يقال عباد فلان فنسوا بالعباد = القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي ، اخبار العلماء باخبار الحكماء ، ص ١٩٩ (القاهرة ، ١٣٢٦ هـ) .

=

ذلك الدور الرائع في مجال ازدهار حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، لقد خدم حنين بن اسحق بعلمه وفقه في

والعرب تسمي كل من دان بدينهم صابئا له ، ومن ذلك قول أهل حران نحن صابئة ، وذلك لانهم كانوا أهل طائفة دارت الحكم .

والحيرة : بكسر الحاء المهملة ، ومأوى اليه لشدة من حصنها وقبح بناء وبعدها هاء ، وهي مدينة قديمة كانت لبني امئ القيس ومن تقدمهم من ملوك العرب مثل عمرو بن عدي اللخمي ومن بعده من أبنائه وكانت من قبل عمرو لابناء عمومته الازديين ... وعليها العرب وبنيت الكوفة في الاسلام على ظهرها في سنة سبع عشرة للهجرة . ياقوت الحموي الخطاب عبد الله بن عبد الله بن أبي دلامة ... من سكان الحيرة وليس لاحد ... ص ١٨٦ .

ولد منكة بن سعد الدين ، بعد أن تعلم اسحق والأمر داود = محمد الاندلسي ، أبو القاسم ، طبقات الامم ، ص ٨٥ ؛ بيروت الآباء ، ١٩٦٠) .

أما فيما يتعلق بالسنة التي توفي فيها حنين بن اسحق ، فيذكر ابن أبي محمد بن اسحق المعروف بابن النديم أن حنينا قد توفي في سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) = الفهرست ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ؛ ليبزك ، ١٨٧١) = كذلك صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ، القفطي تاريخ الحكماء ، ص ١٧٢ (القاهرة بدون تاريخ) ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، جـ ١ ، ص ٢١٨ .

أما من يذكر بعد الاجماع بصدد بتحديد السنة التي توفي فيها حنين ابن اسحق ، فهو ابن أبي أصيبعة الذي يرى أن سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) هي السنة التي توفي فيها حنين بن اسحق وليس سنة ٢٦٠ (٨٧٣ م) كما أجمعت عليه المصادر المذكورة أنفا = عيون الانباء ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(بصدد آراء المستشرقين الحديثين في هذا المجال ، فقد اختلفت هي الأخرى بعد الاختلاف المصادر بهذا الشأن ، فالمستشرق البريطاني De Lacy O'Leary يرى أن حنين بن اسحق قد توفي في سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) =

Arabic Thought and its place in History, p. 112, London, 1960.

بالعربية والفارسية والسريانية . وان دل هذا على شيء فانما يدل على هذا الفيض تلك الحركة الجليلة اجل خدمة يمكن ان يقوم بها عقل

بينما يرى الدكتور فيليب حتي ، ان سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) هي السنة التي توفي فيها حنين بن اسحق =

The Arabs A Short History. p. 91. London, 1936.

كذلك كحالة ، عمر رضا : معجم المؤلفين ، جـ ٤ ، ص ٨٧ و صبحي ، ١٩٥٧) ، فروخ ، عمر : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ، بيروت ، ١٩٧٠) ، دي بور ، ت . ج . تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ٩٧ (القاهرة ، ١٩٥٧) .

أما الدكتور توماس سير هوف فيرى ان ماكو بن ابي اسيعة هو الصحيح ويعتمد في كتابه عن حنين بن اسحق =

Arnold, Thomas. The Legacy of Islam. p. 316. Oxford, 1931.

كذلك فيليب خوري : العصر العباسي الاول ، ص ١١٥ و القاهرة ، ١٩٧٥) .

أما الاستاذ جرجي زيدان فيرى ان سنة ٢٨٨ هـ (٩٠٠ م) هي السنة التي توفي فيها حنين بن اسحق = تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ (القاهرة ، ١٩٣٠) .

والواقع ان ما ذكره الاستاذ زيدان ، هو أبعد ما يكون عن الصواب ، ومن جهة أخرى فان التاريخ الذي ذكره الاستاذ زيدان (٢٨٨ هـ/٩٠٠ م) هو تاريخ وفاة الطبيب والمترجم ثابت بن قره الحراني الصابئي ، وليس تاريخ وفاة حنين بن اسحق العبادي .

وفي رأيي ان سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م ، هي السنة التي توفي فيها حنين بن اسحق ، فهي السنة التي أجمعت عليها معظم المصادر التي ترجمت لحنين ولا نرى مبررا لاعتماد البعض من الباحثين المحدثين لرواية ابن ابي اصيبعة بهذا الخصوص خاصة وان الغالبية من المؤرخين يكاد يكون مجمعا على أن ابن اصيبعة كثيرا ما تورط بعدم الدقة في كثير من أخباره ، مثل ذلك الذي ورد عند ابن حنين ، والذي يذكر فيه أن حنين بن اسحق كان قد توفي زمن الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/٨٤٧ ـ ٨٦٢ م) = طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٢٠ (القاهرة ، ١٩٥٤) .

مثله ، وعلى ضوء ما كان يحيط به من عوامل مختلفة لعبت أثرها في ذلك الدور الذي قام به حنين في عملية الترجمة .

لقد كان حنين بن اسحق شخصية موسوعية ، فإنا ان نجد لها مثيلا في دائرة أصدقاء الخلفاء الذين سكنوا السجون ذاته ، فقد انفرد حنين بمعرفته بعدد اللغات التي كان يتقن منها ، وبدقته في نقل وعبارة ذلك ، هذا اضافة الى ابداعه لأفضل أسلوب في حركة الترجمة ذاعت شهرته ذيوع شهرة حنين في هذا المجال ، وأعني به أسلوب ترجمة بالمعنى .

لقد أتقن حنين العبادي أربع لغات هي : السريانية ، والعربية ، واليونانية ، والفارسية ، وكان بها دائما مجيدا الى أقصى درجات الدقة والجودة ، ومما يدلنا على براعة حنين في هذه اللغات ، هو ما خلفه لنا من مصنفات فضلا من خلالها معرفته التامة بما ذكرنا من لغات ، ففي مجال أسماء العقاقير نرى أن حنين بن اسحق — في بعض الأحيان — كان يضع لمصطلح اليوناني في اسم عقار ما ، ما يقابله مباشرة في معرفة مفردات تلك اللغات من جهة ، وحتى تمكنه من ادارة التي هو قائم على ترجمته الى اللغتين السريانية والعربية من جهة ثانية ، وبهذا الخصوص يذكر ابن النديم « كان حنين بن اسحق ماهرا في صناعة الطب ، فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية »[٢] .

وفي قول ابن ابي اصيبعة بهذا الصدد ، يكتمل عندنا معنى ما قدمنا له آنفا حيث يقول : « وكان حنين عالما بلغات عربيها ومستعملها : العربية ، والسريانية ، واليونانية ، والفارسية ، وكتبه في غاية من

---

٢ ـ الفهرست ، ص ٤٩٨ .

جودة و[1] ، ثم اختبر حنين للترجمة وأشرف عليها ، ووضع بعض أبنائه حنين بالترجمة ، كانوا يترجمون وينصح حنين ما ترجموا كحبيش بن الحسن الأعسم و[2] .

كان حنين بن اسحق واحدا من أربعة نفر ، عدّ قدماء شهرة فائقة في قومهم المختصة في العربية ، الأمر الذي ميزهم عن سواهم من نقلة هذا العصر ، وبهذا الصدد يذكر ساعد الاندلسي : « أبو زيد حنين بن اسحق ، أحد أئمة الترجم بالاسلام ... وان حذاق الترجمة بالاسلام أربعة : حنين بن اسحق العبادي ، ويعقوب بن اسحق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري »[3] .

أما منهج حنين في الترجمة فيقوم على اساس الحصول على النسخة الاصلية لأي كتاب يروم ترجمته ، أي ان حنين كان يفضل العامل مع اصل الكتاب المراد ترجمته ، وفي حالة تعذر الامر ، نرى أن حنينا لا يعتمد على نسخة واحدة في مثل هذه الحالة ، بل يرجع الى نسخ تاكثر لمقارنة ، ويرجح فيما بينها ، الامر الذي أضفى على ترجمته طابع الدقة ، ومما زاد في رصانته العلمية ، انه كان يعود الى الطريقة التي عرفت بنسبه ، وأعني بها طريقة الترجمة بمعنى .

---

٢ ـ عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ؛ كذلك الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم . الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٦ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ؛ البيهقي ، ظهير الدين ابو الحسن علي . تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٦ ، دمشق ، ١٩٤٦ ؛ البيهقي : تتمة صوان الحكمة ، ص ٣ ؛ لاهور ، ١٣٥١ هـ) .

٤ ـ ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

٥ ـ طبقات الامم ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ؛ كذلك الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٦ ؛ البيهقي : تتمة صوان الحكمة ، ص ٢ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

كان اسلوب حنين في الترجمة رائعا ووافيا بأغراض علم المصطلح الحديث جدا ، وكان يستعد في نقد تراجم المتقدمين وتراجمه هو أيضا لما كان شاقا ، وقد ترجم معضلا من جديد ، وكان حنين يجتهد بحلاف نزيله بغية الحصول على النسخ الكاملة ، مثال ذلك ، كتاب (في البرهان) لجالينوس الذي كان فقد الوجود في القرن الثالث الهجري والذي قال عنه حنين بن اسحق العبادي : « التي بحثت عنه بحثا دقيقا وجبت في طلبه ارجاء العراق وسوريه وفلسطين ومصر الى ان وصلت الى الاسكندريه ، لكني لم اظفر الا بما يقرب من عشره في دمشق »[٦].

وعلى الرغم من شهرة حنين بن اسحق في هذا المجال من أساليب الترجمة (الترجمة بالمعنى) ، الا اننا نجد من يرى ان حنين بن اسحق كان يترجم ترجمة حرفية ، والاستاذ برجستر سر مثال على ذلك حيث يذكر في هذا الخصوص : « ان حنينا وحنينا كانا يترجمان ترجمة حرفية حتى وهو ضحيا في ذلك بجمال اللغة وتنسيق تعابيرها »[٧].

والواقع أن هذا القول يناقض تماما ما جاء عن حنين وعرف به في هذا الباب ، فقد كان حنين بن اسحق بعيدا كل البعد عن الترجمة الحرفية لمحاذيرها الكثيرة ، وان حنينا قد بنى من العلم والدراية ما جعله يتجنب هذه الطريقة ويلتفت الى طريقته التي اشتهر بها ، والتي هي الطريقة المثلى للترجمة في كل زمان ومكان ، ومن ناحية أخرى ، أود ان أبين هنا ، ان الترجمة من لغة الى لغة أخرى لا يمكنها أن تشابه مع ترجمة مماثلة لها في الموضوع والاختصاص واللغة ولكن على يد ناقل آخر ، بل ولا أكون مغاليا اذا ما قلت انها سوف لن تشابه حتى ولو

---

٦ ـ العشر مقالات في العين ، ص ٢٩ ، (القاهرة ، ١٩٤٠) .

٧ ـ البرجستر : العشر مقالات في العين ، ص ٣٠ من المقدمة .

كانت على يد نفس الناقل ومهما اتبع في أسلوب ترجمتها سواء أكانت الترجمة الحرفية أم الترجمة بالمعنى ؛ حتى لو كانت الترجمة في صميم اختصاص ذلك الناقل كما هو الحال عند النقلة في هذا الوقت من تاريخ حركة الترجمة وبخاصة عند حنين بن اسحق ، حيث كانت نقوله في العلوم التي برع بها ، وهذا ما يجعل تلك الترجمات في غاية الجودة والاتقان .

وإذا ما نظرنا الى الترجمات التي قام بها حنين بن اسحق ، نراها قد تركزت بصفة خاصة على المصنفات اليونانية . وفي اعتقادي أن سبب ذلك يرجع الى براعة حنين التامة في هذه اللغة . ومن جهة ثانية فان معظم المصنفات الطبية والفلسفية ذات الشهرة الواسعة ؛ كانت مصنفات يونانية ؛ وما كانت هذه المصنفات هي المطلوبة اولا في هذا الوقت بصفة خاصة ؛ اذا كان أمر طبيعي أن ينكب حنين على ترجمة هذا التراث اليوناني في هذه العلوم ، أضف الى ذلك اهتمام حنين الخاص بالتراث اليوناني ؛ وذلك لارتباط هذا التراث بعمل حنين ، منذ عزم صاحبنا على تعلم مهنة الطب واحكامه اللسان اليوناني لتحقيق ذلك ، الامر الذي ترتب عليه أن يكون نصيب هذا التراث من الترجمة أكثر من اي تراث آخر أقدم حنين على ترجمته . وبهذا الشأن يذكر ابن خلكان : « ... وأكثر كتب الحكماء والاطباء كانت بلغة اليونان فعربت ؛ وكان حنين المذكور اشد الجماعة اعتناء بتعريبها ، ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بتلك العلوم ، لعدم المعرفة بلسان اليونان »[٨] .

وإذا نحن ادركنا أنه أحد يترجم عن اليونانية ؛ وقد احترمته مئات الكلمات اليونانية التي لم نعرف لها نظير في اللغة السريانية والعربية ،

---

٨ ـ وفيات الاعيان ـ ج ٢ ، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ .

من مصطلحات طبية وفلسفية ، واسماء النبات والحيوان والمهنة وغيرها ، وانه كان مضطرا ان يوجد لها الفاظا عربية تدانيها ان امكن ، وان يستقل الكلمات الاجنبية صنلا عربيا ان لم يمكن ، اذ لم يقصر عنايته ومبلغ علمه[١٩] .

ومن ناحية اخرى ، اود الاشارة هنا الى ان حنين بن اسحق كان ينقل من السريانية الى العربية بعض المصنفات التي كان اسحق بن حنين قد ترجمها من اليونانية الى السريانية ، اي ان العملية كانت متبادلة تقريبا بين حنين وولده اسحق في مجال ترجمته من اليونانية الى العربية عبر السريانية ، ويبدأ السعد تذكر هذا الخبر الذي يخص بن اسحق — في سياق حديثه عن اسماء كتب جالينوس — كدليل لما اوردناه آنفا .

قال حنين بن اسحق : « ... ولم اكن قد ترجمت هذه المقالة (اي مقالة اسماء كتب جالينوس) الى السريانية بعد ، ترجمها اسحق ابني ، واما الى العربية فقد ترجمتها لابي الحسن احمد بن موسى ... ولا اعلم ان احدا ترجمها غيري »[٢٠] .

كان حنين بن اسحق امينا في نقله ، حريصا كل الحرص على اداء النص اليوناني اداء صادقا ، واعانه في ذلك تمكنه من اليونانية والسريانية وتضلعه في التعبير العربي بنوعيه ، وكان حنين يحقق ويدقق ويصحح ويراجع ، ولا يأنف ان يعيد ترجمة ما سبق ترجمته ، ويرجع

---

١٩ — الصابون : احمد محمد الاسعد ... ص ٨٨ — ٢٠٥ (القاهرة ، ١٩٤٢) .

٢٠ — الصابون : اعمال كتب في تفصيل كتب جالينوس (فيما نقله حنين من كتب جالينوس) ص ٤ ، مخطوط تحت رقم ٢٢٦ في المكتبة العامة لجامعة الاسكندرية .

انتسابه الى الثقافة السريانية ، لم يتردد في أن يعلن قصور بعض مترجماته القديمة ، وحاول أن يتداركها بنقلها عن طريق الترجمة العربية .

لقد سلم حنين بن اسحق بالاخذ والعطاء بين اللغات ، فاذا كانت العربية قد أخذت ما أخذت عن السريانية ، فان عنده بعضها قد تغذى من أختها العربية .

كان أسلوب حنين بن اسحق سهل وواضح ، وفي سبيل الوضوح لا يرى غضاضة في استعمال ألفاظ وتعبيرات دارجة ، وتخير اللفظ الملائم من مستلزمات الترجمة الدقيقة لا سيما اذا أريد به أداء دلالة اصطلاحية خاصة .

لقد عرف مترجمو القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، كيف يستفيدون من المصطلحات العلمية التي استقرت في القرنين السابقين ، وحاولوا ما استطاعوا أن يؤدوا اللفظ الاجنبي بلفظ عربي ، فان عز عليهم ذلك لجأوا الى التعريب في غير اسراف ، فعربوا عن اليونانية والسريانية ، واستعانوا أيضا بالفارسية ، ولحنين ومدرسته شأن في استعمال طائفة من المصطلحات الشمسية والطبية نذكر لها أن تحيا الى اليوم[1] .

أما أهم الترجمات التي اضطلع بها حنين بن اسحق فهي كما يلي :

١ ـ نقول حنين بن اسحق من مصنفات ارسطوطاليس :

كتاب باري ارميناس (ومعناه العبارة) : نقله حنين الى السريانية

---

١ ـ مذكور ، ابراهيم : حنين بن اسحق المترجم ـ بحث قدم الى مهرجان الفارابي ـ حنين الذي انعقد في بغداد للفترة من ٤ ـ ٧/٢/١٩٧٤ ، ص ٦ ـ ٧ .

كتاب الأبوليتا الأول (وسماه جالينوس التحليل القياس) ، نقله حنين الى السريانية .

كتاب الأبوليتا الثاني (وسماه البرهان) ، نقله حنين الى السريانية .

كتاب السماع الطبيعي ، نقله حنين الى السريانية .

كتاب السماء والعالم ، نقله حنين الى السريانية .

كتاب النفس (ثلاث مقالات) ، نقله حنين الى السريانية .

المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان والذي يعرف بالأيوسا ، نقله حنين الى السريانية ، ثم نقلها متى بن يونس الى العربية .

٥ ـ نقول حنين بن اسحق من مصنفات ابقراط :

ومن مصنفات ابقراط التي نقلها حنين بن اسحق الى العربية وهي بتصنيف جالينوس ما يلي :

كتاب الفصول ، كتاب تقدمة المعرفة ، كتاب الكسر ، كتاب الماء والهواء (ثلاث مقالات) ، كتاب طبيعة الانسان (ثلاث مقالات) .

أما نقله حنين بن اسحق من مصنفات ابقراط الى اللغة السريانية :

كتاب عهد بقراط .

٢ ـ نقول حنين بن اسحق من مصنفات جالينوس :

ومن مصنفات جالينوس التي نقلها حنين بن اسحق دون ذكر اللغة التي نقلت اليها نذكر :

كتاب الفرق (مقالة) ، كتاب الصناعة (مقالة) ، كتاب في النبض (مقالة) ، كتاب المقالات الخمس في التشريح ، كتاب الاستقصات

(مقالة) ، كتاب المزاج (ثلاث مقالات) ، كتاب القوى الطبيعية (ثلاث مقالات) ، كتاب العلل والاعراض (ست مقالات) ، كتاب الحميات (مقالتان) ، كتاب البحران (ثلاث مقالات) ، كتاب ايام البحران (ثلاث مقالات) .

٤ ــ اما عن الكتب الخارجة عن الستة عشر والتي هي من تصنيف جالينوس ، فقد كان لحنين دور كبير في عملية النقل والترجمة والاصلاح للمقالات التي تألف منها هذه المصنفات ، وذلك كما يوضحه لنا الشكل التالي :

كتاب التشريح الكبير (خمس عشرة مقالة) ، لم يذكر حنين في فهرسه من قام بنقله الى العربية ، الا أن ابن النديم يقول انه رآه بنقل حبيش لاسم ــ اصلاح حنين للكتاب حركات الصدر والرئة بعد أن نقله الى العربة اسطفن بن بسيل لاسقفه ثلاث مقالات ــ كتاب علل النفس (مقالتان) ، أصلحه حنين لولده ــ كتاب الصوت ، نقله حنين الى العربية للوزير محمد بن عبد الملك الزيات ــ كتاب حركة العضل ، أصلح منه حنين مقالتان ــ كتاب الحاجة الى النفس ــ كتاب الحركات المجهولة ــ اصلاح حنين لكتاب منافع الاعضاء بعد أن نقله حبيش الى العربية لاسقفه سبع عشرة مقالة ــ كتاب افضل الهيئات (مقالة) ــ كتاب سوء المزاج المختلف (مقالة) ــ كتاب الادوية المفردة (احدى عشرة مقالة) ــ كتاب تولود نسمة أشهر (مقالة) ــ كتاب رداءة التنفس ، نقل منه حنين ثلاث مقالات لولده ــ كتاب الدول (مقالة) ــ كتاب قوى الاغذية (ثلاث مقالات) ــ كتاب التدبير المنطف (مقالة) ــ كتاب الكيموس (مقالة) ــ كتاب في أن الطبيب الفاضل فيلسوف (مقالة) ــ كتاب معرفة الطبيب (مقالة) ــ كتاب تعريف لرء عيوب نفسه ــ كتاب ما ذكره افلاطون في طيماوس (عشرون مقالة) ــ كتاب

المحرك الأول لا يتحرك[١٢] .

وبصدد ترجمات حنين بن اسحق لمصنفات بقراط وجالينوس يذكر ابن جلجل :

« وحنين بن اسحق هو الذي اوضح معاني كتب بقراط وجالينوس، وخلصها أحسن التخليص ، وكشف ما استغلق منها ، وأوضح مشكلها »[١٣] .

أما ابن أبي أصيبعة : فيبين لنا رأيه في ترجمات حنين لمصنفات جالينوس بعد أن اطلع على ترجمات غيره من أئمة أطباء المصنفات التي نقلها حنين فيقول : « ... عما نقلها وأتى أجادها ، تبين لي بين نقله وبين الستة عشرة التي هي نقول حنين تباين كبير وتفاوت يبين ... وأين لألفاظ من البليغ والفرق من الغرة »[١٤] . ومن هذا القول يمكننا أن نتصور نوعية تلك الترجمات التي اشتهر بها حنين بن اسحق العبادي .

كذلك ، فإنه توجد لحنين ترجمات كثيرة مخطوطة في مكتبات عديدة ، وهذه المخطوطات تكشف عن مهارة في تعريف الترجمة ، وتقديره حجية السقم في اللغة العربية ، أما أسلوبها فسهل متناول خال من التعقيد إذا ما قورنت بأسلوب الجاحظ مع دقة في التعبير وخلو من الحشو والغموض ، وإن تفضيل حنين لترجمة جالينوس من الوجهة التعريبية ظاهر في كل ناحية ، لأن حنين وحده يرجع الفضل في نبوغ

---

١٢ ـ من الفن . الفهرست ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩١ ، كذلك تنظر أيضا الفقرة ، ص ٤١٧ ـ ٤٢٢ .

١٣ ـ طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

١٤ ـ عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

جالينوس اسمى انتام في الشرق خلال العصور الوسطى ، وبصورة غير مباشرة في الغرب الوسيط .

أما أبحاث أبقراط فكان ذيوعها اقل منها . لقد ترجم له حنين كتاب (تقسيم المعرفة) وبقيت ترجمته مرجعا مدرسيا للعرب المتأخرين الذين كثيرا ما تناولوه بالشرح والتعليق . وان التراجم العربية التي يعود الفضل في نقلها الى حنين وتلاميذه حفظت لنا كثيرا من تاليف جالينوس التي ضاع أصلها اليوناني .

كان لحنين بن اسحق أعداء كثيرون يصح بنا ان نسميهم بالمترجمين العظام فضلا عن تلاميذه الذين استقلوا بعمل كهذا ولكنه نقل عنه اهمية ، ومن اشهر الاول بن أخته حبيش الاعسم وابنه العبيب الرياضي اسحق بن حنين وتلميذه ثابت بن قرة وتلميذه الآخر قسطا بن لوقا ، وقد ركز حنين في ترجماته على الكتب الطبية ، اما رفاقه فقد اتجهوا في ترجمتهم الابحاث الفلكية والطبيعيات الرياضية والفلسفية الاغريقية[15] . وهكذا يتضح لنا من أوردناه آنفا من اسماء المصنفات اليونانية واللغة التي نقلت اليها ، أن اللغة السريانية قد حظيت بنصيب كبير من عملية النقل ، وان عددا قليلا منها قد تم نقله الى اللغة العربية على يد حنين خاصة[16] . ولكننا يجب ان نعلم ان تلك المؤلفات التي نقلها حنين الى اللغة السريانية ، قد تم نقلها الى العربية على يد أعضاء مدرسة حنين المترجمة وبخاصة على يد اسحق بن حنين وحبيش الأعسم اللذين كانا من أبرز أعضاء هذه المدرسة معرفة باللغة العربية .

---

15 ـ ارنولد ، توماس ، تراث الاسلام ، ص 351 ـ 356 ، بيروت ، 1972 .

16 ـ وجدنا عددا قليلا جدا يحصر ترجمات حنين لمصنفات جالينوس بدائرة المنتصر ، ان حنين بن اسحق قد ترجم عشرين كتابا لجالينوس الى السريانية ، واربعة عشر الى العربية ، ـ امير العلماء ، ص 122 .

لقد ترجم حنين بن اسحق الى اللغتين السريانية والعربية . كل ما استطاع ان يحصل عليه من تراث اليونان ، الامر الذي سهل على العربي في الاطلاع على تفكير اليونان في هذا المجال من تحقيق امنيتهم ، وقد صدق ابن خلكان حين قال : « ان كل كتاب لم يترجم ويبقى في لغته اليونانية فحسب فاقده »[17] .

والجدير بالملاحظة هنا في امر ترجمات حنين بن اسحق ، أن بعض من ترجمات حنين بصفة خاصة ، كانت تنسب سهوا الى حنين بن اسحق نتيجة لتشابه الاسمين بعد ما ، مما كان له اثره الايجابي في قيمة حنين ذاته ، وبهذا استهد بقول المستشرق الهولندي دي بور T. Jones De Boer : « وكان أبو زيد حنين بن اسحق وابنه اسحق بن حنين وابن أخته حبيش بن الحسن الاعسم ، أوفر المترجمين انتاجا ، ونظرا لانهم كانوا يتشابهون في الاسم ، فان كثيرا كثيرة كانت تنسب لواحد منهم تارة وللآخر تارة أخرى »[18] . ومن ثمة فان هذا الحسن يدلك على مكانة حنين بن اسحق بين أوساط تلامذته خاصة ، الامر الذي جعل من الباحثين في هذا المجال في ذلك الوقت ، أن ينسبوا الكتب التي ترجمها حبيش او غيره من أعضاء مدرسة حنين الى مؤسس هذه المدرسة ، حنين الحيادي . وفي هذا الصدد يذكر ابن النديم : « ان من سعادات حنين ، أن ما نقله حبيش بن الحسن الاعسم وعيسى بن يحيى وغيرهما الى العربية يشتمل ان حنين »[19] .

ومن ناحية أخرى ، فمن المعلوم أن حنين بن اسحق لم يكن ناقلا لنفسه فحسب ، بل ان معظم تلاميذه كانت تتم على يده من الناقلين

---

١٧ — وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤١٨ .

١٨ — The History of philosophy in Islam, p. 78. London 1980.

١٩ — الفهرست ، ص ٤٨٩ .

على رعاية حركة الترجمة وأزدهارها في هذا الوقت الخليفة المأمون ، الذي عهد الى حنين أن يتولى رئاسة بيت الحكمة ، حيث نقل حنين في هذا المكان القسم الأكبر من نقوله للمأمون ، وبخاصة الكتب الفلسفية التي كان المأمون مولعا بها ولعا شديدا . وفي هذا السياق يذكر الدكتور نبيه حتي : (وأول من رأس معهد بغداد ، أي بيت الحكمة ، كان حنين بن اسحق ... وكان يعاون شيخ المترجمين ، حنين بن اسحق ، في عمله ابنه اسحق وابن أخته حبيش بن الحسن الأعسم)[٢٠] . ومن جهة اخرى ، فقد كان عمل حنين في بيت الحكمة هو بمثابة المشرف العام على جميع الترجمات التي كانت تتم داخل هذا البيت ، حيث كان يتولى بنفسه اصلاح الترجمات التي لم تكن على مستوى الدرجة المطلوبة في الدقة والاتقان ، وذلك لمعرفته باللغات التي كانت تنقل منها اشهر المصنفات اليونانية والسريانية والعربية . وكان حنين في عمله هذا موضع تقدير وتكريم الخليفة المأمون الذي كان يثق به ويعتمد عليه في ترجماته ، ومما يدلنا على شدة اهتمام المأمون بترجمات حنين ، أن الثاني كان يأخذ من الاول ذهبا زنة ما ينقله له من المصنفات مثلا بمثل[٢١] . وهذا في الحقيقة يبين لنا شيئان هما في غاية الاهمية : اولهما اهتمام المأمون الفائق بالترجمة بصفة عامة وبتراث اليونان بصفة خاصة وثانيهما على مدى الجودة التي كان يتمتع بها حنين في ترجماته وشهرته في ذلك ، الامر الذي أصبح معه مميزا عن غيره ، ومتفضلا على غالبية عصره وحتى المشاهير منهم في هذا المجال .

لذلك يجب علينا أن لانتسى ذلك الدور الرائع الذي قام به حنين

---

٢٠ ـ صالمر الحضارة العربية ، ص ١٢٧ (بيروت ، ١٩٦٩) .

Makers of Arab History, p. 81, London, 1969.

٢١ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

في مجال ازدهار حركة الترجمة . والمتمثل في استيراد الكتب وكذلك محاولة بعث الحصول على المخطوطات اليونانية جلبها من بلاد الروم والعمل على ترجمتها . مما أدى الى رواج هذه الحركة والاستفادة من نتائجها بصورة مباشرة وسريعة .

وكانت رحلات حنين هذه تم تتبعه لطلب أبرز المترجمين على اثر هذه الحركة في هذا العصر . مثل الخليفة المأمون . وأبناء موسى ابن شاكر الذي استقدمهم حنين وعرفه خير رعاية . لعمل واسعهم الكثير من المستفاد[٢٣] .

ذكر ابن النديم : « دار حنين بن اسحق البلاد في جمع الكتب القديمة عدد واكثر نقوله لبني موسى »[٢٤] .

أما القفطي فيذكر في هذا المجال : « ودخل حنين الى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة بوصل في تحصيلها غاية امكانه ، واعتلم اليونانية عند دخوله الى تلك البقعات وتحصل تلاقي هذا العلم ، وجاد بالنقل بني موسى بن شاكر ، وغيره في النقل من اللسان اليوناني الى العربي وغرموا على ذلك الجزيل العظيم ، ولم يزل محظيا مكرما في زمانه مشارا اليه في هذا الشان الى أن توفي »[٢٥] .

ومن الذين قام حنين بنقل الكتب لهم الطبيب عبد الله الشيخوري ، حيث نقل له حنين عدة كتب في الطب[٢٦] ، كما نقل حنين بعض

---

٢٣ ـ الزيادي : أحوال كتب جالينوس وكتب جالينوس التي نقلها حنين من كتب جالينوس ص ٥ ، مخطوط منه رقم ٢٩٦ في المكتبة البلدية لجامعة اسكندرية .

٢٤ ـ الفهرست ، ص ٢٩٤ .

٢٥ ـ تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ .

٢٦ ـ أيضا : تاريخ الحكماء ص ٢١٨ .

الكتب للوزير العباسي محمد بن عبد الملك الزيات[٢٦] ، كما نقل حنين ليحيشوع بن جبرائيل كتبا كثيرة من كتب جالينوس الى اللغتين السريانية والعربية[٢٧] ، اضافة الى نقوله الفيه وباللغتين السريانية والعربية لجبرائيل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه .

ذكر ابن أبي اصيبعة : « ثم ان حنينا لازم يوحنا بن ماسويه ... ونقل له كتبا كثيرة وخصوصا من كتب جالينوس بعضها الى اللغة السريانية وبعضها الى اللغة العربية »[٢٨] .

ومن الامور الاخرى الواجب ذكرها في حديثنا عن نقول حنين البعض ممن كان ينقل لهم وارتباطه أشد الارتباط بأخلاقيه عدا الرجل ، هو ان حنينا — كما هو معلوم — كان يأخذ اجرا لقاء ترجماته تلك ، ولكنه نراه من ناحية ثانية يستغني عن دفع الاجر وينقل لهم دون مقابل ، وهو من الامور الغامضة والمشكل الذي عزاه واكرماه ، ولا مع ابناء موسى بن شاكر الذين اختصوه واجلوه ... ولكن مع ذلك اعدائه — ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال : طيفوري النصراني كاتب الخليفة المتوكل — والذين كانوا يكيدون له المكائد ، ويدبرون له الدسائس للتقبل من شأنه والتخلص منه ، وذلك بسبب المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها حنين بن اسحق عند رعاة حركة الترجمة ، سواء كان هؤلاء من الخلفاء ، او من كبار الحسبان في الدولة العباسية ، فرق حنين منهم (اي مع اعدائه) في عدوه وعداوة خلقه على طريق نصيص ، وبهذا الخصوص يذكر ان حنين بن اسحق : « ... وصرت أنقل لهم الكتب

---

٢٦ — ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٠ ؛ كراتشكوفسكي : أخبار الطبري ، ص ١١٧ .

٢٧ — ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، جـ ٢ ، ص ٦٢ .

٢٨ — عيون الانباء ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

على الرسم بغير عوض ولا جزاء ، وأسرع الى جميع محابهم بعد أن كنت لا تقف لأحدهم كتابا أخذت منه درهم [٢٩] .

ولكن على الرغم من الجهود الجديدة والكثيرة التي تحلى بها الطبيب حنين بن اسحق ، الا انه كأي انسان آخر ، لا يمكنه ان يكون كاملا في جميع حالاته ، وقد يخيل لنا ، ان حنين بن اسحق ، قد أصاب هنوة حين كان يعمد الى استخدام الحروف الكبيرة في ترجمته لكي الصنعة بأقل ما يمكن من عدد ذلك الكتاب المترجم ، وفي استخدام الورق السميك ليكون أكثر وزنا ، ومن ثم يكون الاجر مضاعفا ، ولكن على الرغم من ذلك ، فقد كان لهذا الاسلوب ايجابياته ، مما يخفف في نظرنا من وطأة سلبياته . ولكن هذه الايجابيات ، بانه لولا تلك الورق السميك والحروف الكبيرة ، لما استطاعت عين الترجمات ان تصمد كل هذه الفترة الطويلة من عمرها ، او ان تصل الينا : هذا اذا لم نجد الفن في هذا الاسلوب الذي لجأ اليه حنين في كتابة ترجماته ، وبهذا الصدد يذكر ابن ابي أصيبعة « ... وقد وجدت من هذه الكتب — اي التي اتسمت بالسمات المذكورة اعلاه — كتبا كثيرة ، وكتبا منها عتيقة ، وهي مكتوبة بحروف كبار ، وبخط عليظ في اسطر متفرقة ، وورقها كل ورقة منها بطاقة ، يكون من هذه الاوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات او اربع ... وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وكثرة ورقه لاجل ما يأخذ به من ورقه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ، ولا جرم ان خطه في هذه السير الشعارية من الزمان ما [٣٠] .

---

٢٩ — ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

٣٠ — عيون الانباء ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

وفي مجال الطب ، فقد كان لحنين بن اسحق ، شأن آخر لا يقل في أهميته عن شأنه في حركة الترجمة ، فقد كان علم الطب هو الشغل الشاغل لحنين في أول حياته ، وهو الذي اذيع به فيما بعد في العصور التي تلت وملع نجمه فيه ، واعني به دوره في حركة الترجمة .

لقد كان حنين بن اسحق طبيبا مبرزا بين أقرانه من أطباء عصره ، وان شهرته ودراسته في هذا المجال هي التي أوصلته الى بلاط المتوكل حيث كان يتمتع به ، كان حنين بن اسحق — كما يتبين لنا ذلك من دراسة ما خلفه لنا من مصنفات — يعتمد على التجربة والبرهان في اثبات آرائه ومعلوماته الطبية ، وان تجربته في هذا المجال تربأ بشكل جعل أن حنينا هذا كان خبيرا الى أبعد الحدود بتراكيب جسم الانسان الداخلية وتغيراته بتراكيبه الخارجية[٣١] .

ومن ناحية أخرى ، أود القول هنا : انه اذا اختلفت المصادر التي ترجمت لحنين في أمر ما ، فانها لم تختلف رأيها في هذه الناحية ، حيث أجمعت[٣٢] بصورة كلية ، على أنه كان امام وقته في صناعة الطب ، وان تأليفه في هذه الصناعة هي من أفضل ما تكون عليه التأليف في مثل هذه الأحوال ، وما ينقل عن المصادر سالفة الذكر وجدناه عند كافة

---

٣١ — والدلالة على ما أوردناه أعلاه راجع المبحث الخاص بمسائل حنين في مخطوطات الرياض وغيرها ، ص ٦ ظهر ، مخطوطة حنين رقم ٥٨ في مكتبة البلدية بالاسكندرية .

٣٢ — راجع ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٨ ، ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٩٦ ، القفطي : أخبار العلماء ، ص ٢١٢ — ٢١٨ ، القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٢١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ ، ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٦٢ (بيروت ، ١٨٩٠) .

المراجع[٢٢] التي عتمدنا عليها في بحثنا هذا وفي هذا الخصوص بالذات ، حتى أتاحت لنا فرصة بعثرته حتى في هذا المجال رجعنا وإليها .

وحري بنا هنا ونحن نتكلم عن حنين بن إسحق الطبيب ، أن نرجع قليلا الى الوراء ، الى أول عهد حنين ببداية الصنعة . وعندنا في ذلك ، أن هذه الفترة الزمنية من تاريخ حنين في هذا البحث ، رغبته في تعلم هذه المهنة ، كانت له أبلغ الأثر في نفسية حنين وتفسيره الأدبي على ممارستنا وفهمنا لكثير من العوائق التي اعترضت سبيله ، وكان له بالغ مدارات حتى أصبح الطبيب المفضل عند بعض من خلفاء بني العباس حتى عاصرهم حنين ، وكانت في أول عهد حنين بصناعة الطب وبجدها ، الفصل الذي يذكر في هذا الباب : « ... عما نشأ حنين بحب العلم فدخل بغداد ، وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه وبين يديه كتب كثيرة ، وهو عليه ، وكان حنين حاضر سؤاله ، وكان يشتهي على يوحنا ، فسأله في بعض الأيام مسألة فلم يفهم ، فغضب يوحنا وقال : يا لأهل الجهل والطب ، عليك ببيع الشونيز في الطريق ، وأمره بالخروج من داره ، فخرج حنين باكيا ، وسبب هذا العمل أن هؤلاء النسطوريين ، كانوا يعتقدون أنهم أهل هذا العلم وأنه لا يخرج عنهم وعن أولادهم وجنسهم ، وغاب حنين سنين ، ثم ذكر يوسف الطبيب[٢٣] ، أن حنين قال له : ذكر يوحنا بن ماسويه أنه كان من المحال أن يعلم أحد غيري ، فإذا بريء من دين النصرانية أن يمكنني أن أعلم الطب حتى أصنف

---

٢٢ ـ ومن هذه المراجع نذكر على سبيل المثال :

Arnold, The Legacy of Islam, p. 313 Seq. Id., The Faith of Islam, p. 182, Madras, 1968.

٢٣ ـ هو أحد الأطباء الذين عاصروا حنين بن إسحق ، وتنقل روايات يوسف هذا أحمد الشطي وابن أبي أصيبعة في كثير من المواضع التي تعرضنا كتاب تاريخ الحكماء ، وكذلك عيون الأنباء .

اللسان اليوناني ... ثم دخلت يوما على جبرائيل بن بختيشوع فوجدت عنده مصنفاً وقد ترجم له اقساما قسمها بعض الروم في كتاب من كتب التشريح لجالينوس ؛ وجبرائيل يعجبه بالتجويل ؛ فاغتنمت ما رأيت ، وبين ذلك جبرائيل مني ؛ فقال : لا تستكثر هذا مني في امر هذا الفتى ؛ فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن سرجس ... ؛ وسرجس هذا من نقلة علوم اليونانيين الى السرياني ، وخرج حنين من عنده ؛ ثم خرجت ، فاذا حنين قائم ينتظرني ... فاخرج من كمه نسخة وقال لي تدفع هذا الى يوحنا ، فاذ رأيته قد اشتد اعجابه بها ؛ فاعلمه أنها من اخراجي ، فعلت ذلك بين يدي ، فما قرأ يوحنا تلك الفصول وهي المسماة بالجوامع ، الا تعجب بها ، وقال : ترى هل اوحى الله تعالى في دهرنا الى أحد ؟ فقلت له : كيف ؟ قال : ليس هذا الا اخراج مؤيد بروح القدس ، فقلت : هذا اخراج حنين بن اسحق الذي طردته من مجلسك ... فحير رياسي الطب في اصلاح ما بينهما ؛ فصلحذلك الافضل عليه يوحنا وأحسن اليه ، ولم يزل أمره يقوى ، وعلمه يتزايد ، وعجائبه تظهر في النقل والتفسير حتى صار ينيوعا للعلوم ومعدنا

---

٣٥ ـ نقل كتبا كثيرة وكان متوسطا في النقل ، وكان سيء المصطلح نقله ، قد اتيته بنسخة جزء قيم الجيد ، وما بعده من مصلح فهو وسط ... وكان فاضلا ، وله مصنفات كثيرة في الطب والفلسفة ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، جـ ٢ ، ص ١٢ ، ١٣ ؛ كذلك ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ، ص ١٤٩ .

وسرجس المترجم هذا هو رأس طبيب مراقبي ، اتصل بالعلم الاسكندري ، ولم يقتصر في الترجمة على كتب الالهيات والاخلاق والكتب المنطقية بصورة خاصة ، بل شملت ترجمته فوق ذلك كتب الطبيعة وغير والفلسفة ـ وترجمه العربية ما ترجموه من كتب اليونان بأمانة في الجملة ، خصوصا ترجمته ـ

De Boer. The History of philosophy. p. 16.

دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ؛ القاهرة ١٩٥٧ ؛ ـ

للخضاب ، فلما انتشر ذكره بين الاطباء ، اتصل خبره بالخليفة ، فأمر بحضاره ، وما أحضر ، أقطع قطاعا سنيا ... وكان الخليفة يسمع عليه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور غيره ، وأحب أن يجربه ليرون رأي نفسه عليه ... فقد لي الخليفة أن ملك الروم ربما كان قد عنى قريبا من العيلة (بالاتفاق مع حنين بن اسحق أيام كان حنين في بلاد الروم) فاستدعى الخليفة حنين بن اسحق ، وأمر بأن يجمع عليه ، وأخرج توقيعا له فيه اقطاع يتسع على خمسين ألف درهم ، فشكر حنين هذا الفعل ، ثم قال له الخليفة : أريد أن تشتفي بي دواء يقتل سما أريد قتله ، وليس من أمكن اظهار هذا وربما سرا ، فقال حنين : ما علمت غير الادوية الناعمة ، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فان أحب أن أمضي وأتعلم عملت ، فقال الخليفة : هذا شيء سهل ، فلم يزل يرغبه ويعدده ، وهو لا يزيد على ما قال ان أن أمير يحبسه في بعض القلاع ويوكل به من يراعي خبره انه رقا بوقت ، فحبس سنة ، وكان في محبسه يتنى ويمس ويسنف وهو مهر ، كاتب بما هو فيه ، ولما كان بعد سنة ، أمر الخليفة باحضاره ، واحضار أعوان يرهبه بهم ، واحضار سيف وسائر آلات العقوبات ، ولما حضر ، قال له الخليفة : هذا شيء قد طال ، ولا بد لي مما طلبته لك : فان أنصفت فرت بهذا المال وكان لك عندي أضعافه ، وان امتنعت عاقبتك وقتلتك ، فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين اني ما أعلم غير الشيء النافع ولا عملت غيره ، قال الخليفة : فانني اقتلك ، فقال حنين : بي رب يأخذ حقي غدا في اليوم الأعظم ، فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل ، فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسا وثق بنا ، فهذا العمل انما كان لامتحانك ، لأنا حذرنا من كيد الملوك ، وأردنا الطمأنينة اليك واثقة بك لتنصح بعلمك ، فقبل حنين الارض وشكر له ، فقال له الخليفة : ما الذي سمعت من الاجابة مع ما رأته من سنين الاسر ما في العالمين ، قال

حنين : شيئان يا أمير المؤمنين ، قال الخليفة : وما هما ؟ قال حنين : الدين والصنعة ، قال الخليفة : وكيف ؟ قال حنين : الدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف فيمن بالأصدقاء ، والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على معالجتهم . ومع هذا فقد حمل في رهاب الأطباء عهد مؤكد بإتقان مغلظ ، أن لا يعطوا دواء قتالا ، ثم أن أخاف هذين الأمرين المرضين ، وعوقت نفسي على الفتك ، فان الله تعالى ما كان يضيع لي بذل نفسي في طاعته ، فقال الخليفة : لهذا ترغب جليلا ، وأمر بإطلاق ، فأفيضت عليه وحمل المال معه ، فخرج وهو احسن الناس حالا وجاها ، فانظر إلى سيرة الدين والعلم ، ما أجلاهما وأحسن مظهرهما وفخرهما »[٣٦] ، وفي رأيي أن نجاح حنين بن اسحق هذا انما يكمن في أن حنينا كان يحقق انسانه قبل كل شيء ، وكان حنينا قد حافظ على شرف وقسم مهنة الجنينة ، ولعل هذه الحادثة خير برهان على ذلك .

وهكذا يتبين لنا مما أوردنا آنفا ، أن سبب هذا ، قد أصبح بعد جهد ومثابرة ، الطبيب المفضل عند أستاذه الأول يوحنا بن ماسويه ، الذي يدلك قوله عنه رأي نموذجا من ترجمة حنين ، أن تلك الترجمة كانت في غاية الدقة ، وعليه فلا عجب بعد ذلك مما وصل اليه حنين من مكانة سامية عند رعاة حركة الترجمة ومن المثقفين ، العلماء ، وكبار الشخصيات في الدولة .

أما فيما يتعلق بمصنفات حنين بن اسحق ، فانها كانت كثيرة جدا ، بل ان مكانة حنين في هذا المضمار تحتم علينا أن نضعه في المرتبة الثانية

---

٣٦ ـ تاريخ الحكماء ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ . كذلك ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

من بعد الصوفي يعقوب بن إسحق الكندي ؛ ومن هذه المصنفات نذكر :

كتاب احتكام الأعراب على مذاهب اليونانيين (مقالتان) ـ المسائل في طب المتعلمين ؛ وزاد فيها حبيش الأعسم تلميذه ومن عدا الكتاب مرو مسطى بن عبد الله المروزي بحاجي خليفة ؛ وهذا الكتاب لم يجد لمبتدئين ... ثم راجعه حبيش فزاد فيه من عنده وأضاف إليه هذا الكتاب سموا بكتاب المسائل الصغير زاد فيه حبيش الأعسم ونقصوه بحسب عدد المسائل ما[37] ـ الجام (مقالة) ـ الذين (مقالة) ـ الأدوية (ثلاث مقالات) ؛ ويخصوص مؤلفات حنين في مصنفات الأغذية يذكر القطي ... وأما في الأغذية كتابا عجيبا ، وله في الأغذية كتاب على تدبير الصحة ؛ لم يسبق إليه أحد[38] ـ علاج العين (عشر مقالات) ـ تقسيم علل العين (مقالة) ـ اختيار الأدوية لعلل العين (مقالة) ـ علاج أمراض العين بالحديد (مقالة) ـ الآلات التي (ثلاث مقالات) ـ الأسنان واللثة (مقالة) ـ معرفة أوجاع المعدة وعلاجها (مقالتان) ـ في الحد والجزر (مقالة) ـ في السبب الذي صارت به البحيرة عذبة (مقالة) ـ الأدوية (مقالة) ـ في جزء على طريق المسألة والجواب (مقالة) ـ الدواوين لنهاية الأمر (مقالة) ، حمله لأمير والد المؤلف ـ الشراب (مقالتان) ـ العين على طريق المسألة والجواب (ثلاث مقالات) ـ ذكر ما يرجع من الشعب (مقالتان) ـ القرن وتوالده (مقالة)[39] .

---

37 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ٢ ، ص ١٩٦٨ ، (مصور ، ١٣٦٨ هـ) .

38 ـ أخبار العلماء ، ص ١١٨ .

39 ـ ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ، كذلك يمكن النظر : أخبار العلماء ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

ومن مؤلفات حنين أيضا : كتاب (المنهج سنجر في معرفة أسماء العقاقير)[40] ، وقد ذكر لنا حنين في مقدمة كتابه هذا ، الأسباب التي حفزته الى تصنيفه مما لا حاجة بنا هنا الى ذكرها .

كانت مؤلفات حنين متنوعة في مادتها ، فقد بحث في الطب ، والفلسفة ، والمنطق ، ولكن معظم مؤلفاته كانت تدور حول مهنته الأصلية وهي الطب ، وقد عكف حنين في مؤلفاته الطبية على ما ترجمه من مؤلفات لمشاهير أطباء اليونان مثل جالينوس ، وأبقراط ، وهي المؤلفات ذاتها التي ذلل أمامه خطى عمله حنين في ترجماته لتراث اليونان العلمي .

والجدير بالذكر هنا ، أن حنين بن اسحق ، كان أقدم طبيب عربي من بعد أستاذه يوحنا بن ماسويه — قد كتب في أمراض العيون بصورة علمية منظمة ، وكتابه (العشر مقالات في العين) ، هو الكتاب الطبي الأول الذي بحث في العين بأسلوب علمي دقيق ، وليس ذلك فحسب ، بل ان مؤلفات حنين في هذا القسم ، قد ظلت على مؤلفاته الطبية الأخرى ، ومن تصانيف حنين بن اسحق اليقسه الى الآن في هذا الصدد : كتاب (حكمة العين)[41] ، وكتاب (مسائل في العين)[42] .

ومن سيرات مؤلفات حنين في هذا المجال (علم العيون) ، ان البعض منها قد كتب عن طريق ما يعرف اليوم بأسلوب المدرسة الاجتماعية ، أو ما عرفه حنين باسم (طريق المسألة والجواب) ، حيث كان حنين يطرح السؤال أولا ثم يبدأ بالاجابة عليه ، ومن هنا جاءت

---

٤٠ — مخطوط تحت رقم ١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٢ في المكتبة العامة لجامعة الاسكندرية .

٤١ — مخطوط تحت رقم ٥١ في المكتبة العامة لجامعة الاسكندرية .

٤٢ — مخطوط تحت رقم ٢٤٤ في المكتبة العامة لجامعة الاسكندرية .

نسبة هذه المؤلفات بهذا الاسم ، وهذه الطريقة تساعد الى حد كبير في فهم مضمون العدد ، وبهذا الصدد يقول النعمي : « وكان حنين بن اسحق حسن الخبر في الترجمة والعلاج ... وله تواليف عدة بأربعة مختلفة ... ومسئلته على سبيل المسألة والجواب واحسن في ذلك »[٤٣] ومن مصنفات حنين على طريق المسألة والجواب : كتاب حنين بن اسحق في العين مائة وتسع مسائل ، ألفه لولديه : داود واسحق[٤٤] .

وعلى الرغم من ذلك ، فان طب العيون لم يكن هو الفرع الوحيد الذي كان اهتمام حنين فيه مجرد التأليف والعلم ، بل ما من قسم من أقسام هذا العلم الا وترك فيه صاحبنا أثرا مستقلا من خلاله على ما وصل اليه حنين من خبرة وكفاءة في هذا المجال .

ذكر ابو العباس احمد بن علي القلقشندي : « ... ولم يترك حنين ابن اسحق مجالا في الطب الا وسلكه وصنف فيه الكثير من المؤلفات ، ومن هذه المجالات التي سلكها حنين في مجال الطب هو الطب البصري وله فيه تصنيف يدعى[٤٥] .

أما فيما يتعلق بكتبه الفلسفية والمنطقية ، فهي الاخرى على جانب كبير من الاهمية كما ونوعا ، وقد كان لا بد لحنين من تراث يوناني ليهضمه ، ثم يعيد كتبه في قالبين اصطلين ، ومن جهة ثانية ، فان شهرة حنين في هذا الجانب قد بلغت حدا ، اشتهر معه بنقل البعض من

---

٤٣ ـ أخبار الحكماء ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

٤٤ ـ مخطوط تحت رقم ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٧ في المكتبة العامة بجامعة الاسكندرية .

٤٥ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج ١ ، ص ٤٧٤ (القاهرة ١٩٦٢) .

المصادر[٤٦] : من العلماء بالفلسفة .

وفي بحثنا لمؤلفات حنين بن اسحق ، يجب علينا ان لا نغفل ما ذكرته المراجع بهذا الشأن ، حيث أشادت جميعها بذلك الدور الذي مثله حنين بن اسحق في اغناء المكتبة العربية بأهم المصنفات التي اعتمدها في حياته العلمية وأهمية ذلك على الحركة الثقافية في عصره والعصور التالية لـه .

لقد جمع حنين في حياته بين أبرز عنصرين امتاز بهما القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي من الناحية الحضارية ، وأعني بهما الرحلة والتأليف ، وقد استطاع ان يوفق بينهما محققا بذلك مجدا علميا قل من تمكن من تحقيقه .

ومن الأمور الأخرى التي يجب على الباحث ان يتعرض لها في سياق بحثه لهذه الشخصية العربية ، هو ما ورد عند ابن جلجل بخصوص العلاقة التي ربطت بين حنين بن اسحق والخليل بن أحمد الفراهيدي ، حيث يقول : « ... وذهب حنين من بغداد الى أرض فارس ، وكان الخليل بن أحمد النحوي بأرض فارس فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب ، وأصل حنين بن اسحق العبادي كتاب العين — وهو أحد الكتب التي صنفها الخليل بن أحمد — الى بغداد ... »[٤٧] .

والجدير بالملاحظة هنا ، أن ابن جلجل في قوله هذا قد وقع في خطأين اثنين : أولهما عندما قال ان الخليل بن أحمد كان بأرض فارس ، وثانيهما عندما ذكر عن ملازمة حنين بن اسحق للخليل بن أحمد وتتلمذه

---

٤٦ ـ صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، ص ٠٠ ؛ الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٥ ؛ السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٢ ، ص ٢٧ ؛ القاهرة ، بدون تاريخ) .

٤٧ ـ طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٦٨ .

العربي بدية ، فبالنسبة للخطأ الأول : فمن المعلوم أن الخليل بن أحمد كان بأرض البصرة وليس بأرض فارس كما قال ابن خلكان ، وعن كتابه نقل الخبر جميع الذين ترجموا لحنين من المتأخرين والمحدثين ، غير أن معظمهم قد ذكروا أن لقاء الرجلين كان في البصرة لا في فارس ، لأن الخليل بن أحمد لم يدخل في حياته ، وبهذا الخصوص يقول صاعد الأندلسي : « ... وتعلم العربية في البصرة من الخليل بن أحمد ... ولم ينل الخليل بن أحمد بأرض فارس وإنما كان بالبصرة »[48] .

أما بالنسبة للخطأ الثاني : فالصحيح هو أن كلا الرجلين : حنين بن اسحق والخليل بن أحمد لم يلتق في حياتهما قطعا ، وذلك بسبب أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان قد توفي سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م ، كما جاء ذلك عند ابن النديم[49] ، وبعظم المصادر الأخرى التي ترجمت له ، في حين أن تاريخ ميلاد حنين بن اسحق لم يكن موجودا في هذه السنة ولا حتى في السنين السابقة لأنه لم يكن قد ولد بعد ، لأن ولادته كانت في سنة ١٩٤ هـ/٨٠٩ م ، أي بعد مرور أربع وعشرين عاما على وفاة الخليل بن أحمد ، ومن البديهي بالتالي كل منهما بالآخر وبالحالة هذه من المستحيل الجمع بين وفاة الخليل وولادة حنين ، ومهما يكن من أمر في الحقيقة ما كان قد نبه له ونبه عليه المؤرخ صاعد الأندلسي ، فقد عقب على هذا الخبر بقوله : « ولم ينل الخليل بن أحمد بأرض فارس وإنما كان بالبصرة وتوفي بها في سنة سبعين ومائة »[50] ، وبين وفاته ووفاة حنين المذكور اثنتين سنة ، انظر[51] ، ويذكر هذه العبارة بنفرد صاعد

---

٤٨ ـ طبقات الأمم ، ص ٥٧ ، نقلا عن ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

٤٩ ـ الفهرست ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، ٨٠ ، نقلا عن القرشي : أبو الصابر أحمد بن عبد الغني : مقامات الحريري ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٥٠ ـ طبقات الأمم ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

الاندلسي بين جميع المصادر التي ارخت لرجلين ، ومن جهة أخرى ، فان قول صاعد الاندلسي عندما يفيد ، في ناحية أخرى هي في غاية الاهمية. ونعني بها تحديد سنة الوفاة لحنين بن اسحق ، حيث عند صاعد الاندلسي الفترة الزمنية بين وفاة الخليل ووفاة حنين بتسعين عاما ، وما كانت وفاة الخليل هي في سنة ٢٧٠ هـ ، فان اضافة التسعين عاما — التي هي فرق الوفاة بينهما — الى سنة ٢٧٠ هـ ، يكون الناتج لدينا يساوي سنة ٣٦٠ هـ/٨٧٣ م ، وهي السنة التي توفي فيها حنين بن اسحق وكما ذكر ذلك ابن النديم ، والقفطي ، وابن خلكان .

اذن يتبين لنا مما تقدم ، أن ما أورده ابن جلجل عن اللقاء بين الخليل بن أحمد وبين حنين ابن اسحق ، ما هو الا وهم تاريخي وقع فيه ونقله عنه من جاء بعده من المؤرخين . ولم يلتفتوا الى ذلك سوى صاعد الاندلسي الذي يبين لنا تنوه المذكور آنفا مبلغ تعجبه ودهشته من هذا الخبر ، ولو أن صاعدا ذاته قد أورد ذات الخبر الذي ذكره ابن جلجل ، الا أنه لم يذكره كما ذكره غيره من المؤرخين كالقفطي ، وابن أبي أصيبعة ، وابن العبري ، واستعقب على ذلك بقوله الذي أوردناه آنفا والذي يوضح اللبس والغموض في هذه الرواية .

ومن جهة أخرى ، فان هناك عدد لا يستهان به من الباحثين المحدثين الذين غفلوا عن هذا الموضوع كما نقل من قبل من بحث في تاريخ حنين من المؤرخين الاوائل . ومن هؤلاء الباحثين نذكر لا على سبيل الحصر الاستاذ أحمد أمين الذي يذكر بهذا الخصوص : (... ثم عاد حنين الى البصرة ولازم الخليل بن أحمد وأخذ عنه العربية)[٤١] . ومثل الاستاذ أمين ، الدكتور عمر فروخ الذي يقول في هذا المجال :

---

٤١ — ضحى الاسلام ، جـ ١ ، ص ٢٨٣ (القاهرة ١٩٥٦) .

(ديسقوريدس في العربية على يد اصطفن بن باسيل) [٤٢] .

والخلاصة ، فقد كان حنين بن اسحق ، قبلا لاحدا ، استطاع أن ينقل الى اللغتين السريانية والعربية ، أهم تراث اليونان الطبي والعلمي ، وحنين بن اسحق ، هو أول من أسس مدرسة خاصة للترجمة ، تأخذ على عاتقها تعريف العرب بما حوته الحضارة اليونانية من مؤلفات قيمة في شتى صنوف العلم ، فكان بذلك قدوة لكل من يعتدي بشأنه في هذا الميدان ، وكان ثابت بن قرة المترجم ، هو أول من تلمذ حنين في مدرسته هذه ، فأسس مدرسة مماثلة ، جمعت بين أعضائها أشهر أطباء وفلكيي مدينة حران .

وان نظرة سريعة على أسماء المصنفات التي نقلها حنين بن اليونانية الى السريانية أو العربية ، ينبين لنا أهمية ذلك العمل الذي أنجزه حنين في مجال الترجمة ، وان ما اصطلح على تسميته بجامعيل لواء حركة الترجمة[٤٣] ، أو عبيد المترجمين[٤٤] ، أو شيخ المترجمين[٤٥] أو بن

---

٤٢ ـ تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١١٧ (بيروت ، ١٩٧٠) ؛ خلف ابو ريان ، محمد علي : تاريخ الفكر الاندلسي في الاسلام ، ج ١ ، ص ٩٢ (بيروت ، ١٩٧٠) ؛ الملوف ، عيسى : تاريخ الطب عند العرب ، ص ١١ (بيروت ، ١٩٣٥) .

Khuda Bukhsh, Sulchuddin, Contributions to his History of Islamic Civilization, Vol. I, p. 28, Calcutta, 1929. Tritton, A. S. The Caliphs and their Non Muslim Subjects, p. 167, London, 1970

٤٣ ـ بدوي ، عبد الرحمن : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ص ١١٨ (القاهرة ، ١٩٥٦) .

٤٤ Bertram, Thomas, The Arabs, p. 199, London, 1937.

٤٥ Hussin, A. Q. Sayid, Arab Administration, p. 210, Lahore, 1961.

مشاهير النقلة[٥٦] ، او من آكابر المترجمين[٥٧] ، الى غير ذلك من اسماء اطلقها الباحثون على حنين بن اسحق ، لم تكن اسماء لمجرد الاسم ، بل هي تنطوي على معنى مادي ومعنوي اكشف حياة حنين ، وان كل متتبع لسيرته سيجب حتما من ذلك التراث الكبير الذي خلفه حنين بن اسحق ، سواء أكان ترجمة ام تاليفا .

وأخيرا ، فكرة اجلال واحترام لذلك الرجل الذي عمل دون كلل أو ملل في سبيل انعاش حركة الترجمة وازدهار الحضارة ، ذلك هو الانسان والطبيب والمترجم والفيلسوف حنين بن اسحق العبادي .

* * *

٥٦ ـ See, The Faith of Islam, p. 182.

٥٧ ـ Barnold, V. V., Mussulman Culture, p. 14, Calcutta, 1934.

الرياضيات الكلية عند ليبنتز

بقلم :

الدكتور جعفر الشكرجي

أستاذ مساعد في قسم علم المعلمين

كلية الآداب والتربية

جامعة قاريونس

الرياضيات الكلية عند ليبنتز

بقلم : الدكتور جعفر شكرجي

يقصد الفيلسوف والرياضي الالماني جوتفريد ليلهلم ليبنتز من وراء مشروعه في الرياضيات أو (G. W. Leibniz ١٦٤٦ ــ ١٧١٦) الخصائص الكلية Universal Mathematics or Characteristics ايجاد لغة رمزية يمكن ان تعطينا اذا ما استخدمناها في اي علم من العلوم نفس النتائج التي تعطيها لنا علوم العدد والكم ، وتعطينا أيضا منهجا برهانيا نستطيع أن نفكر بواسطته في الميتافزيقا والاخلاق والعلوم الاخرى بنفس الطريقة الموجودة في الهندسة والتحليل .

وشجعه على طرح مشروعه هذا ما لاحظه من أن المناهج الفلسفية المعاصرة له راسبة عليه لم تزد ــ من وجهة نظره ــ الا الى مفاهيم ميتافزيقية غامضة وتعريفات سهلة ونتائج متناقضة وبدايات غير ثابتة ، وما لاحظه أيضا من أن المناهج الرياضية ، التي استخدمها الفلاسفة والعلماء من أجل الوصول الى نتائج واضحة ويقينية ودقيقة لم تزد الا الى نتائج معاكسة لهذه الخصائص ، لعدم مقدرتهم على تطبيق هذه المناهج بدقة وصراحة .

وعلى الرغم من أن دافع ليبنتز الاصلي كان اقامة ميتافزيقا محكمة واخلاق متينة تؤسس عليها ، فان مشروعه في الرياضيات الكلية كان يهدف

أساسا الى وضع أسس عامة ومرنة لكل العلوم والمعارف ، وأن تتبع منهجا برهانيا . اذ كان مؤمنا أشد الايمان أنه لا يوجد سوى علم واحد ، وأن تقسيم المعرفة الى علوم فرعية غير دائم على مبدأ منطقي ، وبالتالي ليس بحد ضروري بين أجزاء جميع العلوم[1] .

وهدف ليبنتز البعيد هو تطوير المعرفة ونشرها . فمشهد العلماء يرحل المعرفة وهم يتابعون دراساتهم ، كل واحد منهم في عزلة عن الآخر ، مع الالم تبين جدا ما أنجز في الماضي ، وربما يحدث في الاعمار الاخرى ، قد ازعجه . وتكمن المشكلة الكبرى هنا في ان كثيرا من نتاج العلماء اقل خصوبة مما ينبغي أن يكون ، لعدم وجود طريقة تسجيل النتائج لتكون متاحة بسهولة للعاملين في نفس الميدان ، كما انها اقل خصوبة مما ينبغي بسبب عدم وجود طريقة لتسجيل النتائج ، بحيث يمكن لهذه النتائج أن تطور بيسر ، ونجد أكثر من هذا أن مثل هذه الاجزاء من اعمالهم ، التي ينبغي ان تعرف عادة وان تستخدم على نطاق واسع ، غير متيسرة لعامة الناس لصعوبة الالمام بها من قبل العلماء . كذلك كان من الضروري ايجاد طريقة تتوج بتسجيل نتائج البحث العلمي تكون متيسرة لناس من كل الاوطان ، ويمكن تطويرها بسهولة بالتفكير الانساني ، وتكون في الوقت نفسه سهلة الفهم لعامة الناس . من هذا نجد أن نقد وضع العلوم والمعرفة جعل مشروع الرياضيات الكلية ضرورة ماسة ، وتستخدم هذه الرياضيات بالشروح الاولى من أجل تظافر جهود العلماء لهدف واحد شامل ، وبدأ بأرقام ذات قيمة برهانية ، ثابتة ، لن تسمح الا بشيء قليل من الاختلاف كالحساب والهندسة ، وتحل كل المناقشات بالحسابات الدقيقة التي

---

1 — Leibniz, The Harmony of Human Doctrine, After 1690. In Leibniz : selections Edited by P.P. Wiener. New York 1951, p. 25.

يتصف بها هذا العلم[٤] .

* * *

ولم يعرض ليبنتز مشروعه في الرياضيات الكلية في مؤلف واحد بشكل متكامل ونهائي ، وانما كشف عنه خلال فترة طويلة في عدد كبير من بحوثه ومقالاته ورسائله ، كما هو الحال تقريبا في كل جزء من اجزاء نظامه الفلسفي ، ومن ثم كانت مهمتنا في هذا البحث هي اعادة بناء رياضياته الكلية في صورة تعتمد أهدافها التي كانت في ذهن فيلسوف أو على الاقل أقرب ما تكون منها ، معتمدين أولا على أعماله الاساسية ثانيا من شراحه .

ومن الضروري أن نشير الى انه لم تعرض فكرة من أفكار ليبنتز الاساسية لهذه العديد الى حد السخرية منها ، كما تعرضت فكرته في الرياضيات الكلية ، لذا حاولنا أن نذكر بايجاز شديد آراء بعض الباحثين حولها ، ثم عكفنا دراستنا بالتعقيب على هذه الآراء وعلى ذلك الفكرة[٥] .

عناصر الرياضيات الكلية

١ ـ رد المعرفة الى مبادئ اولية :

أكد ديكارت في رسمه طبيعة المعرفة الشاملة انذا ان امتلك بعض مبادئ العلم فقط ، وعرفنا كيفية القيام بالاستنباطات الضرورية

---

٤ ـ See A - McRae R, The Problem of the unity of sciences Bacon to Kant, Toronto, 1961. pp. 69 - 70

B - Zee R. L. Leibniz London 1951. p.p. 207 - 208

٥ ـ للمزيد من التفاصيل حول الموضوع يراجع الفصل الثاني من رسالتنا الاسس الرياضية لميتافيزيقا ليبنتز ، رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

فاذا تمسك بالقوة وداننا كل ما يرغب في معرفته وبالتالي فان العقل يتحرر من التفاصيل[4] .

تتمثل هذه الفكرة امام اختراع ليبنز وفي ما كتبه على ان كل الباحثين يساهمون في الرياضيات او الخصائص الكلية بايجاد مبادئ، علومهم الخاصة ، ومتى اكتسبت هذه المبادئ مع العلم الشامل ، عندئذ تكون في وضع كاف لاسترداد ان بعضويات تلك العلوم في حالة طيبة[5] ، اذن ترد الرياضيات الكلية كل المعرفة الضرورية اي اجزاء بسيطة او سهلة القياد ، تجعل العقل متحررا من عبء تكمل المعرفة[6] .

بأية وسيلة نصل الى المبادئ ؟ وما خصائصها ؟ ثم اذا حصلنا عليها فما الاداة التي نستطيع بواسطتها ان نحافظ عليها من الغموض او الابهام الذي نتعرض له اثناء تاديته ؟ ثم ما الطريق السوي الذي نسير على هديه للوصول الى المعرفة الجديدة ؟ وما المنهج الملائم لاشتقاق النتائج التي نصبو اليها ؟

ولم يدع ليبنز ان العقل يمتلك الوسائل دون ان يضع له قواعد تبين له الطريق الصحيح وتهديه على الهدف المنشود ، اذ ان الحكمة هي المعرفة الكاملة لكل العلوم وفق تطبيقها[7] .

ويتطلب من العقل الجيد على القواعد الآتية :

١ — يجب عدم قبول اية شيء على انه صادق ما لم يتبين عن مشكوك فيه بجلاء .

---

4 — Mahnke. op. cit. pp. 17 - 18

5 — Ibid.

6 — Leibniz. Principia ad Adversing the sciences and Arts, 1690, werner pp. 40 - 41, 44

7 — Leibniz. On wisdom, c. 1693, werner p. 77

٢ — وفي حالة عدم توفر الوسائل الضرورية للوصول الى هذه الثقة : ينبغي حينئذ الاقتناع بالاحكام الاحتمالية ، والنظر في الوقت نفسه وضوحا اكثر ، مع التمييز بين درجات في الاحكام الاحتمالية .

٣ — وفي حالة اشتقاق حقيقة من حقيقة اخرى ، من الضروري المحافظة على عدم تقاطع السلسلة الذهنية . فعلى سبيل المثال اذا كانت أ هي ب ، و ب هي جـ ، و جـ هي د ، فان أ هي ب . فهذه السلسلة المترابطة تعلمنا ان لا نضع في النتيجة اكثر مما هو موجود في المقدمات .

ان ليبنتز هنا يجعل قواعد ديكارت في المنهج نقطة البداية لبناء رياضياته الكلية ، التي تعني ان تجعل كل العلوم برهانية . فلنسر معه في بنائها مستهديا ببادىء ومناهج الرياضيات ، ومستفيدا منها دافعا قويا ، وسيكون هذا بالاجابة عن الاسئلة التي اثرناها آنفا .

ب — التحليل :

لكي نرجع العلوم والمعارف الى مبادىء اولية لا بد من منهج معين لبلوغ هذه الغاية ، وهذا المنهج هو التحليل ، وهو قائم على أن تصورات مركبة اساسا ، وعلى اننا نستطيع ارجاع التصورات الى تصورات بسيطة بالتحليل المستمر حتى نصل الى تصورات لا يمكن ردها الى أبسط منها ، فلكي نقيم متقدمات صحيحة لا بد من تحليل كل الافكار المستخدمة الى افكار بسيطة ، تشكل مبادىء الفكر البشري[٨] .

وتنبثق هذه الافكار البسيطة ، اضافة الى عدم مدركنا عن تحليلها

---

8 — See : Leibniz, Of the Art of combination, 1666, in «Leibniz Logical papers» translated by G. H. R. Parkinson, Oxford 1966, p. 4
See also :

Leibniz, The Art of Discovery, 1685 Wiener p. 51.

الى أبسط منها ، باستدلالها المنطقي ، وبكونها منسجمة فيما بينها ، بحيث لا يمكن أن نجد في مبادئ المعرفة البشرية مفهومين بسيطين يناقض احدهما الآخر . لا أن ذلك يقتضي أن يكون مسرد المبادئ أوليا وكاملا ، وأن تكون مراعاة كل الارتباطات الممكنة مؤكدة[٩] .

ج — الترميز :

ليس كافيا ارجاع العلوم وتصاريفه بمنهج التحليل الى مبادئ بسيطة غير قابلة للتحليل الى أبسط منها ، وتتصف باستدلالها المنطقي وفي أنها منسجمة فيما بينها ولا يناقض احدهما الآخر ، بل لا بد من وسيلة للتعبير عنها بوضوح وبعيدة كل البعد عن كل لبس وغموض ، وتيسر علينا القيام بالاستدلالات الضرورية منها . ولا يمكن للغة الحياة اليومية ان تفي بهذا الغرض ، بسبب غموضها وعدم قدرتها على التحديد الدقيق للحدود الاول . فلم يبق اذن الا المنهج الرمزي ، ذلك بان لرمز للحدود الاول ، الذي هو تركيب تماثل كل الاشياء الاخرى ، برموز ، وهذه الرموز هي نوع من المبادئ الاولية[١٠] .

من المفيد ، اذن ، افتراض رموز للعلوم ، لتتمكن من القيام بمجموعة استدلالات كثيرة من افتراضات قليلة . وذلك بان نسند الرموز الى أبسط مبادئ التفكير[١١] .

---

8 — A. Ishiguro, H., Leibniz's philosophy of Logic and language cornell, 1972, p. 40.

B. Kneale, W. and M., The Development of Logic. Oxford, 1962, p. 326.

10 — Leibniz, Of the Art of combination, 1666, Parkinson p. 11.

11 — Leibniz, Specimen of the universal Calculus, 1679, pp. 85 ? Parkinson pp. 33, 34.

والترميز وسيلتان هما : الاعداد والحروف الهجاء . وكان فيلسوفنا مترددا بين استخدام الاعداد واستخدام حروف الهجاء . فتارة يرمز الى التصورات الاولية بالاعداد وتارة أخرى بحروف الهجاء . ويبدو أنه كان يميل الى الطريقة الاولى ، فمثلا اقترح في مقالته الاولى عن فن التركيب ترميز الحدود الاولية بالاعداد بقوله « دع الحدود الاولية ان شئت لها بالاعداد »[12] كما استخدم الاعداد الطبيعية ، بسبب يقينها وسهولة معالجتها ، ولانه بهذه الطريقة يكون واضحا للعين أن كل شيء مؤكد ومحدد فيما يخص التصورات كما هو الشأن في الاعداد .

والطريقة الوحيدة لكشف الاعداد الرمزية اللازمة — بغير ليبنتز — هي كما يلي : عندما يكون تصور حد معين مؤلفا من حدين بسيطين او أكثر ، فان العدد الرمزي لهذا الحد ينتج بحاصل ضرب الاعداد الرمزية للحدود البسيطة التي تشكل تصور الحد المذكور ، فمثلا لدينا العقلية والانسان حيوان عاقل ، فاذا افترضنا أن عدد الحيوان (ح) هو ٢ ، وعدد عاقل (ع) هو ٣ ، فان عدد الانسان (أ) سيكون نفس عدد (ع ح) وهو في هذه الحالة ٢ × ٣ أو ٦[13] .

وتكون مجموعة الرموز ، المعبرة عن كل افكارنا ، لغة مميزة يمكن كتابتها والتحدث بها ، وهذه اللغة صعبة البناء ، ولكن من السهل جدا تعلمها ، كما أنها يمكن أن تقبل سريعا — كما يرى ليبنتز — من قبل كل شخص فقرا لبساطتها الطبيعية وسهولتها المدهشة وامكانية استخدامها في الاتصال بين مختلف الناس . وهؤلاء الذين يكتبون هذه اللغة لا يقعون في الاخطاء ، فضلا عن انهم يجتنبون أخطاء الحساب والكلام غير الفصيحة واخطاء النحو والاخطاء الاخرى في القواعد والبناء .

---

12 — Leibniz, On the Art of combination, 1666, Parkinson p. 4

13 — Leibniz, Elements of a Calculus, 1679, Parkinson pp. 17-18.

وها أيضا خاصة لسكان المجهلات ، اذ أنهم عندئذ لن يتمكنوا من الكلام او الكتابة عن شيء ما ، ما لم تكن واضحا لديهم[14] .

د ـ البرهان والاستنباط :

كان فيلسوفنا يرمي الى هدف معين ، من وراء تحليله للمعرفة البشرية الى حدودها الاولية ، ومن وراء محاولته ترميز هذه الحدود ، وهو اعطاء المعرفة بكل انواعها شكلا برهانيا كالذي تمتاز به العلوم الرياضية وتقربها منه . البرهان ، اذن ، هو الترميز الذي هو عبارة عن تنظيم القضايا في ترتيب متعاقب ، بحيث يتسنى البرهان على القضايا من القضايا الاخرى بطريق مرتب[15] .

ويوجد البرهان فقط في العلوم الرياضية ، لانها تحمل معها اليقين من نتائجها ، والسبب الذي يؤدي بالعقل الى الوقوع في الخطأ بسهولة خارج نطاق الرياضيات ، هو اننا في الوقت الذي نستطيع في الهندسة والفروع الاخرى من الرياضيات المجردة ان نخضع التجارب والاختبارات ليس فقط النتيجة ولكن أيضا في أية لحظة كل خطوة نخطوها ابتداء من المقدمات ، وذلك برجاع كل شيء الى الاعداد ، فاننا نجد في الفيزياء ان التجربة كثيرا ما تفند النتيجة ، بعد القيام بعدد كبير من الاستنباطات ، كما انها لا تسمح هذه الاستنباطات ولا تشير الى المكان الذي أخطأنا فيه ، ويحدث أسوأ من ذلك في الميتافزيقا والاخلاق ، اذ لا نستطيع في أحوال كثيرة ، ان نخضع للتجارب أي نتيجة من النتائج الا باسلوب غامض جدا ، وفي معالجتنا لمادة الميتافزيقا نلاحظ ان التجربة كثيرا

---

14 — Leibniz Preface to the General science, 1677, wiener pp. 16 - 17.

15 — Leibniz, Towards a universal Characteralic, 1677, wiener p. 19.

ـ تكون مستحيلة بدون عيان[16] .

والمنهج الذي تمكن بواسطته من تصحيح استنباطات في الحساب والهندسة والاخلاق هو أن نحيلها بنفس يقين استنباطات الرياضيين ، وبهذه الطريقة نستطيع الكشف عن الخطأ بنظرة سريعة ، وفي حالة قيام نزاع نقول ببساطة : دعونا نحسب Let us calculate دون ضجة أخرى، لنكتشف من هو على صواب ، والسبيل الى هذا الهدف هو استخدام الرموز الملائمة ـ كما يستخدمها الرياضيون ـ لتثبيت افكارنا واضافة برهان الصدق اليها[17] ، ويعتقد ليبنتز : بعد التفكير في الاخلاق أو الميتافيزيقا أو الطب أو الميكانيكا الى هذه الرموز ، يمكننا في أية لحظة أن نعلم الاخطاء المتبقية بشكل يتعين معه الخطأ الا بتعمد .

هـ ـ التركيب :

لاحظنا آنفا أن ليبنتز نظر الى العلم الرياضي باعتباره مثلا لكيفية ترتيب القضايا والبرهنة عليها استنادا لاعتماد بعضها على بعض ، وقد ظن ان الشيء نفسه يمكن القيام به في كل موضوعات المعرفة اذا أحرزنا المقولات الحقيقية للحدود البسيطة عن نحو تام ولبثنا المبادئ الاولية للافكار التي منها تؤلف المفاهيم الثانوية[18] .

نميز هنا بين وجهين في المنهج الذي عنده فيلسوفنا لهذا الغرض ودعاه منهج التحليل والتركيب معا ، يهدف الوجه الاول الى حل المبادئ الى مبادئ أبسط حتى نصل اخيرا الى المفاهيم الاولية ، أما

16 — Leibniz, The Art of Discovery, 1685. Wiener p. 51

17 — Ibid. pp. 51 - 52.

18 — Leibniz On Universal Synthesis and Analysis, 1679 (?) In «Leibniz : Philosophical Papers and letters» translated by Leroy E Loemker, Dordrecht - Holland, 1969. p. 228

وجهات التي ترمي الى رد المفاهيم البسيطة لتكوين مفاهيم مركبة[19]، والجزء الاول ضروري لتحليل المبادئ ، والآخر لتركيب المفاهيم البسيطة في مفاهيم مركبة تزداد تركيبا وأكثر تعقيدا .

اذن منهج التحليل والتركيب اساسي في منهوم الرياضيات الكلية لعرض المفاهيم الاولية ، فالتحليل يعرض ان يؤدي الى كشف او اختراع هذه المفاهيم ، ويتم التركيب بعد ذلك الى صنعها في مفاهيم مركبة باستخدام قواعد الربط المختلفة[20] .

وعلى ذلك يتوقع فيلسوفنا تنظيم جميع الحقائق في علم ، أو تشييد نظام اساسي يحتوي على مبادئ المعرفة البشرية ، وهذا هو هدف منهج التحليل والتركيب الكلي .

وترتكز منهج الذكر على كون المفاهيم اما اولية او مشتقة ، فالمفاهيم الواضحة تكون اولية ويمكن بداتها دون اية ادلة لاي تحليل آخر ، اما المفاهيم المشتقة فهي نتيجة تركيب المفاهيم الاولية او تركيب المفاهيم الاقل تعقيدا ، وقد ذكرنا سابقا ان ليبنتز كان يميل الى ترميز المفاهيم الاولية والمشتقة بالاعداد ، اذ تاليف المفاهيم يكون مشابه لضرب الاعداد الصحيحة ، لا يمكننا بعد تعيين الرموز العددية المحددة للمفاهيم الاولية والبسيطة ، ان نعرض الرمز المشتق بحاصل ضرب الاعداد الذي المفهوم المشتق يكون ٢ × ٣ = ٦ ، حيث ان العددين ٢ و ٣ يتعرفان بسهولة

---

19 — Ibid, p. 290.

20 — Parkinson G. T. Leibniz Metaphysics and his Theory of Universal Science, Article in International Philosophical Quarterly No 3, 1961, p. 358.

21 — Lalande, Elements of Leibniz, 1909, Parkinson op. 17 - 18. See also : Introduction of Parkinson's translation, p. XXI.

وباستلاك مهرس الافكار البسيطة ، نكون على استعداد ان نبدأ قبلياً مرة أخرى لتوضيح أصل الاشياء ، وبدء بالانطلاق من مصدرها في ترتيب تام وتركيب كامل بشكل مطلق . . وذلك هو ما يستطيع فوسا آن تصفه في حالته الراهنة »[22] ، كما يقول ليبنتز .

الرياضيات الكلية والفلسفة

و فحص جيد ما كتبه ليبنتز عن الرياضيات أو الخصائص الكلية لوجدنا أنه ينسب اليها وظيفتين ، تهدف الاولى منهما الى عرض براهين الوجود Existence وتركيب المصدر الالهي للاشياء كلها ، وتهدف الوظيفة الثانية الى تعزيز الفنون والعلوم وترتبط مع اهتماماته العلمية ، اذ اعتبرها مصدر كل كشوفه في رياضيات وعلم الطبيعة وعلم طبقات الارض والميثولوجيا والفنون والتكنولوجيا[23] .

ويمكن أن نميز في الخصائص الكلية جزأين أساسيين ، الاول : نظام الرموز البسيطة ، التي تمثل المفاهيم الاولية والتي لا ترد الى غيرها ، والجزء الثاني : الاستنباط ، الذي يضم قواعد رد كل الافكار المعقدة الى أفكار بسيطة وقواعد ربط الافكار البسيطة بعضها مع أفكار معقدة ، فالجزء الاول يمثل بالمعادلات الاساسية لكل العلوم ، والآخر يمثل بقواعد ربطها ، وبهذا تكون الخصائص الكلية عند فيلسوفنا ظاهرة ميتافيزيقية وأداة للبرهان والاختراع[24] .

---

22 — Leibniz, On Wisdom, c. 1686, Wiener p. 83.

23 — See Wiener's introduction of his translation, pp. XIX - XX

24 — Wiener, p.p., Notes on Leibniz' conception of logic and its Historical concept. Article in «The Philosophical Review» No. 6, Vol. XLVII, November, 1938, p.p. 672 - 680.

وقد أكد بيبر على اتساع الرياضيات الكلية لميتافزيقا بقوله :
« إن المذهب المجرد للرموز هو الخصائص الكلية للميتافزيقا »[٢٥].

ومع أن علماءنا قد اعتقد أن الرياضيات الكلية يمكن تعلمها بسهولة ، إذ اقترح في أحسن الظروف بأن تعلمها لا يستغرق سوى عدة أيام[٢٦]. فإنه مع ذلك اعترف بصعوبة بنائها[٢٧] ، ورغم أنه لم ينجح في انجازها ، إلا أنه عبر في عام ١٦٧٩ عن اعتقاده بأنه « قد يمكن لعدد قليل من الرجال المختارين من تحقيق العمل كله في خمسة أعوام ، إلا أنهم بأية حال باستطاعتهم من الوصول بعلم معين الى درجة التأكد الضرورية في الحياة العملية ، وهي أفضل الاخلاق والميتافزيقا ، استنادا لنهج الحساب الذي لا يخطىء »[٢٨] .

وباستخدام الرموز كما يسميها الرياضيون ، وإضافة البرهان المؤدي اليها من المستحيل الوقوع في الخطأ في الميتافزيقا والاخلاق الا بتعمد ، بل فرصتنا من الكشف عنه بنظرة سريعة كما ونستطيع أن نحسم النزاع الذي ينشب بين الناس بالحساب ، فإذا نشأت مشاجرة فلن تكون مشاجرة بين عالمين واثنين من المحاسبين ، وعلينا فسنطيع بالمثل للرياضيات الكلية أن تكون في الميتافزيقا والاخلاق بنفس طريقة الموجودة في الهندسة والتحليل[٢٩] ، إضافة إلى ذلك فقد اقترح عالمنا أن يستعمل رجل البشر لغته الجديدة في التعبير بالطريقة تسميها[٣٠] .

---

25 — Leibniz, The Metaphysical Foundations of Mathematics, After 1714. Loemker p. 670.
26 — Leibniz's letter to John Frederick, 1678, Loemker p. 252.
27 — Leibniz, Preface to General science, 1677, Alone: p. 16.
28 — Ibid, p. 16.
29 — Leibniz, The Art of Discovery, 1685, Alone: p. 52.
30 — Leibniz's letter to John Frederick, 1679, Loemker p. 262.

ويحاول أن يطابق الخصائص الكلية مع العلوم الرياضية ، وأن يتصور المرحلة النهائية للحساب الفلسفي باعتباره حسابا عقليا ، ورأى كل الفيثاغوريين في العدد الشكل الميتافيزيقي الأساسي ، بواسطته تنكشف قوى الكون وليس ثمة سر غير خاضع له[31] .

تعقيب

ذلك هو مشروع ليبنتز في الرياضيات أو الخصائص الكلية كما يتفق به كاتوراه . وقبل تقييمه نرى أن من الضروري جدا الاطلاع على وجهات نظر بعض الباحثين في فلسفته وعلى مآخذهم عليه ، عسى أن يلقي ذلك عليه مزيدا من الضوء ونكون في الوقت نفسه على بينة من نقاط الضعف التي اكتنفت مشروعه الكبير هذا .

يذهب « برتراند رسل »[32] الى أن الخصائص الكلية مع أنها كانت فكرة له أعظم الأهمية في رياضيات وأظهرت أعلى درجة من النضج ، فانها تبدو في الفلسفة صورا مضللا منطقيا .

ويضيف « لويس كوتيرا » سببا آخر ، اضافة الى السببين اللذين يذكرهما ليبنتز ويعتذر من انجاز تلك المهمة : الأول الافتقار الى الوقت الكافي والثاني صعوبة العثور على متعاونين ، هو الاستحالة المتأصلة في المهمة المذكورة ، اذ ان اعتقاد في امكانية استنباط كل شيء قبلي من عدد قليل من المقدمات ، أدى به الى أن يتصور الحقيقة كلها باعتبارها سلسلة مرتبة من الاستنباطات بمعنى ما من المعاني ، هذا الهدف كان

---

31 — Leibniz Towards a Universal Characteristic ca. 1679, wiener p.c. 17 - 18, Loemker p. 221.

32 — Russell, Bertrand, A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz, London, 1937 (First Edition 1900) p.c. 170 - 171.

للتحقيق في الرياضيات البحتة فقد ، وهي المهمة التي حاول القيام بها ، وقد أنجزت أخيرا[33] .

ويعتقد الباحثان « وليم وهارفا بل »[34] ان في مشروع ليبنتز في هذا المجال مفسرا من التصور الذي يجعل الناس يتطلعون الى فكرة سعادة او عدالة مطلقة او تحرر من نقائص الوجود الانساني .

وينتقد « جوناثان كوهن »[35] فيلسوفنا بانه لم يعمل بعمله ابدا الشيء الكثير لتطوير هذا النظام الرمزي ، مع انه كان يشكل متواصل يحث الاخرين على العمل في هذا الاتجاه .

ولا يصدق « روث لديا سو »[36] ان رجلا من نبوغ ليبنتز يعتقد ان اختراع مثل هذه اللغة الرمزية شيء ممكن .

* * *

---

٣٣ ـ استخلصت هذا الرأي الاخير من عرض لـ Louis Couturat في كتابه :

La Logique de Leibniz. Paris 1901.

في مقال :

Recent work on the Philosophy of Leibniz

المنشور في :

Frankfurt, Harry G, edited Leibniz. A collection of critical Essays New York. 1972. pp 370 - 37

وكان قد نشر قبل ذلك في مجلة «Mind» (XII» العدد ١٩٠٣

34 — Kneale, William and Martha. The Development of Logic Oxford 1962. p. 325.

35— Cohen, Jonathan On the project of a universal character Mind in «Mind» No. 4 (1916). pp. 49 - 50.

36 — See. Ruth Lydia. Leibniz. p. 207.

لو فحصنا انتقادات هؤلاء الباحثين لوجدنا أنها تقوم على أساس واحد هو استحالة تحقيق هذه الفكرة ، ولم يغرب عن ذهن فيلسوفنا صعوبة بدئها وأمامه محاولات الفلاسفة من أفلاطون وحتى ديكارت واسبينوزا ، التي كانت في رأيه ناقصة وأخذ عليها مأخذ عدة ، فأراد بدوره أن يبني هو الآخر أيضا يدلوه في هذا الاتجاه عسى أن يحالفه النجاح فيما فشل الآخرون فيه ، بعد أن درس عندهم الجهود واطلع عليها ، حتى أن يحاول تفادي ما فيها من نواقص ، خاصة وأنه يستهزئ من كثير من هؤلاء الفلاسفة بكونه رأسيا من الطراز الأول وليس مدينا لها ومعجب بدقتها وصرامتها فقط كما كان هو الحال عند الأخيرين قديما واسبينوزا حديثا .

ولم يقف عند حدود الاقتراح بدأ المشروع ، بل بذل جهدا كبيرا لتطويره على خلاف ما ذهب إليه كوتيرا ، إضافة إلى ذلك حاول أن يثير إليه انتباه العلماء .

لقد اشتغل في المشروع بجد وإخلاص ، ويمكننا أن نشير إلى أنه سأل الأكاديمية الفرنسية أن تزوده بمجلدات من القاموس المصنف من قبلها قائلا أن ذلك سيساعده في بناء خصائصه الكلية ، ويصف لنفس الغرض مجموعات من المجلدات المطبوعة ، وبسبب إدراكه أن المهمة المذكورة تتطلب جهدا مشتركا ، فقد حاول أن يطلب مساعدة أعضاء الأكاديميات العلمية ، وكان هذا أحد مبررات دافعيته في تشجيع تكوين أكاديميات علمية أخرى[37] .

وعلى الرغم من أن فيلسوفنا لم ينجز المشروع كاملا ، لا نظن أن ذلك يستغرق وقتا طويلا ويستهوي عددا كبيرا من العلماء ، فإنه كان

---

37 — See : Parkinson's introduction of his translation of Leibniz's Logical Papers, p. VII.

شرا للغاية ، فقد عزى بنفسه بأنه كان مستمرا في كتبه في الرياضيات وعلم الطبيعة وعلم سكان الأرض والفيلولوجيا والقانون والكنيولوجيا[38] .

من مجهود الواسعة في تعميق وتوسيع معرفة الرياضيات هي الا نتيجة اتمامه راسخ بضرورة هذا العلم في بناء الخصائص أو الرياضيات الكلية ومحاولة ابتكاره ، وقد وضعته أبحاثه الرياضية في مصاف الرياضيين العظام .

ولعل من أعظم ثمار فكرته برنيز المنطق ، فكرة اتفاق واسع الانتشار على أن فيلسوفا أول منطقي رمزي[39] .

ويبدو أنه استلهم نفسه في تنفيذ فكرته في الفلسفة ، وبخاصة فيما يتعلق برنيز المبادىء الأولى . إلا أنه لم يعن ، فحاول التعويض عن ذلك بالتعريفات الضيقة المحددة بالمضامين الواضحة وبالاستنباط الصارم .

بل وأبعد من ذلك فقد استخدم مبادىء ومفاهيم رياضية أوجد أسس رياضية في بناء فلسفته مثل عدم التناقض والسبب الكافي والانفصال اللامتناهي ، وهو في كل هذا يحاول أن يجعل ميتافيزيقا رياضيات الذي هو جوهري لخصائصه الكلية .

* * *

38— Introduction of Leibniz's Translation p.p XIX - XX

39 — See Leibniz's logical papers trans. Parkinson and the Works Introduction p. IIX.

بحوث

المعرفة
بين العقل والنقل

الدكتور محمد بالروين

المعرفة
بين العقل والنقل

الدكتور محمد بالروين

ثلاثة مفاهيم لها دور كبير في تاريخ الفكر الفلسفي (العلمي) بمرقي هذه المفاهيم هي :

١ ــ العقل -Reason-

٢ ــ الفكر -Mind-

٣ ــ الفهم -Understanding-

كلمة عقل على ما يبدو مشتقة من كلمة عقال الذي تقيد به الابل فوق الركبتين لذلك كان البدوي يخاطب ابله عند ورودها الى الماء قائلا « ذك عقالك من عقالك » ، العقال هو القيد والعقل هو العقال .

العقل بمفهومه القديم اما أن يكون له علاقة بجسد ما وفي هذه الحالة تكون له مستويات ثلاث وهي :

١ ــ حالة الاستعداد التي توجد عند الانسان للكتابة أو القراءة وتسمى العقل المادي .

٢ ــ خروج هذا الاستعداد من القوة الى الفعل وذلك عند ممارسة الطفل للقراءة والكتابة .

٣ ـ اكتساب المعارف والحصول عليها وهذا العقل يصبح هيولية قد اقتناها الانسان وله القدرة على استعمالها متى شاء .

رسالة الكندي في العقل أحسن ما يمثل هذا التقسيم[1] .

وأما لا يكون له علاقة بجسد ، وهو العقل المجرد الذي يحصل كليات الأشياء وهي الأجناس والأنواع ، وهي عبارة عن مفاهيم مجردة قد تكون مجردة عن الحس ، وهذا هو الأقرب مما يفهم من المدرسة الأرسطوطاليسية عند حديثها عن كليات الأشياء باعتبارها عقولا كلية ، ويتحدد الأمر بوضوح أكثر عند الحديث عن « عقل الكل » و « العقل الكلي » .

ولا بد من التمييز بين العقل الذي يدرك كليات الأشياء والعقل باعتباره مهية مجردة وذلك من حيث الوظيفة والغرض ، العقل باعتبار أنه يدرك كليات الأشياء وغريزة التمييز في الفكر بالغة العمل ، أي حس يحس على نوع وذلك باستعمال العقل كتمييز حقيقي بين الأنواع ، أما العرض فهو الوصول إلى النتيجة الضرورية التي تتصف بالعموم والشمول .

وإن كان أحد قد وجه إلى حد نظرية المعلومات ووصفت بأنها حسية ، لكونها تقر في جملة مفرغة ولكونها لم تؤسس على واقع حسي ، كلا الشخص فيها نوع من المبالغة ، أنه يجب أن نعلق فكرة تدور في حلقة مفرغة وذلك باستخدام المقدمات والعلاقات يمكن أن نصور في طبيعة التفكير الإنساني الذي يريد الوصول إلى الحقيقة الخالية من التناقض فمن واجبه أن يربط نفسه ببعض الروابط حتى يأتي فكره متلازما مع نفسه خاليا من التناقض .

---

[1] ـ الكندي ، رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق محمد عبد هادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٢ ، ج ١ ص ٢٥٦ .

واما كون العقل أو العقلانية أو التفكير العقلي لم يكن مؤسسا على واقع حسي فان هذا الكلام غير حقيقي لان المعرفة عند هذه المدرسة تبتدئ بالحس وتنتهي بالمعرفة النظرية المجردة، وان الكليات وان كانت مفاهيم مجردة فانها تكون متقدمة بذاتها محتفظة بعلاقاتها الحسية ، وربما اعادة النظر في ترتيب كتابات ارسطو تطغيه على غرار ما فعل بكتاباته الطبيعية حيث تم تقديمها على كتاباته فيما بعد الطبيعة ، أرى أن نفس الشيء يمكن ان يحصل مع كتاباته المنطقية فيقدم من حيث الصنف والدراسة التحليلات الثانية قبل التحليلات الاول ، وهذا يعني أن القياس باعتباره نموذج عقلاني يستعمل في مرحلة متأخرة تكون مسبوقة بمرحلة من التركيب والاستقراء ، حيث تكون مهمة القياس مهمة تصديقية أي التحقق من صدق النتائج المستفادة من الاستقراء .

قلت سابقا لا بد من التمييز بين العقل باعتباره كليات الاشياء والعقل باعتباره ماهيات مجردة ، والذي أقصده بالعقل باعتباره ماهيات مجردة العقل في نظرية الفيض عند الافلوطونيين المحدثين ، العقل عند هذه المدرسة رغم كونه مية مجردة عن المادة تماما له وظيفتان احداهما وجودية والاخرى معرفية ، المهمة الوجودية هي سد الفجوة بين واجب الوجود والوجود الممكن المتغير وهو الوجود المادي ، العقل بهذه الكيفية عبارة عن عدة فيوضات محددة تستمد قدرتها على الفعل والاحداث من واجب الوجود بالذات ، لذلك العقل المفارق هو سبب ضروري في وجود العقل الاول ، والعقل الاول سبب ضروري في احداث العقل الثاني وهكذا الى آخر هذه العقول ، العلة الفاعلة هي التي تحدد ضرورة ايجاد الموجودات عن الموجود الاول ، لذلك كان خلق العالم او تكونه بدءا ببداع العقول اذ ان اول شيء كما ذكرت فيض عن الله هو عقل مجرد وعن هذا العقل يفيض العقل الاول ونفس وجسم سماوان

ثم عن العقل الاول يفيض العقل الثاني والنفس والجسم سماويان ، ثم عن العقل الثاني يفيض العقل الفعال ثم النفس الانسانية ثم المادة ، النفس الانسانية تستقي معارفها من العقل الفعال الذي يستقي معرفته من العقل الذي فوقه وهكذا الى آخر سلسلة هذه العقول[2] .

لعل المعرفة تكون نقل صورة معرفة مستفادة من العقل ، ولما كانت للنفس الانسانية القدرة على الاتصال بالعقول المجردة عن طريق وسط وهو العقل الفعال فانه من الضروري ان تكون المعرفة التي تتكون لدى النفس نتيجة لهذا الاتصال تكون ضرورية ، ولا بد ان نضع في الحسبان أن المعرفة تتفاوت بالنسبة للاشخاص الذين يمارسونها عن هذا الطريق فالذي يكون أكثر تجردا من الحس والعلائق الحسية يكون أكثر اشراقا ونورانية .

ربما التفسير السابق يوضح الفرق بين العقل باعتباره كليات الاشياء وباعتباره صيغة مجردة ، ولن كان بعض الشراح يحاول ان ينسب الى أرسطو فكرة العقل الفعال والقول حتى يجعل نظرية أرسطو في العقل والمعرفة مقبولة لدى اصحاب الديانات وحتى لا تظهر بمظهر الالحادي فقال : هناك على الاقل جزء من النفس خالد عند فنائها وهو العقل الفعال ، الا أن هذا العقل ليس له وظيفة معرفية[3] .

واذا رجعنا الى ابن سينا نجده فرق بين العقل باعتباره شعورا كليا والعقل باعتباره حقيقة مطلقة فيستمد من افلاطون اصطلاح عقل الكل الى عقل العالم ، والمعروف ان افلاطون كان يقصد بهذا الكون عقلا حيث سماه عقل الكل[4] ، ويستمد من أرسطو شعور العقل الكلي

---

2 — ابو نصر الفارابي ، آراء اهل المدينة الفاضلة ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٤ .

3 — Aristotle, De Anima III. 5

4 — Plato, Timaeus p. 36

وهو العقل المدرك الذي يحصي كليات الاشياء ، عقل الكل حقيقة كونية مطلقة أما العقل الكلي لمفهوم كي يتشكل في كليات الاشياء من جنس ونوع ، أو ما يسميه أرسطو صورة الصور «So the Mind is the form of forms» (5) .

من تعدد العقول واختلاف وظائفها من الممكن أن نصل إلى مفهوم مجرد ثم الى حقيقة وجودية مشتركة هو الذي جعل أصحاب التعبير الحديث من الفلاسفة يتلقون من أجل هذا المفهوم ويحاولون أن يصنعوا مفهوما جديدا وهو ما يعرف بالفهم ، إذا ما نجد أن هناك عدة كتب قد ظهرت تحمل مفهوم « الفهم » ، أذكر من هذه الكتب كتاب جون لوك « مقالة في الفهم البشري »(6) ، وكتاب « ليبنتز » مقالة جديدة في الفهم البشري »(7) ، وكتاب « دفيد هيوم » بحث في طبيعة الفهم »(8) .

وهذا ليس يعني أن مفهوم الفهم خاص بالفلسفة الحديثة زمنيا فقط ، فالفارابي من الاسلاميين يستعمل هذا الاصطلاح ويجعله تابعا للتصور ، أي أن الفهم لا يتحقق الا بعد تصور ذلك الذي يراد معرفته ، والتصور هنا هو التصور الحسي وان تصور ذلك الذي نطلق اسم المفهوم هو

---

5 — Aristotle, De Anima III, 8.

6 — John Locke, An Essay concerning Human Understanding ed. John W. Yolton (New York, 1961).

7 — Leibniz, New Essay concerning Human Understanding Trns. by A. G. Langley (U.S.A. 1949).

8 — David Hume, Enquiry concerning Human Understanding (Chicago 1960).

طريق القول والتلقين . والفهم لا يكون كاملا الا اذا وقع التصديق بما يتصور ويفهم . ولا تكتمل المعرفة الا بحفظ ما كان الانسان قد فهم وصدق به[1] .

الفهم كما يبدو يكون سبوقا بما يعرف بالحدس . والتصور قد يكون ذهنيا محسوسا وقد يكون ذهنيا معقولا . فالذهني المحسوس ما له مثال خارجي والذهني المعقول ما كان مصدره الذهن . عند هذا الحد اختلف أصحاب الفهم من الملاسفة المحدثين . فقال التجريبيون لا فهم بحدث ما لم يكن الفهم سبوقا بتصور أو ادراك يكون عن طريق الحس . وقال العقليون لا فهم يحدث ما لم يتجه الذهن الى ذاته ويستمد مفاهيمه الفكرية منه .

وقد ورث أصحاب الفهم من التجريبيين فكرة العقل صفحة بيضاء لا كتابة فيها عن أرسطو . وورث أصحاب الفهم من العقليين فكرة المعاني الفطرية عن فكرة التذكر عند افلاطون ورده على ابن سينا . وعليه فقد وقف أصحاب الفهم من التجريبيين موقفا شاكا من العقل ووقف أصحاب الفهم من العقليين موقفا شاكا من الحس أو العقل الحسي .

اذا كانت مشكلة القرن السابع عشر هي مشكلة الفهم ومحاولة الوصول الى وسيلة منهجية للحصول على المعرفة . فان مشكلة القرن العشرين هي مشكلة التفكر أو التفكير ذاته . اي أن مشكلة القرن العشرين تحليل مفهوم العقل ذاته . وقد بحثوا عن قد كتبت مقالات وكتب تناولت مشكلة التفكر أو العقل . أذكر منها على سبيل المثال :

---

1 ـ أبو نصر الفارابي . الالفاظ المستعملة في المنطق (مقدمة) ص ٨٧ .

«The concept of Mind» و «مفهوم الفكر» أو «مفهوم العقل» لجلبرت رايل[10] وكتاب «The Mind and World order» «العقل ونظام العالم»[11] ، بل استخدمت مادة تدرس في الجامعات الغربية بعنوان «The Philosophy of Mind» . وان كان صاحب كتاب «مفهوم العقل» حاول أن يثير مواضيع معرفية قد أثيرت من قبل الا أنه قد أثارها بوجهة نظر جديدة مثل المقولات ، المعرفة بالخبرة والمعرفة بالنظر ، الصور الذهنية العاطفة الى آخره من المفاهيم . وقد جعل «Mind» مرادفة لكلمة «Intellect» وهي تعني العقل وكذلك «Mental» مرادفة لكلمة «Intellectual» وتعني عقلي ، أما عنوان كتاب «العقل ونظام العالم» فقد ميز بين العقل وما يقسم لهذا العقل وهو المعنى ثم علاقة العقل بالوجود الخارجي .

ورغم المعاني العديدة لشرح المقصود بمفهوم «Mind» الا أن هذا المفهوم يحمل كثيرا من الغموض ، لأن اصطلاح «Mind» يترجم الى العربية على أساس أنه فكر وعلى أساس أنه عقل ، من الواضح أن هناك فرقا كبيرا بين اصطلاح فكر واصطلاح عقل ، الفكر معناه ناتج عملية فكرية وعليه يكون الفكر تابعا لعقل ما أو ناتج عملية تعقلية ، وجود الفكر يتوقف على من يقوم بعملية التفكير وهو العقل أو على العملية التفكيرية ذاتها التي أنتجت فكرا ما ، ومن هنا تبرز أهمية التفكير كأداة أو ملكة للعقل ، ومن هنا يجب أن نحدد الفرق بين الاستعمالين لترجمة اصطلاح «Mind» ، اذا كنا نقصد باصطلاح «Mind» العملية التفكيرية ذاتها هذا الاصطلاح يعني العقل ولكن هذا الاصطلاح يعني ما خلفه أو ما ينتجه الانسان من آثار فكرية فانه يعني الفكر .

---

10 — Gilbert Ryle The concept of Mind (London 1961).

11 — C. A. Lewis: Mind and the world-order (New York 1956).

في اعتقادي أن المعرفة تبدأ بالعقل وتنتهي بالعقل . ولا أريد أن أقول أنه لولا العقل وحده ما كانت هناك معرفة لأنني أرى أن مثل هذا القول مضيعة للوقت وهو أيضا شبيه بقول التجريبيين أنه لولا الحس ما كان هناك شيء في العقل وهو الأمر غير المقبول . أن استدراج العقل لكي يمارس العملية الفكرية ضروري جدا . فلولا الاستدراج لما تنبه العقل إلى المواضيع المعرفية التي ينبغي أن يتعامل معها ويفسرها أو يصدر فيها أحكامه . عملية الاستدراج تعتبر بمثابة التنبيه للعقل لكي يقوم بنشاطه الفكري . الاستدراج الداخلي : العقل يقوم بتنبيه ذاته نحو موضوع لدراسته وهذا يعني أنه في الاستدراج الداخلي لا يحتاج العقل إلى المواضيع المحسوسة لكي تتم عملية توجيه العقل إلى عمله . بل الأمر هنا أشبه بنظرية التذكر فالعقل لا يحتاج إلى محتوياته الفكرية ، أو أن المحتويات الفكرية هي التي توجه العقل نحو موضوع دراسته . أما الاستدراج الخارجي فيكون من الأرض المحسوسات أو عن طريق الموجودات الخارجية . المواضيع الخارجية هي التي تستدرج العقل ليقوم بالعملية الفكرية . الاستدراج الخارجي يحتاج لكي يؤدي غرضه ويجعل العقل يقوم بعملياته الفكرية يستحسن أن يكون بطيئا . لأن الاستدراج عندما يتم بسرعة قد يسبب ارتباكا للعقل فيعثر العقل في إصدار أحكامه أو اتخاذ موقف معين إزاء موضوع معين .

قد تكون عملية الاستدراج مرتبطة بمرحلة أخرى تالية لها وهي مرحلة طرح الأسئلة . وهي البحث عن الأسباب بطرح العقل السؤال : لماذا ؟ وعند وضع التعريف يطرح العقل السؤال : ما هو ؟ وعند البحث في التكييفات يطرح العقل السؤال : كيف كان ؟

بعد ذلك تأتي المرحلة التي يمارس فيها العقل اختياراته لتحديد الوسيلة التي يستعمل في دراسة المواضيع ، إن كان موضوع الدراسة

موضوعا حسيا او واقعيا ملموسا فان العقل سيستعين بالخبرة الحسية بمعطياتها وادراكاته المختلفة لتحديد هوية ذلك الموضوع وكيفياته ، وسيتردد العقل في الناحية والاسقاف ذا لجأ العقل الى وسيلة اخرى غير هذه . أما اذا كان موضوع الدراسة مواضيع فكرية مجردة فان العقل حتما سيلجأ الى المسلمات والبديهيات وسيستعمل كوسيلة في دراسة مواضيعه . أما اذا كان الموضوع يتعلق بالاقناع فان العقل سيستعمل الحجج والبراهين الكلامية للاقناع . العقل واحد لكن الوسائل تختلف باختلاف المواضيع وهنا يتضح افتقار العقل على الوسائل المعرفية وتبعيته في تحديد الوسيلة التي تستعمل في الحصول على المعرفة .

العقل عبارة عن استعداد وهذا الاستعداد ينمو ويتعاظم مع مر الايام . وليست المعرفة مكتوبة داخل هذا الاستعداد ، بل ممارسة تزيد من قوة هذا الاستعداد وتعطيه امكانية افضل الوصول الى معرفة أدق وحكم اصدق . تتراكم المعرفة وتراكمها داخل الذهن وقدرة العقل الى اعادتها مرة أخرى عند توفر الاستدراجات اللازمة هي التي اظهرت مخزونه وكأنها مخزونة فيه منذ الولادة . في الواقع فكر انعدام المكتوبة في العقل لا يوجد لها مبرر سوى كونها مخزونات فكرية كان العقل قد اقتناها من خلال العمليات الفكرية او التجربة التي قام بها العقل نتيجة لوجود استدراجات قد استجاب لها العقل ثم وضع لها العقل وسائلها المناسبة للوصول الى المعرفة المطلوبة بخصوص موضوع معين .

لعل البعض يتساءل : اذا كان العقل هو مصدر الاول والاخير للمعرفة ، فهل هذا يعني ان العقل معصوم من الخطأ ؟ واذا كان الامر كذلك كيف نفسر الاخطاء التي يقع فيها الانسان ؟

من الأخطاء المحتملة لكل تفكير علمي يرجع الى عدم تمكن الاستدراج من توجيه العقل واستعداداته لاختيار الوسيلة المطلوبة للوصول الى المعرفة أو الى اصدار حكم يحل اشكالا كبيرة من الخلق . لان الاستدراج قد يكون مقصورا أو متداخلا مع استراتيجيات أخرى أو غير مناسب أو مطابق للموضوع المستدرج . هذه كلها ربما ترجع العقل وتحيره في اختيار الوسيلة المناسبة للبحث والاستقصاء أو اصدار الاحكام . لان العلم مهما كان لا يبلغ اليقين وانما هو علمي يشبه حالة الفصل في اصدار أحكام دائمة تتسم بالدقة والصدق .

أرى أن مفهوم التفكير العلمي ما ينقل الى العقل من احساسات ومعاني ومفاهيم . ان فهمي لما ينقل الى العقل سيكون في ضوء تقسيمات ثلاثة بمعنى أنني سأقوم بتجميع ما ينقل الى العقل تحت مفاهيم ثلاثة وهي أولا نقل حسي : وأعني نقل المدركات . ثانيا نقل وجداني يخص التراث . والنقل الوجداني سأقسمه أيضا الى نقل وجداني ذاتي وآخر نقل وجداني نفسي . العبرات الآتية ستلقي الضوء على كل واحد من التقسيمات المذكورة .

اذا كان اصحاب المذهب الحسي مثل التجريبيين يعتقدون على ما يبدو أو يقتصر الحس الى الفهم مثل حسن أ أو معطيات حسية وكما تعرف في الانجليزية sense data فاني أفضل أن يسمى بالنقل الحسي بدلا من المعطيات الحسية[1] ، وان جاز لنا ان نتحدث على الاشياء بسمة المعطيات الحسية دون الاشارة اليها بأسماء مادية معينة ، فاني أفضل أن يتحدث عن الاشياء بلغة النقل الحسي .

---

1 — C. H. Whiteley, An introduction to Metaphysics (London 1958) pp. 79 - 80

لعل البعض يقول انني لم أفعل شيئاً سوى أنني وضعت اصطلاحاً بدل اصطلاح آخر ، ألم يكن وضع الاصطلاح المناسب يفيد في ازالة كثير من الغموض للمفاهيم الفيزيائية ؟ خذ على سبيل المثال ظاهرة انتشار المواصفات خلال وسطين مختلفين مثل ظاهرة التي تحدث عند وضع قلم في كوب من زجاج به ماء فان تسمية هذه الظاهرة بالانعطاف في مسار الاحساس أولى من تسميته بالانكسار ، وسوف يتعدد عرضنا أكثر اذا فنا ان عدد الظاهرة تحادثه عن النقل الحسي وليس له واقع خارجي ، لأننا اذا قبلنا بالقول بمعطيات الحسية فاننا نقر بوجود هذه الظاهرة ما دامت تقدم لنا معطيات حسية معينة .

النقل الحسي قد يكون متطابقاً مع الواقع وقد لا يكون متطابقاً مع الواقع ، مثلاً ظاهرة السراب وظهور مساحات كبيرة من الماء عند سيارة في الصحراء ، هذه الظاهرة ناتجة عن النقل الحسي حيث أن النقل الحسي قد قدم لنا شيئاً لا وجود له ، لكن هذا النقل اذا قدم لي شخص سوف لا يقبله على عهدته بل قد نجد سوف ينكر وجود مثل هذه المنقولات الحسية .

المنقولات الحسية قد تكون صادقة وقد تكون غير صادقة والذي يحدد معيار الصدق هو العقل وحده ، العقل قد يجري مقابلة بين المنقول الحسي أو النقل الحسي والواقع أو الوقائع الخارجية فيطابق بين الاثنين مما فيثبت الواقع ويعمل في مضمون النقل الحسي ، وعليه فاننا نعتقد ان نولينا النقل الحسي الثقة من دون بالمعطيات الحسية ، لأن استلام النقل الحسي يعني ما ينقل الينا عن طريق حواس ما تبين انه يجوز ان يكون صادقاً وان يكون غير صادق والعقل وحده هو الذي يقرر احتمال الصدق أو عدم الصدق لما ينقل الينا ، وهذا فيه موقف يختلف عن موقف اصحاب المعطيات الحسية الذين يجيزون بصدق المعطى الحسي أو المعطيات الحسية منه كان مصدرها .

المقولات الحسية تشتمل أيضا على ما يعرف بالصفات الاولية والصفات الثانوية[١٢] . فاذا كانت مقولات حسية فان قولك هذا يعني أن ما تلتقطه عن طريق الحس يشتمل على كل المقومات التي يمكن أن تستفاد من المحسوسات الخارجية . وهذه المقولات أيضا قد تشتمل على ما يعرف بالمعطيات البسيطة (Sell Data) والمعطيات الصلبة[١٣] (Hard Data) . وهذه المقولات كلها مستفادة من الحس وتشير الى ما هو مستنتج عن الحس وان ما هو ثابت في الحس ويمكن أن يكون له مثال في العقل أو الذهن . ولما كان الحس لا يعني شيئا دون أن يكون هناك موضوع يتفاعل معه ويستنتج منه ، يستنتج تحت شراف العقل وتوجيهاته . ألم يكن أولى أن نسمي عملية التلقي الحسي ومعطياته بالتلقي الحسي أفضل من تسميتها بالمعطيات الحسية .

اذا كنا في المنطق نستعمل اصطلاح مقولة ومقولات بمعنى ما يقال أو يحمل على الاشياء سواء أكان هذا الحمل ذاتيا أو عرضيا ، بمعنى أن نحمل هذا يصف الاشياء اما من حيث ماهياتها أو تكويناها الداخلي أو من حيث ما تتلقاه من مصادر خارجية ، فان المقولات الحسية هي ما يمكن أن نصف به أو نعبر به أو نحمله على الموضوعات الخارجية . لذلك هذا الاصطلاح ، التلقي الحسي ، من حيث الدلالة اللغوية تكون أقرب منطقيا عند استعماله من اصطلاح السابق وهو المعطيات الحسية .

---

١٢ ـ حول لوك يقول بالصفات الاولية والثانوية في كتابه بحثا في الفهم البشري :

John Locke, A Essay concerning human understanding (London: 1961).

١٣ ـ برتراند رسل يقول بالمعطيات البسيطة والصلبة انظر :

Russell on knowledge of the External world (New York 1960; p. 61.

اذا كان العمل العلمي يخص المجتمع فان العمل الابتكاري يخص النظريات والقوانين العلمية المبتكرة . العمل الابتكاري قد يكون ناتجا عمل فردي عندما العمل تصاغ فيه ما توصل اليه العقل الفردي من آراء وافكار في نظرية متكاملة حتى انظريه قد تكون متصفة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقد تكون نتيجة بارزة في الطبيعة أو الحياة . مجهود عمل فردي عن عمل الى عقول متعددة في مجتمعات متعددة . هذا العمل يجعلها تكتسب صفة القبول والتطور التي يجعلها تكتسب صفة العالمية .

العمل الابتكاري يقوم على أساس هدم القديم و حلال شيء جديد مبتكر بديل له . ولما كان تعلق الناس بالقديم نتيجة للجهل او التعصب فان العمل الابتكاري قد يلاقي معارضة من قبل العقول الاخرى المتلقية لهذا العمل . وقد يجر هذا الى حدوث صراع بين العمل المبتكر والعمل الموروث عن القديم ولكن العمل المبتكر هو الذي دائما تكتب له الغلبة . وفي هذا الصدد يمكن القول ان التقدم العلمي مرتبط بالعمل الابتكاري كلما زاد العمل الابتكاري زاد التقدم العلمي والتطور العلمي تبعا لذلك . لعل تزايد العمل الابتكاري وتعاظمه في العلوم الطبيعية في القرنين السابقين هو السبب المباشر في التطور العلمي المعاصر . ذلك التطور الذي لم نجد له مثيلا الا عند ظهور الفكر اليوناني القديم وبداية الفكر الاسلامي في العصر الوسيط .

اذا كان العمل الابتكاري يقدم شيئا جديدا الى العقل البشري فان العمل الوصفي يعيد الى العقل ما كان قد حققه السابقون . العمل الوصفي يصف احداث قد وقعت في السابق هذه الاحداث قد تكون فكرية نظرية أو ادبية فنية أو دينية تعبدية . اذا كان الوصف الماضي يرويه الشاهد أو المعاصر للظاهرة ذاتها فانني اعتقد ان يسمى :

النقل الوصفي الذاتي . أما اذا كان هذا النقل الوصفي منقولا عن الغير او الآخرين وتابعت فيه عدة روايات واختلفت فيه مصادر فانني اعده آخر يسمى النقل الوصفي النقلي ، وذلك باعتبار انه منقول عن الآخرين ولم يكن المؤلف ذاته ينقل ويكرر الى غيره ولم يكن في نفس الوقت يروي مشاهداته أو معيشته شيء ما .

تأسيسا على التحديد السابق للنقل الوصفي فاني أصنف كتب التفسير بمذاهبه المتنوعة في مؤلفيها من ضمن النقل الوصفي الذاتي وذلك اذا كنا متحققين من ذاتية الكتاب ونسبه لمؤلفه اليه . هذا الأمر ينسحب على الكتب التاريخية بشرط توفر المعيار المطلوب للنقل الوصفي الذاتي وشرط التحقق من صدق الظواهر التاريخية المرصودة في هذه الكتب . كتب التفسير الشيعي التي تحمل رأيا خاصا لمؤلف الشيعي يمكن أن تعتبر من قبيل النقل الوصفي الذاتي ، لأن المؤلف ذاته يصف ظاهرة دينية معينة أو يبين موقف تجاه موقف ديني معين مثل ما نجده في كتب علم الكلام بعض النظر عن الانجاهات السياسية والانتماء العرقي للمؤلف ذاته .

أما كتب التفسير وكتب الشريعة التي اعتمد فيها مؤلفوها على رواية الآخرين فاني أصنفها من ضمن النقل الوصفي النقلي . هذا النوع من النقل يرجع لاسباب كثيرة في تقديري ، وذلك لاختلاف الرواة وتعددهم وتباعد أزمنتهم وديارهم وربما تضارب آرائهم ودخول العامل الفردي في كثير مما يروونه ؛ هذه الامور جعلت رواياتهم غير مقبول بها ، وربما كان من واجب على حق من يتصدى لكتابة أو استعمال منهج علمي معين في دراسة أمور الشريعة حتى تتحقق مشروعيتها العلمية ، وان كان هذا هو خاصية النقل الوصفي النقلي فهو هذا حتى اننا نعتبره جائزا ، اذ

احتمال الشك هنا والرفض في كل ما يصل إلينا عن طريق الوسيط النقلي وارد . أعتقد أن منهج التحقق من صدق هذه المقولات الرسمية المنقولة قد يعمم الاشكال الذي تحقق من صدقه نثبته والذي لا نثبت صدقه نطرحه جانبا ونستغني عنه .

* * *

مدينة بنغازي
وقسم تخطيط المدن

الدكتور الهادي ابو لقمة
قسم الجغرافيا ـ كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس

مدينة بنغازي

وقسم تخطيط المدن[1]

الدكتور الهادي ابو لقمة

قد يكون من الملائم ان نرتد قليلا قبل أن نتناول صلب موضوع هذه الورقة ... اذ ربما يسعفنا النظر فنجد تعريفا نحدد به المفهوم لكلمة المدينة لان مضمون التعريف المطلوب لا يزال غير محدد ان لم يكن مبهما لدى الغالبية[2] ، ذلك أن نمو الحضري لكلمة مدن يزداد فقط استقرار وبهذا يكون الاستقرار نهاية لكل شيء ولكن الا يكون الاستقرار مرتبط بسكنى القرية والريف اجمالا ، وعكس المعنى المباشر يدلون الترحل .

و ان فكرة المدينة تتضح لكل منا بمقارنتها بقرية ما او بذلك الطابع الذي نكونه عند أول زيارة لى جهات الريف ، والاساس اللغوي وان عرف المدينة والقرية مدعاة للترحل والبداوة ، الا أنه لايصلح اساسا لتعريف كل بالنسبة للاخر ، ويبدو ان فكرة المدينة واضحة لدينا جميعا ، فكلنا يعرفها بالقياس الى الريف والقرية ، ومع ذلك فان احدا لم يعطها التعريف المقنع[3] .

(*) أعدت هذه الورقة بمناسبة افتتاح قسم تخطيط المدن بكلية الهندسة بجامعة قاريونس .

1 ـ د. هادي ابو لقمة ، مجلة كلية الآداب ، العدد الرابع ، ص ٢٢٩ .

2 ـ د. حسان حمدان ، جغرافية المدن ، ص ٤٤

ان عملية تعريف المدينة على عكس ما يتوهم الكثيرون ، عملية ليست باليسيرة أو الهينة ، انها عملية تتسم بالتعقيد والصعوبة ، ولعل ابلغ دليل وشاهد على ذلك ان المهتمين والمختصين بشئون المدن لم يتوصلوا حتى الآن الى تعريف واحد للمدينة[1] .

ورغم أننا سنك الآن عدة تعريفات الا أنها تحتاج بعض الجوانب فقط تاركة ثغرات لا يمكن تفاضي عنها الا لتصور متعمد وان البديهية تتمثل في كون المدينة كيان بالغ التعقيد ، يؤدي عدة وظائف في آن واحد وقد تساوى جميعا في درجة أهميتها .

فجانب التعريف القانوني يمكن القول عن سبعة تعريفات تكون في جملتها صورة لما نعني في سبيل التعريف عليه : فمنه تعريف يقول بأن المدينة كيان قانوني يحضر القانون العام للدولة بمعنى أنها وحدة حكم لها حدود محددة بقانون وعدد يسمون بسلطات محلية .

اما التعريف الثاني فيقول بانها وحدة اقتصادية انتاجية تقوم بتوفير سلعة وخدمات معينة للاستهلاك العام التي يتم توزيعها عن طريق الاسعار والضرائب والرسوم في حين يؤكد التعريف الثالث بأن المدينة ، هي الا وسيط لتفاعل ما انها خلقة الثقافة وتجميع للعلم والافكار ، والسلع والتجارة مما يجعلها خلية جذب للمواطنين لامتلاكها خاصية التنوع وسرعة الحصول على كل شيء[2] .

أما التعريف الرابع فيقول بانها وحدة اجتماعية تضم حشدا من الناس يعيشون في مكان واحد ، اما التعريفان الآخران فيذهب الأول

---

1 ـ المنظمة العربية للعلوم الادارية ، ادارة شئون المدينة ، القاهرة سنة ١٩٧٤ م ، ص ٩ .

2 ـ نفس المرجع ، ص ١٠ .

على اعتبار انها كانت دائما وان امكان ينبوع المعرفة للجنس البشري ، والمعين الذي لا ينضب لكل علم انساني والاشعاع الذي لا ينطفىء للتراث الثقافي فهي المدينة تجمع مراكز نبضات مختلف فروع المعرفة الانسانية .

« لقد كانت المدينة اول من عرف لعلم مكانه ، واول من عرف مكانه وفضله ، وفي النهاية فان المدينة ميدان وحيد صراع البقاء الذي يخوضه الانسان لتحقيق التعلم في عصر العلماء والاقمار الصناعية والانجاز السكاني » .

أما التعريف الثاني فيرى بأن المدينة هي مكان مهد الحضارة والمختبر الذي انصهرت فيه الثقافة الانسانية : ـ انها منبت كل فكر جديد ، ومركز كل اختراع وابتكار ومولد كل تقدم .

وخلاصة القول انه يمكن من وضع التعريفات السابقة التوصل الى تعريف محدد للمدينة هي : فالمدينة كيان مادي ، ومركز توفير واداء الخدمات العامة ، وبؤرة للتفاعل الانساني ، ومهد الثقافة البشرية والحضارة الانسانية ـ انها كل هذه الاشياء وفوقها اشياء اخرى ... هي مقر الصناعة ومولد المخترعات والتصنيع ، وبؤرة من التقاطعات والقوميات ، ومركز التجارة ، ودور المال ، وينبوع المعرفة والعلم ، كما انها خلية الذكاء لشبكات الطرق ، والمواصلات ، وبايجاز فان المدينة توجد حيثما يوجد الناس[1] .

لقد باتت الصورة واضحة الآن ، والسؤال هل من فائدة يمكن ان نرجوها من ترسيخ ادراكنا لهذا التعريف ، انا ما حددة الوظائف المختلفة التي تؤديها منذ اليوم والتي تتحدر في نهاية وظائف تندرج تحت اربع مجموعات هي :

---

١ ـ نفس المرجع ص ١١ .

الوظائف الحربية ، السياسية ، التجارية ، الصناعية ، الصحية ، الترفيهية وأخيرا الوظيفتين الدينية والثقافية .. ومع أننا لسنا بصدد ذكر الأمثلة وما أكثرها كمن قد تغلب احدى هذه الوظائف ، أو تسود على غيرها ، إلا أننا لا بد وأن نقر أن عالم عصر التكنولوجيا قد قلل أهمية احدى الوظائف دون غيرها أو بتعبير آخر فكرة استغراق مدينة معينة لوظيفة محددة لأن احتمالي الوفاق والانصراف في وظيفة واحدة يكاد يكون قرانا ظاهريا لا يتحقق في الواقع[1] .

وكما أن المعيار الوظيفي لا يحقق لنا التعريف الجامع المانع ، نرى أن التعريف الاحصائي ، الذي قد تكون بالضرورة البحث عن ايجاد معنى الذي نبحث عنه ، يعتبر هو الآخر في تحديد المدينة ، فقد نجد الكتب تعرف الاحصاء اعتبار استقرار أكثر من نسمة فأكثر في المكان الواحد انهاء نسمة طابع التريف أو القرية فنجد كما في غانا وتركيا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، و يقوم وزعم تبني هذا الرقم على الصعيد الدولي ، إلا أن الكثيرين لا يقرون ذلك فالولايات المتحدة ترى أن يكون الحد الأدنى للمدينة وحدة ، وفي الهند خمسة آلاف في حين ترى مصر أن يبلغ الرقم الحد الأدنى ألفا ... كما أن تحديد كثافة سكانية معينة يتحول المكان بعدها من طابع الريف إلى طابع المدينة بغض النظر عن الأخير .

لقد أثبتت الجامعة العربية في اجتماع لها في بغداد سنة ١٩٥٥ م القول بأن المدينة هي المكان الذي يعيش به خمسة آلاف نسمة بصورة دائمة ومستمرة .. أما في بريطانيا فان أي مكان يتحول أن يدعى بمجرد إعلان عن صدور بذلك ، و في كندا (١٠٠٠) نسمة هي حد أدنى لمركز الاستيطان

---

[1] د. محمد عبد الغني سعودي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

حتى ولو كانت رغبة الطابع [illegible] وعموما يمكن القول انها قريبا من جانب الصانع ، لان الفرق بين القرية والمدينة يرجع اساسا الى الفرق في نمط الحياة ، وبذلك يكون من الممكن أن القرية هي « عاش للزراعة وعلى الزراعة » ، وان المدينة هي « ليست كذلك » ، فالزراعة وحدها أساسا هي فيض المدينة ، ومع ذلك تعني كل النشاط الصناعي فيض الزراعة »[1] .

عرف العالم الخارجي اسم مرسى بني غازي ، لاول مرة على ارجح الآراء سنة ١٥٥٥ م ، في حين صدر ذلك المنور الجغرافي ، الذي شره الجغرافي التونسي علي بن احمد الشريف[2] ، واذا كان ظهور الاسم على ذلك النحو ، يرجح لاحد الاراء عزو ذلك الاسم ولا يزال قبره موجودا بجبانة سيدي مرزوق ، فان الاسم كان لا بد ان يكون موجودا ومتداولا عليه لدى سكان المدينة ، وان كان هؤلاء كانوا يفدون الى المنطقة اما للتجارة او بحرا او وهو الاقل منذ ان الاماكن المقدسة والمعروفة منها ، وبهما يكن من امر فان وجود سكان مركز عمراني يحمل الاسم الحالي سواء أكان سكانا به ، او لوجود نبي حتمية لا يمكن الجدال حولها .

واذا كانت بنغازي اليوم تمثل ثاني أكبر مدن الجماهيرية ، وعاشت في عهد سكانها ، وتنموها العمراني وما تقدمه من خدمات ، جملة من الساحل الليبي خارج مصراتة ، مدينة طرابلس ، فان بنزا ، لا بد وان يكون قد أدى لها تحتلي هذه المدينة بهذا المركز المرموق ، رغم أنها

---

١ - [illegible]

٢ - [illegible]

3 - Hadi. Bulgrne. Benghazi Through the Ages. p. [illegible]

لكان تكون في وضع أكثر سوءاً بالنسبة لإمكانيات ظهرها المباشر على الأقل .

وعرفت بنغازي القديمة ، حسب المعلومات المتوفرة الآن بتاريخ لا يزيد كثيراً عن سنة ٥١٥ ق.م[١٠] حين وصلت الى مكانها مجموعة من المستوطنين الاغريق الذين عرفوا أكثر من مكان واحد على شاطئ برقة الشمالي ، فاختاروا في البداية أكثر الأماكن ملاءمة للتوطن والاستقرار ، ثم اختاروا مراكز دفاعية لحماية ما قاموا باجتازه ، بعد أن سادت علاقاتهم مع القبائل البربرية التي كانت تسكن الواحات الخصيبة التي جاء بهم البحر ، طيبة نسبياً ، بعد أن كانت بهم سبل العيش في بادئ الأمر ، والذين ما أن اشتد عودهم حتى انصرفوا عن مطامعهم الدنيئة في استعمار هذا الجزء وجلاء سكانه الى جهات أقل جدباً وأكثر صعوبة لتوفير متطلبات الحياة آن ذاك .

« وفي شرقنا العربي عشرات الأمثلة بهذا النوع [من المدن] التي نشأت نتيجة للصراع بين الرحل والحضر ، أو بين الاستقرار والترحل وهنا مدن عاشا وغمر ابريم وبنغازي »[١١] .

وتحدث عدد من المؤرخين والجغرافيين القدامى عن نهر أخضري وحدائق وبحيرة أسطورية بالقرب من بنغازي مثل « النهر نهر الليثون » الذي يأتي بأنواع كثيرة من الأسماك ويحيي الماء ... كما تنمو في الضفاف المجاورة له نباتات فريدة من نوعها ، الذي يستخدمه المجتمع لتطعيم ... أما حدائق نهى حدائق ، ومعنى لاسم الجزيرة اللاتي يعني في القديم جزيرة الأرض حيث يحرس التفاحات

---

١٠ - Hadi Bulugma, op. cit. p. 37.

١١ - [illegible] نفس المرجع ، ص ١٥ .

الذهبية .. ، ومن الجدير بالذكر ان الرمز المألوف لنقود بوسيريس هو غصن نعناع ، أما البحيرة فهي بحيرة ، التي يؤكد سترابون انها تقع بالقرب من بنغازي .. وفيها جزيرة تقام عليها معبد الآلهة فروديت ، ولكن الآثار لم تكشف عن وجود معبد في سبخة السلماني وهي المستنقع الكبير الذي يقع بالقرب من المدينة[١٢] .

لعبت مقاومة البدو المستمرة ضد المستوطنين الاغريق في اقليم برقة واحتلال مساحات واسعة من الاراضيات في البحيرة السابقة الى نقل المدينة الى مكان يوفر حماية اكثر فعالية ، ويسهل عليه الاتصال البحري من جهة اخرى .. وبهذا نقلت المدينة الى الشريط الساحلي بين البحر والمستنقع الكبير[١٣] .

وقد وجد الاغريق في هذه المناسبة التي تمت ابان زواج الاميرة ورثة عرش سيريني من الملك بطليموس الثالث سنة ٢٤٩ ق.م لاطلاق اسم الاميرة على المكان الجديد ، الذي أصبح الاسم الشائع والذي استمر مع تحريف بسيط في النطق حتى بعد الفتح العربي ، وحتى الزمن ليس بالبعيد .

ومما يجدر الاشارة اليه أن بنكري لم يشر الى الاسم مع انه ذكر كل من برقة وبنغازي ، هذا وفي حين أشار الادريسي الذي كتب في منتصف القرن الثاني عشر اي بعد مرور قرن الى ان المنطقة الواقعة ما بين ابرج وبنغازي تعرف باسم برنيق لدى السكان المحليين .

ومهما يكن من امر فان الثابت ان اهمية بنغازي القديمة تعادلت

---

١٢ ـ للاستزادة راجع الاثر : تاريخ برقة السياسي والاقتصادي ، بنغازي ١٩٧٠م ، ص ٦٦ .

١٣ ـ راجع الاثر نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

بعد الفتح العربي ، نتيجة لاختلاط سكان مساكن وطابع معيشي مختلف واستحداث دين جديد كان لا بد له من أن يغير بل ويستبدل التقاليد غربا مما جعل من منطقة سهل بحيرة مرتوت مركز استقرار وتنقله عبور عاشقة لتلك المناطق الواقعة عند الحد الجنوبي لمنطقة برقة البيضاء ممثلا في مجموعة الجداريات التي اكتشفت به بعض الآثار الإسلامية .

لقد كان مؤكدا تلك الأحوال الشاقة التي تسود اليوم وتلك التي كانت سائدة أيام الإدخار بغربي الدلتا ، والمنزل الذي يعرض نفسه في هذا المقام لنفسه وعن طريقه نتيجة إيجاد ملاذ يستطاع به سكانها من يعيشون في منطقة ظهيرة خلق دائما المركز المغربي والمحافظة على وجوده بين والوصول به إلى مدن تمكنت من سك عملة خاصة بها ، ان الإجابة لا بد وأن تدرج تحت ما نعرفه اليوم بالعوامل أو العوامل المحفزة التي تستثني بين وتحتم ، من قبل العوامل الطبيعية التي لا دخل للإنسان حيالها وخاصة في بلاد العهود الغابرة ، وهو ما يعني أن من عاشوا في تلك الديار أكثر دراية وتجربة لظروف بيئية مما جعلهم يحتفظون بحياة فيما كانوا يمارسونه من نشاط ارتبط مباشرة واستغلال ما توفره البيئة من رعي وصيد بدرجة محدودة ، فقد وصف هيرودوتس أرض نوميديا بأنها جيدة في بعض السنوات المحصول محصولا يقابل كمية بذوره مائة مرة (١) ، وقيام تبادل تجاري لم تكن بعيدة عن طرق القوافل الصحراوية ، تلك التي كانت ترمز بها الصخر ، كما تصور منطقة وجبة ، والواحات القريبة جزءا هاما من مصادر ثروات المكان ، فقد كانت قبيلة النامونيين تترك في فصل الصيف قطعانها بحوار بحر وتذهب الى منطقة أوجلة لجني الربح من النخيل الذي هو حسب وفرة نبيذ ،

---

١ - جوليان الأخير ، نفس المرجع ، ص ٥٠

وعلى ذلك ستطيع القول : « ان سكان المناطق الساحلية وسكان الواحات يعيشون عيشة شبه مستقرة ، لوفرة المياه نسبيا ، حيث كانوا يزاولون حرفة الزراعة ، وتربية الحيوان ، بينما يعيش باقي السكان عيشة الترحال حيث يزاولون حرفة الصيد ، وتأتي هنا بالاضافة الى مزاولة التجارة بينهم » .

وفي هذا الخصوص لا بد من الاشارة الى ما ذكره لي أن شعوب عليم برقة وبلدات ما بين محطة طبرق شرقا ومنطقة سرت غربا وعلى الأخص في المنطقة القريبة من بوسبريدس وعلى مسافة تزيد على خمسمائة ميل ، قد اقترنت خلال ملك المصور بما عرف بنبات السلفيوم الذي يطلق عليه البعض اسم الدواء السابق .

وهذا النبات الذي اشتهر في ملك فترة حوالي عدة منها أنه يعتبر عند ممارسا لماشية .. كما يعتبر من الحفراوات المتوزه .. وكان من أهم ذلك كله عصير السلفيوم الذي يستخرج من جذور النبات وسيقانه .. ويجمع منه عقد سبي .. وكان هذا النبات باع يباع وزنه فضة ، وكانت الكميات المرسلة منه الى روما تحتفظ في الخزانة العامة شأنه في ذلك شأن الذهب والفضة .

وبمرور الوقت اختفى نبات السلفيوم في الاقراض التدريجي من ذلك مثلا أن الامبراطور نيرون لم يجد في مائة من السلفيوم كهدية عينية القسر[15] .. ويمكن اجمال الاراء التي أدت الى اقراض هذا المورد ، الذي كان نموه يتجدد فعليا الى فعل استغراب ماشية الراعي[16] وجوعي

---

١٥ ـ ريتشارد هاريسون ، مصدر المرجع ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

١٦ ـ نفس المرجع ، ص ١١٦ .

١٧ ـ يؤكد الكاتب بطليموس في قوله (ان كل نبات السلفيوم يذوي بعد ثلاث من الجفاف قد تؤدي الى موتها) .

الليبيين على حرمان الافرنج من مصدر غني بالمواد الاصلية وذلك بمنع تصديره ، اما قصد الاتراك المصدر فهو الحرص على تجميع اكبر ما يمكن من المصير قصد الاتجار به .

جاء وصول بعض سفن السلطان التركية ، التي تحركت من ميناء طرابلس قصد اتمام سيطرتهم على الجزء الشرقي مما كان يعرف بولاية طرابلس ، بمعض الصدفة التي قدر لها ان تؤدي لتدميرها حيث قررت الاقامة هناك رغم انها كانت مجرد ترسانة صغيرة كانت تخدم حاجة التجار الطرابلسيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع بعض أجزاء الجبل الاخضر وخاصة مدينة درنة ، ومع مرور الوقت تحولت بنغازي الى قاعدة يمكن لها ان تجند من حولها تشكيلا عسكريا قادرا على حكم الامتداد في هذا الجزء من الساحل الافريقي ، فشيد مصر الحكومة وانشئت بعض المرافق ، واصلح من حال مرفئها واقتضت أيضا دعي الامر بعض المنشآت العسكرية التي كان عليها أن تكون مستعدة دوما لارهاب البدو ، ولينطلق منها جباة الضرائب فان الترجمة تفرع لجميع السكان وفي أي مكان ، لان ما توفره هؤلاء بعض سفر عن واقع : هو السفل الذي لا شغل يدلونه في الاهمية لدى جميع من تناولوا الحكم وسكنوا قصر الحكومة في بنغازي ، التي كانت كثيرا ما تصاب بالقحط وتتعرض لكثير من الاوبئة[1] .

كانت مدينة بنغازي ، المقر الاداري الثاني بعد طرابلس ، لولاية برقة حكم الباب العالي ومع ذلك فقد بقيت دون غيرها تمكنها من ان سائر رعيتها مركزها الاداري فباشا برقة طريق برابي يربطها مع صاحبه البرقة بقيت مركزا عسكريا تحيط به البرك والمستقات ، وتحوي شورعها الى بضعة دور من مختلف أنواع البعوض والناموس

Had. Dulgma. op. cit. p. 48.

وكانت آكوام الملح التي يجمعها الاهالي عقبا لسعر يعرض تشكل مظهرا يشكون تواجده وان كان عبر الحديد حتى لا تبعد كثيرا عن كتلة الهندسة لان : يعني قطعة تجمع الزيبية حتى ان الايطاليين اطلقوا عليه اسم « بيدان الملح » لكثرة ما يجمع فيه انتظارا لتصديره ، رغم انهما اليوم تبيض على ما بقي به السن من هذه المادة التي لم يعد لها على بنغازي بشيء اكثر منها لو خصص مجهود ضئيل لعمل ذلك[1] .

وهكذا ظلت بنغازي محرومة من سبل الاتصال البري مع سكان المناطق الذين كانوا يفدون اليها ليبيع منتجاتهم الزراعية وللحصول على ما يحتاجونه من حاجيات فان جلها يعتبره انتصار يهود .

كان على السلطات الايطالية ان تركز اهتمامها الاول على احتلال بنغازي لتسهيلات بحرية الموجودة لتوفره ، التي ستشكل دون ريب الشريان الذي سيغذي لاول مرة حربية سيكون في مقدورها التحكم من سيطرة سهلة على المدينة ، من جهة ولامكان الدفاع عنها ضد اية مقاومة محتملة لاحتلال جزء مهم حول حدودها الداخلية ... وهكذا لعب ضمان اعدام اية تهديدات لاصول ايطاليا العابرة من البحر ، وسهولة امكان انشاء ميناء يرحب عسكريا ، باحتلال الايطاليين الفرصة الذهبية لانجاز استعداداتهم العسكرية لغزو المناطق الداخلية ، وخاصة حينما تبين لهم ان احتلال هذا الجزء لن يكون نزهة عسكرية دون مردود معجز ، بعد تجربتهم المريرة مع سكان الساحل الغربي .

---

[1] ـ كان الملح يصدر الى كل من تركيا ، مصر ، سوريا ، ايام الحكم التركي للبلاد ، كما في عهد الاحتلال الايطالي فقد نظمت عملية استخراجه من مسافة حوالي عشرين كيلومترا ، موزعة على سبعة بيادر ، تديرها شركة انفوزو والسلماني ، وصل انتاجه في عام ١٩٣٦ م الى اكثر من ٢٠ الف طن .

كان تحسين المدينة بالشروع في انشاء مجموعة من المنشآت العسكرية واصلاح ظروف البناء ، وبعد شبكات المياه والمجاري ، والقسوة في معاملة الاهالي العزل ، والاجراء الادبي لمنطقة القصاله ، وخلق اتصال جدي والتخطيط للاقامة الدائمة بعد شبكة لطرق البر والسكة الحديد ، اطلاق خلق مدينة اوربية الطابع ومزق الناس بالهيكل الذي وجدوا المدينة عليه الآن فيما لو تؤوه سرديه لذلك وسمحت به ظروفهم التي استمرت تتكمل وبلا عليهم الى نهاية العام الاول في عقد الاربعينات حيث استشهد شيخ الشهداء عمر المختار .. كان هذا الصخب رمز فرض سيطره الاحتلال الايطالي الكامل ، ذلك الاحتلال الذي لم ينعم طويلا بما خطط له زعماء الدولة اذ لم تمض الايام حتى حاقت بوادر البلاء تلوح في الافق من جديد بتوريطهم في خضم معركة الحرب العالمية الثانية التي تعد لها لتهي مسرح اكبر ديكتاتورية عرفها التاريخ الحديث .. كانت النتائج منذرة فقد تمخضت ضمن نتائجه انها تلك الغزوة العاتكة الظلام من ذريع السعب الليبي ، وكان سبب مدينة بمجاري توجيهها الاوربي والافريقي العربي تعرضها لاكثر من الف وماتة غارة جوية عدا ذلك الدمار الذي صحب عمليات تبادلها بين الاطراف المتحاربة ، خمسة مرات ، مما جعلها توصف بانها اضحت مدينة اشباح لا اكثر ولا اقل[٢٠] .

بدا سكان المدينة بالعودة اليها ، ليعيشوا وسط اكوام الانقاض ، وظروف اقتصادية في منتهى القسوة ، وفي وضع صحي لا يحسدون عليه فهناك عن استحالة عملية لخلق متطلبات التعليم الاولي ... كانت الظروف بمنتهى سقله بسبب تغير حالات دون تحقيق احلام السكان التي كانت تراودهم بفور العلماء .

---

٢٠ Hadi, Bulgma. op. cit., p. 46

لقد عملت الادارة البريطانية على محاولة تحسين الوضع الاقتصادي بخلق بعض فرص العمل مع قوانها ، ومعاونة اصلاح بعض انحاء لادارة الخدمات الاساسية والكهرباء والماء ، اصلاح بعض الطرق ولذا قامت بعض المدارس ، وتم تعمير الميناء ، واعادة الاتصال الجوي وعانت دوائر المدينة الى التحرك المنهك حتى بعد البحث والتنقيب عن النفط في العديد من الجهات ، ذلك أن الفترة التي سبقت البدء الفعلي للاستثمارات البترولية لم تكن بامكانها فعل الكثير لمحو دمث الوجه البسع الذي تركت عليه المدينة منذ انتهاء الحرب رغم انها اصبحت تستوعب مركز حكم المملكة أن ذاك ، والذي ما استمر طويلا حتى اوشك أثره على الانهيار حين تم اختيار البيضاء لتصبح العاصمة الادارية والمستقر لمعظم الاسر من جملة الافراق العام للدولة ، عركة المراكز العمرانية الاخرى تعاني من سالف ما قاست منه ، والواقع انه لولا موقع بنغازي وامكانياتها الناجمة عندئذ لما تحققت لها تلك الاستعادة التي حظيت بها من جراء البحث عن مصدر الذهب الاسود في تاريخ لاحق ومع ذلك فان المشاريع التي استهدفت تطوير المدينة وساعدت بالفعل من مضاعفة قرص بعث خطة شاملة لتطوير المدينة بانهاء دراسة مخطط المدينة لغاية سنة ألفين يمكن حصرها تحت مجموعتين حسب أهميتها وهي :

أ ـ انشاء ميناء بنغازي الجديد .

ب ـ مشروع المدينة الرياضية .

ج ـ مشروع مياه بنينة .

د ـ ارساء مشروع المدينة الجامعية .

هـ ـ البدء في مشروع المجاري المتكامل .

و ـ انشاء مبنى البريد والمجمع الاداري .

أما المجموعة الثانية فتشمل :

أ ـ انشاء مجموعات من المساكن الشعبية .

ب ـ التوسع في صيانة وانشاء المرافق الصحية والمدارس وبعض المساجد ومصايف جبلية .

جـ ـ ترميم واصلاح مرافق المدن وربطه بطريق سريع .

د ـ استفادة المدينة من اتمام الطريق الساحلي ، وهنا لا بد من الاشارة الى أن المدينة قد شهدت بعض ذلك النمط التحديثي الذي كان يربطها بمدينة المرج القديمة .

أما بعد قيام الثورة فقد شهدت مدينة البيضاء انطلاقة جديدة في أكثر من مجال ، واستهدفت ابراز مجابهة لمختلف المدينة في مجالي الاسكان والتعليم فأقيم العديد من مراكز وحدات البيوت الشعبية بمختلف انواعها ، وأنشئت العشرات من المدارس بمختلف مراحل التعليم هذا في حين انهى مشروع المدينة الجامعية ، والمجمع الثقافي والمستشفى المركزي ومرافق المدينة الرياضية ، وكذا حدائق بطول البحيرة التي تتصل بها ، ومشروع الحي الصناعي ، وأوشك العمل على نهايته في مشروع حديقة الحيوانات ، التي ستحقق متنفسا لسكان وقت المدينة بعد ان كانت كذا مهملا ، كما أولي اهتمام بالغ لحل مشكلة المجاري التي بات جميع الناس يعانون على مرتفع الاشياء منها ، كذا انشئت عدة أرصفة جديدة بميناء لتلبي سرعة تفريغ حمولة السفن الراسية بمرفئه ، وبدئ في تنفيذ باقي مشروع الكورنيش و مخطط تجديد منطقة الصابري ، الذي سيحول هذه المنطقة الى أحدث وأجمل بقعة في هذه المنطقة ، كذا مشروع الجسور المعلقة وستضمن مجموعة من مكاتب البريد ، ومطابع الثورة ، والاسواق المجمعة ،

والغربية : ويجري الانتهاء من وضع جميع طرق المدينة التي استكملت أزفلتها[٢١] .

وتقدر لشبو العشوائي في أغلب أجزاء مدينة بنغازي ، وخاصة في الأحياء القديمة كان لا بد من اجراء عمليات اعادة تخطيطه كما في أغلب أجزاء المدينة القديمة ، وبصفة الصابري ، رغم بركة ومعظم لم يكن جميع الجهات الواقعة على طول الطريق الدائري ، كما ازدحمت الساحة من مكانها وحولت جهة سيدي الشريف الى حديقة عامة ، هذا عدا عشرات الحدائق الأخرى ، والتي مع الأسف لا تزال تلاقي اعتراض بعض الناس على انشائها بحجة الحاجة الى بناء مساكن لهم ، ويجعل الكثيرين يفوائد استخدام الحشرات داخل التجمعات السكنية ، وما تلاقيه من حيث الكثير جدا من الاشكال .

عدد هي مدينة بنغازي التي يقدر أن يصل عدد سكانها في نهاية العام الحالي الى أكثر قليلا من ٥٥٠ ألفا[٢٢] ، ما يرجح أن عدد سكانها

---

٢١ ـ تشهد بنغازي بناء أكبر عمارة في الجماهيرية ، حيث أوشكت الأعمال في مبنى الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة لتشييد ناطحة السحاب الأولى ، بمنطقة الكويتي المكونة من خمسين طابقا ، وتعتبر كأول ناطحة سحاب في مثل هذا النوع من المباني .

كما شرع في بناء فندق للخمس نجوم على طريق الميناء الجديد قرب القرية بطاقة إ ٢٤٠ سريرا ، ٢٤ طابقا ، ويضم الفندق تركة تتسع للسيارات لأكثر من ٦٥٠ سيارة مع جميع المرافق اللازمة ، في المنطقة المواجهة لمبنى مصياف ، كما تم الشروع في انشاء ٢٠٠٠ وحدة سكنية موزعة على معظم أحياء المدينة وبلدياتها على الطريق الدائري لتحل بذلك محل الوكرة والحافون الشعبية التي كانت تشوه أراضي مداخل بنغازي ومظهرة الحضاري وكانها أبعد ما تكون عما هو في الواقع .

٢٢ ـ تقدر الخطط الاستراتيجية الخاصة بسكان الليبيين ، بحلول السنوات ١٩٧٥ ـ ٢٠٠٠ ، ص ٣١ .

قد زاد بما يقرب من ربع مليون نسمة منذ عام ١٩٦٤ م[٢٣] ، أي أكثر قليلا من ٥٠٠ نسمة ، انها ظاهرة لا يمكن ارجاعها الى ما يعرف بالنمو الطبيعي ، انها زيادة ترجع الى الهجرة المستمرة باعتبار أن المدينة ظلت طوال هذه الفترة تؤدي جذب واكثر أي جذب واي سحر أرخى ظلاله عليها حتى تستقطب وتبقى الحياجات ومتطلبات هذا العدد الهائل من السكان ؟ انه سؤال متروك للاجيزة المختصة التي تسير تصريف شؤون هذه المدينة التي لا تزال تعيش وتسير دون ارتباط عضوي فعال سوى مع ذلك الخيط الذي يربط ارصفة ميناءها باستقبال سجات العالم[٢٤] انها مدينة تسير تستقبل ولا تودع ، تستهلك ولا تنتج انها فقط تتصل بين هذه وتلك من البضائع .

وهذا كانت عليه الحال مرهونة لي لا يفكر محاولة تغيير الواقع الى الافضل ، فانها تصبح مطلبا يجب الاخذ به عندما يصبح الهدف تعويض ما ضاع من تراثنا ، الكثير مما طالت يد الذي تحولت فكرته من بداية عهد يوسف الى توجيه السنين الذين سيصبح في امكانهم تصوير مدى ومراكز امبراطورية الجبلا ، وجعلها تلائم حياة العصر ، وتعكس تراثه ، وتكون ولو جزءا من طموحات مستقبل افضل ومسايرة لان تكون أصالتنا براقا لا ستتركه حتى لا نستحق أن نوصف بالسلبية التي تأخذ بكل ما هو جديد لدون الامكانات المادية ، بمجرد أن يكون حديث الظهور ، ودون أن نعطي له على الاقل وضع مؤقت .

ان اختيار ارتباط هذا الموقع مع جملة هاستكن الكتبة ، سوء ان اعتباطا ، وانما جاء نتيجة تفاعل بين أهم العناصر التي تركت بصماتها

---

٢٣ ـ اقليم مدغشقر ، المجلد الاقليمي تقرير رقم ٢٢ ، ص ب ٤ .

٢٤ ـ تقرير اللجنة المعدة لدراسات تنظيم الموانئ لاقليم مدغشقر لاقاليم الاخرى من اجل مؤسسة دراسات للتنمية .

واضحة في تطور هذا العلم ، والتي ابتت كامل استعداده بعد مناقشات مستفيضة انتهت كلها ، ودون أية اعتبارات خارج الإطار الأكاديمي ، لأن تعد وتباشر وتشرف على الجانب العملي حتى يتم تخريج الفوج الأول الذي سيكون طلائعه نواة هيئة التدريس ، بعد استكمال مؤهلاتهم العليا مباشرة بالجامعة المذكورة .

صحيح أن عالم عصر الفضاء لم يعد يسمح بالتفوق لأن العلم والمعرفة لم يعودا انتاج بعض جوانب الدور ، ولكن ليس بالصحيح أيضا أن كل الأمم تعيش حياتها وفق معطيات ارتبطت بواقع تشكل بفعل مجموعة من العوامل والمعطيات انصهرت مع بعضها لتوجد عالما يميز مجموعة عن أخرى بين أمم لا يفصل بينهم سوى خط وهمي الحدود ، أو حتى داخل مناطق أو مدن وقرى البلد الواحد ، أو داخل أحياء المدينة الواحدة أو حتى بين شارع وشارع .

لقد ورث المغتصبون الإنجليز المدينة العربية على حالها ، وأقاموا أحياء أوربية تظهر ، بدلالة الطابع ، ذاتيته الغربية ، مسيحية الرعية ، إنها عملية مقاسمة بين الرجل المتحضر ، وأبرز ما يتقدم ، إنها العملية القص بين السيد والمسود .

ومهما يكن من أمر ، فإن ما وجدت عليه بنغازي العربية من نمو عشوائي ارتكز كما هو الحال مع معظم المدن العربية القديمة ، حول نواة مسجدها الرئيسي وطرقها المؤدية إليه حيث تتركز المحلات التجارية ودكاكين الحرفيين والباعة .. التي قد تتداخل مع منازل جلها من دور واحد ، أو قد تنتشر على شوارع وأزقة ضيقة لا تأخذ اتجاها واحدا في أغلب الأحيان ، والتي يسكنها أفراد ذوي صلة أو نسب ، وتسير هذه المنازل ، التي تضم الأسرة بكاملها حيث يصير الجد مع الحفيد ، إنها مفتوحة السقف وبها بئر أو صهريج يحفظ ماء المطر ، إن

مثل هذا التراث الحضاري لا يجب أن يشكل - نحن اليوم عقدة التخلف ، ويدعونا لأن نسرع الخطى وأن نمضي ما بقي منه حتى نبلغ ونكاد نسابق عصر الأقمار الصناعية .

التي أومن أن بنغازي التي تركها الإيطاليون على حالها لتزيد أين وجدوا عليه ، يجب أن نحافظ عليها ، ولو على الأقل جزء منها ، لا شيء سوى تأكيد حقيقة أنها كانت مثل بالنسبة لنا نحن ما ومن إليه أجدادنا من رقي مستغلين في ذلك ، كان بإمكانهم من مواد أولية ، إنها الماضي الذي إذا طمسناه فإن نكون أبدا لنقدر الحاضر حق قدره ، لنا ستكون كمن يحاول أن يكون هذا الكهل جده أو أباه .

إن تعمير مدينة بنغازي ، بحجة التطور ، يجب أن يوقف ولو عند حد معين ، لأن تقدم اليوم إذا لم يراع ما كان للأمس سيبقى لا محالة ، وخاصة في مثل حالة حيث تقف المستقبل حتى بمكان الهدم والإزالة .

كان على بنغازي أن تعمل كعاصمة ليبيا وسائر البلاد العربية التي يتطلعها لبعض السر عن النفط حكام مسلطها البحرية وتربعها النسبي من أماكن التقريب كان المثل يحتم بضرورة أن تقف البلدية - جهاز - الخدمات الأولى : على ساقيه ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك في غياب وسائل الإمكانيات المادية والبشرية حتى من تقوم بالأعمال الكتابية البسيطة في الوقت الذي كان رئيس هذا الجهاز يمثل وظيفة سياسية لخدمة شد أزر النظام الشرعي الأول ، ومع الوقت بدأت الاستعانة ببعض العناصر الفنية الأجنبية وبدون أي تكوين جهاز فني يتولى شؤون هذا القطاع الذي اعتبر عثرة عويصة تحول في غياب العناصر الفنية الوطنية التي بدأت ولما ليس بالمستطاع تبعات زمام الأمور ، وتحمل لمحق بقدرة تفوق طاقته للتغلب على مسائل فنية قد لا تكون من صميم تخصصهم الأصلي ، لأن غياب مؤهلي مخططي المدن والتخطيط العمراني لا يزالون

خارج ميدان العمل لعدم تواجدهم وبالعدد الكافي حتى هذا الوقت ، ناهيك عن حقيقة أن خريجي الدفعات الأولى لن يصلوا درجة العطاء الأمثل إلا مع بداية القرن الجديد حين تتعاور سكانه ثلاثة أرباع مليون[٢٥] .

أما من جهة تعمير المدن والمراكز العمرانية بصفة عامة فإن تقديرات نموها تبلغ حوالي ٢٠٪ كل سنة ، وفي هذا ما يجعلها من أسرع بلاد العالم تحولاً إلى نمط الحياة العمرانية[٢٦] .

ومهما يكن من أمر فإن نمو مدينة بنغازي ، قد اقترن ببعض الصعوبات التي ترجع في أساسها إلى عوامل طبيعية تمثلت في العوامل الطوبوغرافية ، التي كانت بمثابة سطح واد تفوت الأنها قد تكون عوامل طرد أكثر من أن تكون جاذبة جذب ، وتتسع بالتالي بالنمو العمراني ليشمل فيما بعد الظهر الصخري بين خط ساحل منبسط في جملته ، وانتشار بعض الكثبان الرملية وطبقة كلسية تغطي جميع جهات مدينة ، قبل الاحتلال الإيطالي من السبخات ، ومديرة مع زحف العمران الحالي ، وتشير تربة طارئ لا توفر إلا بعض مستلزمات حياة الاستقرار[٢٧] .

---

٢٥ ـ يحدد تقرير المخطط الهادي رقم ٢٢ لسنة ١٩٨٠ م عدد السكان بـ ٧٤٠ ألف نسمة ، إلى حين بلوغ الرقم الـ ١٠٠٠٠٠٠ في تقرير أمانة مخطط الإسقاطات السكانية لسكان الجبل حسب تعدادات ١٩٧٤/٢٠٠٠ م ، بتاريخ مايو ١٩٨١ م .

٢٦ ـ انظر د. أحمد علي إسماعيل ، جغرافية عمرانية ، مكتبة سنة ١٩٧٩ م ، ص ٣٣ .

٢٧ ـ يصف [illegible] بنغازي ديشوك Despois J. بأنها تربة الحمادة بنغازي في أسرة مواقع في منطقة إقليم برقة الشمالي ، الاستعمار الإيطالي في ليبيا ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان بنغازي القديمة قد أنشئت لغرض استراتيجي بحت يتمثل في ان تكون الامين او الجزيرة التي استخدمت لتقلل من اثر خطر الرعاة ضد استكان المستوطنين ، وهي الوظيفة التي أنيطت بها خلال حكمي الاغريق والرومان ، والتي لم تحقق القبول أو التشجيع حين تعرضت البلاد بعد الفتح العربي ، والذي أريد أن أشير اليه هو أن مؤشر قيام واستمرار أداء الوظيفة العسكرية قد صرف النظر عنه ، وما تبع ذلك من استمرار تضاؤل في الأهمية نتيجة لسوء الموقع المثقل بقيود محدودة نهاية مما حواليه الى أن تصبح مجرد محطة للرحال بين سكان الساحل الطرابلسي ومنطقة الجبل الأخضر ، ومع محاولة الاتراك بسط سيطرتهم على اقليم بنغازي شاءت الظروف أن تكون مرسى ابن بنغازي أول مكان ينزلون به ، بعد أن عصفت العواصف بسفنهم وحملتهم على الجنوح الى الخور حيث رأى لهم السكان وبدأوا في بناء مقر لادارة الحكم وتحصينات عسكرية لا لغرض الحماية فقط بل وهو الاهم لتكون منطقا لرحال جمع الضرائب ، لقد أنيطت ان بنغازي وظيفة جديدة ، وربما لاول مرة ، اذ أصبحت مركزا لادارة شئون المنطقة بكاملها ، لقد حرب بنغازي طول تاريخها السابق لتحظى بشرف مركز العاصمة وهكذا تلاءمت الوظيفتان العسكرية والسياسية لشئون الادارة المحلية وأصبحت السكان المكان لأوضاعها بعد ذلك وحتى مدة قصيرة خلت باستثناء تلك الفترة الوجيزة التي تناوبت فيها مركز العاصمة مع طرابلس ابان العهد السابق لثورة الفاتح .

لقد انتهى الايطاليون في بنغازي عن وظيفتها السابقين بعدما يتمشى مع أطماعهم في خلق امبراطورية تعيد سابق مجد روما القديمة ، فكان لا بد لهم من استخدام ثوب جديد يشبه من وصول أوربا بجبروتها العسكري ، وتفوقها الحضاري وأخذت في استعباد المستضعفين فحصنت المدن بمجموعة من الثكنات العسكرية وبدأ العمل الذي أريد

ه مواكبة أحلام استراتيجية السيطرة الكاملة على البحر المتوسط ، كان العمل شاقا ، وكان ابتكاليف باهظة وحقق الايطاليون دور الحد الادنى ، لطموحهم التي آلت على نفسها الا أن تجعل منهم دولا لهم ما كرسوا انفسهم لتشييده .

لقد حملت بداية السبعينات ، رجل الثورة الى تطوير واستخدام مزيد من الشكنات العسكرية محسبا لأي طارئ ، مما زاد في تعقيد قضية بنغازي عسكريا ولو أن ذلك أصبح يؤثر على امتداد النمو العمراني للمدينة والمجالس الوظائف ، لاهنالك نقص تعاني منه المدينة وتتمثل في وقوع المنشآت العسكرية في اقليم حساسة جدا من المدينة مع وجود مناطق أخرى يمكن أن تخدم الأغراض العسكرية بصورة أفضل »[28] .

وخلاصة القول ان نمو هذه المدينة قد اثر ، وربما عوامل اربطها بالوظيفتين العسكرية والادارية وحولها بالتالي الى مركز خدمات يلبي رجيه سرب البحر ، لتوفي كل شيء ، دون أن يتحول الى بيئة حضرية تترك أثرها في حياة السكان ، فهي المكان الذي يحاول فيه المتساق تلبية حاجات من السمك في الوقت الذي يستقبل فيه الآلاف من العمال الحرة تقاراً لأجل محدود .

لقد نمت مدينة بنغازي بشكل فاق كل التوقعات واستحدثت بها جملة من الأحياء وتغيرت حدودها الادارية ، واستقامت ، وهو الأهم ، مواقف توفير الخدمات الأساسية ولم يتبادل دور الوسط كل ذلك في غياب المؤهلين من أبنائها الذين بدأوا منذ عشر سنوات فقط في مدرسة بعض عمليات الاشراف ، والذين لا يزالون دون الحد الأدنى ، رغم أن

---

٢٨ ـ مؤسسة دوكسيادس ، المخطط الاقليمي ، تقرير رقم ٢٢ ، ص ٨

مهندسي مخطط المدن الصين لا يزالون خارج الصورة لعدم توفرهم اصلا ، ولن نستطيع ان نصل الى مستوى الدول المتقدمة ، قبل عشرين سنة من الآن ، في هذا الخصوص[٢٩] .

لقد أدى غياب المخطط الهيكلي الى ان تصبح عملية نمو المدينة ، وخاصة في مجال العمارة ذاتية لتابع يكون فيه منها حتى انك تجد في الشارع الواحد ارتفاعا من المباني تختلف نقل تدافع من اكثر من بلد واحد ، وفي هذا ما يحقق تدمير الهدف الاستاتيكي الى حد كبير ومحاولة ايجاد ذلك الجمال الذي تشعر به حين تمشي فترة على أحد الشوارع في المدن الاوربية التي لكل منها طابعه المميز الخاص به[٣٠] ، ان المخطط وبعض النظر عن مؤهلاته ، لن يكون سائدا في وسط ما يخطط له ، لا بد أن يكون مستوعبا لتاريخه ، واقعا بمشاكله الواقعية الاجتماعي ، الاقتصادي والسياسي ، ومدركا للاهداف التي يسعى الى بلوغها ، انها عملية شاقة ومعقدة وتحتاج الى امكانيات مادية وبشرية كبيرة يلزمها وعي وادراك وتدوين كبير .

لقد عانت بغداد رغم بعض المساوئ ، من تخلف نمو عمراني فاق أي مدينة اخرى على طول ساحل غربي الشمالي ، واذا كانت عمليات التوسع في البحث واستخراج وتصدير البترول أثر على الاقتصاد العراقي بالشكل الذي عرفه الجميع ، فان معضلات استدعت بغداد يمكن ان تعتبر نموذجا لكونها من اكثر المدن (ان لم تكن) الاولى العالمية المستازمات التي رسمت بتلك المعضلات ، التي تتراكم بمرور الوقت بشكل هو لا شك في مرحلة ادائه .

---

٢٩ ـ التقرير الختامي للمؤتمر ـ جامعة طنطا ، ص ١٧ .

٣٠ ـ الهادي ابو زيد ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ص ٢٢٦ .

لقد اقترن هذا العامل مع انتشار نمو دخل الفرد الليبي وحتى بداية تطبيق معدلات النظرية العالمية الثالثة ، الى أن تتحول الوظيفة التجارية للمدينة من الوظيفة الاولى : وأصبحت بحق الى جانب ما توفره في هذا المجال لسكانها من خدمات التي تمتد آثارها لتشمل كل منطقة برقه والواحات الغربية وبعض جهات طرابلس أيضا الى مدينة تراثيت من نوع جديد ، فبعد أن جزءا من وظائفها بشكل اعادة شحن مرة أخرى لصالح الكثيرين من غير الليبيين ممن يعملون بها ، لقد أسهم الميناء البحري ببنغازي ، ومياه بنيه الجوي ، في تطوير المدينة الى مركز نقل يموج بالحركة ويخدم اقليم بنغازي والاقاليم المتاخمة له »[٢١] .

وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن التسهيلات المتاحة التي توفر سبب الحصول عليها لمختلف فئات السكان قد اتت تدريجيا في الاخرى ، في ارتفاع مؤشر التوسع في مجالات التشييد وبنائه التي خدمت هي الاخرى عمليات توسع النشاط التجاري ، مما ترتب عليه كذلك توفر السيولة الى ارتفاع في أسعار الاراضي وشكل ضاغط على الايدي العاملة التي كان غير الليبيين النصيب الأكبر منها ، وخاصة في تلك الفترة التي واكبت ما عرف بمشروع التطوير العمراني الذي ترك أثره واضحا على توسع بنغازي وبلدات في مجال تشييد المباني التي تخدم أغراض التجارة والسكن[٢٢] .

وباختصار فان بنغازي التي تعيش اليوم تحت ظل مخطط عام حتى سنة الالفين ، والتي تشهد حاليا انجاز العديد من المشاريع التي تعدم اعادة النظر ، ودراسة التخطيط الاقليمي لكل المنطقة ، لتستحق منا وقفة اكبر لان جزءا مما يؤخذ عليها : لن تكون حجر عثرة يعمل

---

٢١ ـ مؤسسة دوكسيادس ـ المخطط الاقليمي ـ تقرير رقم ٢٢ .

٢٢ ـ نتائج حصر المباني المعدة ، ١٩٨٠ ، ص ٦ .

ايجاد الحلول المناسبة لها حين تبدأ هي نفسها في توفير الشباب المؤهل الذين سيستحوذ منها صبغة الكآبة التي يروق للكثيرين أن يصفوها بها رغم تخلصها كلية من أحياء الأكواخ والصفيح . لقد كان قرار رفع سبخة السلماني ، بهل تنظيفها وتعميقها وربطها بمياه متجددة من البحر ، عن طريق شريان عبر الطرف الجنوبي لحي الصابري وهو ما كان يحدث في بعض السنوات شتاء قرارا أساء وافقد المدينة مسحة جمالية لن تعوضها كما أن عملية التفاضي عن التقيد بوجوب استمرار امتداد الأقواس في المباني التي استحدثت بعد الحسينات على امتداد الشوارع الرئيسية ، قد ترك هو الآخر سمة فقدان التجانس المعماري وحرم المدينة من طابع شرقي المظهر وله ضرورة يتطلبها نوع المناخ السائد .

كما أن انشاء واستمرار وجود خزانات وفود جيانه ، في أنسب صفة يمكن أن تضفي على واجهة المدينة البحرية ، افضل ما يمكن أن يقام على ارضها لا يزال يحرمها ويشوه جمالها بل ويصوب مؤشر الخطر عليها ، انه سوء تقدير ، وعجز في الرؤية ، قبل يشير الى ذلك التغير المباشر في عرض الشارع الذي يمتد من مستشفى الحلاء وحتى انتقاله بالطريق الدائري غير بعيد عن جزيرة الأدوار المؤدية الى المنار ، انه التطلب وارتفاع سعر الأرض وغض النظر عن المصلحة العامة ، التي قد تكون هي الأخرى وراء اتخاذ القرار الذي قصر له خدمة تصريف مياه المدينة من الأمطار الى البحر وكان يوفر أي قدر اضافي من المياه يضر بكل شيء ويستهلك عملية تكرير مياه البحر للاستهلاك بعد ذلك ، انه قرار يشبه لحد ما قرار اختيار موقع مستشفى المدينة الجديد وما حوله من مجمعات طبية في أحد أيام القيامة الحضرية ، التي تشير أن لا داعي لاستمرار وجودها ، رغم أن الموقع يشكل عقبة بالنسبة لحركة المرور ومجالات التوسع في المستقبل ، ورغم توفر أماكن بديلة بالقرب من مخطط جامعة قاريونس .

كما أن قرار انشاء المجمع السكني الصناعي على طريق المدينة المطار لم يحالفه الحظ هو الآخر ، فباستثناء مصنع المكرونة ، الكابلات والألبان ، لا توجد أية مجموعات صناعية بالمعنى المتعارف عليه ، والتي حتى وان وجدت فستكون في غير المكان الأنسب لقيامها أصلا ، ان المنطقة الصناعية الواقعة على طريق بنينه ، والمتاخمة لمناطق سكنية تسبب في ازعاج بيئي لعدم توافق الاستعمالين [٢٣] .

وفي الوقت الذي أضفى فيه كوبري جليانة ، بهندسته الرائعة ، لمسة فنية أضفت للمكان مظهرا جماليا يستدل الى امعان النظر اليه ، فان ما أتى به الكوبري الجاهز الصنع في تقاطع طريق المطار ، بالطريق الدائري ، وطريق طرابلس يشذ الى عكس الانطباع الأول ولا يترك عندك أي شك في أن عدا العمل ما هو الا مجرد عملية تمويهية لحل مشكلة المرور المتزايد السوء مع كل يوم يمر ، وخاصة اذا أدركنا أن نمط شكل شبكة طرق بنغازي تتبع نمطا شعاعيا متحدا المركز بصفة أساسية حيث تنطلق من مركز المدينة الى طرق دائرية مع النقص الواضح في اماكن وقوف السيارات ، واختناق المرور في أكثر الأحوال [٢٤] .

كانت بنغازي من القلة الواضح في توفر المساحات الخضراء ، وكانت حديقة الحيوان أيضا من حسن الحظ تحظى بالحسرة على كل شيء فيها ، كما أنها لا تزال تعاني من نقص توجيه الاعتناء الى اطلاق ذات الجاذبية الطبيعية مثله في الشواطيء الرملية المجاورة ، التي لا يجب المحافظة عليها فحسب بل وتطويرها بما يجعلها تفي الاحتياجات الترفيهية للسكان [٢٥] .

---

٢٢ ـ مؤسسة دوكسيادس ، الدور الاقليمي ، المحافظ ، تقييمي تقرير رقم ٢٢ ص ب ٢ .

٢٤ ـ نفس المرجع ، ص ب ٦ .

٢٥ ـ نفس المرجع ، ص ٨ .

كان مفروضا ان تؤدي عائدات النفط الى تركيز وبلورة القوى العاملة في مجال التشييد والتنمية الزراعية ، الا ان ما حصل كان نقيضا للمؤمل يوم ذاك ، فهجرت الارض معظم وحول معظمها الى المروج الى المدن وخاصة بنغازي التي كانت تئن تحت وطأة توفير ما يلزم من خدمات ملائمة ، والتي لا تزال حتى اليوم تحتل مكان الصدارة بالنسبة لاهتمامات أولي الامر مما يوسع ان مجال الاهتمام بتطوير البنية والبنى التحتية منها ، كان ولا يزال دون ادنى ذكر رغم الضرورات القصوى التي فرضت معالجتها هي الاخرى بخصوص تطوير الامكانيات الزراعية سواء في منطقة الجبل او في منطقة السهل الذي يحمل اسم المدينة .

بات الآن ان مساوئ موقع بنغازي لم تعد تشكل ذلك الحاجز الذي يظهر ، بعد التحولات التي مرت به ، حيث اصبح في الامكان مواصلة الامتداد العمراني في ثلاث محاور رئيسية ، اذ لا توجد بالغرب منها اية قيود جغرافية تحد من توسعها ، كما لا تشكل الاراضي الزراعية عقبة في طريق توسع المدينة حيث ان امتداد المحدود من المزارع محدود انطاق ايضا ، مما يسمح بضم الاراضي بها كما يجري نفس الشيء على الخطيط العمراني حيث ان النمط الاشعاعي متحد مركز بمدينة يسير الى حد ما بنسوما في كافة الاتجاهات على شكل ثلاث حلب في اتجاه بنغازي ، القوارشة والكويفية .

ان الوقت لن يطول حتى تصبح مدينة بنغازي في وضع ، ربما أكثر من جيد ، من حيث صلاحيتها وفعالية مرافق خدماتها في مجالات توفر الطاقة الكهربائية ، وشبكات المياه ، والهاتف وتوسيع شبكة الطرق وفتح شوارع جديدة واكمال اكثر من طريق دائري واحد مع وجود طريق ساحلي ممتاز واتصال سهل مع عدد وفير من المدن ، وميناء تجاري

يحتم جريان نصف مليون مسافر ، والذي سيصبح الى مليون على حسب المشروع الجديد الذي لن يأخر البدء في تنفيذه كثيرا .

وميناء زدت طاقة استيعابه على مليوني ونصف مسافر في السنة وتنمية المطاعم وتوفير العديد من المحلات ومساحات الراحة الجماهيرية ، مع توفر الخدمات الطبية ممثلا في العديد من المستشفيات والعيادات المجهزة والمتخصصات والمجمع الطبي ، وكلية الطب البشري وطب الاسنان ، وهو ما ينطبق على توفر خدمات التعليم بجميع مراحله متوجا في قرب اكتمال مرحلة جامعة علي احسن ما وصل اليه العالم في عصرنا بخصوص .

أصبح كل شيء يأخذ بأخر ما توصل اليه تكنولوجيا العصر ، بما يتبعه معه تطوير أجهزة الضباب بكل أشكالها ، بكل تمكن ، على الاقل من حسن سير امور هذه الخدمات ، لان اي تأخير وعيب في خدمات أي محل ، لم يعد شيئا مقبولا لان الواجب اصبح لا يتطلب ايجاد العناصر التي تدين بالولاء وتسعى لخدمة مجتمعها فقط ، ولكنه وهو الاهم يبحث عن عنصر معين من الكفايات البشرية يتقن ولاءه لاول مهنتها وعمله دون أي اعتبار آخر[٢٦] .

أقنعت الاموال على تعازي وغيرها من منن الجماهيرية بكل سخاء وأعتقد أنه قد آن الاوان ، ان لم يكن قد فات بالفعل ، لان يبحث سكاننا عن بضاعة جوية يستثمرونها لتوفير عائد يعتمدون به ولو جزءا من جملة الانفاق العام ، اذ لا يعقل ان يعيش سدس سكان الجماهيرية في انتظار ما توفره خزينة الدولة من سيولة ، دون ان نكد في سبيل ذلك أبدا .

* * *

---

٢٦ ـ انظر ايضا المدينة ، نفس المرجع ، ص ٢٤ .

دراسة جديدة على سبيل السلطان ابتاي المندثر والسبيل الحالي للسلطان قايتباي بالحرم الشريف بالقدس

تأليف

الدكتور محمد مصطفى نجيب

أستاذ الآثار الإسلامية المساعد

بجامعة قاريونس

دراسة جديدة على سبيل السلطان اينال المتذكر والسبيل الثاني للسلطان قايتباي ، بالحرم الشريف ، بالقدس

الدكتور محمد مصطفى نجيب

تمهيد :

اهتم سلاطين المماليك الجراكسة[1] بالحرم الشريف بالقدس أسوة بغيرهم من حكام المسلمين سواء كانوا خلفاء او سلاطين وملوك أو حكام امارات وذلك لاسباب دينية يعرفها كل مسلم ، كما أن هذا الاهتمام يرفع من شان هؤلاء الحكام امام شعوب العالم الاسلامي ، وكان أول من اهتم بهذا الحرم الشريف من أولئك السلاطين السلطان الظاهر برقوق الذي يعد دكة المؤذنين تجاه محراب الصخرة الشريفة ، ونقش اسمه وتاريخ تجديده لها في سنة ٧٩٩ هـ = ١٣٨٧ م[2] ، ومن أولئك السلاطين الذين اهتموا بالحرم الشريف ايضا بعد برقوق الاشرف برسباي الذي وضع شمعدانا كبيرا تجاه محراب المسجد الاقصى ووقف على هذا الشمعدان مالا كي يقوم بالقراءة فيه ومالا لخادم يستمر على سلامته من التلف بالاضافة الى ذلك أوقف برسباي مالا وحديدا لصرف ريعه على مصالح المسجد الاقصى[3] والصخرة الشريفة وقد نقش بذلك رخامة الصقت بحائط الصخرة .

كما اهتم السلطان الأشرف اينال بالحرم الشريف ببنائه سبيلا مميزا[1] بالحافة الغربية من الحرم مواجها لباب الرئيسي لقبة الصخرة الشريفة غير ان هذا السبيل أمر بهدمه السلطان قايتباي[2] وقام معماره ببنائه تبعا لاسلوب البناء في عصره .

واهتم بالحرم أيضا السلطان الظاهر خشقدم الذي وسع مصطفا كبيرا بقبة الصخرة كما شرع في عمارة امين الوصيه من الغرب الى مدينة القدس غير انه مات في سنة ٨٧٢ هـ = ١٤٦٨ م قبل اكتمالها[3] . بالاضافة لعمائه ببناء مدرسه بالحرم قام باعاده بنائها الأشرف قايتباي .

كما اهتم السلطان الاشرف قايتباي بالحرم أيضا ورمم وجدد بعض الاماكن والاجزاء بالمسجد الاقصى الذي تعتبر اسمه على وجهه كما قام باعاده بناء مدرسه[4] خشقدم السابقه الذكر وأعاد بناء سبيل اينال أيضا .

طبيعة الاتفاق في انشاء السلطان اينال لسبيله للدلو :

كان البقعه التي اختاره معمار اينال لكي يبنى سبيل هذا السلطان بعيدة الامن بناية سبيلة مميزة تعلوها قبة مخمسة على بئر ماء(★1) بعيدة البعد تمام عن الحافة الغربية للحرم الشريف(★2) مواجهة لباب الرئيسي لقبة الصخرة ، وهذه البقعه ذات طبيعه منخفضة عن باقي الحرم ، فكان هذا الانخفاض مع وجود بئر الماء بالاضافة لخلوها من بناء ذات ثمن كلها عوامل مساعده لاقامه هذا السبيل استغلالا لبئر الماء حتى تسهل مياهه بسبب من التطبير ليعم نفعه بين الحرم كما انه كان مساحه وبالتالي عشش ارتفاع واجهاته المتوجة بقبة حتى لا يطغى جماله على جمال قبة الصخرة وتفوقها .

---

(١) انظر الرسم رقم ١ بالملحق في نهاية البحث .
(٢) انظر الشكل رقم ١ .

العوامل المؤثرة في تكوين سبيل اينال المندثر وسبيل قايتباي الحالي :

من أوائل هذه العوامل المؤثرة امتداد أرض الحرم واحتوائها على مبان ذات شأن على رأسها قبة الصخرة والمسجد الاقصى فأراد المعمار الا يتسبب مبان أخرى تطغى على هذه المباني السابقة سواء في الامتداد الافقي أو الارتفاع الرأسي فكان هذا التشابه المعماري الذي انعكس بشكل واضح على السبيل الذي نحن بصدده : فمساحته محدودة نظرا لمواجهته لباب الرئيسي لقبة الصخرة ؛ كما ان المعمار بناه على الحافة الغربية للحرم ذات المستوى المنخفض نسبيا حتى لو ارتفع به المعمار لا يطغى على قبة الصخرة ؛ واذا كانت طبيعة أرض الحرم ومبانيه قد تحكمت في مساحة هذا السبيل وارتفاعه فإن ما بالحرم من قباب حتمت على معمار السبيل توجيه بقبة حتى يتسجم مع باقي مباني الحرم وخاصة قبة الصخرة نظرا لمواجهته لها ؛ ولأجل هذا لم يفكر المعمار في اقامة كتاب فوقه لانه سيرتفع اكثر من اللازم وفي هذا عجب لكيان خودة قبة الصخرة من الجهة الغربية وهو ما لا يريده المعمار حتى تكون متفردة ترى من كل جانب دون منازع لانها قلب القدس وأولى القبلتين التي تهفو اليها قلب كل مؤمن فلا يمكن حجبها حتى ولو جزئيا .

معارنة لمرقة تكوين السبيل المندثر للسلطان اينال :

رغم أنه لا يوجد من آثار هذا السبيل حاليا شيء الا جزء من نص انشائه فاننا نستطيع عن طريقه بالاضافة لمباني اخرى على رأسها سبيله(*) الملحق بمجمعه بالقاهرة الذي بني فيما بين ٨٥٥ : ٨٩٠ هـ - ١٤٥١ : ١٤٨٥ م ، وايضا التكوين الحالي للسبيل الذي بناه قايتباي ، كل هذا ... يجعل من الممكن التعرف على مكونات هذا السبيل نحن حيث

(*) انظر الشكل رقم ٢ واللوحات رقم ١١ و ١٢ .

مادة البناء فانها لا تخرج عن الحجر الجيري ذي الحجم المتوسط الذي ساد مباني المماليك في مصر والشام ولا يخفى الحجارة ، أما طريقة البناء فقد اتخذت في اسطفاف البدايات النظام المشهر ذو اللون الابيض والاحمر او الاصفر وهي نفس الطريقة التي اتبعت في المناطق التي كانت في حوزة السلطنة المملوكية .

اما من حيث المساحة فنجد انها محدودة لان سبيل مجمع ايتمال بالقاهرة مساحته تبلغ ٥٣٫١٢ م٢ ، كما ان مساحة السبيل الحالي الذي يعود لعهد قايتباي لا تتعدى ٣٨٫٦٢ م٢ ، وهي من المعتقد نفس المساحة سبيل ايتمال القديم التي اعتمدها معمار قايتباي ولم يتصرفا أو ينقص منها لاعتبارات جيوغرافية ومعمارية وجمالية أخذ بها معمار ايتمال وسار على نهجه معمار قايتباي أيضا في عملية اعادة بناء السبيل وتجديده .

اما بالنسبة لتخطيط وعدد شبابيك التسبيل فمن المعتقد أن سبيل ايتمال كان به ثلاثة شبابيك كذلك أي نفس عدد شبابيك سبيل قايتباي الحالي وهذا دليل بدئي والذي ساعد على تحديدها هو عدم اتصال السبيل بمبان اخرى وهذا يرجع لطبيعة موقعه وبنائه التي حتمت على المعمار بناء عناصر صغيرة منتشرة حتى لا تطغى على أهم العناصر فيه وهي قبة المسجد التي تواجه السبيل من جهته الشرقية والمسجد الاقصى الذي يواجه السبيل من جهته الجنوبية .

والذي يؤكد لنا وجود الشبابيك الثلاثة بسبيل ايتمال هو انشاء معمار هذا السلطان لسبيل ملحق بمجمع ايتمال بقاهره وبه نفس العدد منها ، غير أن هذا السبيل ملحق بالمجمع وليس مستقل كسبيل حوش القدس ولكن هذا الالحاق لم يؤثر في اعداد شبابيك الثلاثة لان الالحاق كان يقود المجرم المجتمع به لا بنيان المجمع ذاته ومن هنا كان ذلك فرصة لمعمار بأن يبرز كيان السبيل عن السور بحيث يستقيم

ابعاد ثلاث واجهات لم يمنح بكل منها شبالا الاعلى منها يواجهه من المدخل الباب المؤدي للسبيل ، واذا كانت مهمة معمار ايتال في سبيل مجموع الظاهرة كانت مهمة بعض شيوخ الابراز واجهات السبيل حسن السور فان مهمته في سبيل الحرم كانت سهلة وذلك لامتداد ارض الحرم حول السبيل فكان من السهل عليه ايجاد شباك في كل واجهة من واجهاته الثلاث اما الرابعة فاستوعبت المدخل .

وما دمنا قد توصلنا الى أن مساحة السبيل المندثر وبعادي واحدة وكذلك عدد شبابيك السبيل فانه من المعتقد ايضا أن اتساعه في كل من السبيلين واحد ايضا وهذا شيء منطقي وطبيعي ما دامت المساحة واحدة في كل منهما كما ذكرنا .

كما ان ارتفاع شبابيك السبيل المندثر يماثل ارتفاع شبابيك السبيل الحالي وبالتالي يماثل ارتفاع ابوابهما بينهما والدليل على ذلك هو محافظة معمار قايتباي على اتساع القرار الكتابي الذي يتوج واجهات السبيل العلوي وهو ما زال يستوعب في جزء منه نص انشاء ايتال للسبيل فانه لو زاد في الارتفاع لاحتاج لزيادة اتساع القرار حتى يتلاءم مع الارتفاع الجديد لواجهات السبيل ولكنه لم يعمل والدليل على ذلك هو امتداد عقدات أخرى نص قايتباي لحدث لامتداد عقدات الجزء المتبقي من نص انشاء المدرسة وبذلك ظهرا بشكل متلاءم دون قصور بينهما رغم الفارق الزمني الذي يفصلهما ولكنهما حظيا بعناية المعمار والخطاط والحجار الذين عملوا على الملاءمة بينهما رغم ما تتطلبه ذلك من جهد ولو كان آخرون قائمين على هذا الامر لاكتفوا بنص ايتال كاملة ولوفروا انفسهم من جهد الملاءمة بين النصين ... ولكنها الامانة التي جعلتهم يصرون على هذا الصنيع ويبذلون مثل هذا الجهد فحافظوا على وثيقة أثرية تاريخية وسلمت الناس من بعدهم على الشيء الاصلي لهذا السبيل .

أما بالنسبة لما يسمى السبيل الحالي من منطقة انتقال تعرف قبة حجرية منقوشة فإن أمر وجودها بسبيل إينال الشعباني أمر يحتاج لدراسة لا لادلاء بوجودها دون تمحيص ، وذلك لعدم وجودها بسبيل إينال بمجموعه بالقاهرة ، ولكن لو تعمقنا في دراسة آثار القاهرة قبيل عصر إينال لوجدنا سبيل الناصر محمد المتوفى في ٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م بالناصرية الشرقية بمدرسة والده هي الوحيدة بمجموعة انتقال ورقبة مثمنة كانت تعلوها قبة حجرية(*) ظلت باقية حتى مجيء وحاد(١) القرن التاسع عشر الميلادي ثم اندثرت بعد ذلك .

وبذلك نجد أن العصر المملوكي منذ أيام الناصر محمد بن قلاوون له خبرة بتتويج الأسبلة بقباب الأسقف لما لديه من خبرة سابقة من تتويج العقود بقباب حجرية في كل من مصر والشام ، ونتيجة لهذه الخبرات والاحساس بوعيها وجد أنه من المناسب الملاءمة بين قبة السبيل الذي سيتخذه وبين القباب المنتشرة في الحرم وهي رأسية قبة الصخرة فكان هذا الشكل الذي اتخذ لسبيل المنفلوطي حافظ على منطقه انتقالها وهيئة جوفها معتمدا بالمباني وكان عند إعادة البناء أثناء بعد الدمار عصره في حين تعمد الثلاثة الباقية بمواضع منطقة الانتقال وتشبه المحفوظة بالزخارف نبابها ، لأن ، كان سائدا في عصر إينال وما قبله بنوعي مناطق الانتقال عرفت قرنية تتوج بكل منهما وذلك بالقباب المجاورة ... بمصر والشام وهو من المنتظر عن النظام الذي كان يتوخى منطقة انتقال قبة السبيل المندثر كما أن زينة جوفة هذا السبيل المندثر كانت زخارف الدالية التي تأخذ في التناقص كلما وكيفا من تكوينها إذ أن عدد الوحدة ابتكرها المعمار المملوكي المجري وكان يتفنن بها فنفذها على جميع نماذج هذا العصر حتى عهد إينال ،

(*) انظر لوحة رقم ٥ .

حقيقة انه كان يوجد انماط اخرى من زخرفة منها الخصص والمخوص بالاضافة للزخارف النباتية والاسباق هندسية وكان من هذه زخارف كانت منزوية ولم تكن لها السيادة كالزخرفة الدائرية التي كانت مسيطرة على فكر وعقل معمار ايشاك وما قبله حتى جاء معمار قايتباي وطور منزلتها فاصبحت سيدة الموقف وزين بها خوذة السبيل العالي .

ما أضافه معمار قايتباي عند اعادة بناء السبيل :

ذكرنا فيما سبق أن معمار قايتباي حافظ على مساحة السبيل وعدد شبابيك السبيل ، كما حافظ على تساع وارتفاع هذه الشبابيك التي ترتفع ارتفاعات التي تتمكن أعلاها من نص حافظ على اتساع مرتفعه وأجزاء من مضمونه بداية النص العالي بالاضافة لتتويج حجرة السبيل بالقبة .

ولكن ما أضافه معمار قايتباي أو عمل على تطويره من عناصر معمارية بما نظن وتصور هو توسعي منطقة الانتقال التي كانت في عهد ينال عبارة عن مثلث واحد تأتي الهيئة تحت كل ناصية بينما ما يوجد بالسبيل العالي هو ثلاث مثلثات ذائبة تنتشر بكل ناصية فهذا من تطوير معمار قايتباي ، كما أن زخارف القبة التي تحتضن العنصر النباتي ذات التفاصيل المحورة زينة لها ذائبة ايضا من ابتكارات معمار ومزخرف قايتباي اذدان عملا على تنبية هذه الوحدات التي كانت منزوية ولم يكن لها السيادة ، فانتشرت وسادت على خوذة هذا السبيل وخوذة ضريح أولاد قايتباي بضريحه(*) الشهير بمدرسته وخربة عبد الله الدوقي والمجموعة المملوكية بالقاهرة .

(*) انظر الموحدات رقم ١٤ و ١٥ .

وعلى الرغم من أن هذه الأسباب التاريخية فإن تحديد بداية العصور بالجفاف المجرد من البيانات الاستكشافية وإن كانت بداية ظهوره بشكل واضح منذ عهد بريستوفاني فقد أصبح يتطور في عهد قيصاي بالشكل الذي نجده بخور باب قايتباي وأمراته بالقاهرة ، كما أن تحديدشبابيك السبيل وصنج أحذيته بجفت اللاعب ذو الضبان انما هو وليد عهد قايتباي لا قبله ومن هنا نجد أن تحديد نسبيات الأسبلة بهذا العنصر من ابتكارات عصر ومدرسة قايتباي وعدها بهذا السبيل بالاضافة لأسبلة قايتباي وأمراته بالقاهرة وأسيوط من جاءوا بعده .

الوصف المعماري لسبيل قايتباي :

هذا السبيل من الأسبلة المستقلة التي بنيت على شارع سبيل ابن المنذر كما سبق أن أوضحنا تحديد لمدى على جدرانه واستدارته وارتفاع حنيته بين المنشد أن بعض حجارته صالحة للاستعمال استعملت مرة أخرى فيه ، والدليل على ذلك بقاء عمار قايتباي على جزء من نص الانشاء على الواجهة وهو من الحجارة القديمة التي كانت مستخدمة بالسبيل القديم فمن الممكن أن تكون باقي الحجارة أو بعضها أعيد استخدامه في بناء سبيل قايتباي .

وعلى الرغم من اندثار هذا السبيل بحنيته طبقة السكان ومدرسته ومكتب الأبار بالجامع على والا أنه لحقه العمر بالمدرسة الأشرفية قنسوه والأسبلة الملحقة بمدارس القاهرة وغزة وغيرها من مدن الشام ومصر .

وهذا السبيل يتكون من وحدتين رئيسيتين

أ - مورد الماء في جوف الأرض .

ب - حجرة السبيل وما بها من مجهزات لتسبيل المياه على المارين والمترددين على الحرم .

أ – مورد المياه :

هذا المورد عبارة عن بئر حفرت في جوف الأرض قبل بناء أصل هذا السبيل وتجديده فيما بعد، أي أن مصمم كل منهما استغل هذه البئر في جعلها مورد لمياهه وبذلك لم يتكلف المصمم نفسه مشقة العمل على إيجاد مثل هذا المورد سواء كان سبيلا أو مكانا موجود من الأصل وهو البئر أو صانع تخزين الماء سويا وهو الصهريج(*)[١٧] ؛ كما أن هذا المورد الطبيعي لم يكلف الواقف سواء كان أصل أو فيما بعد في إيقاف أطيان أو أطيان لتدر ريعا يجلب مياه الصهريج هذا السبيل – لو وجد – كما حدث في أسبلة القاهرة وغيرها من مدن مصر والشام لتمن الأنابيب الدراهم .

وبذلك نجد أن مورد مياه هذا السبيل يختلف عن موارد مياه السبيل الأخرى من حيث كونه طبيعيا يعتمد على البئر الذي يزود من مياه الأمطار ، لا على صهريج يستخدم في تخزين المياه المستجلبة من أقرب مورد للمياه .

ويتصل بئر هذا السبيل بحجرة التسبيل من خلال فوهة يسيل منها الماء عبر أنصاب معدنية بأرضية حجرة التسبيل لتصل لصنابير السبيل الثلاثة ووضعت على هذه الفوهة حلق وخرزة لمنعها في أوقات غلق سبيل وعدم قيامه بعملية تسبيل المياه في أوقات معلومة .

ب – حجرة التسبيل :

هذه الحجرة مستطيلة الشكل تميل لتربيع ٣٫٨٣ م × ٤٫٦٥ م كانت أرضيتها مفروشة بالرخام[١٨] الذي تلاشى حاليا نتيجة لتجمعات

(*) انظر اللوحة رقم ١٢ بالمصور فتحه صهريج سبيل رمان الملحق بمجموعة بالقدرة .

السلطان عبد الحميد خان واسبلت بـ بلاط من الحجر ... وبوسط كل من الجدار الغربي والشمالي والجنوبي — وهي الجدار المحدده لحجره السبيل — شباك لتسبيل اسامه ٢ م بقصبه مصبعات(*٨٢٠) ، وكان بأرضية كل شباك من هذه الشبابيك الثلاثة السابقة حوض رخامي مجد للسبيل وارتفاع كل شباك منها يصل ٣ م ويتوج كل منها عقد ذات مسيج معشق ، أما الجدار الشرقي من حجرة السبيل فيفتح بالجانب الجنوبي منه باب المدخول لحجره السبيل ويتوج هذا الباب عقد ذات مسيج معشق(*٨٢١) ، وهذا الباب يؤدي لحجرة التسبيل مباشره أي أنه غير منكسر وهذا بخلاف ابواب ومداخل أسبلة قايتباي بالقاهرة والشام والأراضي الحجازيه وخاصة المستقل منها التي عالجها المعمار بتشكيل مرتب فجعلها منكسره وهذا يتطلب منه ايجاد دركاه ودهليز يمهما يؤدي منهما لحجرة التسبيل كل هذا يتطلب مساحة ليست من الضخامة وفخامة السبيل أما في حالة السبيل الذي نحن بصدده فنجد مدى التفنين الذي سار عليه معمار قايتباي ومن تباه ايضا في الحد من مساحته حتى لا يطغى على جهة السخرة كما انه ليس في احتياج ملح لمثل هذا المدخل المركب بهذا السبيل لانه لا يعلوه مستوى ثان مثل كتاب أو ملحق علوية كما في أسبلة قايتباي بالاماكن السابق ذكرها التي يوجد بها كتاب أو سكن للمؤدب فكان لا بد من ايجاد سلم صاعد لمثل هذه الملاحق وابتكر لهذا السلم الذي اقتضى من المعمار ايجاد مثل هذه المداخل المنكسره المركبه المكونين .

وبالجانب الشمالي من باب المدخل لحجرة التسبيل دخله بارتفاعها فتحة الباب التي احيطت بحلق أغلق بخرزه .

---

(٨٢٠) انظر اللوحات من رقم ٢ الى رقم ٤ .

(٨٢١) أنظر اللوحة رقم ٥ .

قبة السبيل ومنطقة انتقالها :

يعلو حجرة السبيل قبة حجرية ذات منطقة انتقال تتكون من سبعة حطات من المقرنصات ذات العقود المدببة المزين منه كل منها بشكل محاري وعده المقرنصات ذات سبع حطات بمنطقه في كل ركن من أركان منطقة الانتقال داخل منك منته لأسفل وقاعدته لأعلى وهذا النظام مألوف بمناطق انتقال المعروف بالشام منذ العصر الأيوبي وبمصر منذ العصر المملوكي البحري ، وبوسط كل ضلع من أضلاع منطقة الانتقال توجد فتحة ضوء ، ذات عقد مدبب اتخذت للتخفيف من وزن وإضاءة الحجرة وتهويتها ، وبواسطة عدد المنطقة الانتقالية أمكن للمعمار تحويل قمة المربع السفلي لحجرة إلى منطقة ذات ثمن عشر ضلع يرتكز عليها الرقبة الأسطوانية التي تم يتتج بها المعمار إلى قمريات ... أما جسم القبة التي ترتكز على هذه الرقبة فتأخذ قطاع من عقد مدبب أخذ سنجه في التناقص مع تكوير العقود إلى أن تصل للسنجه المناسبة التي يختم بها قمة القبة .

* * *

واجهات السبيل :

لهذا السبيل أربع واجهات تواجه كل منها جهة من الجهات الأصلية الأربع وهذا ما ساعد على سهولة تجميعه وتهويته داخله وذلك بمساعدة شبابيك تسبيله المسمعة والقمريات التي تتوسط منطقة الانتقال .

وقد سوى المعمار بين أحوال هذه الواجهات حاصة وأن مساحة السبيل مربعة تقريباً كما ساوى فيما بينها في الارتفاع ، ولكنها رغم هذا لا تبدو كلها من أسفل بداية واحدة وهذا يرجع لاختلاف مستوى أرضية الحرم في جانبه الغربي إذ يبدأ كل من الواجهة الغربية والشمالية

مبكرا من الجنوبية والشرقية بمقدار ٥٠ سم ، ولكن تلافي الاختلاف بين المنسوبين بإيجاد درجات سلم أسفل شبابيك السبيل يتفاوت عددها من شباك لآخر تبعا لمنسوب الأرض أمامه فبالنسبة لكل من الشبابيك الغربي والشمالي وكتب أحمد أسفلها أربع درجات أما أسفل الجنوبي فثلاثة ، وأمام عتبة باب الدخول أربع أيضا ، وقد ركب أحمد حجر الدرجات أسفل كل شباك لامتطاء صهوة المارة عليها للشبابيك وذلك من الجنوب والأمام أيضا ، وهذا يمكن درجات شبابيك السبيل الأسباله الحديدية حتى جوانب طرق عتبة تركيب من الجانبين فقط ولم يستغل الجانب الأمامي له حتى لا تتعدى على خط تنظيم الطريق وتقلل من اتساعه ، بخلاف ما حدث في هذا السبيل عند بعض في سابقه فهذا أعطى لمعمار عربة في تركيب درجات أمامية أيضا .

أما من حيث التكوين المعماري لواجهات هذا السبيل فقد وفق المعمار في إيجاد تآلف وتناسق بين تلك منه وهي كل من واجهته الجنوبية والشمالية والغربية حيث يتوسط كل منها شباك للسبيل أما الشرقية فتختلف عنهم من حيث وجود باب للدخول لحجرة السبيل بالجانب الجنوبي لها مع عدم وجود أي منافذ أخرى لها .

التوصيف المعماري لكل من الواجهة الجنوبية والشمالية والغربية(*) :

ذكر فيما سبق أن هذه الواجهات تنتج من حيث التكوين المعماري الذي يمثل أحد الجوانب حيث يتوسط كل منها شباك لتسبيل اتساعه ٠,٦٠ م ويتقدم بداية فتحة تقلد حجرة مستطيلة ترتكز على أربعة كوابيل حجرية مزخرفة بوزة ، وكل تقلد من هذه النطع الحجرية أعلت موضع كوزان وأسفل الشرب المربوطة سلاسل بمسجات شبابيك

(*) انظر الرسومات من ٢ إلى ٥ .

السبيل : ويرتفع كل شباك من هذه الشبابيك الثلاثة بمقدار ٣٫٢٠ م ليتوج كل منها عقب مزور من صنج معشق معشقا مرتبا بادخال الوانه بين الاحمر والابيض اي به النظام المشهر مع تحديد جانبي واعلى هذه الاعقاب بشرائط حمراء وقد عمد المعمار النظام المشهر ايضا بمداميك كذلك كل شباك من هذه الشبابيك الثلاثة مما اكسب هذه الواجهات جمالا معماريا من نوع خاص وقد حدد المعمار وانحصار صنج كل عقب من هذه الاعقاب ومداميك كل كتف بإطار حجري بارز يتكون من توأمين يحصران بينهما قناة غائرة تحليها مسافات على أبعاد منتظمة وهذا الاطار الحجري ... بمكرراته هذه يطلق عليه في المصطلح الوثائقي جنب لاعب ، وهذا الجنب حصر كل شباك تسبيل وما يحويه من عقب داخل مستطيلين العلوي يمتد أفقيا على السفلي مما أضفى وسما حركيا زخرفيا زاد من ابراز الجمال المعماري المتمثل في النظام المشهر ، وقام المعمار بايجاد أساطين مخلقة تامة قطاع ثلاثة أرباع دائرة وذلك بنواصي الواجهات وبدأ على ارتفاع متر و ٢٠ سم من بداية شبابيك التسبيل بتحديد من أسفل جنب لاعب أيضا يبدأ من الناصية ويمتد على جانبي كل واجهتي مستطيلين ليتلاقى حد الاخر ببداية الجنب لتحديد لأكتاف شبابيك التسبيل وتحديد رأسه وصل زخرفية تؤكد رباط النواصي المعماري المتمثل في الأساطين المخلقة التي ارتكزت على قواعد دائرية وتوجت بتيجان يتكون من ثلاث صفوف من المقرنصات ذات العقود المدببة وقد عمد المعمار صنج بين هذه الاساطين بطريقة متداخلة على هيئة الدلالات ليزيد من متانتها معماريا وهذا أضفى عليها جمالا وهذا الذي زاد من ذلك اتباع صانعها للنظام المشهر بالالوان السابق ذكرها والتي ابتدأت بمداميك أكتاف شبابيك وصنج اعتابها ، وتحديد بداية قواعد هذه الاساطين وجانبيها بالجنب الغائر داخل مستطيل يمتد بشكل مشترك بطرفي كل واجهتين ويكتنف ضلعه الرأسي العلوي

بامتداد الجهة المحدد لأسفل النص الكتابي متوج لأعلى الواجهات وهو نفس الجفت الذي حدد أعلى السطح المتوجة لكل ثبت من جانبيه السيل وقد توج المسار والعطف الواجهات الثلاث السابقة بالإضافة للواجهة الرابعة ... الشرقية بقرار كتابي يعتبر خاتمة لها جميعا وهذا القرار تضمن بدايته جزءا من نص ريال تكليم الذي لا يوجد اختلاف بينه وبين نص داسباي وكلاهما كتب بالخط الثلث المملوكي ذات الحجم الكبير نوعا المحور ما حوله داخل محور مستطيلة تمتد بامتداد أعلى الواجهات يفصل بينهما عند الثانيا بالنواسي فواصل تشبه الكورنيش وقد حدد المسار أعلى وأسفل هذا النص بلات مشمات أحمر يبرز على ارضيه النص قليلا ليحدد أعلاه رأسه جمت لاعب بارز ذات قبعات على ابعاد منتظمة وقد عبر المسار بالحجات الجب العلوي عاليه بل فقد الواجهات ... فلم يتوجه بكورنيش حجري بارز لارتكاز اي نوع من السقوف عليه لانه لا يوجد دليل معماري على وجودها او وجود الكورنيش ربما لم يعدادها ليتنا مع قمم واجهات قبة الصخرة التي لم تعرف مثل هذا التوج وربما تحتة السجام بين قمم واجهات كل من الاثرين .

التوصيف المعماري للواجهة الشرقية(*) :

هذه الواجهة تعلو المسقط الرئيسي لقبة الصخرة الشريفة : وهي تمتد وترتفع كامتداد وارتفاع الواجهات الثلاث السابقة كما ان المسار ادمج بداخلها أسطوانين مداقين مسكين بينهما زين كل من الواجهة الجنوبية وشماله وهما كظيريها المدخان بالواجهتي الواجهة غربية وتشترك فيهما أيضا داسيين كل من الواجهتين الداخلين ، وبناء على

(*) انظر لوحة رقم ٤ .

هذه الواجهة الشمالية الذكرية التي يسند لتوج الواجهات الثلاث السابقة ويحتوي نفس التعديلات التي بكل منها وهي الثلث متماثلة والجص اللاعب دور البيات ، غير أن المعمار أبرز بالجانب الشمالي من الثلث متماثل العلوي المحتوي لأعلى النص وأسفل الجص مباشرة ... ميزاب لتصريف مياه الأمطار وذلك تفاديا لخطر تجمعها بهذه الواجهة ومن الواجهات الثلاث السابقة .

وإذا كان المعمار قد ميز أعلى هذه الواجهة بوجود ميزاب فإنه أيضا ميزها من حيث التكوين إذ جعل بالجانب الجنوبي منها باب الدخول لحجرة السبيل ، أي أن المعمار لم يفتح هذا الباب بوسط الواجهة بالضبط وهذا خلاف ما حدث بالنسبة لبقية أبواب السبيل التي توسطت كل منها واجهته ، والسبب المباشر الذي جعل المعمار يفتح الباب بجانب من الواجهة لا بوسطها هو وجود فوهة البئر بالجانب الشمالي منها فعمل دخلة لسوقية الفوهة وبذلك أصبح هذا الجزء مشغولا به من الداخل ومصمتا بالتالي من الخارج يجاوره باب الدخول الذي نصل إليه بواسطة أربع درجات وهو باب بسيط فتح على جنبه الواجهة مباشرة دون أن يوجد المعمار في دخلة متوجة بعقد مدائني أو أي نوع آخر من التتويجات التي اشتهرت بها المداخل الذكارية المملوكية سواء كانت في الأسبلة أو المباني الأخرى ، والسبب في ذلك أن مثل هذه المداخل تحتاج لمساحة وواجهات أكثر ارتفاعا وهي شروط غير متوفرة في هذا السبيل ومن هنا كانت بساطة مدخله الذي توج بعتب مزود بعقود عاتق يحصران بينهما شريط ، وإذا كانت فتحة العتب بسيطة فإن فتحة العقد العاتق مركبة كركب فتحة العتب مباشرة السبيل وقد حدد الحاف جانبي وأعلى كل من عتب الباب وعقده العاتق بخط لاعب ذو ميلان يلتف حولها على هيئة مستطيلين ويمتد الجانبين لكل منهما ليتصلا بالجص المحدد لأسفل النص الذكاري

وبذلك أصبح لدينا مساحة ثالثة سفلية محصورة بين أعلى جزء مسح العقد العاتق وأسفل الجزء السفلي للنص الفقاري وقد جزئت هذه المساحة بدورها بواسطة جفتين لثلاثة مستطيلات تتعامد على كل من مستطيلي الظهر والعقد العاتق .

منطقة الانتقال(و') :

هذه المنطقة تعلو قمم الوجهات مباشرة ، وهي على هيئة مربع يقل امتداد أضلاعه عن امتداد أضلاع المربع السفلي وذلك لقلة سمك جدرانه التي فضل المعمار أن تكون من الخارج حتى يحدث التدرج المطلوب نحو القمة ، كما أن قلة سمك الجدران بهذه المنطقة أنما أوحى طبيعة الضغط المعماري الوارد من القبة .

وقد أحدث المعمار انسجاما وتوحيدا بين نواسي منطقة الانتقال ومثل هذا الانسجام والتوحيد أحدثه بالنسبة لأواسط أضلاع هذه المنطقة الانتقالية ولكن بشكل يخالف ما في النواسي لاختلاف طبيعة تكوين كل منها وكذلك رغم هذا فيشتقا من حيث أداء المهمة التي أوكلت اليهما وهي تحويل المربع إلى مضلع ـ يبدو التي عشر ضلعا ـ ثم الاستدارة لحمل القبة المزودة بفتحات للإضاءة .

وقد بدأ المعمار بتسطيح أعلى النواسي لارتفاع ثلاث مداميك يحتفظ على شكل مثلث ولكن لم يترك هذا المثلث مربعا للعيان بل أدمج به مثلث ذي لم يبدأ على جانبي قمته مستطيلين آخرين أقل امتدادا من السفلي وأدمج بكل منهما مثلث ثانوي ولكنهما أقل امتدادا وارتفاعا من السفلي ومثل هذه المثلثات الثلاثة الثانوية في كل واحدة من النواسي الأربع أنما أوجدها المعمار كسند للإضلاع المتطوفة القاعدة لأعلى

---

(١٢٩) أنظر الرسومات من رقم ٢ إلى رقم ٤ .

ولاعطاء سمك وحماية لحافة ومفرصات منطقة الإنتقال من الداخل ، واذا نظرنا لنواسي هذه المنطقة الانتقالية ـ بشكل مجرد ـ بعد توصيف السابق نجد أن كل منها عبارة عن ثلث مقلوب قمته تستوعب سقف الاول وقاعدته تستوعب أسطوانين العلويين وتصل لأعلى بندقها كورنيش حجري بارز ، وهذه المثلثات المتممة لنواسي منطقة الانتقال من الخارج رغم غوص رؤوسها بسمك الواجهات فانها تزيد ـ مع العازل ـ للمثلثات الاربعة المكسية لرؤوس التي بأركان منطقة الانتقال من الداخل والمسوحية لحافات المفرصات والتي تناظر الخارجية في وسمها المقلوب .

* * *

واذا كان مسار قد أوجد عازل تكويني بين النواسي الخارجية لمنطقة الانتقال وأركانها الداخلية فانه اضطر الى ذلك لاعتبارات معمارية تتلخص في ان طبيعة تكوين الاركان من الداخل تختلف عن طبيعة تكوين النواسي من الخارج وفيما تعتوره كل منهما من عناصر معمارية مع تكييف كل من هذه العناصر مع ما خلق من أجله من فراغ داخلي أو فضاء خارجي ، وبذلك خلق المعمار بأركان منطقة الانتقال المفرصات بتعويره لحافاته بشكل منحني متدرج لتناسبها لما تشرف عليه من فراغ داخلي مع العمل بمساعدتها على استمرار هذا الفراغ لأعلى ولكن على طراز أضيق وأرشق : أما بالنسبة لما عالجته المعمار بالنواسي من سقوف بتطويره بشكل حاد ومتدرج بها مثلثات قائمة الخارج مع ميلها لأعلى فان هذا ساعده على تصريف الأمطار والارتفاع الذي يبنيها المعمار وتكون خاصة مخزونة وما يوجهها من علاج يشرف بجلاله على فضاء لا نهائي ومن هنا نجد أن تكوين كل من النواسي والاركان تشكل تبعا لما يؤديه من مهمة وما يشرف عليه وان كان هناك تماثلا من حيث التحويل من المربع

لتبين ثم الاستدارة عبر منطقة الاتكاء عبر ضلعا ، واذ كانت الموضي وما بها من ضغوف ساعدت على ايجاد تعاني اضلاع من منطقة الاتكاء عبر ضلعا السابق ذكره فان كل ما سبق وجد به من مطمين محصران بينهما ضلع مستو هو اختزال لضلع المربع الذي بدأن ، منطقة الانتقال من أعلى واختزل نتيجة ابتداءه الاصحي بعد اكتمال التضوف الذي كان على حساب ابتداءه ... وقد فتح المعمار بأسفل كل ضلع من هذه الاضلاع المنوه أي بوسط امتداد الضلع الأصلي لمربع نصفة الانتقال شرفة متوجة بعقد مدبب ذات صدج مستوية ... وتمتد هذه الشرفة بمسقط هيئة امتداخل لنصف بين مقرنصات أركان منطقة الانتقال وبذلك وصل المعمار تقاسم مشترك بجمع وموحد بين خارج منطقة الانتقال وداخله وهو ما سعى إليه دائما .

هذا ويحدد حافة الضلع المستوي الذي يعلى كل شرفة من هذه الشرفات الاربع امتداد الكورنيش الحجري بارز بشكل مخرج جلد من قبل جوانب الاضلاع المنوهة ، وبهذا الكورنيش تتم استمرارية منطقة الانتقال بشكل أكثر من مناسب ، وتضيف فيه الانوار يبرز مزيد من الضوء بجري الكورنيش ضلع المستوي الذي يتوج الشرفة الشرقية وهو من بين سطح المزيب الذي يبرز أعلى الجانب البحري من الواجهة الشرقية وبذلك يساعد هذا المزيب في تصريف المياه المتدفقة من فوق السطوح .

القبوة وزخرفتها (١) :

هذه الجزء سمحت لها منطقة الانتقال حتى تنطلق بعدها لتكميل التتويج النهائي لهذا السبيل ويبدأ هذه القبوة مرتكزة على وجه

---

(١) انظر اللوحات من رقم ٢ الى رقم ٥ .

مستديرة تعلو منطقة الانتظار التي مهدت لها لتظهر بهذه الهيئة ، ولقد تراجع به المعمار للداخل عن حافة منطقة الانتقال ليبدأ محيطها وهندا لدخول فان من سمك بنيانها تفاديا الضغط الطرد الناتج عنها وعن خوذة ، وهذه الرقبة اسطوانية السكون تصعد لأعلى دون أن يمنح به المعمار أية تعريف لانه في غنية لها ستكون الرقبة وبالتالي يزيد رتفاع القبوة التي تعاول في هذه الحالة خوذة فيه الضخرة وهذا ما لا يريده المعمار .

وباعلى هذه الرقبة تعريف غائر قليلا كان من المعتاد في القباب جنائزية تسمى بطراز كتابي وتكن أحجم الخطأ عن هذا المعلم اعياده مثل هذا الأمر على قباب لاسيما ... وهي منشآت مدنية خيرية — حتى بعد انتشارها بالأسية العثمانية(★) .

وقد ختم المعمار قبة خوذة هذا السبيل بجنة مجرد دور تنطلق منه الزخارف النباتية الفنية لظاهر الخوذة التي اتخذ منحنيها انصغيره الحجم الرقبة السابق في الاستدارة على نسق استدارة الرقبة ثم في الانحناء بشكل مذنب حيث ان ضياع هذه الخوذة على هيئة عقد مذنب بتدبيج بظاهر مدببة أضاعت تاج الهلال النحاسي ذات الاشعاعات المزينة المخوذة فاسفلى قاعدة والثانية زخارفه تشرية يرتكز عليها الهلال ذات السكن انتقل من أعلى واتجه طرفاه من الشمال لجنوب .

توصيف وتحليل زخارف الخوذة :

هذه الزخارف ذبيحة ... النحاس تتناسب مع تجويف مسطح الخوذة وقد زينها بخير ما حولها من أرضية كي تبرز هي كما ان النحات استغل بأزميله لبياض الجزئيات الداخلية للوحدات النباتية من تفرعات

(★) : انظر اللوحة رقم ٢ .

وتعريقات ، وتنطبق هذه الوحدات النباتية ذات الطابع المجرد من الجفن الحجري المجرد المحدد لبداية الخوذة ونهاية الرقبة في تكوينات متكررة بشكل متماثل ومتبادل .

وتبدأ هذه الزهارف بانصاف مراوح نخيلية تتماس مع الجفن المحدد لبداية الخوذة بشرخ من كل انسي متدابرين فرعين نباتيين يكونان هيئة مثلث بشته عقصين معقودان وبذلك تحصل على اربع عشر تكوين من هذه التكوينات تسير وتزيد لاضلاع منطقة الاكتاف الاثني عشر ، واذا كان البدايات متوافقة ذات الامر بعد ذلك يختلف ولكن مع حبك وانسجام متبادل بحيث يحيط به تكوينات على هيئة تعريجات دائرية ذات ارتكازها سفلي وسعفه لاعلى متداخل معها بشكل متبادل من اخرى مرتبطة من أعلى وأسفل وهذا التكوين يذكرنا بتكوين الثلثات المتعاكسة القواعد ، واذا كانت هذه الوحدات جميعها تساعد بعضها البعض في تشكيل وتكوين وحدة الخوذة فان تكوين السفلي يختلف عن المتداخل معها من أعلى رغم أن البدايات بها جميعا واحدة .

على طريقة تكوين كل وحدة من الوحدات السفلية عبارة عن تعريجين يحيطان متدابرين من قمة التعريج المثلث ذات العقصين المعقودين بالتفا ليكونا دائرتان تستوعب كل منهما بوسطها نصف مروحة نخيلية تتصل رأس كل منها بعقصة من عقصي قمة الفرع المثلث السابق وتوسط أعلى كل من الدائرتين السابقتين دائرة ثالثة صغيرة الشكل وذات قمة مدببة تندمج بكل من العقصتين من خلال عقصتين ما عدا الاعتماد المروحة النخيلية التي توسط هذه الدائرة الثالثة ، وكل من هذه المروحة وأنصاف المراوح الاخرى سواء التي ببداية الفرع المثلث أو المستوعب داخل التعريج الدائري عقد بين الخطاف تفاصيلها الداخلية حتى تكسبها دقة وحيوية .

أما بالنسبة لقيمه تكوين كل وحدة من الوحدات الهابطة من أعلى ينساق من قمة المرجع المثلث السفلي بعد المنفذ المرجع آخر مفرغ بقابله نصفي مروحتين متعاكستين لامتص بشكل مفرغ أيضا ليسيا بالمرجع المفرغ السفلي وتكونا فيما بعين وينطلق من بين نصفي المروحتين نصفان آخران بينهما قناة تسلل كل منها على امتداد تتصل بين كل تكوينين متقابلين ، وقد وضعت هذين الباحثين بداية الانشاء تنظيرها السفلية .

طريقة تسبيل المياه بالصبيل :

ان وجود مباني الأسبلة فوق مصدر الماء انما أوجدته ذهنية تقنية وحضارية في نفس الوقت ، فالناحية التنظيمية فيها تتمثل في كيفية المياه المرقة وانتظامه أثناء السيل خاصة وأنه يوجد موظف يقوم بعمله السبيل بشكل منتظم وفي أوقات معلومة يطلق عليه المزملاتي ، أما الجانب الحضاري في ذلك فان وجود مباني السبيل في حد ذاته يدل على أنه نتاج حضارة تسعى بالسبيئة لكي أن تجسيده وتجهيزه يرمي النفس ويسعد فيها البهجة والسرور وهذا خلاف فيما لو كانت موارد الماء خاصة من آبار مجهزة .

ونتيجة لاهتمام السلاجقة والأمراء بالأعمال الخيرية سابقوا لأقامة مثل هذه الأسبلة مع تعيين موظف لها أو أكثر وهذا ينطبق على سبيل المثال موضوع الدراسة وغيره من الأسبلة .

ومثل هذا الموظف ـ المزملاتي ـ كان يقوم بتزميل الماء وتسييله من قوهة البئر مثلا كان ماء معين كما في سبيل قانباي ـ أو محفوظ في صهريج كما في أسبلة القاهرة ـ لخروج من الحجر المنقوش المنحوت في قمته ثلاث فتحات يتصل بكل منها قصبة ـ ماسورة ـ معدنية أسفل

أرضية حجرة السبيل وكل فتحة توصل المياه لحوض الذي يتوسط أرضية كل شباك من شبابيك السبيل الثلاثة السابق الذكر وحال ملء أحواض هذه السبيل بالمياه المعدة لتبريد المياه وضع المرطاني ماء الزهر والورد عند الواردين لتطييب بالكيزان والأسمال المربوطة بالسلاسل بمشبعات شبابيك السبيل وبعد فراغهم من ري ظمائهم يضعون هذه الأسمال على الكتلة الحجرية البارزة التي تتقدم أسافل شبابيك السبيل .

وفي جانب غرفة السبيل كان لمزملاتي يقوم بحمل السلاسل المربوطة بها الكيزان ويقوم بحفظها في دولاب ـ قسمه ـ بداخل السبيل كما كان يعلق شبابيك السبيل بمصاريع خشبية ـ جركاوات [1] ـ قبيل الارتفاع ليمنع من تسول له نفسه نهب أحواض السبيل التي كان يقوم بتنظيفها وتبخيرها مع بدايته كل يوم عند بدء تشغيل السبيل لأرواء العطاشى من رواد الحرم الشريف .

طريقة تغذية السبيل وتجهيزه :

يعتبر هذا السبيل منشأة مائية فنية انعمر على تأهيلها وتجهيزه ما يساعد على تموينها وتصريفها بالتالي . وأول هذه التجهيزات أن جعل الواجهات الأربع لهذا السبيل مواجهة لجهات الأربع الأصلية وتتمثل شبابيك السبيل المكسوة بالرخام ثلاث منها ، بالإضافة لباب الدخول كل هذا يساعد على تحرك الهواء وتهويته بكل من الشباك الشرقي والغربي ولا تتم دورة الهواء الا بدخوله من فتحة الشباك الجنوبي وخروجه الشرقي : ومما يساعد على اكتمال هذه الدورة الهوائية وجود

---

[1] الكلمة تركية بالأصل وتعني الشبكة الحديدية وقد عربت بعد ذلك إلى الشباك الحديدي الشرقي المستعمل في تجميع الهواء والمطر من الخارج .

تعمار للارتفاع المرتفعات التي تتوسط اضلاع منطقة الاشغال مما جعلها كالملاقط تتقف الهواء من أعلى وهذا ساعد على تهوية حجرة السبيل وتجفيفه بتيارات الهواء .

كما أن فتح احمار شبابيك السبيل على وجه مدار الواجهات مباشرة يساعد دخول أشعة الشمس مباشرة دون انكسار وخاصة من الشباك الغربي الذي تظل الشمس ترسل أشعتها من خلاله حتى مغيبها لداخل حجرة السبيل وتزوده حرارة بقائها مدة طويلة خلال أشهر الصيف لأن نور الصيف أطول ، أما بالنسبة للجهة الشرقية فتدخل الشمس حال شروقها من خلال فتحة باب المدخول في حالة فتح مصراعه ووجه الزملاتي مبكرا لتجفيف ادوات السبيل ليبدء يوم جديد ، ولكن أشعة الشروق لا تدوم طويلا ـ وضعيفة نوعا ما ـ لسرعة تحرك الشمس حركة الظاهر فتكون المصدر الاساسي للتجفيف الحراري هو مباشرة تسليط الغربي وعلى كل فان عدا المصدر الحراري بالاضافة مع المصادر الهوائية تعمل سويا لتجفيف داخل حجرة تسبيل كل بطريقته ، ومما يساعد على عملية التجفيف بسرعة أن ارضية حجرة السبيل ذات مرتفعة زهيرة الارتفاع لا يتسع الماء ولكن يحتفظ بالمعدن بارد لانه صخر مائي ولكن مع التهوية والتجفيف الحراري يجف بسرعة ، كما أن وجود الارضية الرخامية تساعد على سهولة التنظيف بسرعة وأقل جهد وقدر من الماء ، ولكن هذه الارضية تغيرت أثناء تجديدات السلطان عبد الحميد الثاني وأصبحت من بلاط خزفي الذي يمتص الماء ويحتفظ برطوبته مما يجعل أمر تجفيفه صعب ، وتنظيفه أكثر جهدا واحتياجا للماء .

تأثير بعض العناصر المعمارية والزخرفية بالسبيل :

قد تؤثر بعض العناصر المعمارية والزخرفية على رأس المعماري منها .

أ ـ شبابيك السبيل وتعددها .

ب ـ نواحي منطقة الانتقال وما بها من مثلثات ناتئة و أشكال هرمية .

جـ ـ القبة المزينة للسبيل .

أما بالنسبة للزخرفي منها :

أ ـ الحنية اللاعب المحدد بها الشبابيك وباب الدخول للسبيل .

ب ـ الوحدات الزخرفية تغطي ظاهر العقود .

تأصيل العناصر المعمارية :

أ ـ شبابيك السبيل :

بالنسبة لهذه الشبابيك فنجد العنصر قد ذكرنا سابقا على معظم الواجهة مباشرة[1] دون أن تتقدمها دكة من حجر بمنسوب حوالي نصف متر وحتى يكون بإمكانه توزيعها بزيادة قدرته وللإمكان دخول أشعة الشمس دون انكسار .

وقد حاول المعمار منذ بداية إضافة تعديد شبابيك السبيل بالأسبلة حتى تقوم بسقيها حيث قام فجعل هذه الأسبلة تمثل ما يحتاجه من المشاة خاصة وإذا كانت تمثل موقع ذات ازدحام على طريق بحيث يأتي مخطط السبيل عند التقاء كل من حارتين أو شارعين وبذلك أمكنه وضع شباك للسبيل لكل منهما ومن هنا جعلت أول تعدد لشبابيك السبيل وهذا ما نجده سبيل الناصر محمد[2] الذي ألحقه بمنشأة والده بحي

---

(1) انظر لوحة رقم ٣ ، ٤ ، ٥ .

(2) انظر لوحة رقم ٩ .

المحاسني بالقاهرة ويعود هذا السبيل لسنة ٧٢٩ هـ - ١٣٢٨ م .

أما لو كان متن هذه المنشآت ملاصقة لبعض مبانية فلا مناص من وجود سبيل واحد فحسب لأنه ذات واجهة واحدة حتى ولو جاء موقعه في طرفها مثلا . غير أن المعمار تحايل على مثل هذا الأمر بإيجاد بروز بتخليف السبيل حيث يزيد من واجهاته حتى ولو كانت إنشاءة الملحق بها مثل هذا السبيل ملاصقة لبناء أخرى وقد حدث هذا بسبيل السلطان أينال الملحق بمجموعة(*) بالصحراء شرق القاهرة ويعود هذا السبيل لسنة ٨٦٠ هـ - ١٤٥٦ م وهو المثل الذي نبدأ الابتكار متضح بسبيل قنصوه السلطان بالقدس والذي نحن بصدده ، ولكن مع الفارق من حيث موقع كل منهما فالأول ملحق بمجمع كبير وكانت مهمة بروز واجهته عن السور المحيط بهذا المجمع على المعمار شبه صعبة ، أما بالنسبة للثاني ونحن به سبيل القدس فإن معمار ينال تعرض بسبيل مجمع القاهرة كما أن مساحة أرض الحرم المقدس المتسعة مع وجود هذا السبيل مستقل كل هذا ساعد على تيسير مهمة المعمار في فتح ثلاث شبابيك به كقرينه بمجمع القاهرة ، وقد ورث هذا الابتكار معمار قايتباي وقدم سبيلين لهذا السلطان منطقة تحت الربع من القاهرة غير أن هذا السبيل اندثر الآن إلا أن الرحالة بريس دافن كتب عنه في مجلده عن القاهرة وجاء بأحد تصميمين وهو للدكتور حسني نويصر ونسب هذا الابتكار لمعمار قايتباي وذكر أن أول سبيل ذات ثلاث شبابيك كان سبيل قايتباي تحت الربع ، غير أن ما أبتدأ يصحح ما ذكره الدكتور حسني نويصر في رسالته للماجستير وهي رسالة متخصصة عن آسبلة السلطان قايتباي بالقاهرة .

ولما كان معمار قايتباي قد قد نقل هذا الابتكار المأخوذ من

(*) انظر شكل رقم ٦ لوحة رقم ١١ .

معدن ايل بمثل واحد بالقاهرة هذه أيضا مثلها في مجموعة سبيل المدرسة الذي يعود أيضا للأمير عبد الرحمن كتخدا ، وكذلك مدخل المدرسة المؤدي إلى هذا الابتكار وهذه أكثر من مثل أربعة السبيل المدخل بمجموع خاير بك ٩٠٨هـ - ١٥٠٣م ، بمنطقة باب الوزير ، والسبيل الملحق بقبة طرباي البرقوقي(*) ٩٠٩هـ - ١٥٠٣م وهو بنفس المنطقة السابقة والسبيل الملحق بمجموع السلطان الغوري(*) ٩٠٩ : ٩١٠هـ - ١٥٠٣ : ١٥٠٤م ، بمنطقة الغورية والجامع الأزهر بالقاهرة .

ب - نواصي منطقة الانتقال :

أما بالنسبة لنواصي منطقة انتقال قبة هذا السبيل فهي عبارة عن ثلاث مخروطات مرتبة بحيث تأخذ هيئة مثلث قمته لأسفل وقاعدته لأعلى وأبرز المعمار بكل مخروط منها شكل حرف (ق) ومثل هذه الانتقال الحرمية الذي وليفة نواصي مضلع انتقال المآذن لا بمصر والشام والذي بالأخص فقد ظهرت بمنطقة انتقال كل من مآذني مدرسة قجماس الإسحاقي ٩٥٩هـ - ١٥٥٣م بالخرنفش ، ومئذنة مدرسة أنص ساري ٩٦٩هـ - ١٥٦٨م بقونية بآسيا الصغرى ، ونظرا لأن امتداد القاعدة الرابعة لكل هذه المآذن هو ركن امتداد ترسيم القباب كما أن ارتفاع نواصي مناطق انتقال المآذن يكون معدودا حتى تعطي فرصة للبدن للارتفاع فقد شغل المعمار بكل هذه النواصي بشكل حرف (ق) بكل منها لا كما يوجد بنواصي مناطق انتقال القباب من أمثلة شغل هذه الابتكارات الحرمية .

وقد استغلت مثل هذه الأشكال الحرمية لمآذن المعمار أيضا ودلك في العصر المملوكي البحري وكان أول ظهور لها بنواصي منطقة انتقال

(*) أنظر شكل رقم ٩ .
(*) أنظر شكل رقم ١٠ .

مئذنة علي بدر الدين القرافي ٧٠٠ ـ ٧١٠ هـ ـ ١٣٠٠ : ١٣١٠ م
و بالمرتفعة الصغرى ، أي بعد ظهورها بمآذن آمير الصغرى والأقصول
بحوالي نصف قرن ، ثم والت في الظهور في العصر البحري بمئذنة
مسجد شيخو العمري ٧٥٧ هـ ـ ١٣٥٦ م ، بالصليبة ، وبمئذنة
مدرسة أم السلطان شعبان ٧٧٠ هـ ـ ١٣٦٨ م ، بالشيخونية .

واتفق قسم العنصر لمآذن العصر المملوكي الجركسي وظهر بنواحي
منطقة انتقال مئذنة مجمع الظاهر برقوق(*) ٧٨٦ : ٧٨٨ هـ ـ ١٣٨٤ :
١٣٨٦ م ، بمنطقة بين القصرين ، وبمئذنة مدرسة جمال الدين يوسف
الإستادار ٨١١ هـ ـ ١٤٠٨ م ، بالجمالية ، وبمئذنتي مسجد المؤيد
شيخ ٨١٨ : ٨٢٣ هـ ـ ١٤١٥ : ١٤٢٠ م ، بباب زويلة ، وبمئذنة
مسجد علي باشا ٨٣٠ هـ ـ ١٤٢٦ : ١٤٢٧ م ، بالقرافة ـ وحول
هذا التاريخ السابق بدا عنصر العنصر يتسع بنواحي مناطق انتقال
الجمالية ـ وبمئذنة مدرسة القاضي يحيى زين الدين ٨٤٨ هـ ـ ١٤٤٤ م
، بمنطقة بين القصرين ، وبمئذنة مسجد لاجين السيفي ٨٥٢ هـ ـ
١٤٤٩ م ، بشارع مارستان بالبداية بالجمالية ، وبمئذنة مسجد القاضي
يحيى زين الدين ٨٥٦ هـ ـ ١٤٥٢ م ، بالجمالية ، ومئذنة شباك بن
مكي ٨٨٣ هـ ـ ١٤٧٨ م ، بالأمير الليث بن سعد ، وبمئذنة مدرسة
قيتباي ٨٨٩ هـ ـ ١٤٨٤ م ، بالروضة .

وإذا كان ابتكار مئذنة الأشكال الهرمية الثانية بنواحي مناطق
انتقال المآذن يرجع الفضل فيه لابتكار المعمار السلجوقي بالأناضول
وآسيا الصغرى وعمقه المعمار المملوكي بمصر والشام وتعدد بنواحي
مناطق انتقال المآذن أيضا فإنه قد ظهر بها بنواحي مناطق انتقال الجمالية
وحدا طبيق في مئذنة لم يظهر المعمار السلجوقي وتحسب كابتكار

(*) آثار النوبة رقم ١٠ .

العصر المملوكي من حيث انتشاره في مثل هذه النواحي . وقد بدأ انتشار المملوكي تطبيق هذا العنصر بنواحي مناطق انتشار القباب منذ نهاية الثلث الأول من القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي أي في عهد السلطان الأشرف برسباي وكانت أول قبة يطبق فيها هذا العنصر هي قبة الأمير جاني بك ٨٣٤ هـ — ١٤٣٧ م ، بقرافته الشرقية الكبرى ، وظرا لأن طبيعة امتداد الربع السفلي لقباب أكبر من ربع قواعد المآذن السابقة فقد زاد المعمر حجم المثلث الكروي بنواحي انتقال القباب ربع اضعاف حجمه بنواحي انتقال المآذن والذي ساعد على ذلك أيضا محاولة لايجاد نسبة وتناسب بين ارتفاع المثلث الكروي وحشات منطقة انتقال القبه من الداخل .

وقد مثلت مثل هذه الانتقالات الكروية بنواحي انتقال كل من القباب الآتية :

قبة السبع بنات ٨٥٥ هـ — ١٤٥٠ م ، بقرافة ططباي ، وقبة الأشرف انتال ٨٥٥ هـ — ١٤٥٠ م ، بقرافة الصغير ، وقبة أزدمر ، نهاية القرن ٩ هـ — ١٥ م ، بقرافة المعيلي ، والقبة التي تعرف بقبة ترقداش نهاية القرن ٩ هـ — ١٥ م ، بباب النصر بحدائق وأعيد بناؤها بعمرتي قبة جاني بك بقرافته الشرقية الكبرى ، وقبة جانم البهلوان(*) ٩١٦ هـ — ١٥١٠ م ، بالمارديني .

وانتقل هذا العنصر لقباب التي بنيت على النمط المملوكي في فترة العثمانية وظهر بالقباب الآتية :

قبة الأمير سليمان ٩٥٩ هـ — ١٥٤٩ م ، بحوش منسك برسباي بجاسي بالقرافة الشرقية الكبرى ، وقبة ابراهيم خشقدم جدران

(*) أنظر اللوحة رقم ٢٢ .

١٠٠١ هـ - ١٥٩٣ م ، ٢ - الشيخة ، وفاة الطحاوي ١٠٩٨ هـ - ١٦٨٧ م ، ٣ - طريقة الامام الشافعي ، .

وإذا كان هذا الشكل الهرمي للقبر بنواحي مناطق انتشار القباب منذ نهاية الثلث الاول من القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي واستمر بها حتى نهاية العقد الحادي عشر الهجري - السابع عشر الميلادي فان العمار ادخل عليه تطوير قبل نهاية القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي وهذا التطوير عبارة عن تقليل حجم الشكل الهرمي بحيث جعله العمار في حجم ظليره بمناطق انتشار المآذن وهذا استدعى منه تعديله في كل ناحية من نواحي مناطق انتشار القباب التي تتسع وترتفع عن ظليرتها في المآذن وقد اتضح مثل هذا التطور في نواحي منطقة انتشار القبة المتحدة بمدرسة قجماس الاسحاقي ٨٨٨ هـ : ٩٠٣ هـ - ١٤٨٣ : ١٤٩٨ م وتاريخ انشاء جدد انبه هو نفسه تاريخ احداث بناء سبيل الكتاب الذي نحن بصدده من سبيل الدائر القاهري هذا السبيل ، وقد قلد العمار بكل ناحية من نواحي منطقة انتشار قبة مجماس وقبة سبيل الكتاب ثلاثة اشكال هرمية تامة بحيث تنتظم في مستويين المستوى الاول شكل هرمي واحد والمستوى الثاني اثنان وقد قلد هذا النظام قبة الصالح مرجان باي(*٢) ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م بالعباسية ، ، وقد تزود العمار هذا النظام تطورا في قبة قاسم ابو سعيد(*٣) ٩٠٤ هـ - ١٤٩٨ م بالقرافة الشرقية ، بحيث جعل في كل ناحية ثلاث مستويات يستوعب السفلي شكل هرمي والثاني اثنان والثالث ثلاثة اشكال هرمية ، وقد قلد مثل هذا النظام بنواحي منطقة انتقال قبة الرسول بمدينة المنورة على صاحبها افضل الصلاة والسلام

(*٢) انظر اسبقة رقم ١٩ .

(*٣) انظر اسبقة رقم ١٨ .

الا أن مثل هذه الظاهرة لم تتكرر في العصر المملوكي ولكن ظهرت في العصر الحديث في كل من مدينة الاسكندرية والقاهرة ، مصطفى كامل بالقاهرة » .

* * *

لا أن الامر استقر بعد هذه الفترة وعاد كما كان مستويان فقط مع بعض التصرف وذلك بكل من قبة خاير بك[1] ٩٠٨ هـ — ١٥٠٢ م بحيث جعل بالمستوى الاول شكل معين ذا رءوس مدببة لبداية وسط المستوى الثاني الذي به اسكتين الهرمين ، ومثل هذا النظام قبة بواصي منطقة انشال قبة أزبك ٩٠٩ هـ — ١٥٠٤ م ، بالقرافة الشرقية الكبرى » .

ان آخر هذا النظام بدا يفصح به ثاني عباني كان قد غذى مصر آسيا الصغرى بنواصي مناطق انتقال الاذن فظهر ما قد بدأ سنة السلجوقي بها وحتى الاشكال الهرمية الذي كان على حساب حجمها الذي زاد رشاقة وكان هذا العمل في مستوى واحد فتوقف المعمار المصري المملوكي هذا التطور ، فقد هذه المرة بواصي مناطق انتقال القباب مباشرة دون أن يجعل نواصي انتقال للاذن كعمل التجريب حيث أن أسسه وتقسيمه المعمارية كانت قد استقرت وتطورت ولم تتسع فرصة لتطور بشكل مربع لا كما حدث عند دخول مثل هذه الاشكال الهرمية لأول مرة .

ولكن هذا التأثير العثماني امتصه المعمار المصري المملوكي وحاكاه وأظهره بصورة تختلف أصله عليلا وذلك عن طريق ما سلكه من سيرة سابقة قد اكتسبها طوال قرن من تطور الاشكال الهرمية القديمة في المستوى

---

(١) انظر الموجة رقم ٢٠ .

التالي دون تغيير الا انها زادت رشاقة وظهر التطور بشكل سافر في المستوى الاول على هيئة اشكال زخرفية يحصران بينهما العمود قليل البروز وقد اتضح هذا النظام بالقبة الملحقة بجامع باي باي أمير آخور ٩٠٨ هـ ـ ١٥٠٣ م و بدرب اللبان ، بالقبة الملحقة بجامع الغوري ٩٠٩ ـ ٩١٠ هـ ـ ١٥٠٣ : ١٥٠٤ م و بالخورية ، وبقبة يشربي الخياط ٩٢١هـ ـ ١٥١٥ م ، بالجودرية ، كما امتد هذا التأثير في الفترة العثمانية وظهر بالقبة الملحقة بمسجد المحمودية ٩٧٥ هـ ـ ١٥٦٨ م ، بالقلعة ، .

جـ ـ القبة وتوجيهها للسبيل :

ان توجيه هذا السبيل بقبته انما يأتي في المقام الاول للملاءمة بينه وبين مباني هذا الحرم المقدسي الذي اراد المعمار ان يوجد بينهما انسجام فقبة الصخرة تتوج خلفه والقبة التي تعلو محراب المسجد تقع الى الجنوب منه بالاضافة لبعض القباب الاخرى الواقعة بين هذا السبيل وقبة الصخرة التي تأتي قبة محراب النبي ، قبة يوسف ، قبة موسى ، قبة سليمان ، قبة محراب داود[٣٠] ، ومن هنا وجد المعمار نظرا لحساسية الموقف ان خير ما يناسب هذا السبيل هو توجيه مثل هذه القبة لايجاد الانسجام المنشود بينه وبين باقي قباب الحرم ، وقد سار المعمار المملوكي في الفترة المتأخرة بنفس التجربة عند الجامع الناصر محمد بسبيله بسكة آبيه فوج عند تسبيل بقبة حجرية(*) وهذا يرجع أيضا لملاءمة بنائه وبين قباب المنشآت الاخرى المواجهة حوله فقبة الصالح نجم الدين في الشرق منه وقبة المنصور قلاوون في الشمال الشرقي وقبة الناصر محمد على نفس السمت والاتجاه ومن هنا نجد ان المعمار تصرف في كلا الموضعين بشكل موحد نظرا لتشابه الارتباط بينهما .

---

(٣٠) انظر اللوحة رقم ٨ .

ولكن اتخاذ القبة في كل من المثلين السابقين انما يرجع لعدم تغطية المسار لوحدة الاكتاف فوق كل منها وهذا ما أتاح الفرصة لاظهار مثل هذا النوع الجميل وهي تمثل ملابسات السبيل التركي العثماني ولكن هذا لا يجعلنا نجزم بوجود تأثير عثماني بهذا السبيل من حيث تتويجه بقبة فان قبة السبيل العثماني خشبية وذات حجرية كما أن قبة السبيل العثماني ذات قطاع نصف دائري وهيئة وغير مزدانة بأي زخرف(*١) اما قبة السبيل الذي نحن بصدده فذات قطاع مدبب ومزدانة بزينة نباتية رشيقة(*٢) ، وان تأثير السلوكي يتمثل فيها كما نعرف في القباب الجدارية التي عرفها في مصر(*٣) والشام نتيجة في فيه هذا السبيل ما اختزنه من خبرات اكسبها خلال بنائه لقباب المدارس والاضرحة وكانت النتيجة في النهاية هي استخدام جديد لمخروطة فوق بناية هيرمية لا جدرانية .

وبعد أن انتهينا من تأصيل بعض عناصر العمارة بسبيل الصاحبي نبدأ في تأصيل الشق الآخر ونعني به العناصر الزخرفية التي على رأسها :

أ - الجفت الاعمى(*٤) :

ان تحديد الشبابيك بهذا السبيل وما عليها من أعتاب بالاضافة لعتب باب المدخل اليه بهذا العنصر انما هو من ابتكار معمار تأثر بالاسلوب الذي كان لدى معماري هذا العنصر ولكن استخدمه في أماكنه

(*١) انظر اللوحة رقم ٢ .

(*٢) انظر اللوحة رقم ٤ .

(*٣) أنظر اللوحات رقم ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(*٤) انظر اللوحات رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

تقليدية من حجور مداخل وعقود ايوانات وأعلى رواق القباب ولكنه لم يستخدمه على جانبي شبابيك السبيل مسيله الحق بمجموعة المصحف شرق القاهرة كما انه من المحتمل لم يتم استخدامه أيضا بسبيله المجاور بالقدس ، وجه معمار قايتباي وأدخل شبابيك السبيل بالأسبلة — ومن منطقة سبيل القدس — ضمن التحفات التي احتواها الجفت اللاعب وأول سبيل ظهر به عنصر الجفت اللاعب هو سبيل قايتباي الملحق بمدرسة مجموعة بالصحراء والذي يعود لسنة ٨٧٩ هـ — ١٤٧٤ م ولكن عدا الجفت لم يحدد جانبي شبابيك السبيل ولكن حدد عتبتها فقط ولكن لا ندري هل هذا العنصر لحقها بأعلى عتبي شبابيك السبيل السابق مباشرة أم عن جانبي شبابيك تسبيل قايتباي ٨٨٢ هـ — ١٤٧٧ م ، بالأزهر ، ثم بشباك السبيل الملحق بمدرسة أبو بكر بن مزهر ٨٨٨ هـ — ١٤٧٩ : ١٤٨٠ م ، بيرجوان ، وبشبابيك سبيل قايتباي الذي بني بنفس السنة السابقة ، بالصليبة ، ثم قد نجد هذا العنصر على جانبي وأعلى الشبابيك الثلاثة لسبيل القدس عند اعادة بنائه في عهد قايتباي وقد عهد هذا السلطان الذي سبق معماره ادخال الجفت في زينة عتبات شبابيك السبيل صارت تلك الزينة عليها وانتشرت على أسبلة أمراء عصره واتخذت لأسبلة السلطان الغوري وأمرائه أيضا بل ولأسبلة التي بنيت على النسق المملوكي في العصور المتأخرة حتى بداية القرن ١٣ هـ — ١٩ م وجد معمار محمد علي وطلب الأمور وتبع نهجا آخر في زينة شبابيك الأسبلة ،

ب — زخارف قبة تسبيل(٣٠٠) :

هذه الزخارف ذات الطابع المملوكي التي اتخذها العنصر بظاهر قبوة هذا السبيل انما هي تاج خبرته التي اكتسبها من خلال أعماله بحوذ

---

(٣٠٠) أنظر اللوحة رقم ٤ -

القباب الجنائزية بمصر ، ولذا كانت مثل هذه الرسة تنفذ بأمر هذه النوع منذ العصر الفاطمي واستمر بها الحال كذلك خلال العصر الأيوبي والمملوكي البحري واوائل الجركسي فانه لم يستطع ان يعلها بشكل يليق بها ظاهر الغورة الا في بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي وذلك في عهد السلطان برسباي حين نفذ حمارة مثل هذه عناصر البناية بشكل متجرد بقبته المخنة بمجمعه بظاهر القاهرة ٨٣٥ هـ - ١٤٣٢ م ، وهذا العنصر الثاني ما هو الا رقبة ذات ثماني بثلاث توسط أشرطة حجرية بارزة متقاطعة تكون فيه نجمية ذات ترس ثماني الطابع وصل به العمار المجرد التام بكل من حوذة القبة ملحقة بالحوش الجنائزي بمجمع السلطان برسباي السابق وحوذة قبة الأمير جاني بك الواقعة بارج الحوش الجنائزي السابق ذكره .

ولكن أول حوذة قبة ذات طابع بنائي كامل هي حوذة القبة الملحقة بمدرسة جوهر القنقباني بالأزهر عين ٨٤٥ هـ - ١٤٤١ م وقد نفذت بيد معمار عبد برسباي أيضا وقد تطور أمر هذه الوحدات البنائية على يد معمار قايتباي حيث صارت وحداته وضحت تفاصيلها الداخلية وتمثل هذا الوضع بحوذة أولاد قايتباي[٣٢] أو المشهورة بقبة الكلسي ، قبل ٨٧٩ هـ - ١٤٧٤ م وهي ملاصقة لمجمع السلطان قايتباي بالصحراء بظاهر القاهرة ثم نفذ العمار قبة قايتباي[٣٣] التي دفن بها بنفس السوق السابق ، ولكن مع خلوه الاخيرة لمجموعة التي اتضحت بقبة برسباي ولكن بشكل أكثر دراسة للرأي وأخذ أيضا أشكالا عجيبة تستوعب الوحدات البنائية وللكل دون أن تكون عبء عجيبا واضح المعالم .

---

(٣٢) انظر اللوحة رقم ٤٠ .

(٣٣) انظر اللوحة رقم ٤١ .

وإذا أكتسب الحجار مثل هذه الخبرات قام بتنفيذها بخوذة مجوفة من المعدن ولكن دون تحديدها بالأشرطة الحجرية كما أن وجدانها اقتصر أغلب ما هي عليه بقبة أولاد قرباي .

وتطورت هذه الوحدات الدفنية بعد ذلك مع تحديدها بالأشرطة الحجرية التي اتخذت أوضاعا أفقية فبدلا من اتخاذها الأشكال الهندسية كما في قبة السلطان قرباي اتخذت أشكال المحاريب وظهرت بقبة العادل طومان باي(*٣) ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م و بالعباسية ، ثم تلاها في ذات تجاويف مشهورة النواصي بقبة خير بك(*٤) المتحفة بمجموعة ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م و بباب الوزير ، ولكن الأمثلة التي تنتهي لم تستخدم الفتر بن بخلت عنه وهذا ما وضح بخوذة قبة قاني باي أمير أخور المتحفة بمجموعة ٩٠٨ هـ - ١٥٠٣ م و بدرب اللبانة ، وخوذة قبة جانم الهواوي(*٥) المتحفة بمجموعة ٩١٦ هـ - ١٥١٠ م و بخرابي ، واستمر هذا النظام في بداية العصر العثماني بخوذة قبة الأمير سليمان ٩٥٦ هـ - ١٥٤٩ م ، بحوش قتاة برسباي اليحياوي ، بالمراءة الشرقية بظاهر القاهرة ، أي أن أغلب جاورات هذه الخوذة عدد كما كان بخوذة طومان .

وإذا كان مثل هذا النظام السابق ذكر بخلت ثمانية تشفه وتحدد أغلبه أشرطة حجرية كان الحجار قد نظاما بسيطا يتكون من ورقات نباتية متشابهة تشكل متكرر وذلك بكل من خوذة قبة بيبرس الجاشنكير ٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م بالجهة الشمالية من مجمع السلطان شعبان بالصحراء وبخوذة أزدمر ٨٠٩ هـ - ١٤٠٦ م ، بمراقة بخيلي .

(*٣) انظر لوحة رقم ١٩ .

(*٤) انظر لوحة رقم ٢٠ .

(*٥) انظر لوحة رقم ٢٢ .

تأثير سبيل قايتباي بالقلس على قبة مصورة[٣٦] بمصر القاهرة ٩١٢ هـ - ١٥٠٩ م :

اذا كانت جميع الوحدات المعمارية والزخرفية لسبيل القلس مقتبسة من آثار وعمائر القاهرة من التجربة التي خاضها المعمار فيه اكسبته خبرة نتجت عنها قبة الامير عصفور الموجهة اطلاقا الناصر فرج حيث تشبه سبيل القلس في صغر مساحته وارتفاع الواجبات ورشاقة النسبة أما من حيث التفاصيل فيختلف كل منها عن الآخر كما أن المعمار المملوكي عمد به وحده سبيل لا علوه كتاب وعماد بقية معجزة شامخة لا نظير لبنائها من الخارج .

السبيل في كتب الرحالين والوحات الرسامين الاجانب ومؤلفات الاثريين المحدثين العرب والاجانب :

رغم اهمية هذا السبيل من الناحية المعمارية والاثرية لاأن الاهتمام به لم يكن كافيا حيث أن ما ورد عنه في المؤلفات التاريخية كان محدودا للغاية فذكره مؤرخ بيت المقدس مجير الدين الحنبلي في مؤلفه عن هذه المدينة المقدسة في عبارة مختصرة نصها : « ومن جملة ما عمره الملك الاشرف قايتباي السبيل المقابل لها - اي مقابل المدرسة الاشرفية - بداخل المسجد فوق البئر الذي خارج المصطبة العربي وكان قصد على البئر المذكورة قبة مبنية بالحجارة كغيرها من الآبار »[٣٧] .

هذه العبارة السابقة رغم قصرها الا انها مفيدة للغاية حيث امدتنا بمعلومات هامة كان عليه حال البئر قبل بناء السبيل عليه اذ كان يعلوه قبة حجرية كبقية الآبار المنتشرة بمنطقة الحرم ، كما أن مجير الدين كان

---

(٣٦) انظر اللوحة رقم ٦٠ .

دقيقا في تعبيره حين قال : « ومن جملة ما عمره الملك الاشرف قايتباي السبيل » ، وهذا يدل على ان هذا السلطان قام بتجديد سبيل كان موجودا من قبل وهو سبيل اباك وما وجده خربا معطلا فامر باصلاحه[١٠] وتعميره حتى يعود لأداء وظيفته كما كان ، ولو كان التعبير قاصرا وغير دقيق كعمره ، لانشاه أو لبناه ، لاختلفت النتيجة ولتغير السبيل من السادات لا من تعميراته ولكن الذي يؤكد دقة عبارة مجير الدين هو وجود جزء من عمر انشاء السلطان الغوري لهذا السبيل باقيا حتى الآن .

كما أن تحديد مجير الدين لموقع السبيل كان دقيقا للغاية اذ يذكر في تحديده له « بمدخل المسجد — اي بداخل ساحة الحرم — فوق البئر المقابل لمدرج الصخرة العربي » ، كما ان الاسم الذي ذكره مجير الدين في عبارته السابقة ثم يتغير حتى الآن وهو المدرج المؤدي لباب العربي لقبة الصخرة ، وبذلك نعتبر مجير الدين ليس مؤرخا فقط ولكن كاتب خطط ايضا من الطراز الاول في الشرق الاسلامي .

هذا بالنسبة لما ذكره مجير الدين العليمي مؤرخ وكاتب خطط بيت المقدس ، رغم أن ما ذكره غير مرفق بصور فانه كان واضحا ودقيقا للغاية .

ولكن بالنسبة للوحات التي تعبر عبارات فانها اكثر تعبيرا ومنها ومن عدد اللوحات التي سجلت لسبيل قايتباي[*] رسمت سنة ١٨٧٥ وسجل منظر عام له .

ويتضح في هذه اللوحة اختفاء بعض العناصر وذلك بفعل عاديات الزمن أو أعمال التجديد عن هذه العناصر التي لم توضحها اللوحة نتيجة

(*) انظر اللوحة رقم ٢ .

لعدم وجودها وقت تسجيله ... الدرج المؤدي لشباك السبيل ، والذي أعاد تركيبه دائرة الآثار العربية حديثا فعاد كما كان قديما وقت الانشاء .

أما العناصر التي ومضتها اللوحة وأزيلت حاليا بفعل أعمال الترميم الحديثة فهي سور الحديقة المحدقة فتحت شبابيك السبيل والمثبت بها المصبعات المعقبة لهذه الشبابيك ، ويعتبر ازالتها ضياع عنصر مهم من المعلم وجوده بشبابيك الأسبلة بمصر والشام والاراضي المجاورة .

أما ما سجلته اللوحة بالنسبة لزينة اعتاب الشبابيك من زخارف هندسية[٢٦] فهي غير موجودة حاليا والموجود منجات مركبة مزورة غير تبعا لنظام الشهر ، فمن المعتقد ان متن هذه الزينة ازيلت مع صنج الاعتاب القديمة اثناء عمليات الترميم الحديثة .

واذا كانت هذه اللوحة افادتنا كثيرا في معرفة حال السبيل في اوائل القرن ١٩ م وامدتنا بمعلومات عن وحدات وعناصر معمارية اختفت حاليا ، فان الرسام لم يرسم خوخة نبة هذا السبيل يتصدق فان الصور واللوحات الحديثة تبين لنا الخوخة وهي ذات قناع مذهب مسدد بسا في اللوحة القديمة التي نحن بصددها بينها وهي ذات قناع مخموس (منتفخ الوسط) وهي في ذلك مثلها كالشباب السبيه البسيطة الشكل ، وان كان الرسام قد سجل الزخارف النباتية لظهرها بصدق ودقة .

ولكن نعود لقناع الخوخة فانه لو كانت الخوخة معمرة حاليا وهذه اللوحة هي المصدر الوحيد للرسمين فانهم يستوحون شكلين من خلال هذه اللوحة وفي ذلك خطأ واضح تجرهم اليه هذه اللوحة !

واذا كان كل من المصورين السابقين على مستوى النقد مع التحفظ بالنسبة لشكل الخوخة في اللوحة فان ما ذكر في المؤلفات الاثرية الحديثة

عن هذا السبيل يكاد لا يصل لمستوى الأدنى منها ، فقد ورد عبارة عنه بكتاب العقود والوظائف[١٦] الدكتور حسن الباشا نصها : « وقد أرسل السلطان قايتباي في سنة ٨٨٦ هـ : ١٤٨١ م الى القدس جماعة من المهندسين ممن بحثة من المتخصصين في صناعة البناء وذلك لانشاء مدرسة وقبة السبيل بها » .

فبالنسبة للتاريخ الذي ورد بتلك العبارة فغير دقيق لان أعمال هدم مدرسة السلطان خشقدم والتي قبلها السلطان قايتباي من الامير حسن الظاهري بدأت سنة ٨٨٥ هـ واعادة حفر أساساتها بدأ في ١٤ شعبان سنة ٨٨٥ هـ[١٧] ولا بد وأن يكون المهندسين والبنائين موجودين في موقع العمل قبل البدء في حفر الاساسات عمل التصميم اللازم لعمليات الانشاء فيكون ارسالهم أوائل العام أو منتصفه أي في سنة ٨٨٥ هـ على وجه التقريب لا سنة ٨٨٦ هـ كما جاء في العبارة ، وبذلك يعتبر التاريخ الذي ورد بتلك العباره هو تاريخ بداية الانتهاء من اعادة بناء كل من المدرسة والسبيل لا بدايه ارسال جماعة المهندسين .

أما بالنسبة للشق الاخير من العبارة السابقه فغير دقيق أيضا لان الغرض من ارسال المهندسين ليس انشاء مدرسة جديدة للسلطان قايتباي ولكن لاعادة بناء مدرسه الظاهر خشقدم التي قبلها من الامير حسن ولم تعجبه لما حفر لها القدس سنة ٨٨٥ هـ ، كما أن هذا الامير تضيق على سبيل إينال الذي كان في الغالب لا يقوم بمهمته بأمر بتجديده واعادة بنائه كلية لا بناء القبة فقط كما ورد في العبارة ولو افترضنا ان اعمال بناء القبه فقط فرضت على المهندسين اعادة بناء أعلى الواجهات وتنفيذ النص العالي بالسبيل والذي يعود عهد قايتباي فماذا عن وجود الجفت اللاعب الذي لم تفتح طاقات السبيل قبل عهد هذا السلطان[١٨] ومن هنا نجد جماعة المهندسين جاءوا لاعادة بناء السبيل كله لا قبته فقط كما ورد في العبارة .

اما بالنسبة للشق الاوسط في العبارة السابقة وهو : ارسال جماعة المهندسين ضمن بعثه من المتخصصين في صناعة البناء : فهذا واضح من التأثيرات القاهرية في كل من المدرسة والسبيل وقد أوضحناه بشكل جلي فيما يختص بالاخير .

اما ما ورد عن السبيل ببحث الدكتور عبد اللطيف ابراهيم وهو بحث وثائقي عن « مدرسة قايتباي بالقدس والجامع بغزة » فجاء متضبا للغاية ونصه : « كما بنى ـ اي قايتباي ـ سبيلا بالقرب [20] » . من هذه العبارة القصيرة أجمل الدكتور عبد اللطيف توصيف السبيل مع بيان أهم مميزاته وهو توجه بهذه ولكنه وقع في خطأ وهو تقريره أن قايتباي هو الباني الاول لهذا السبيل وبرره وجود كتابة من ملكه معماره ولكن ما أوضحناه في البحث أن قايتباي هو الباني الاول للسبيل وتوجه بقية من سكان الدكر معمره [21] .

كما ورد نص عن السبيل بكتاب [22] الاستاذ محمود العابدي بشكل موجز أيضا اذ يقول : « وبه ـ اي لقايتباي ـ في ساحة الحرم السبيل الرائع الذي يرتاده وزواره ولا سيما هذه القبة الشامخة والتشيق بالحجارة الملونة على نوافذه باشكال هندسية أو على اشكال الزهور » .

من هذا النص يتضح لنا أن مؤلفه عاصر الاثر فعلا رغم أن السبيل تعد معمرة ايضا تقتضي منا العناية بمكوناته وعناصر العمارة ولكن يعتبر هذا النص من أكثر العبارات والنصوص التي تضمنتها الكتب الاثرية للصدق وضوحا وتكمن دقته في بعض الجزئيات الهامة الذي يعالج التشيق بالحجارة الملونة على النوافذ . فان هذا التشيق هو بأعلى النوافذ وذلك بالاعتاب الموجودة بها لان عبارة : « على النوافذ » توحي بأن هذا التشيق يغشي النوافذ لا بملوها وشتان بين المعنيين وعبارة الاشكال هندسية المقصود بها تزيين الصنج المعشقة

التي اتخذت أشكالها الزواوات مهما كانت هو : الأشكال هندسية ، أما بالنسبة لباقي العناصر ، أو على أشكال الزهور ، فتعبير ليس في محله ولا يوجد مجال للتقريب بينه وبين ما يوجد بالكتاب هذا السبيل مثلا فعلنا بالنسبة للشق الأول من التعبير إلا أنه كان يصف الزخارف الهندسية نجزاه الله ولكن لا يقصد هذا كما هو واضح من العبارة .

وإذا كان ما ورد في الكتب الأثرية السابقة عبارة عن تلميحات وعبارات محدودة لا تفي وتقضي هذا السبيل حقه فإن هذا السبيل أخذ حقه من الدراسة ضمن رسالة الماجستير قام بها الباحث خلال السنوات الأخيرة وهي تحت عنوان : « عمائر السلطان قايتباي في بيت المقدس »[٣] ، وقد تناول هذا البحث السبيل وبيّن تخطيطه وتكلم عن فن الإنشاء وزود بصورة بالإضافة بقايا فني إيتال مع بيان الوحدات الزخرفية به ورغم هذا الجهد فإنه لم يكمله على الوجه الأكمل من حيث تأصيل العناصر المعمارية لهذا السبيل من حيث التخطيط وتعدد تبويبات السبيل والواجهي حقه الانتشار وزخارفه الغنية والتعريف بزخارف القباب الجانبية بصفة عامة بل لم يقم بأي محاولة لمعرفة تصميم سبيل إينال الأشقر رغم أن المحور الرئيسي لهذه الرسالة هو السبيل والمدرسة فقط ؛ فوجدنا لزاما علينا استكمال هذا النقص ، فكان تناوله هذا البحث عنه بعد شيئا لا بالنسبة لهذه الرسالة ولكن بالنسبة للمجال الأثري عموما .

وقد أتى الأثريون الأجانب بذكرهم في تناول هذا السبيل وكانوا كنظرائهم العرب من حيث الاقتضاب والاختلاف فتناوله برجر (Bregge) في تدوينه عن عمارة مصر وفلسطين[٤] بقوله : « في أورشليم (أي بيت المقدس) يوجد هناك سبيل بالحرم الشريف يقترن دائما باسمه ولكن تاريخه غير معروف إلا أن كان سلاطان ذكر أن بناءه كان في سنة ١٤٤٠ م ؛ وقبة هذا السبيل مغطاة بزخارف مائية ، أرابسك ، مشابه بشكل متابع توحي بتاريخ متأخر » .

في هذا النص يعترف برجز بعدم معرفته التاريخ انشاء السبيل وان كان قد حاول عن طريق زخارف القبة التي أوجد له بتاريخ متأخر عما ذكره سالادان (١٤٤٥ م) ويرجع في هذه الحالة صانق المحمدي والتحسين وفاته ملكه الاثرية اضافة لمل هذا الغرض الذي أثبتت الابحاث صحته بعد مضي ما يقرب من نصف قرن على اعلانه ... و ... كان برجز حينما اد م يذكر مدى الأهمية في تركه علامي عالم يشكله من يجد المستند التاريخي الصحيح والذي يستطيع تحديده الآن بأربعين سنة عن تاريخ سالادان وذلك بعد نضوج عملية البحث التاريخي والاثري الذي تم حول هذا السبيل .

أما بالنسبة لما ذكره سالادان عن تاريخ انشاء السبيل فقط على ولو فرضاه لمحمد اينال الذي تولى السلطنة بعد عام ١٤٥٣ م أي بفارق ثماني سنوات عما ذكره سالادان ولكن هذا السبيل كما اوضحنا من خلال الفتحات بعد أن أزيل ما بناه اينال ، وبعدا يزيد الفارق بأكثر من اربعين سنة .

وبعرض ما كتبه المؤرخون العرب بلوحات الرسامين ومؤلفات الاثريين المسلمين تكتمل حلقات هذا البحث الذي عرضنا فيه وجهة نظرنا فيه كتبه غيرة وسردنا رأيه فيه بشكل وضوح فيما يختص بتخطيط السبيل في عهد اينال وقايتباي وتكوين واجهاته وتقنية انشاء الجوزة وهيئة الجوزة وما يشبهها من زخارف وتأصيل العناصر المعمارية والزخرفية بالسبيل ، وطريقة تسقيله وتغريته ترجو ان تكون قد وفيناه حقه حتى يخلد كأثر قائم في مدينة حلب ونحمد الله في شهر آحسان من خلال هذا البحث المتواضع .

والله ولي التوفيق .

الحواشي

١ ـ لم نذكر ما قد يعد ـ للأمين الجركسة من الخانقاوات بمدينة القدس بل اكتفينا بذكر ما أقاموه داخل الحرم القدسي فقط .

٢ ـ مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل جـ ٢ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ، رشاد الأمم : مدينة القدس في العصر المملوكي ص ٧١ .

٣ ـ يوجد بهذا المسجد بمدينة الحرم بقلال المسجد الأقصى ، رابع : عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ٢٦١ .

٤ ـ رابع ، عدنان أحمد ناصر : عمائر السلطان قايتباي في بيت المقدس جـ ١ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة ماجستير محفوظة بالمكتبة العامة بجامعة القاهرة وبمكتبة كلية الآثار بنفس الجامعة .

٥ ـ رابع : عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباي ، دراسة وتحليل ، المدرسة بالقدس والجامع بغزة ص ٢٩٧ ، مستخرج من كتاب المؤتمر الثالث لآثار في البلاد العربية المنعقد في فاس نوفمبر ١٩٧٩م

٦ ـ رابع : الحنبلي : نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٦١٨ .

٧ ـ رابع : عبد اللطيف ابراهيم : نفس بحثه السابق ص ٢٩٧ ، ذكر الدكتور عبد اللطيف ابراهيم في بحثه السابق أن قايتباي قام ببنائه ولكنه في الحقيقة أعاد بناء المدرسة وعدا بقرن تقريبا في التصميم .

٨ ـ رابع : الحنبلي : نفس مرجعه السابق جـ ٢ ص ٦٨٨ .

٩ ـ راجع

David Roberts Egypt and Nubia. Cairo Egypt Descriptives Pectoresques. pp 287

١٠ ـ المقياس هو عبارة عن بئر يبنى فى حوض الأرض بالأحجار بصورة مربعة لتعرف منسوب مياه الفيضان ، وبداية المقياس تمس سطح السيل ـ ان لم يكن أكثر ـ من حيث الاستطالة أو التربيع حيث توزع لها أعمدة أو دعامات لأقامة السقف الذى يغطى بداخله غرفة تكون كالرصيف لحجرة السيل ، ولهذا المقياس ثلاث درجات الأولى منه بالأحجار الثانية الحد أنياه بنه والثالثة للتقنين .

١١ ـ راجع : المقريزى : نفس مرجعه السابق جـ ٢ ص ٦٦١ .

١٢ ـ هى أحجار مخروطية متحركة توضع على شبابيك السيل لتقلها .

١٣ ـ راجع : عبد الحميد زايد : نفس مرجعه السابق ص ٢٦٢ .

١٤ ـ راجع : القلقشندى : نفس مرجعه السابق جـ ٣ ص ٢٨٨ .

١٥ ـ هذه خصلة حميدة فى هذا السلطان الذى كان يرى صيانة مبانى الجزائر مرضاة للمطر وأصلح دون كثير من ملوك التاريخ والاسلام وأحبها ، كما أنه أصلح كثيرا من السدود وطرقها وأنها عن عرفاء بعد القرنين اكثر من قرن وأصلح بئر زمزم . راجع : عبد الحميد ابراهيم : نفس بحثه السابق ص ٢٩٦ .

١٦ ـ ان وجود مثل هذه الزخارف الهندسية بأعلى شبابيك السيل أمر قد أزيلت قبل ذلك بعدى شباكى الأمير المنعم بمسجد الغورى الأبيدى ٩٠٦ هـ ـ ١٥٠٠ م بالسيد زينب بالقاهرة .

١٧ ـ راجع : حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ٢ ص ١١٥٩ .

١٨ ـ راجع : الحسني : نفس مرجعه السابق جـ ٢ ص ٢٨٧ ـ ٣٨٨ .

١٩ ـ راجع : ص ٣٣ ـ ٣٤ من هذا البحث بخصوص هذا الموضوع .

٢٠ ـ راجع : عبد اللطيف ابراهيم : نفس بحثه السابق ص ٢٨٧ .

٢١ ـ راجع : ص ٩ ـ ٧ من هذا البحث بخصوص هذه القبة .

٢٢ ـ راجع : محمود العابدي : الآثار الاسلامية في فلسطين والأردن ص ١١٨ ـ ١١٩ .

٢٣ ـ راجع : جلال ياسر : نفس رسالته السابقة ص ١٢٦ وما بعدها .

٢٤ ـ راجع :

Brigge : Muhammadan Arch. n Egypt and Palestine. p. 125

كتالوج الأشكال واللوحات



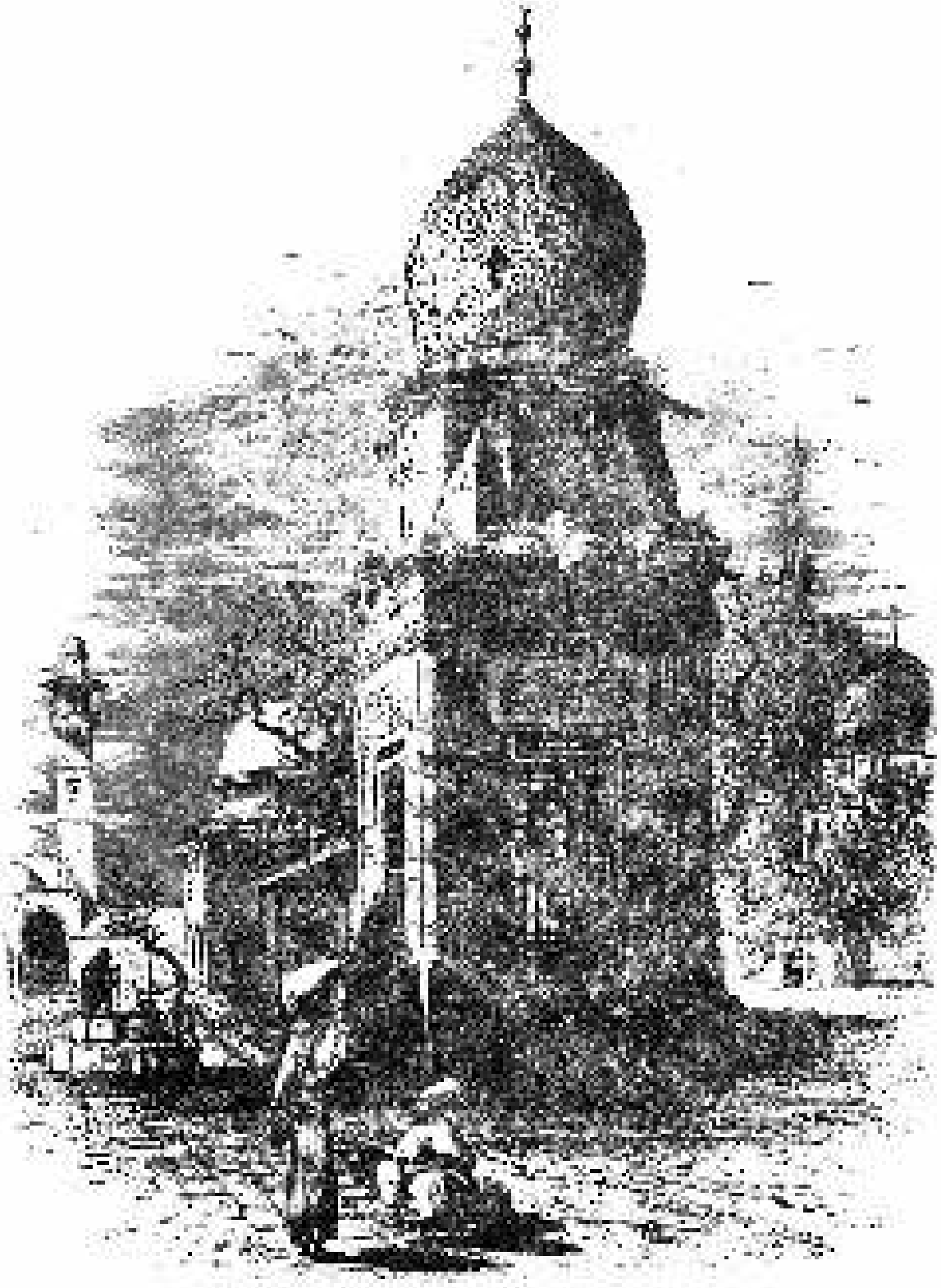
لوحة رقم (٦)

أحد الآبار المنتشرة في ساحة حرم القدس وهو واقع على لوحة حجر وفرزة ، حيث جانبيها أسطوانتان ضخمتان بمنتصف كل منهما فتحة على هيئة « شقف » يحصل أن يشهد الزمن حديثي تشير هذه الفتحة بها سلسلة مركب بطرفها سطل لجلب الماء من البئر ، وترى الحجاج وهم يطوفون الغرب مجموعة من حلد الماعز لتوزيعها على الأحياء السكنية بالمدينة المقدسة .

ويوضع هذا البئر كوضع بئر سمير أعلاه ـ الإيمان فيما يبدو ـ قبل إنشاء النيابة الإسلامي بمدة ، إلا أن بئر السمير كان يحتوي على حجرة صغيرة كما يذكر مجير الدين الحنبلي مؤرخ بيت المقدس .

هذه الصورة نقلا عن مجلة :

National Geographic Society



لوحة رقم (٢)

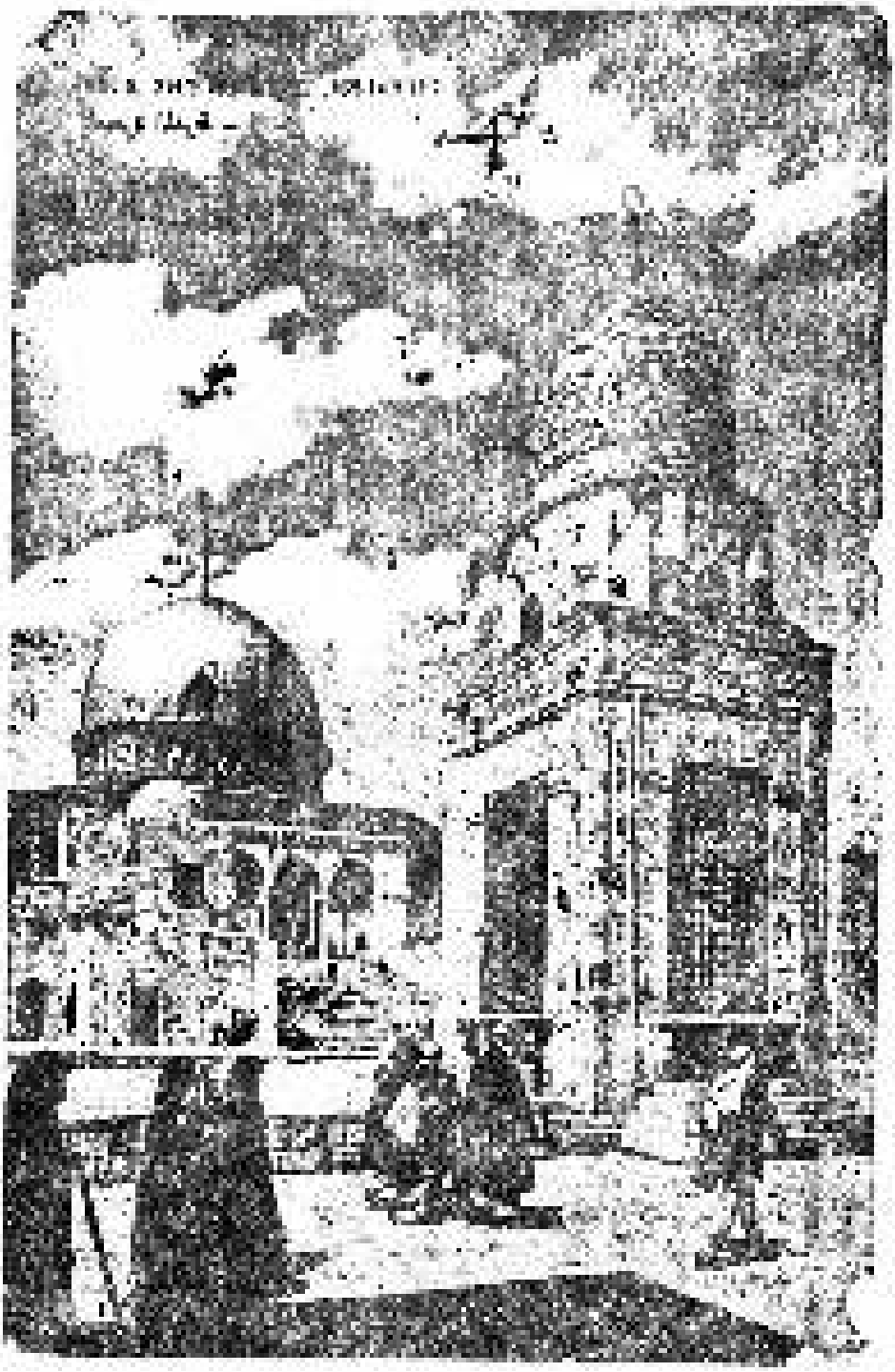
واجهة الجنوبية والغربية لسبيل السلطان قايتباي بمكة سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٨١ م بالحرم الشريف بالقرب من باب المسعى وقد لفح بأل خلفها نتيجة للتسعير

نقلا عن لوحة رقم ٥٠ بكتاب المستشرق سنة ١٨٧٥ م .

(عن رشيد الفاروقي - دمشق)

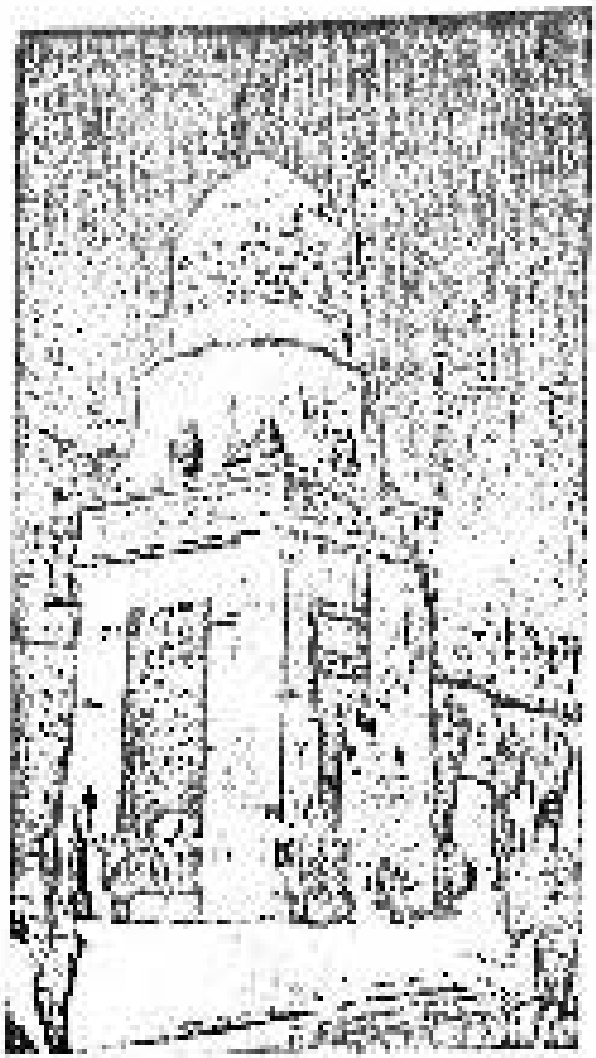


لوحة رقم (٣)



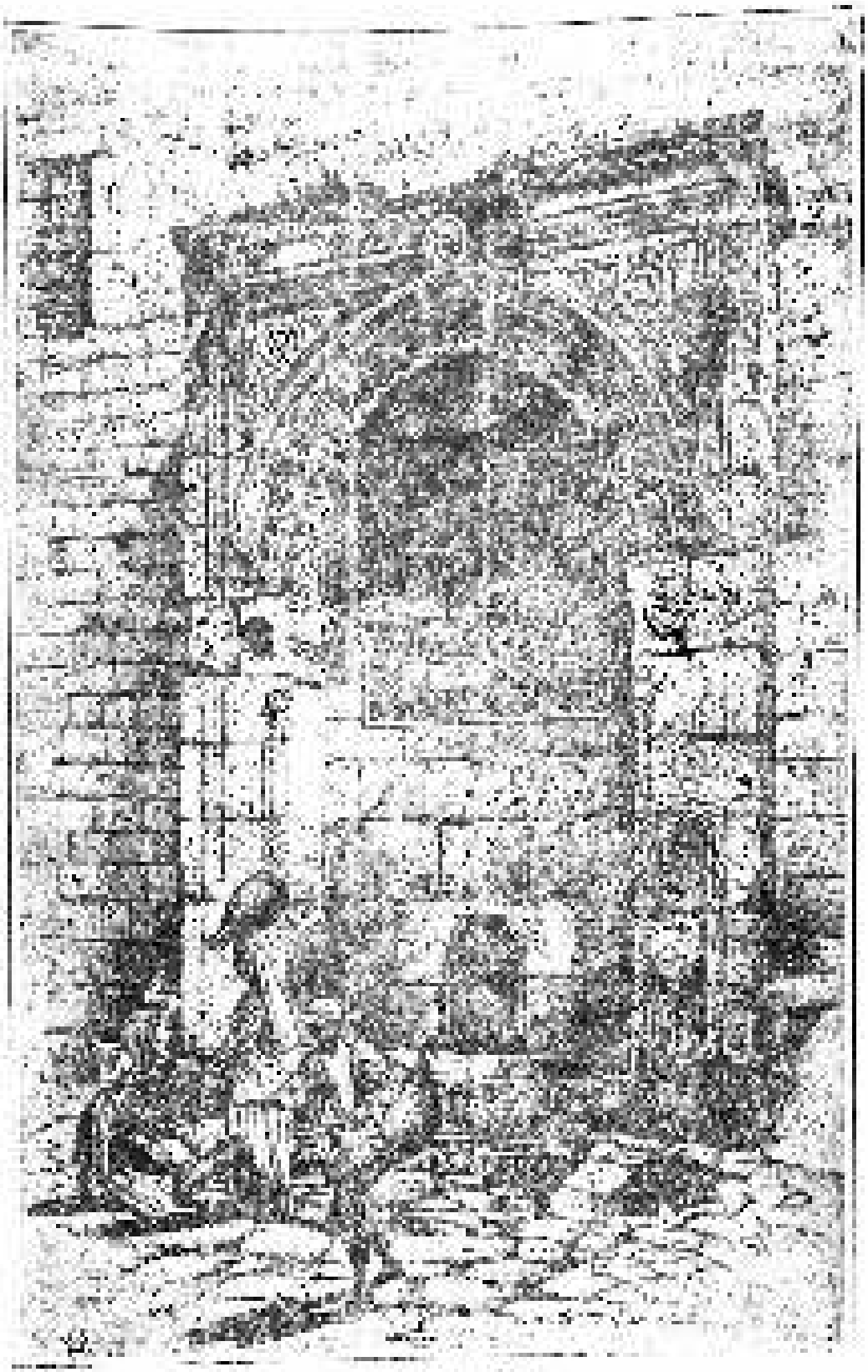
لوحة رقم (٤)

سبيل لسان بحرم القدس الشريف وقد زينت جوانبه بالزخارف
النباتية المحفورة في الحجر



لوحة رقم (٢)

الواجهتان الشرقية والجنوبية لمسجد الجامع بعزم المشهد الشريف وقد التقطت بالقرب
باب الدخول لحجرة المعين بالناحية الشمالية الشرقية للمسجد



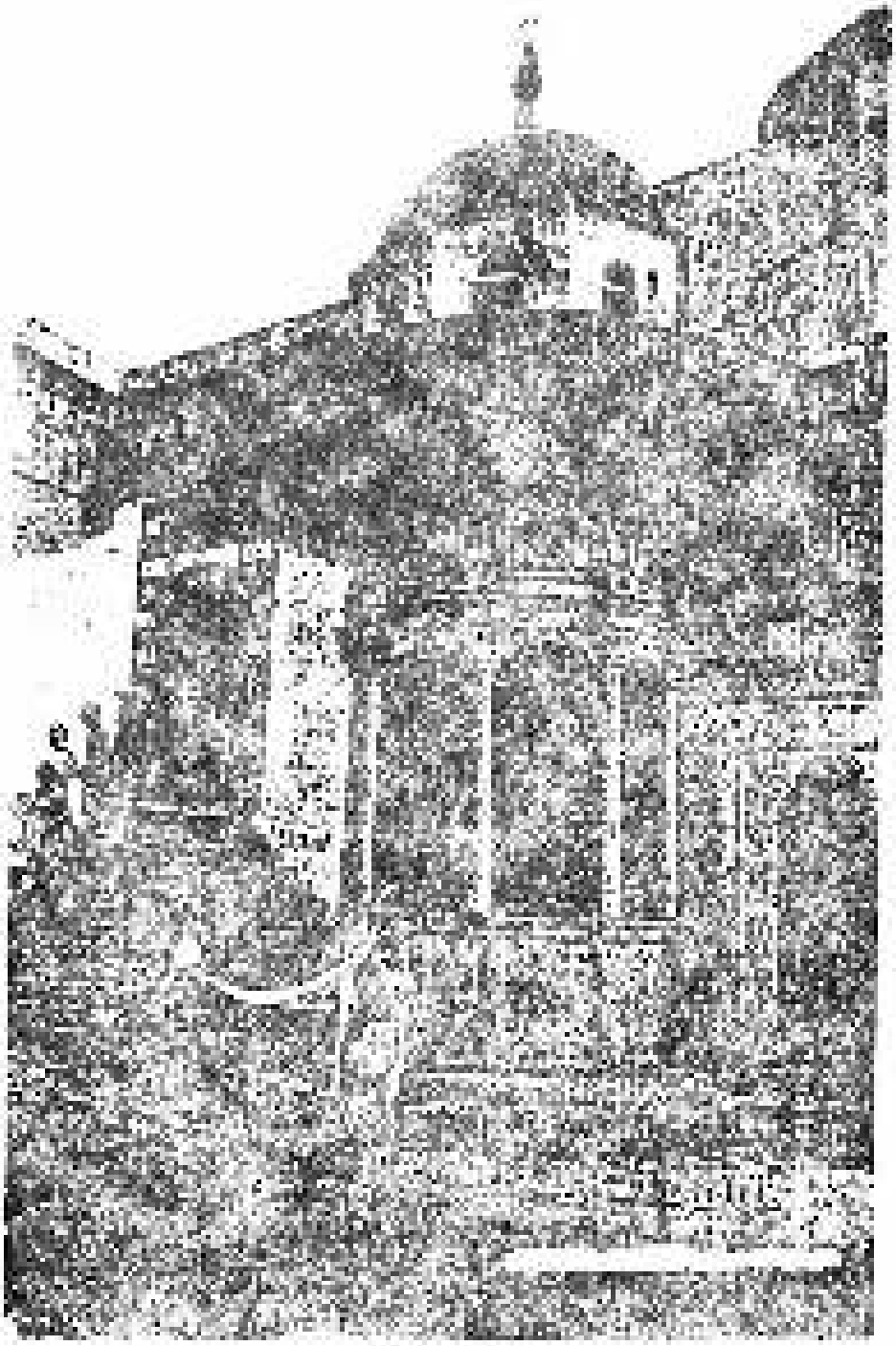
لوحة رقم (٦)

مدخل باب السلسلة يظهر على طراز الأمويين ، القلعة التركية ، دمشق

طراز العمارة الأموية

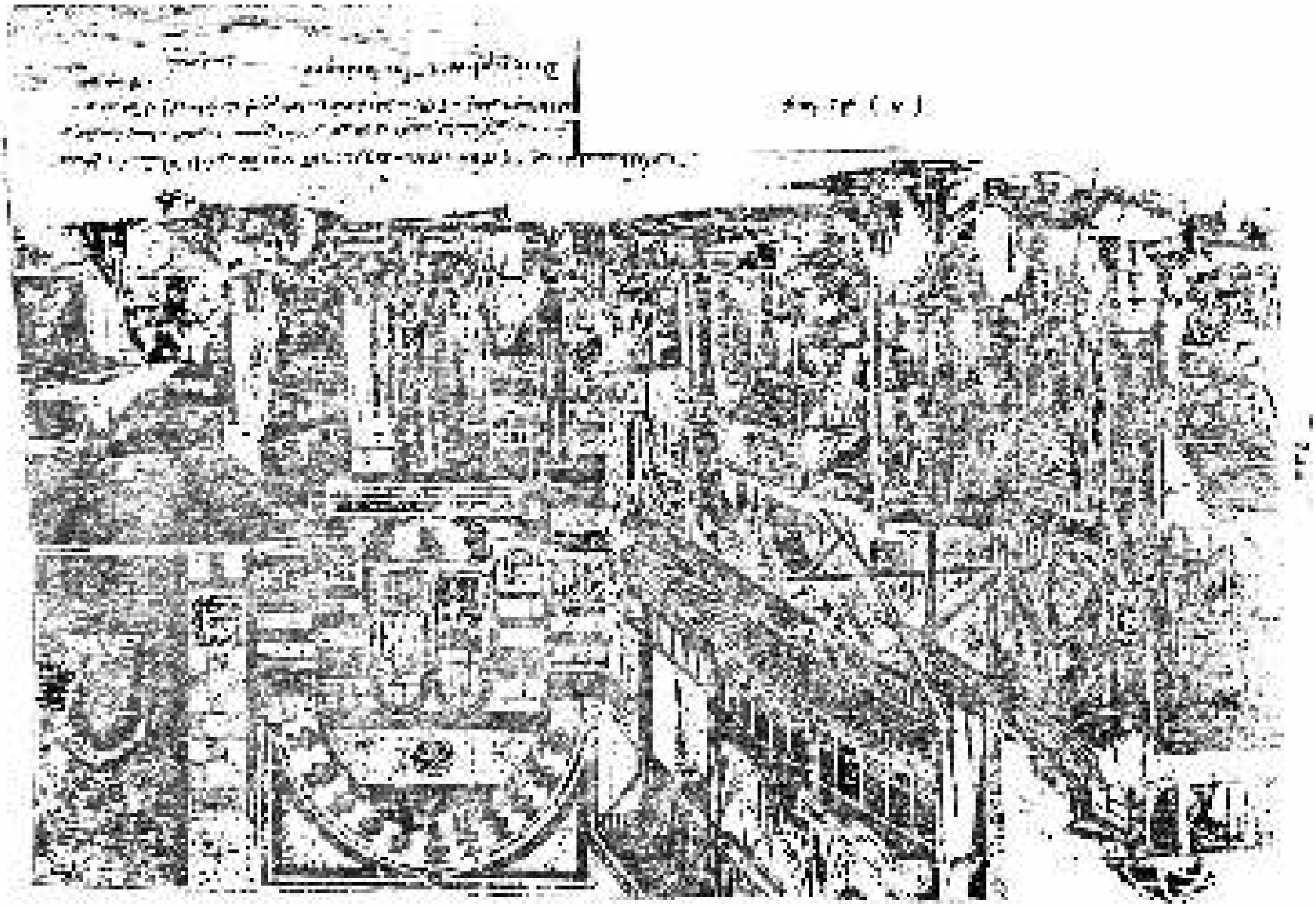
نقلا عن : لوحة شريحة رقمية لسنة ١٩٧٢ م .

من رسيد الفنان أحمد علي ، دمشق

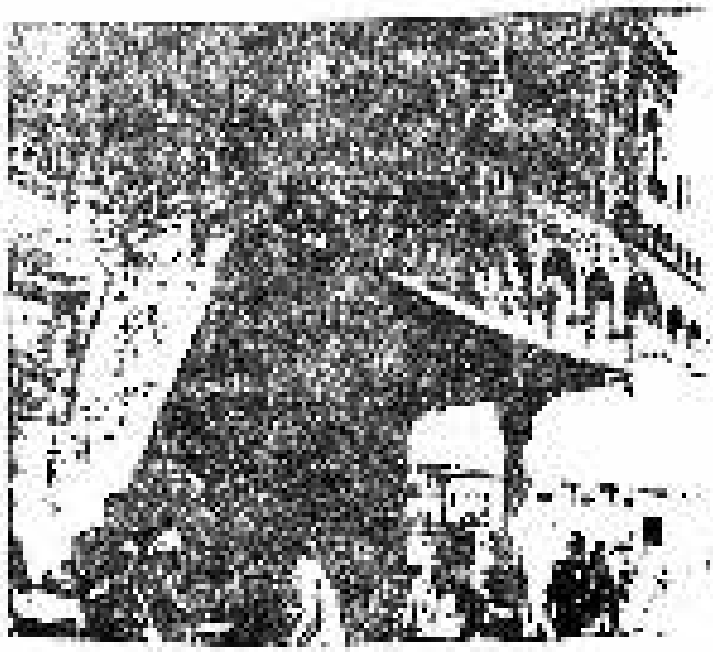


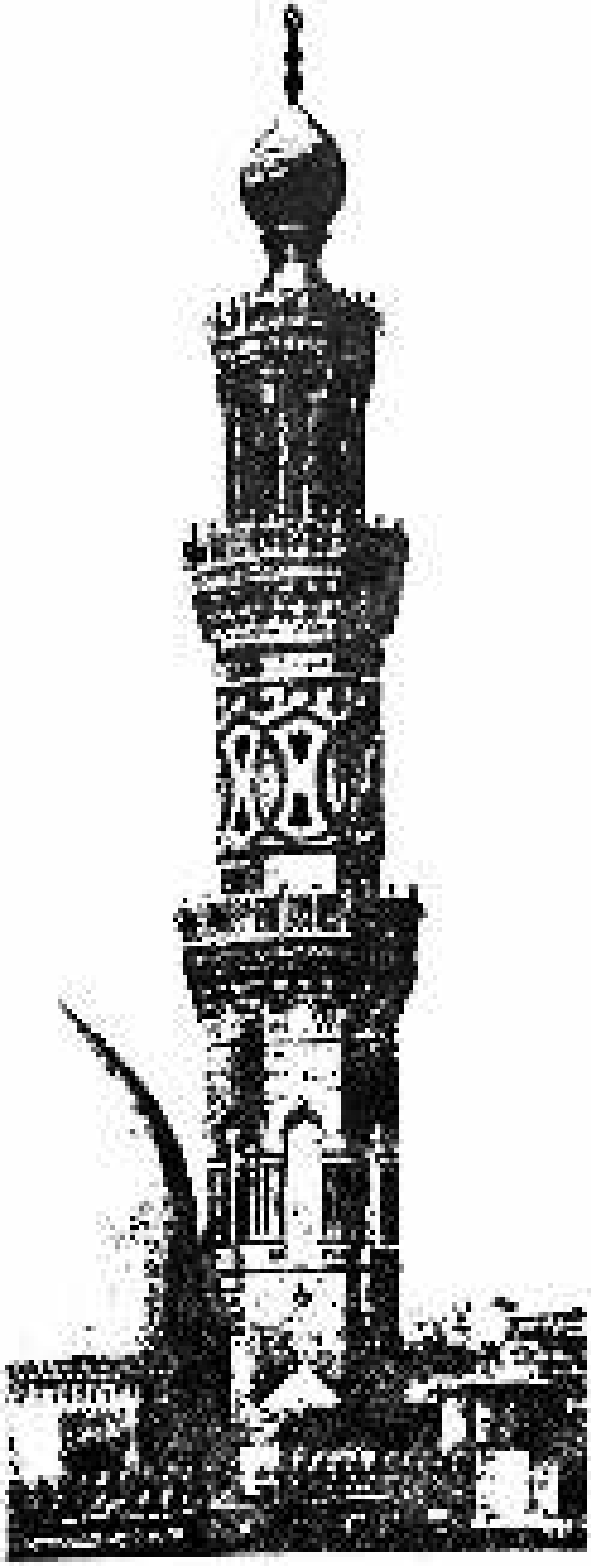
لوحة رقم (٢)

سبيل عبد الله الخازندار (وجه) ويعد الدق لعصا بواجهته الرئيسية سبيل على الطراز العثماني ذات خمسة نوافذ للتبريد ويتوج هذا السبيل قبة مضلعة مضادة بالرصاص يعلوه الهلال ذو ثلاث . وهذا السبيل شبيه لسبيل محمد الأشرفي بالقلعة من حيث توزيع كل منهما بقبة وإن كان يختلفا عن حوض الناصية والأعمدة الحجرية التي انتهت في كل منهما.



لوحة رقم (٥)

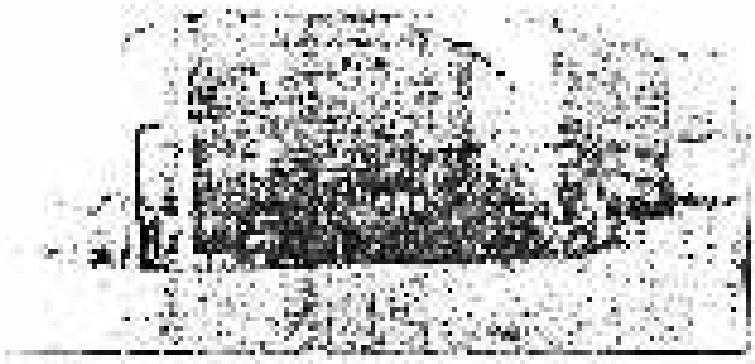




لوحة رقم (١٠)

مئذنة مدرسة السلطان الظاهر برقوق ٧٨٨ : ٧٩٢ هـ = ١٣٨٦ : ١٣٨٩ م

بين القصرين بالقاهرة ، وقد شغف كل المصريين من نواحي اتقانها بشكل هرمي مثالي



لوحة رقم (١٠)

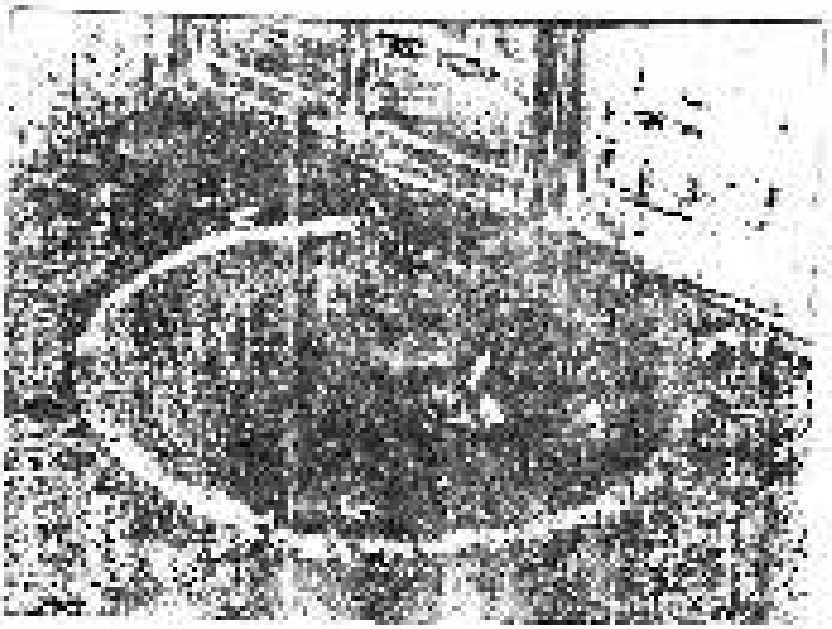
الواجهتان الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية لسبيل مجمع يشبك ولاد قايتباي

بشارع مؤسسة الشهيد بالإضافة لمواجهة الشمالية الغربية



لوحة رقم (٢١)

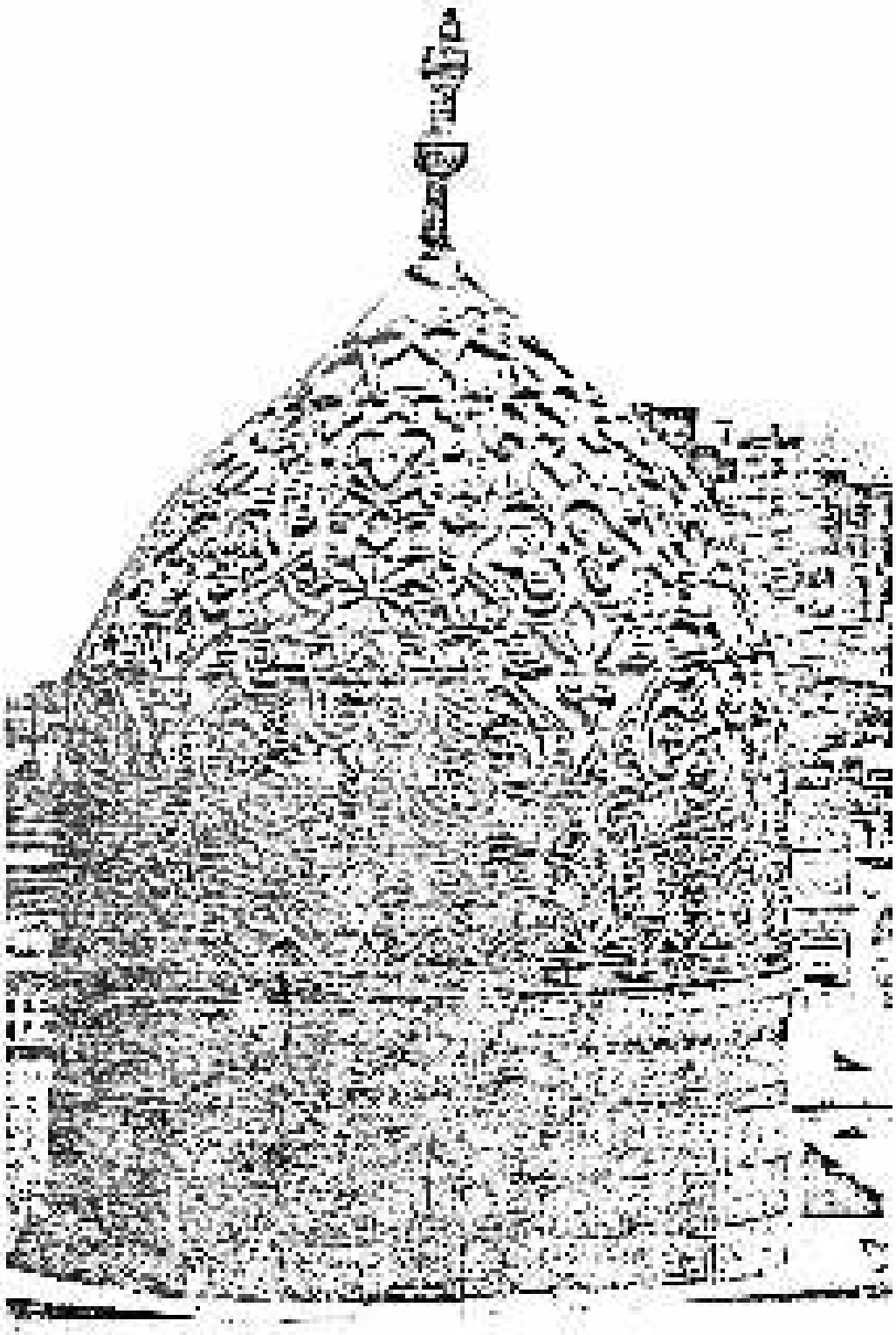
فتاة اسبرتو تتوسط زهرة عباد الشمس بحديقة معبد ايتاك



لوحة رقم (١٣)

عرض رخامي لعدد كروي يشكل بارتفاعه الجناح الشمالي الشرقي للمجلد

مجمع الإيشاني الضايق لكرم

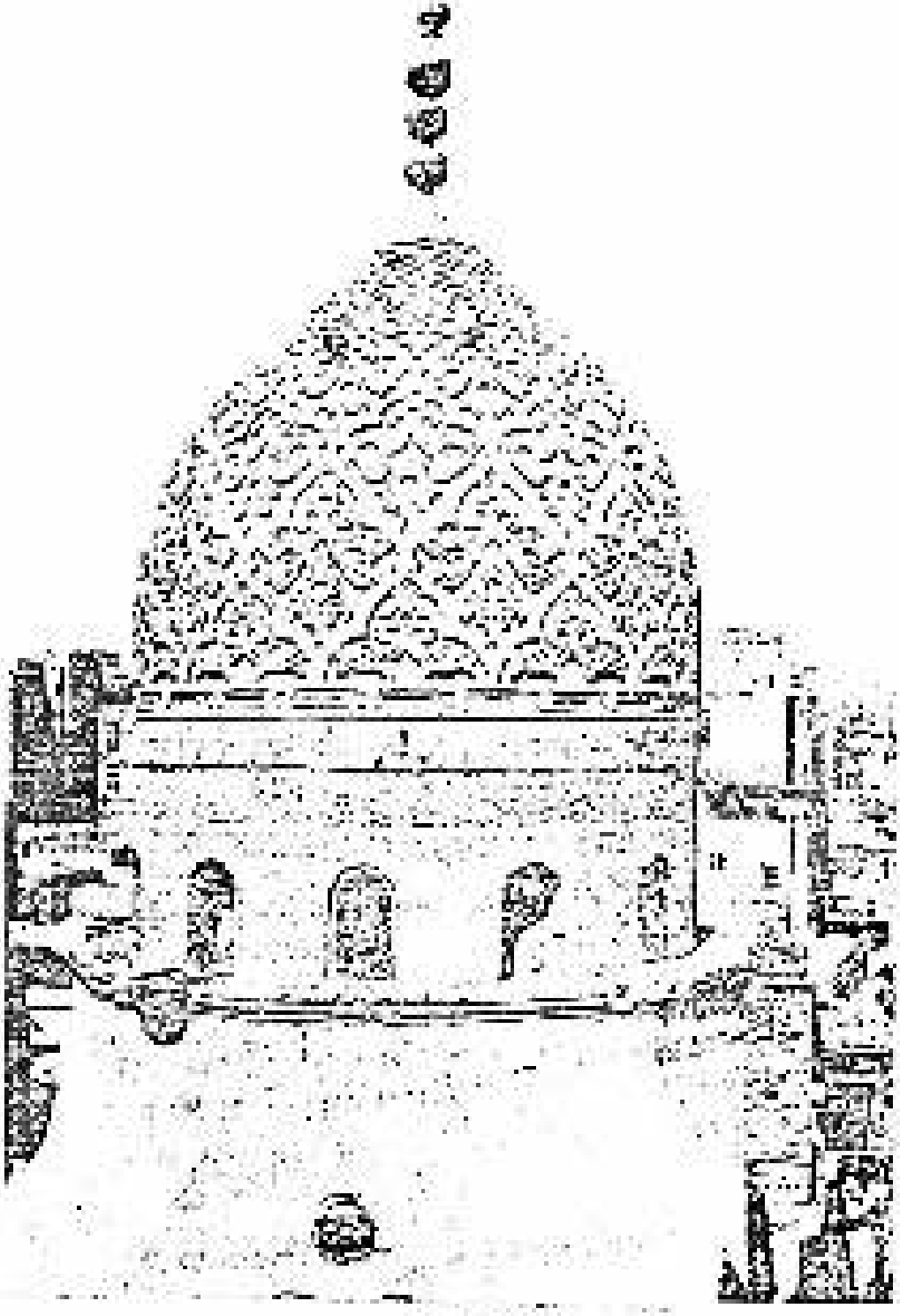


لوحة رقم (١٠)

قبة لبه ازدة لاضلاع المثمن ، يتوج المثمن ، المقرنصات بمجموعة لمقرنصات
ذات زينة وخلايا نحلية مركبة

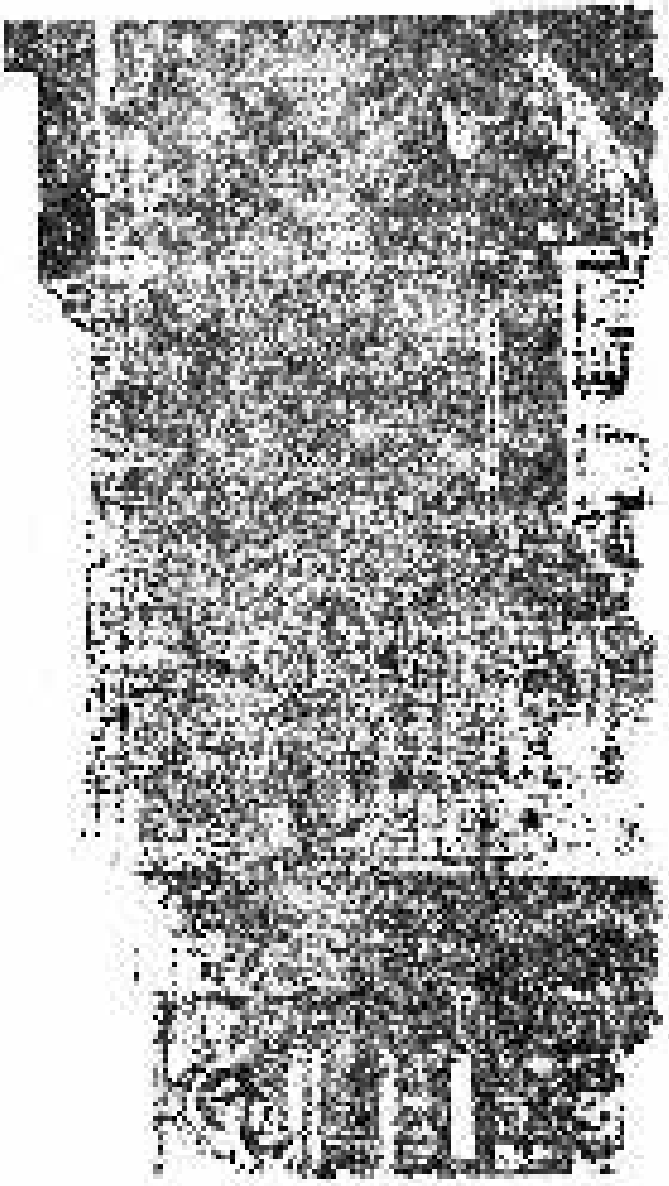
عن :

Kessler, (C.) : The Ceramic Masonry Domes of Mediaeval Cairo.



لوحة رقم (١٢)

جزء من المحراب الرخامي الملون بمدرسة السلطان قلاوون يوضح تباين تركيبه مع تعديلها بالشرطة معربة بارزة على هيئة كتيبات



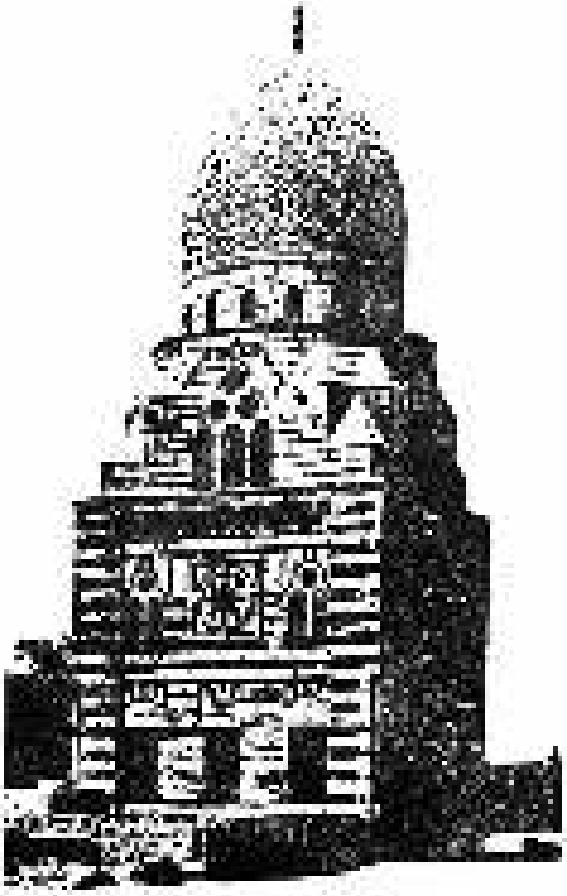
لوحة رقم (١٩)

شباك التسبيح في بعض الوجهات الشمالية الغربية سبيل الأمير الساقي بالقاهرة



لوحة رقم (١٧)

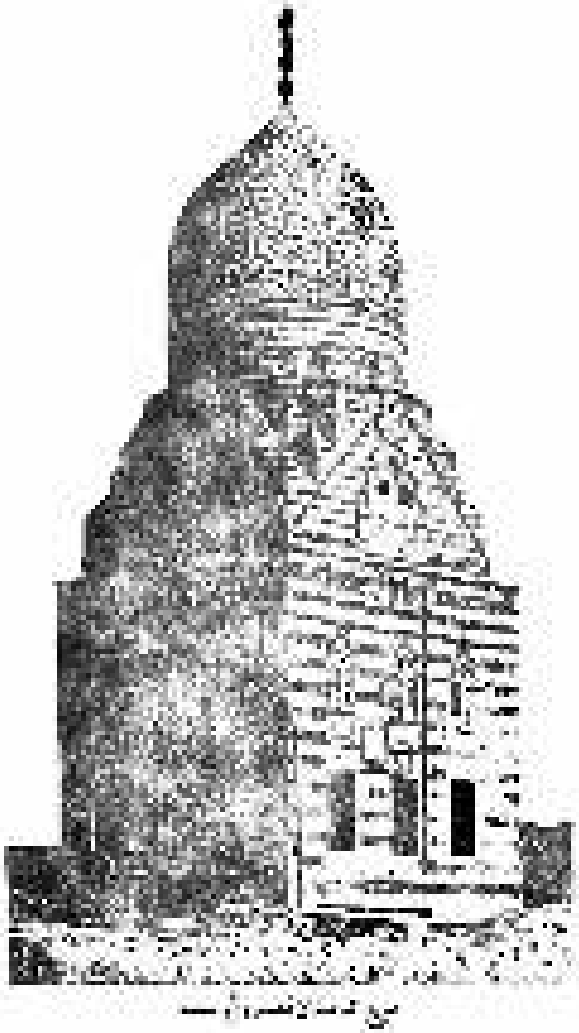
شباك التسبيل الذي يتوسط الواجهة الجنوبية الغربية لمبنى الايتجاي السابق



لوحة رقم (١٨)

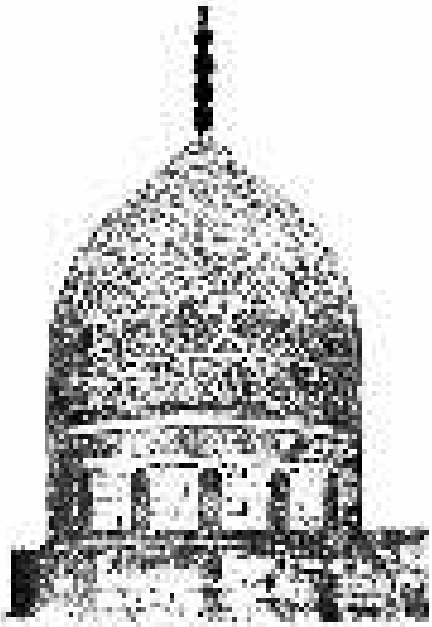
قبة السلطان الناصر أبو سعيد ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م بقرافة القبر من القاهرة ،
وقد تضمنت نواصي مقلعة تنتهي بخلايا مستوحاة من الأشكال الهرمية الذات، وهذا يعتبر
أقدم الصور في هذا الأسلوب

من كتاب : الفن العربي الإسلامي - لمشق

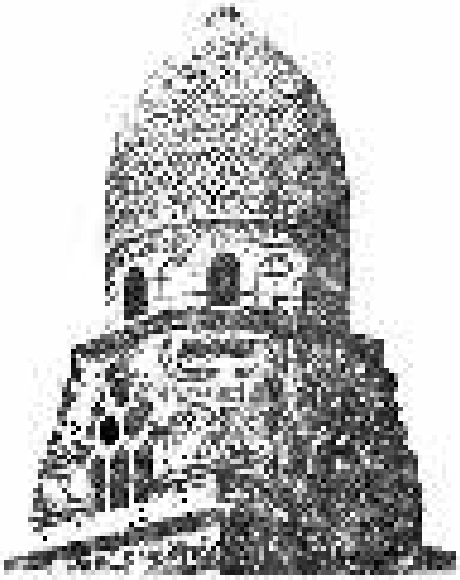


لوحة رقم (١٩)

قبة السلطان الغازي طومان باي ٩٠٦ هـ - ١٥٠١ م - بالمقابسة من القاهرة -
وقد سقطت نواحي منطقة القباب بشكل فوضوي نادرا على مستوى واحد كما نشعر عندما ندخل
بواسي منطقة القلال سبيل الشيخ بالقرافة



لوحة رقم (١٠)

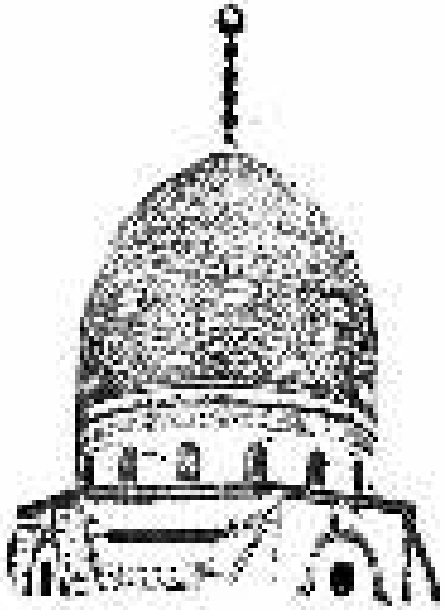


لوحة رقم (٢١)

قبة تحتوي حوالي ٢١٠ قدم ـ ١٢٠ م ـ تقريبا للإقامين من القاهرة ،

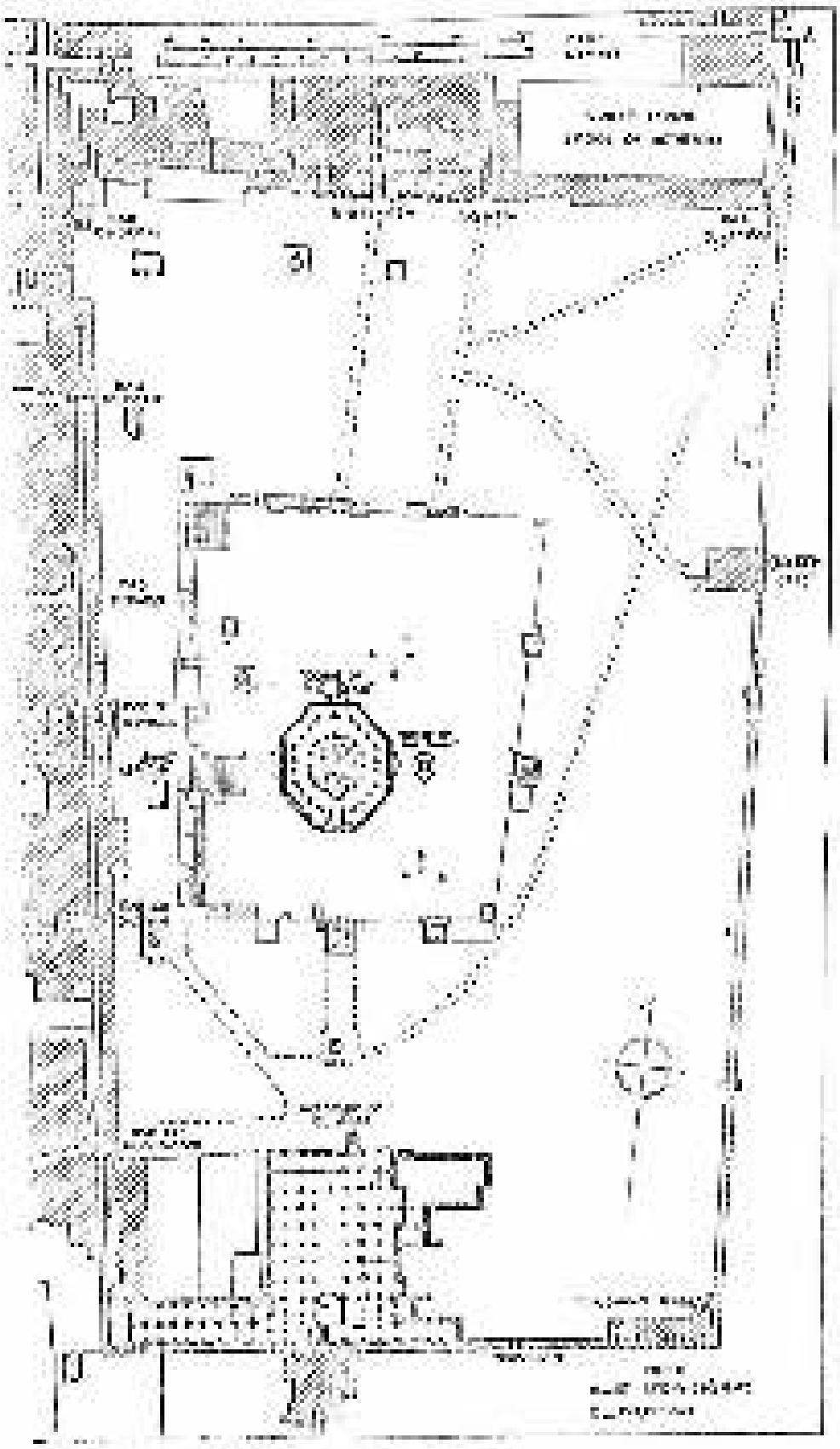
وهي تشبه في بنائها قبة سيدنا قايتباي بالقدس الشريف

م. ابتسام عمار أحمد الشعر ـ دمشق



لوحة رقم (١١)

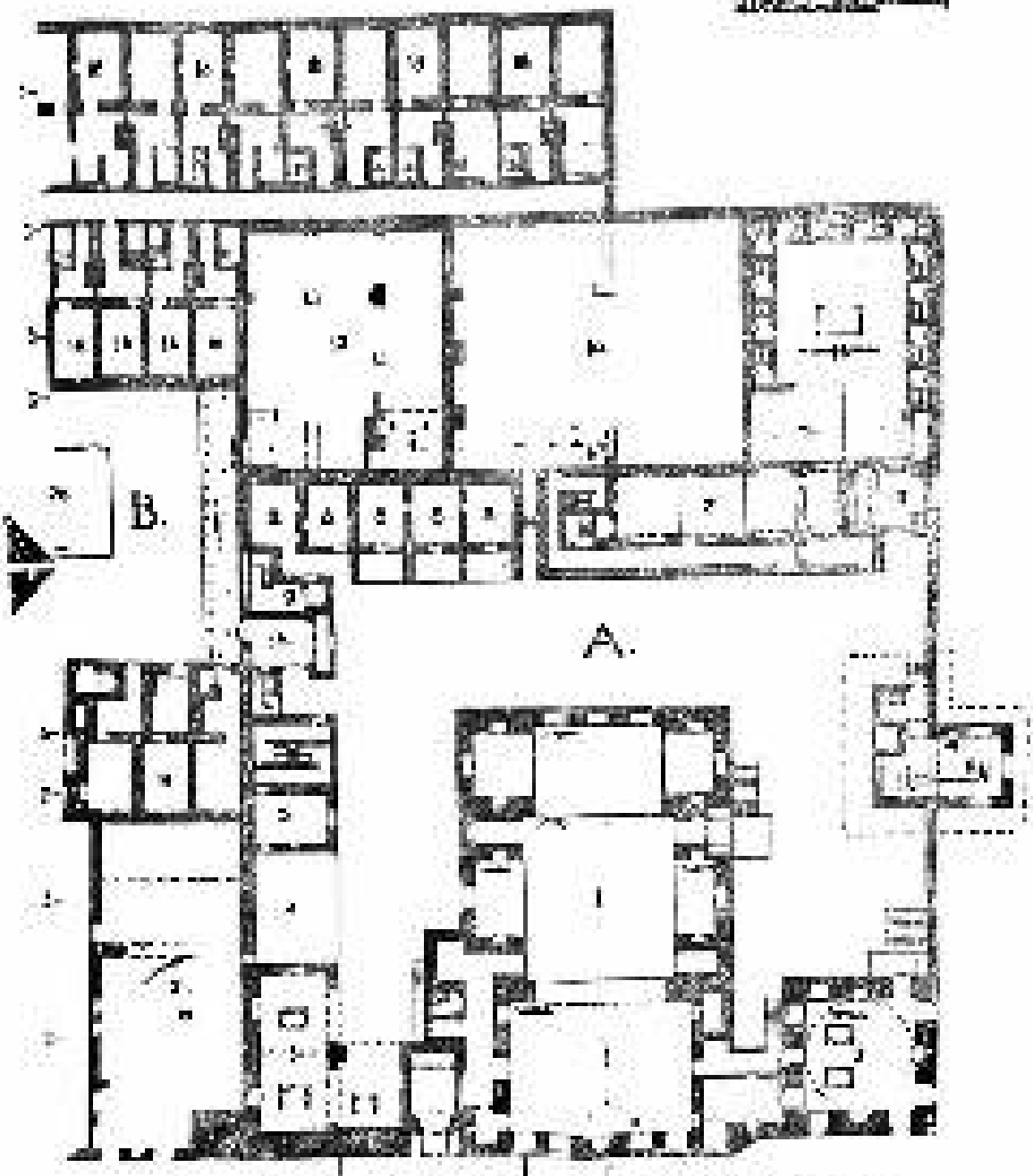
القبة الأعلى بمسجد جانم البهلوان عام ٧٩٦ هـ = ١٣٩٤ / ١٤١٠ م ، بحي
الدرب من القاهرة ، وقد غطيت بواسي مخطط اشعاعي بشكل عرضي الوجه ، فيما يخالف
الطريقة المألوفة مركبة مع تذييلها بأسرطة حلزونية على هيئة أشعاعات العرقا
Vassler -Co. عن



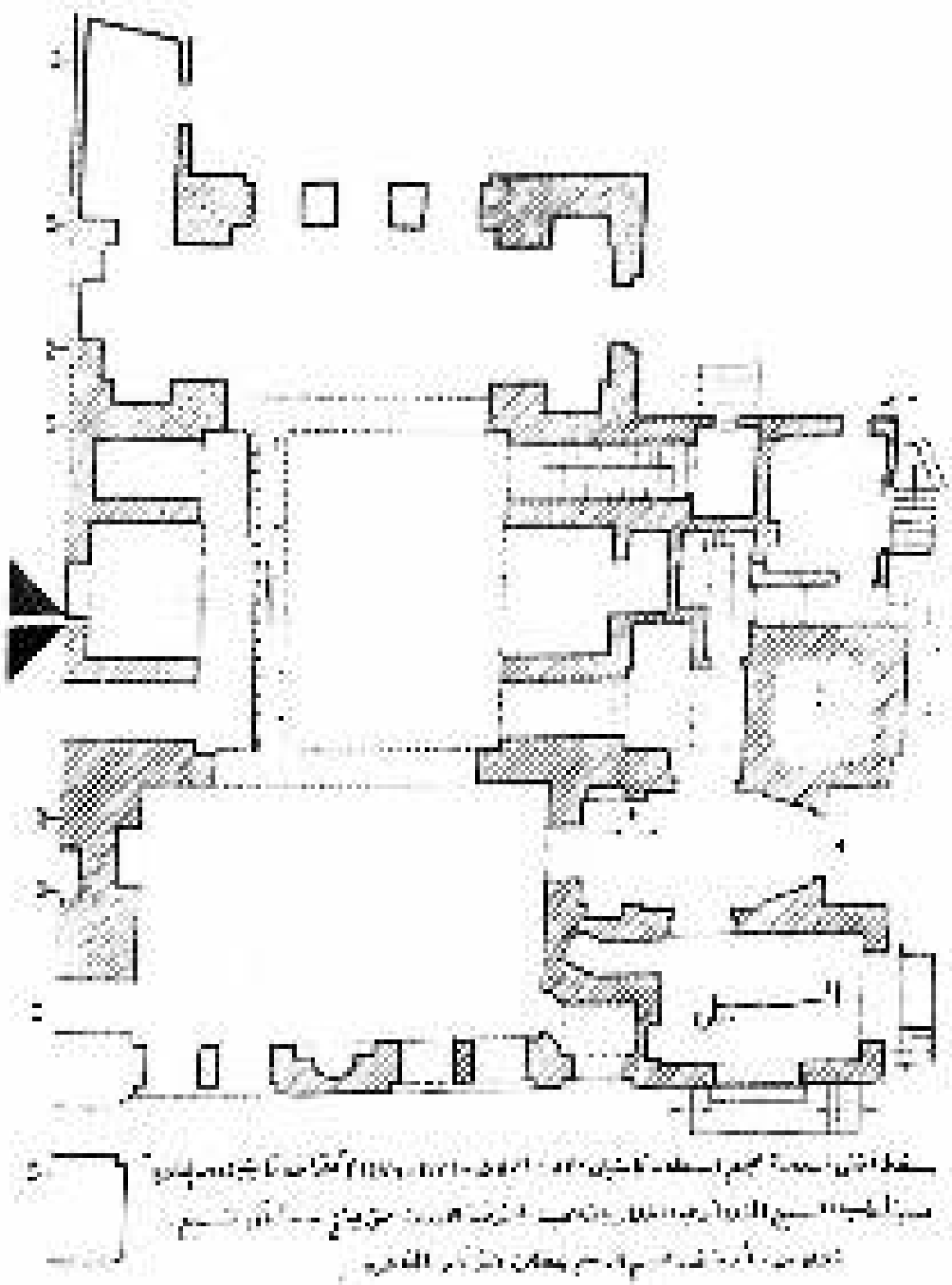
شكل رقم ( )

لوحة من مدينة توضح الحرم الشريف بالقدس وما به من معالم ومبان اقيمة من بينها
مسجد الاقصى موضوع الدراسة

Fig. 1 A new rendition from the Haram al Sharif in Jerusalem



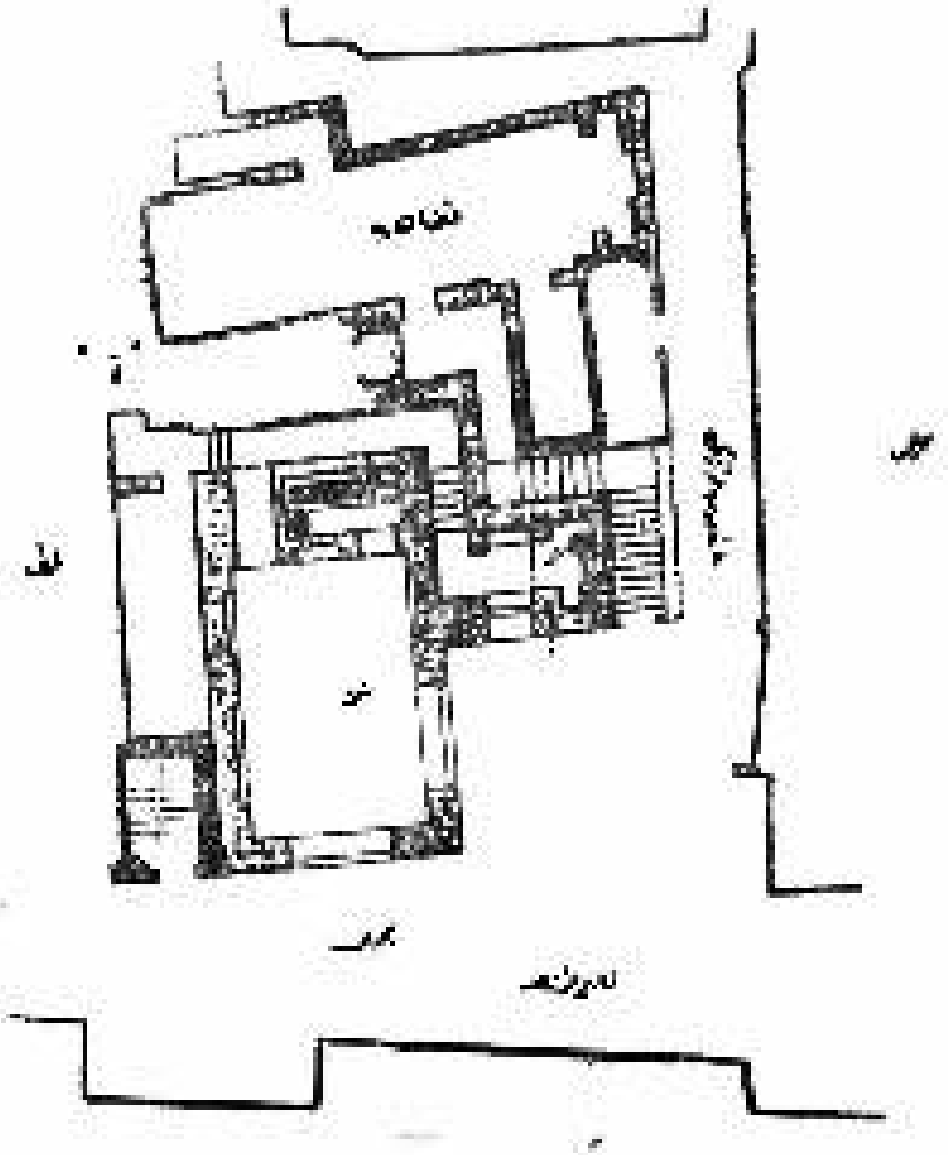
شكل رقم : ٢)



شكل رقم (٢)

شكل رقم (٤)

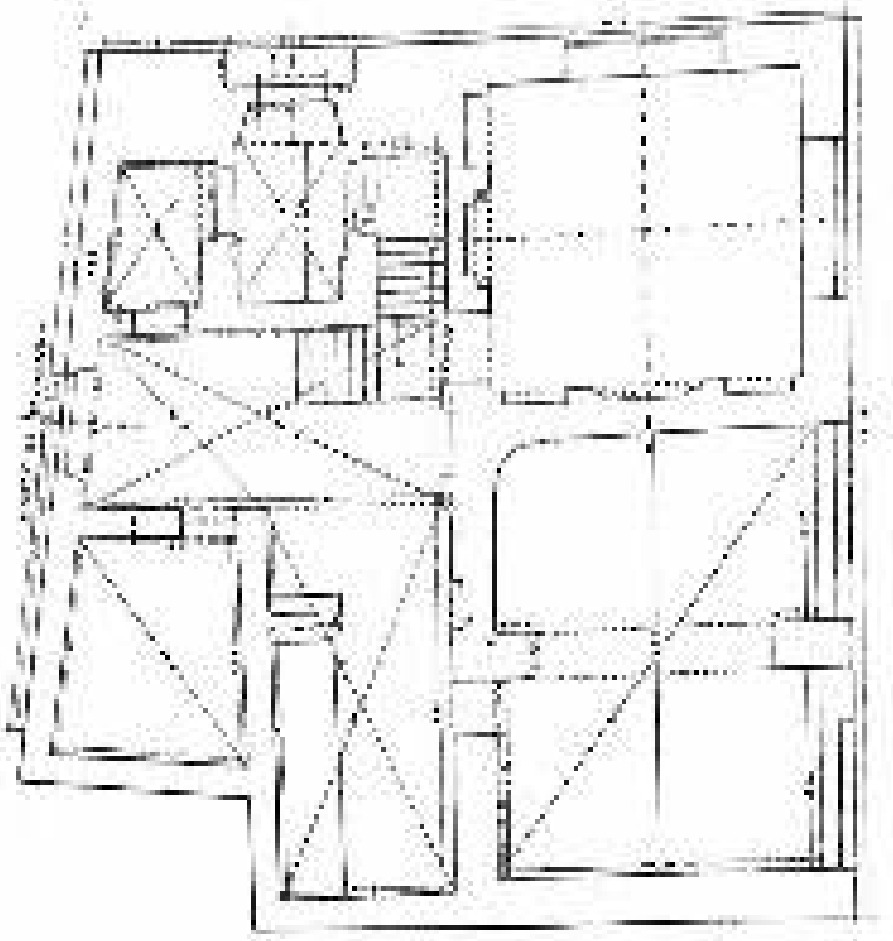
مسقط افقي بين حالة السبيل الثاني بمجموع الشباك السابق ـ قبل تغيير واجهته
ان منزل الجمالي الذي سمي السبيل باسمه بشارع الغما . ويقع هذا السبيل الى الجنوب من
السبيل الرئيسي الموضح بالمسقط السابق ، وقد ترك العمار من كان الواجهة
حتى يفتح به شباك فقط

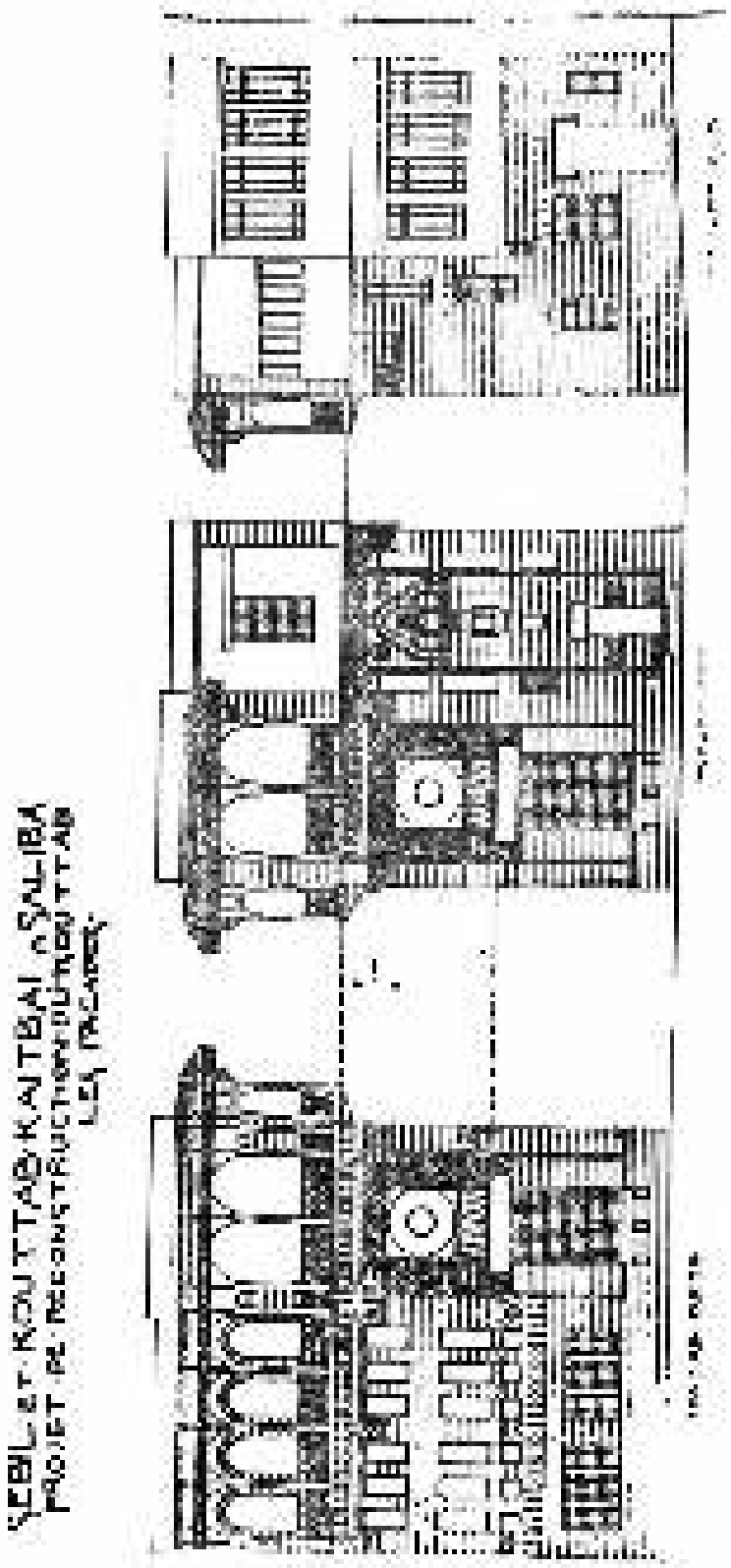


شكل رقم (٤)

مسقط لقصر تانكيزلي ـ بادزغر ـ ٩٢٥ هـ ـ ١٥٢٢ م ـ ولقد ابتدأ المعمار من كيان واجهة مدخله على شكل شباك قان ك ـ ولقد تميز المعمار في السقف الخشبي لبهاله وكذلك بالجانب الجنوبي الشرقي منه

نقلا عن أرشيد قان ترجمة محمد الأثير بالعامر)

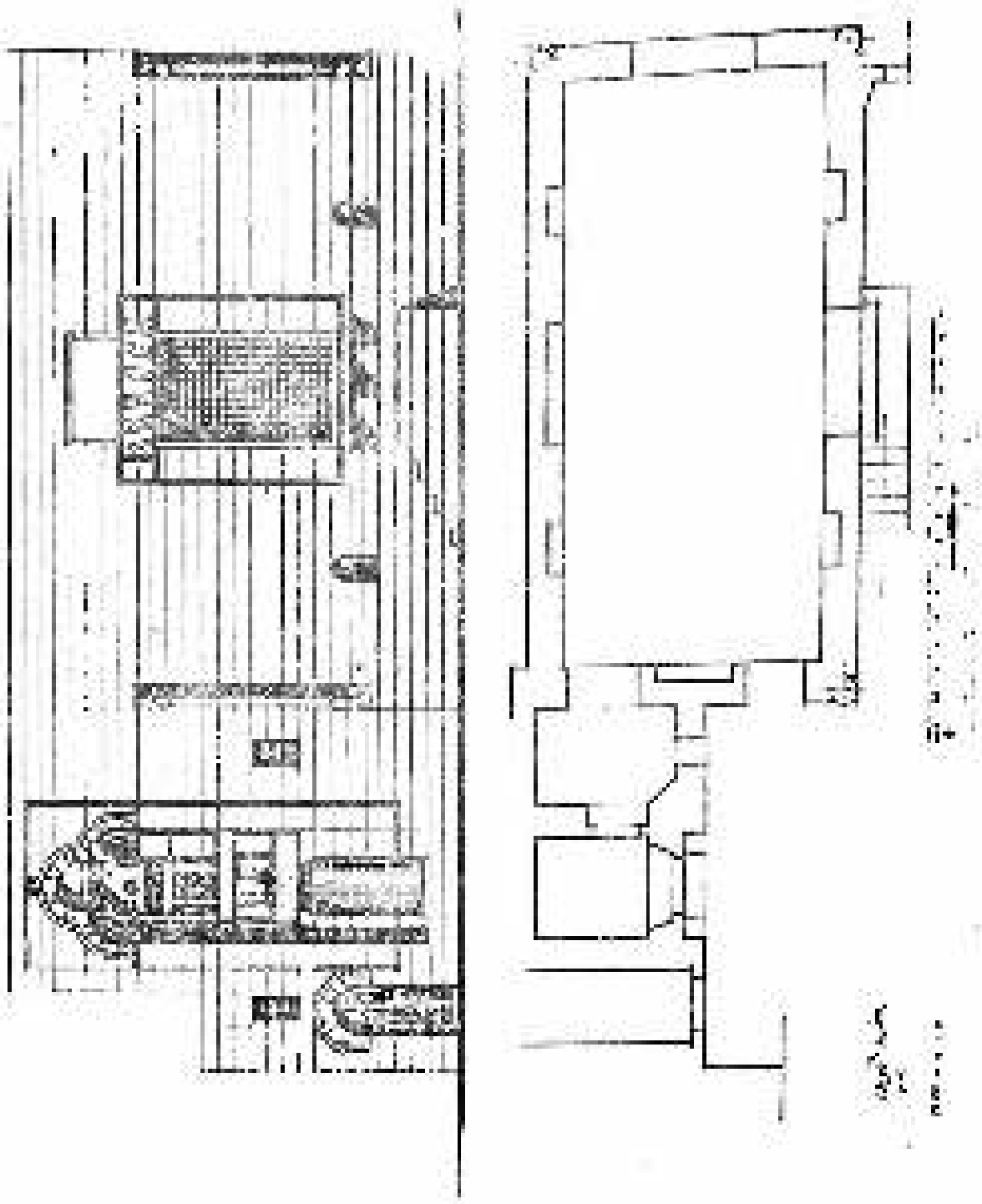




شكل رقم (٣)

مشروع اصلاح كل من الواجهة الجنوبية والشمالية والغربية لسبيل قايتباي « بالصليبة »

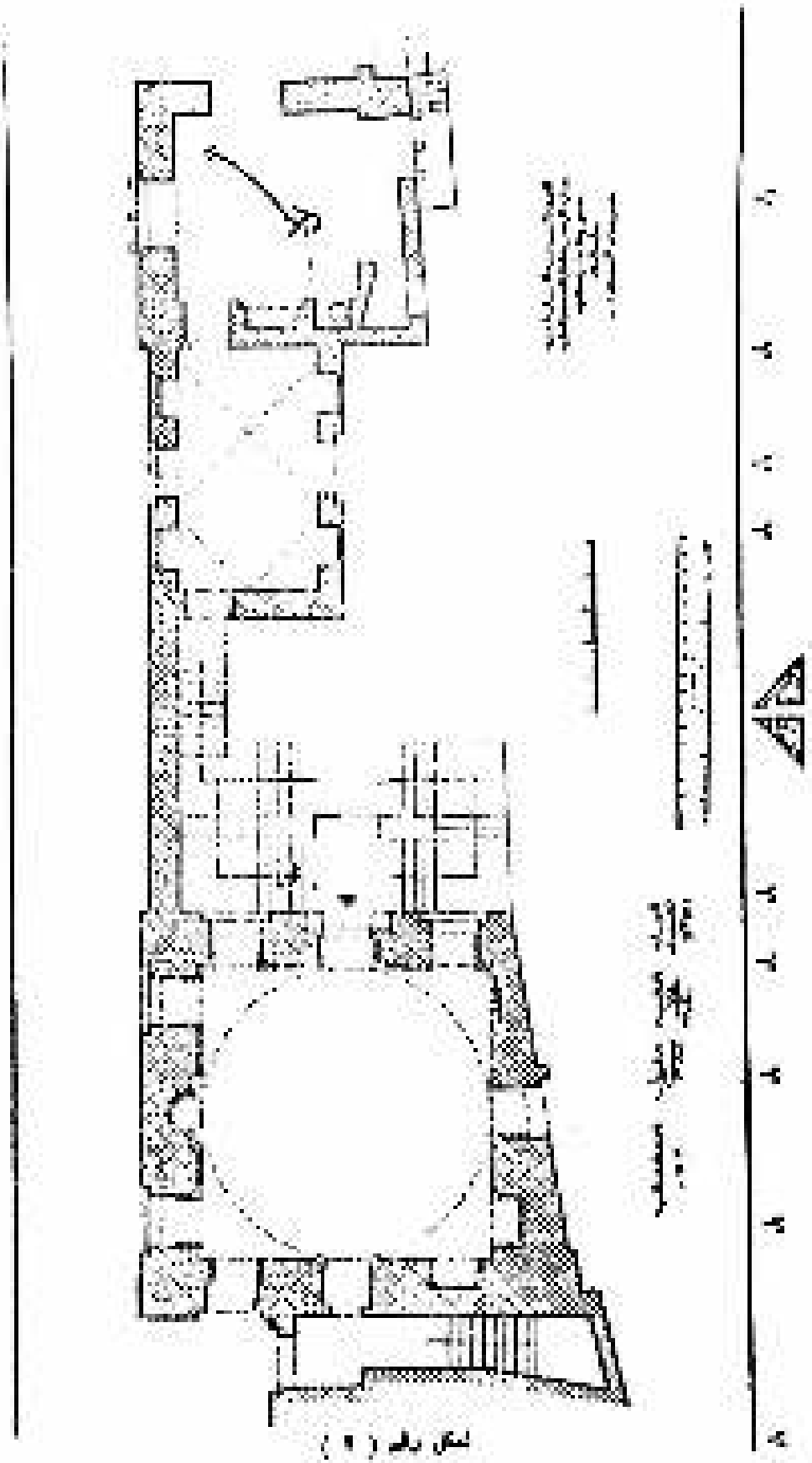
نقلا عن : ارشيف قسم الرسم بمصلحة الآثار بالقاهرة



شكل رقم (٨)

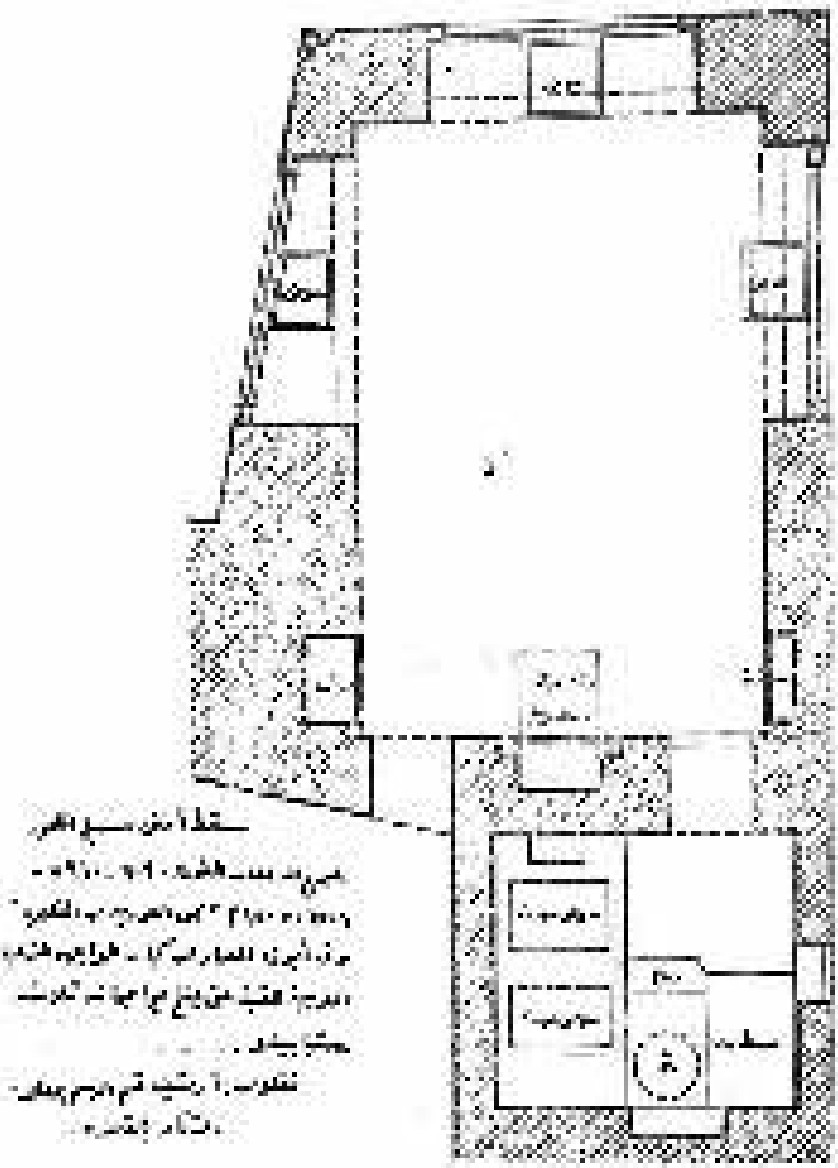
مسقط افقي ورسم الواجهه الشمالية الغربية لمسجد قايتباي قرن ٩ هـ - ١٥ م
الواقع بالزاوية الجنوبية لميدان ابن طولون وتتكون المسجد من صحن ، تتجاه يشرق على
الطريق والاخر يشرق على الزيادة

نقلا عن ارشيف قسم الرسم بمصلحة الاثار بالقاهرة



شكل رقم (٩)

سبيل أم عباس لقب الأمير طرباي الأشرفي وبلاطتها ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ : ١٥٥٠ م
بشارع باب الوزير من القاهرة ، مبنيا على السبيل الذي فتح للمعلم بواجهاته الثلاثة
شبابيك تخصيل وهو الماثل الثالث في ذلك بالقاهرة



شكل رقم (١٠)

التغير الاجتماعي

نظريا وتطبيقيا

(١)

في مفهوم التغير ومناهجه

د. عبد القادر عرابي
د. عبد الله البهالي

(1)

في مفهوم التغير ومناهجه

د. عبد القادر عرابي
د. عبد الله الهدالي

قد تباينت آراء علماء الاجتماع ، فيما بينها كما هي الحال في تحديد مفهوم التغير الاجتماعي ، كما أن الاهتمام الذي حظي به هذا المفهوم بين مختلف الكتاب ، وخصوصا بعد ظهور وتطور الاتجاهات البنائية الوظيفية ، والوضعية الحديثة ، ونظرية العلاقات الاقتصادية الدولية ، لم تساهم في توضيحه ، بقدر ما زاده غموضا .

والحقيقة : أن القارىء لا يحتاج كثيرا ليتبين كم هي الصعوبات التي تحف هذا المفهوم .

لقد اتسمى مفهوم التغير منذ حداثته ، وأسلوبا في الحياة ، وتصدر تعريفات واجتهادات عدة ، قد تهم به من حيث مصدره الزمني المكاني ، بقدر ما سعت إليه في تعليل مصدر التغير الاجتماعي وبيان المجالات الكفيلة والكيفية في المجتمع .

ولا غرو في أن مسألة التغير الاجتماعي هي موضوع الساعة ، وقد أصبحت مسألة اقتصادية وسياسية واجتماعية ، ليست قومية فحسب ،

وانما عالمية ، وهي جميعا يتوقف مستقبل المجتمع الانساني وسلامته ، ولعل جل الصعوبات التي يواجهها هذا الموضوع تكمن في عدم القدرة على امساك بتغيرات النوعية والعالمية ، والكمية والكيفية ، المتحكمة في عملية التغير ، باعتبارها من العمليات الحضارية ، التي تؤثر في منهج وأسلوب وكيفية تحقيق التغير الاجتماعي ، الذي لا بد وان يكيف وفقا لهذه المتغيرات .

ان أية قاعدة للتغير لا تأخذ المعطيات الحضارية ومستوى تطور العلاقات الاجتماعية والانسانية بعين الاعتبار ، لا يكتب لها النجاح ، ان هذا المنطلق هو أحد الشروط الاساسية للتغير ، ولا تتفق بالضرورة مع متطلبات التغير أو استراتيجيات التنمية التي يروج لها الاقتصاديون السياسيون البرجوازيون والتي تعتمد على توطين الصناعة في مجتمعات لا تنسجم من حيث واقعها الاجتماعي والحضاري ، وتطور القوى الانتاجية مع أساليب التغير ، القائمة على أساس التكنولوجيا الاجنبية .

وقد اتضح اليوم أكثر من أي وقت مضى ، أن منهج التغير القائم على التراكم الكمي للتقدم التقني لا يؤدي بالضرورة الى تحرير حرية الانسان ، بل على النقيض من ذلك ، لقد عززت التكنولوجيا من تسلطها على الانسان وتجاوز سلطانها حدود المجتمعات البرجوازية لتلقي بتبعاتها على كاهل المجتمعات المستقلة ، على الرغم من الخطأ الذي يقبع وراء ذلك ، فقد التكنولوجيا الرأسمالية من وسائل التقدم ، لان ذلك يصدق على التقدم التكنولوجي الكمي وليس الكيفي ، فالتكنولوجيا يمكن أن تكون أداة لقهر الانسان أو لتحرير حريته ، ولكن ذلك يتوقف على كيفية تطوير العلاقات الاجتماعية والانتاجية ، وعلى توظيف التقدم التكنولوجي في سبيل حرية الانسان وسعادته ، ولعل أهم ما يجب تحفظا حال مناهج التغير المعروفة هو أن الاقتصاديين السياسيين في

عالم المقهور يعكس أساليب تعبير الغربية محاكاة عمياء ، متناسين أن لكل حضارة انسانية تكنولوجيتها الخاصة ، ومتجاهلين الفروق التاريخية والحضارية المميزة لدى واقع المجتمعات الغربية .

ومما يزيد في أهمية هذا المفهوم هو أن نعيش في عالم تتباين خريطته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فيما بينها ، وكانت الصراعات الاجتماعية تأخذ فيه شكلا عنيفا وليس أقل ، كما كان متوقعا — في المدى القريب على الأقل — ، فزادت الهوة بين المجتمعات المستقلة من جهة ، والمستغلة من جهة أخرى ، الأمر الذي جعل مسألة التغير تبدو أكثر الحاحا من أي وقت مضى .

أضف إلى ذلك أن الشبكات المتصلة بالمجالات البيئية في المجتمعات المستغلة ، التي نمت تراثها وشوهت بنيتها الاجتماعية ، لا تدعم إلى التغلب بمستقبلها ، ذلك أن الظروف والعلاقات الموضوعية التاريخية التي خلقها الاستعمار ما زالت تشكل عائقا أساسيا أمام عملية التغير الاجتماعي ، إن العلاقات الاقتصادية الدولية ، والتقسيم العالمي للعمل ، القائم على التحكم باقتصاديات المجتمعات المستغلة وإخضاعها لأسس السوق الرأسمالي هي مسألة لا بد من الحل عليها ، والتصدي لها بكل الوسائل ، إن المجتمعات المستغلة ما زالت تشكل مجالا خصبا لاقتصاد الدول الرأسمالية ، وإذا لم تحطم هذه العلاقة ، فلا سبيل إلى التقدم .

وكما نلمح ، فإن مفهوم التغير يكتسب أهميته من خلال علاقته الوثيقة بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبمرور الوقت فإن المفاهيم والمصطلحات الأخرى ، كالتنمية ، والتقدم ، والتطور ، والتحديث ، تنطوي على نفس الدلالات ، ولا يمكن فصلها عن بعض لا لسبب ، ومن حيث سرعة وتحقيق التغير ، وشمولية البناء الاجتماعي كلية أو جزئيته ، ونلاحظ عبر النظريات السوسيولوجية الأولى ، أن

مفاهيم « التغير » و « التطور » و « النمو » و « التقدم » كانت تختلط في بعض الأحيان ، وكان يحدث في حالات أخرى أن يفرق العلماء بينها ، ولكنها كانت تعبر عن مصطلحات مرتبطة بعضها ارتباطا منطقيا [30] ، وحتى في تعريف الأمم المتحدة لمفهوم « التنمية » نجد الالتباس قائما بين مفهومي التنمية والتغير ، وحول ذلك نقرأ : « إن مشكلة الأقطار المتخلفة ليست التقدم وحده ، بل التنمية ، والتنمية هي التقدم مع التغير ، والتغير بدوره اجتماعي وثقافي كما هو اقتصادي ، وهو كيفي كما هو كمي » [31] .

إن هذه المفاهيم ، وإن تقاربت في معانيها ، إلا أنه لا يجوز الخلط بينها ، نظرا للاختلاف في جذورها الحضارية والتاريخية .

وعلى سبيل المثال : فإن مفهوم « التقدم » انبثق عن فلسفة التاريخ وتأثر بتسامح القانون الطبيعي ، ما لبث أن تجرد من دلالته الفلسفية ، بعد أن تطورت العلوم والتكنولوجيا ، وجعلت فلسفة التقدم ترتكز أولا وأخيرا إلى التقدم التقني والتصنيع ، وبهذه الصورة فإن مفهومي التقدم والتغير مترادفان ، ويختلفان عن مفهوم النمو ، وقد استخدم مصطلح النمو بطريقة محتشمة جدا في معظم الدراسات السوسيولوجية الحديثة ، أولا للدلالة على التمييز بين نوعين من المجتمعات المتغيرة ، هي المجتمعات الصناعية من ناحية وجميع المجتمعات من ناحية أخرى (التي تنتمي إلى نماذج أخرى — أي مجتمعات تحديد التباين) وهي ربما وإن بدرجة أقل — وتتسم بالخضوع للتغير السريع ، وتتزايد الاستمارة في الحالة التي يتحول بها النوع الأخير إلى مجتمعات صناعية [32] .

إن هذا التحديد للنمو « تكنولوجي » وليس تاريخيا ، فالمجتمعات التابعة هي تلك التي أدمجت في تاريخها الطبيعي ، وخضعت لحتمية

أخرى، وقد أسفرت هذه العلاقة عن تشوه بناه الاجتماعي والاقتصادية والسياسية ، وعليه فإذا كان التقدم قرينة المجتمع ، فإن التخلف عكس التقدم ، وله أسبابه التاريخية والاجتماعية في استغلال المجتمعات المقهورة .

إن مقولة التخلف ، ظهرت مع تكوين النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي ، وهي مرتبطة بتقسيم العالم اقتصاديا من قبل الاحتكارات العالمية وجغرافيا من قبل الدول الامبريالية الكبرى، وتمثل بداية ظهر التقسيم الدولي للعمل الذي يناسب عصر الامبريالية وتشوه بنية الانتاج الاجتماعي في المستعمرات والبلدان المستقلة ، وهذا ما يؤكد : بقاء التخلف الاقتصادي في المستعمرات والبلدان التي استقلت عن الدول المستعمرة [1] وتجلي المؤشرات العامة للتخلف في علاقة التبعية الاقتصادية بالدول الامبريالية والاحتكارات العالمية ، هذه التبعية التي تعيق تحقيق الاستقلال السياسي الحقيقي [2] ، أما المؤشر النوعي الثاني فهو غياب آلية انتاج واحدة تسير كامل الاقتصاد الوطني أو كما يسميه الاقتصاد العجز والمتخلف [3] ، وهكذا فإن العلاقات الانتاجية ، بما فيها العلاقات الانتاجية الفوقية تلعب دورا هاما في عملية تطور الاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك في تحديد مفهومي التحرر والتخلف .

والحقيقة ، أنه من خلال تحديد هذه المفاهيم ، لن نتمكن ، ما لم ننظر اليها في سياق عملية التطور التاريخي والاجتماعي ، وإلى تكونها في إطار العلوم الاجتماعية الغربية ، وغالبا ما أغفل أصحاب هذه الحقائق ، وذهبوا لتحديد هذه المفاهيم نظريا ، دون أخذ المعطيات الموضوعية والتاريخية بعين الاعتبار ، مستندين في تعريفهم لمفاهيم التحديث والتنمية والتخلف الخ ... الى مؤشرات كمية كالدخل الفردي والانفجار السكاني ونسبة الولادات والوفيات والنظم الاجتماعية الخ ... وقد

غاب عن بصيرة هؤلاء أن هذه المفاهيم لا تخلو من الأيديولوجيا ، لأن تهمل العوامل التاريخية الفعلية للتخلف ، وكلما تنوه إلى الخوف من الخصوصية للتغير ، والكامنة في تقسيم العمل العالمي ، وفي العلاقة غير المتكافئة بين المجتمعات المستغلة من جهة ، والمستغلة من جهة أخرى ، وهذه المفاهيم تنطوي على خلفية أيديولوجية ، لأنها تستبعد الثورة ، وتؤكد على الإصلاح الجزئي ، وليس على التغير الكامل للمجتمع ، كما أنها تصور التخلف ، كما لو كان كامنا في طبيعة المجتمعات الذاتية ، وليس نتاجا للعلاقات التاريخية الثابتة .

فمما لا جدال فيه ، أن التغير هو ناموس الحياة ، بغض النظر عن ماهية التغير ، سواء أكان إيجابيا أم سلبيا ، ومع ذلك لا يجوز أن يتم الالتباس بين مفاهيمه المختلفة ، وقد تكون دلالته متعمدة ، وغالبا ما تحصل ذلك عند علماء الاجتماع ، الذين نادرا ما يميزون بين هذه المفاهيم ، وعلى سبيل المثال ، أن الثورة هي شكل من أشكال التغير ، لكنها ليست التغير البنيوي الجذري الشامل ، وغالبا ما تأخذ شكل العنف ، كما أنها لا تحدث مصادفة ، وإنما لها أسبابها في العلاقات الاجتماعية والتاريخية لمجتمعات الإنسانية ، فهي نتاج ظروف ذاتية وموضوعية .

ومن هنا ، في تعريفها ، وفي تحديد مفهومها ، وتمييزه عن مفاهيم التغير الأخرى ، وبذات الوقت ، فإنه من الخطأ أن نرى في الثورة مجرد التغير الشامل ، وإنما أيضا البناء ، فهي تهدم من أجل البناء ، وتكوين الإنسان ، باعتباره محور عملية التغير ، ومما يميز التغير الثوري هو قوته لمختزل الزمن والمراحل ، انطلاقا من الإنسان وتكوينه أساس لعملية التغير ، وهكذا ، فإن التغير الثوري يتفرد عما سبقه من المفاهيم والمصطلحات ، التي تستخدم مفهوم الثورة مجازا ، ذلك أن الثورة تعني البناء المستمر والدائم لصالح الإنسان وحريته .

وعلى أية حال ، فان المهتمين بالتغير الاجتماعي ، قد تساءلوا حول تحديد مفهومه ، مثلما اختلفوا في سببه ، وأولوياته ، ومحدداته . تساءلوا عن أفضل المناهج وأنجعها ، أهو الأسلوب الاشتراكي ، أم الماركسي ، أم الرأسمالي ، أم التسيير الذاتي ؟ وأين يبدأ التغير الاجتماعي ؟ وهل يتم تدريجيا ، أم دفعة واحدة ؟ وهل ينبغي عبئة الموارد الاقتصادية بدلا من عبئة القوى السياسية والاجتماعية ، أم لا بد من أن تنسجم القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عملية التغير ؟ كما لم يغفل العلماء دور التنمية الاجتماعية بالنسبة للتغير الاجتماعي ، وحول ذلك كتب روبسون : « لقد بدا يزداد وضوحا ، أن التحسين في شروط الحياة الانسانية لا يمكن ، بصفة ، اعتبار تحققه في النهاية من أهداف التنمية ، بل هو ، بالضرورة ، أحد شروطها ورسائلها » ، فيجب في النهاية أن تلتقي سياسات التنمية في استراتيجية مشتركة تضم بالاضافة الى الزيادة في كم العوامل الاقتصادية تحسينا في كيفيتها » .

ترى كيف يمكن التغيير في شروط الحياة الانسانية ؟ وما هي طبيعة هذه التحسينات ؟ التي يمكن أن تبرز في نهاية الأمر ديناميكية العوامل الكمية ، وتخلق تحولات النفسية عند المتغيرين ؟ وما الى مدى يرتبط عدد التحسينات والتغيرات بمنهج التغير ؟

ومما يجدر الاشارة اليه أننا نجد اليوم رأسماليين متعددة للتغير : منهج ماركسي ، وآخر رأسمالي ، واشتراكي ، وليبحث فيه بايجاز .

ان المنهج الماركسي يرى أن التحول الاجتماعي يحدث نتيجة للتغير الاقتصادي ، وهذا ما ستتبعه لدى معالجتنا لنظريات التغير ، اذ يتبين لنا دور نظرية ماركس الجدلية ، بضرورة مقابلة الجوانب ، ومدى تأثيرها على ذلك ما شهده من تطور ملموس في بناء سياسي اقتصادي اجتماعي السوفيتية المؤثر الطابع لأي تطور في المجال الاقتصادي .

والدولة ـ في رأي لينين ـ ينبغي أن تطور لتصبح عاملا مستقلا كبيرا من عوامل النمو الاقتصادي ليس كما نظر اليه ماركس على أنه جزء من التكوين الاجتماعي الأعلى للمجتمع ، أن الدولة ـ في رأيه ـ هي التي تعمل على تكوين الفائض الاقتصادي ، وعلى توزيعه على الاستثمارات المختلفة ، انها وهي تعمل يجب أن تتبع الأسلوب الاشتراكي في التنمية ، وهو الأسلوب القاضي بخلق أكبر قدر ممكن من الفائض الاقتصادي في الأصول الانتاجية ، لأنه على حد تعبير لينين نفسه ، ينبغي دائما صرح ميزانية الدولة والايرادات الكبيرة ، التي عن طريقها يمكن اعادة تنظيم الزراعة ، وبذلك تخلق البناء المادي للاشتراكية .

وتبعا لآراء لينين وجب تمركز الصناعات الرئيسية أو مفاتيح الصناعة ـ كما يسميها أن تنمو وتتسع بمعدل يرتفع ويتزايد كل من سلع الانتاج وسلع الاستهلاك على حد سواء[١] .

ان منهج التخطيط في الاتحاد السوفيتي يعتمد على تصور لقطاع الاقتصادي ، وهي استثمار رؤوس الأموال المتراكمة لدى الدولة في قطاع الانتاج ، فاذا قامت الثورة في الاتحاد السوفيتي ، حتى شرع المسؤولون السوفيت في تغيير البناء الاقتصادي ، وجعلته الانتاج الزراعي ، وتطويره ، وبناء الصناعة الثقيلة ، كل ذلك تم من خلال توسع في القطاع العام ، ومركزية القرار في التنسيق بين القطاعات الانتاجية .

ولما كان المنهج السوفيتي يعتمد على مركزية التخطيط ، فان المنهج الرأسمالي يقوم على الاقتصاد المختلط ، أي على الجمع بين التخطيط القومي ورأس المال الخاص ، ان هذا المنهج يجعل الحكومة تقوم بدور طليعة القطاع الخاص ، وغالبا ما تأخذ الحكومة في مثل هذه الأحوال أن تتعاون مع رأس المال الأجنبي .

ان هذا المنهج يجعل هذه المجتمعات أكثر ارتباطا بالنظام الرأسمالي وعرضة للتقلبات والأزمات الرأسمالية ، الى جانب ذلك كله فانه لا ينطوي على حوافز للمنتجين .

مما تقدم يبين لنا أن جل نظريات التغير ومفاهيمه نبعا وصلنا من الغرب - وهي ذات فوسنتنا العلمية متأخرة في هذا الميدان ، اللهم الا اذا استثنينا بعض المحاولات والتجارب في الوطن العربي ، والتي عادة ما تميزت طابع فوقي ، أكثر من ارتكازها الى القواعد الشعبية .

وبذلك ، فانه يتعذر الأخذ بهذه الأساليب كاستراتيجية علمية للتخلص من التخلف ، وذلك لأسباب عدة ، تتعلق بالاطار الحضاري والتاريخي لمجتمعنا العربي أولا ، وبمستوى تطور قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية في مجتمعنا ثانيا ، وبمختلف فلسفته المميزة عن المجتمعات الغربية ثالثا ، انه من العبث محاكاة سبل التطور الغربية ، وخصوصا بالنظر لاختلاف المعطيات الحضارية والتاريخية ، والتي تقتضي نهجا منسجما مع واقعنا الاجتماعي .

بيد أن تبني هذه المشاريع ينبغي ان لا ينم عزلته عن التفكير جديا في التخلص من واقع التخلف واللحاق بالمجتمعات الأخرى المتقدمة مع التأكيد على الكيفية بغير السبل ، الملائمة لطبيعة المجتمع العربي . وايجاد تنظيم اقتصادي يشرك الشعب في الابداع[٢٠] ، عن اختصار زمن التخلف وخرق المراحل عمليا ممكنة ، وخصوصا بالنظر الى الامكانيات المادية والبشرية ، المتوفرة في الوطن العربي ، والتي تؤهله ليلعب دورا حضاريا في العالم ، اذا ما أحسن استغلال امكانياته وتنظيمها .

وفيما يلي نوجز أهم العوامل الضرورية لتحقيق التغير الشامل في الوطن العربي :

٦ ـ تطوير البنية التعليمية :

ان النظم التربوية في الوطن العربي تتباين ، وبصورة كبيرة من قطر لبلدان العربية ، وفيها يتجلى الاغتراب الثقافي على أحسن وجه ، ومهما كان تشخيص المناهج التربوية في ضوء على مدى البؤس الفكري البشري في مجتمعنا العربي .

ولذلك فإن مؤسساتنا التعليمية بحاجة الى فلسفة تعليمية جديدة ، وفي مراجعة نقدية كاملة بتحقيق نقلة نوعية في البنية التعليمية ، فالبد على التوسع الافقي في التعليم الفني والمهني ، الامر الذي يجعل العلوم قوة انتاج ، تلعب دورا اساسيا في عملية التغير .

واذا كانت هذه البنية التعليمية تساهم في تقدم المجتمع ، فان النظم التربوية الحالية تكرس التعصب العلمي والحضاري ، وحول ذلك كتب الدكتور جورج قرم قائلا : « ان توسيع الاجهزة التعليمية الذي جعل منذ أوائل الستينات لم يرافقه اي تحسن نوعي ، وقد أصبح العلم مجرد مدخل اجباري للحصول على وظيفة لائقة مهما بواسع الراتب ، ولم تربط المؤسسات التعليمية فعليا بالتطورات المجتمعية وبوضعه الحالية والتكنولوجية ... وفي جانب ذلك فان القطاعات التعليمية العليا ، لا توفر المهارات المطلوبة صناعيا وزراعيا وعلميا بالاعداد الكافية وبالمستوى المطلوب لانجاح أي عملية تنموية ، ولا عجب في ذلك لان هذه القضية تربوية ربطا وثيقا بالتخلف التكنولوجي المشين[٢٠] ... ان هذه المؤسسات التعليمية تقف حجرة عثرة في الاستخدام الامثل للتكنولوجيا وتساهم في تطور قوى الانتاج وفي ربط المؤسسات التعليمية بالمؤسسات الاجتماعية ، وفي ما يختص بالنهوض في استعمال التكنولوجيا عقلية عشوائية فلا بد من أن يزيد هذا العامل من اغتراب المجتمع العربي واختزال الهياكل الاجتماعية وجمود القدرة على الابداع والتوجيه الذاتي

والسيطرة على التطور ، اضافة الى تعميق الارتباط غير التكافئ باقتصاد البلدان المتقدمة وامتصاص الطاقات والامكانات الذاتية ، كذلك توسيع الاختناقات في توفير فرص العمالة على كل المستويات ، أما المستوى التعليمي فهو في النهاية الذي يؤمن الاستقلال الوطني والتماسك الاجتماعي وقدرة المجتمع على مواجهة تحديات العصر ؛ لذلك فان التعليم بأجهزته التعليمية يبقى على هامش التطورات المجتمعية ، هو ايضا اهدار لطاقات الامة وضياع لمستقبلها[٢٠] .

٢ ـ تكامل الاقتصاد العربي ووحدته :

بعد مضي ما يزيد عن عقد من الزمن على مشروع السنة القطرية في الوطن العربي بات ضئيلا ، مؤكدا ، انها لم تتخلص من تحديين ملحوظ في بناء الاجتماعي والاقتصادي ، ويعود ذلك دون استثناء عن مشاريع وخطط التنمية في الاقطار العربية القطرية ، التي ترتبط اليوم بالشركات الاحتكارية العالمية اكثر من أي وقت مضى .

ان ذلك يرجع الى واقع التجزئة العربية ، والى تحالفات تفوز الاقتصاد العربي وقراراته ، والى غلبة الاحتكارات والشركات الاقتصادية العالمية المتنازعة فيما بينها حول استغلال العالم .

ولا سبيل الى تحقيق التقدم والاستقلال الاقتصادي في الوطن العربي ، لم يتوحد ويتكامل اقتصاديا ، فالوطن العربي يختزن كثيرا من الخامات والمواد الاولية تجعله يختزل زمن التخلف ويجتاز المراحل ، اذا ما احسن استخدامها ، وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى عائدات النفط ، وتحويلها الى رأسمال ثابت[٢١] ، ووضع حد للاغتراب القطاع البترولي والمالي العربي[٢٢] ، ان دمج الثروة النفطية في الاقتصاد العربي وتحقيق التكامل الاقتصادي بين أقطار الوطن العربي

كفيلان بتحرير الاقتصاد العربي من التبعية وبوضع الأسس السليمة لقيام اقتصاد عربي مستقل . وحتى الآن لم نستخدم العائدات النفطية في عملية التنمية ، إذ ما زالت أقطار النفط العربي تكمن في أنها جزء من ارتباط الاقتصاد العربي بالاقتصاد الغربي ، وتعبر عن نمط التطور التبعي في الاقتصاد الغربي . وعليه فلا مخرج للمجتمع العربي من أزمته الاقتصادي المتخلف إلا إذا شكل كتلة اقتصادية واحدة ، فالتكامل الاقتصادي العربي يؤثر تأثيرا كبيرا على مصادر التراكم الرأسمالي والطريقة التي يمكن استخدامه بشكل أكثر عقلانية ، كما يساعد التكامل العربي في حل مشكلة السوق ، إذ لا تقتصر أسواق الرأسمالية على وجود سوق واحدة ، بل تشمل عددا أكبر من أسواق البلدان المشتركة »[11] .

كما لا بد لبناء السياسة الاقتصادية أن تعمل على إزالة الازدواجية المتمثلة بوجود قطاع حديث وقطاع تقليدي ، وتطوير أحدهما وتوجيهها »[12] ، إن أغلبية القوى في الاقتصاد العربي يتوقف على تخليصه من التبعية الأجنبية ومن واسع التجزئة ، وكذلك على طرح أساليب التنمية المتبعة حاليا جانبا ، والمعتمدة على استيراد التكنولوجيا والخبرات الأجنبية ، فإن التكنولوجيا ليست سلعة تباع وتشترى بل هي ممارسة مذهبية يجب أن تشترك فيها جميع شرائح المجتمع بالرغم من المستوى التعليمي والثقافي في كافة طبقات المجتمع »[13] .

هذه كل هذه العوامل لا تأتي أكلها ، ما دامت تبحث أن تتحقق من خلال تؤشرات الكم ، وتتجاهل العلاقات الانتاجية ، وضرورة تغييرها لصالح الإنسان وحريته .

وثمة حقيقة أخرى ، لا يجوز تجاهلها ، وهي أن صنع التحرر يصنع ، فإذا أصاب الشعب تزعزع ، وتحرر من الاستغلال ، وصنعت

مؤسسات الانتاجية للادارة الذاتية ، عندئذ يدرس المحللون الاستراتيجيون في مؤسساتهم ، ويشاركون في تخطيط للعملية الانتاجية . كما انه من شأن هذه السياسة الانتاجية ان تحسن مناخ الانتاج وتعزز حرية المنتجين .

وقد كان من المسلم به ان استيعاب المجتمع للتكنولوجيا انما هي مسألة ربط ابعاده الحضاري والاجتماعي : فان استراتيجية التنمية ، لا بد وان تأخذ هذه المعطيات بعين الاعتبار وان لا تساق وراء برامج التنمية السائدة في دول العالم الثالث ، والتي تعتمد على التكنولوجيا والمهارات الاجنبية . ان هذه الاستراتيجية لا تنطلق من الواقع الاجتماعي ، ولذلك فهي تعتمد كليا في تنفيذ مشاريعها على القوى العاملة الاجنبية ، ولا يتعدى دور هذه المجتمعات تنفيذ مشاريع التنمية .

ولذلك ، فان استراتيجية التنمية العربية ، لا يكتب لها النجاح ، الا اذا أخذت العوامل النفسية الاقتصادية والاجتماعية ، والقوى العاملة البشرية ، والمؤثرة في عملية التغير ، وخصوصا العوامل المنشطة والمعوقة للتغير بالاعتبار .

والملفت ، ان الدراسات العربية في هذا الميدان لم تقصر عن شيء كثير ، وربما يكمن ذلك في غياب الرؤية الواسعة والنظرية الشاملة ، وكذلك التخطيط الاقتصادي الشامل على صعيد الوطن العربي ، فمعظم الجهود العربية ، ما زالت تعتمد في برامجها للتغير على استيراد التكنولوجيا ، وكنا نجد بعضا حول التغير ، تتسم بأفق استراتيجي ، تصوري ، تتناول التغير من زاويه التكامل القومي ، على الرغم من ذلك ، ان هذه الدراسات لا تبحث في التغير من الجانب التكاملي القومي ، بقدر ما تهتم به من حيث تأثيره ومظاهره .

ان هذه المنهجية لا تخدم الافق الاستراتيجي المنشود ، وانما

هي عاجزة أيضا عن فهم وتحليل معطيات التغير . ولذلك فقد فاتها أيضا النزعة الاقليمية ، وهي عندما تدرس التغير ، فلا تعنيها المتغيرات القومية والدولية ، ولا الهوة القائمة بين المجتمع والتغير الجزئي على الصعيد القطري ، وما يجاهله الموغلون بفروق التنمية ان الاقطار العربية متفردة بخصائص الاسس الاقتصادية والاجتماعية الضرورية لتحقيق التغير . كما أن خطاب عملية التحديث في المجتمع العربي ، منذ عصر النهضة وحتى الآن ، تكمن في تجزئة الاقتصاد العربي وتبعيته الخارجية ، ولا سبيل الى التقدم والاستقلال الاقتصادي الا بالتغلب على هذه العقبات وبناء الاقتصاد القومي المستقل .

* * *

المراجع

١ ـ معاجم علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهري وآخرون ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٣٣٠ .

٢ ـ محمد لامين الشيخ لمدنية : مقترحات العمل ، ص ٢ ـ ٣ ، في كتاب : ر. نلد زه رضوان : تنمية العالم الثالث ، تعريب عبد المجيد الحسن ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٦١ .

٣ ـ معاجم علم الاجتماع ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

٤ ـ ت . ب . اقتصيف : نظريات التطور الاقتصادي لبلدان الشرقية ، تعريب فؤاد الدين جوني ، بيروت ، دار الفارابي ١٩٧٩ ، ص ٣٤ .

٥ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٣٥ .

٦ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٤٦

٧ ـ رونالد رضوان : تنمية العالم الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

٨ ـ صلاح الدين نامي : قضايا التخلف الاقتصادي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

٩ ـ رامبو بيك أوستري : الإسلام والتنمية الاقتصادية ، تعريب مبشر الطويل ، دار الفكر بدمشق (دون ذكر تاريخ النشر) ، ص ١١٢ .

١٠ ـ جورج قرم : الاقتصاد العربي أمام التحدي ، دراسات في القضايا القطاعية والدول والتكنولوجيا ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٤١ .

١١ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٤١ .

١٢ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

١٣ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

١٤ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

١٥ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(ب)

دراسة تحليلية
لمفهوم التفسير ونظرياته ومناهجه
ومقارنتها بمناهج التفسير السائدة
في الوطن العربي

د. عبد الله الهمالي
د. عبد القادر مرابي

الفهرس

١ ـ توطئة

٢ ـ مفهوم التفجر

٣ـ نظريات التفجر

٤ ـ نظرية التسيير الذاتي

٥ ـ العرب بين التنمية القطرية والقومية .

(٧)

دراسة تحليلية
لمفهوم التغير ونظرياته ومناهجه
ومقارنتها بمناهج التغير السائدة
في الوطن العربي

د. عبد الله الهماني
د. عبد القادر عرابي

١ ـ توطئة :

يهدف هذا البحث الى دراسة مفهوم التغير الاجتماعي ، وبيان عوامله وقوانينه ، والقوى المؤثرة فيه .

ولا يتجلى هذا المفهوم بشكل واضح ، الا اذا وقفنا على نظريات التغير المختلفة ، موضحين منهجها في تفسير عملية التغير ، ومسلماته ، ولما كانت نظريات التغير الاجتماعي لا تتمكن من تفسيره ما لم تحدد القوى الموضوعة والذاتية ، المؤثرة فيه ، فان البحث في مفهوم التغير يقتضي تحديد القوى الفاعلة في التغير ، وطبيعتها التاريخية ، وخصوصا القوى المنبثقة عن حركة التاريخ ، سواء كانت هذه القوى الجماعة ، ام الطبيعة ، ام الصفوة .. الخ وغير صلوحها استنادا الى معطيات التطور التاريخي والاجتماعي .

ان تناولنا للتغير كعملية اجتماعية ، منبثقة عن حركة المجتمع لا ينفصح ، الا اذا حددنا عوامل التغير ، وفيما اذا كانت ذات طبيعة اجتماعية ، ام اقتصادية ، وعلى ضوء ذلك تتحدد ماهية القوى الفاعلة في حركة المجتمع ومصالحه .

ولا يقل عن ذلك اهمية البحث في أعداف التغير الاجتماعي ، وفي آثاره على الانسانية ، ومستقبلها ، ولا بد لنا أن نتساءل في هذا الصدد عن أبعاد التغير الانسانية : فهل يقتضي التغير ان احتكام قبضة السلطة على الانسان ، والى استلاب انسانيته ، وجعله انسانا ذا بعد واحد ؟ ، أم هل يمكن التغير الاجتماعي الانسان من صنع مستقبله ، وحاضره ، والتخطيط له ، ذلك أن التغير المخطط ، يعتمد على مشاركة الجماهير في تكوين وتغيير واقعها ، يعني انها تساهم في صنع التاريخ ، وهي عندما تشارك في عملية التغير ، لا تصبح قادرة على صنع المستقبل فحسب ، وانما تمتلك الوعي الصحيح ، الذي يمكنها من بناء التقدم وضمان السلام الاجتماعي .

ان تناولنا مفهوم التغير بهذا الشكل يجعلنا نتحول لطرحه ، فلا مناص منها الا النظريات العامة ، الشمولية والكلية ، مادامت ما زالت تحتفظ بطابع فلسفي بحت جانبا ، ولا نلجأ اليه الا بقدر ما تحتمه الضرورة ، واستنادا الى ما تقدم سنتناول في بحثنا :

١ ـ مفهوم التغير

٢ ـ قوانين التغير

٣ ـ الحرب بين النسبية النظرية والتوعية .

٢ ـ مفهوم التغير :

اتخذ مفهوم التغير بادىء الأمر طابعا فلسفيا ، ومع ظهور المجتمعات البرجوازية أصبح وضعيا ، ومما يميز هذين المفهومين هو الطابع المثالي اللاتاريخي لهما ، فكلاهما لا يدرسان التغير كعملية تراكمية تاريخية ، ناجمة عن فعالية الانسان ، وحاجاته ، وانما يعتبران التغير اما بمثابة حركة داخل النظام ، هدفها الحفاظ على التوازن الاجتماعي ، واما كحركة متولدة عن الصراعات الاجتماعية ، التي لا تهدد حياة النظام الاجتماعي ، بقدر ما تحقق الانسجام داخله ، ويتمثل ذلك حسبما يزعم هؤلاء البرجوازيون في عملية الصراع والصراع الاجتماعي[٣٠] .

ومما يترتب على هذه المنهجية اللاتاريخية هو ان مفاهيم التغير المعاصرة ، غالبا ما فسرت تقنيا أو اقتصاديا ، وليس من جانب العملية الانسانية ، بوصفها عن البحث في معطيات التغير في تكوين المجتمع الانساني ، وتطوره ، بحثت عنها في عوامل تقنية واقتصادية ، منطلقة في ذلك من معايير وحيثية الجانب ، « معايير اقتصادية » ، الازدياد الكمي في الانتاج والاستهلاك دون الرجوع الى مشروع انساني أو الى صفة الحياة .

وهذا « التحديد للتغير » يستند الى موضوعة ترى ان الازدياد الاقتصادي هو المعيار الوحيد لتدبير جميع اشكال الحداد الاجتماعية ، وان هذا الازدياد لا يعرف الا تعريفا كميا ، بصرف النظر عن أية غاية انسانية ، وبالنجوع التقني وحده ، ولو كان نجوعا مسعورا ، وبالتنظيم الاجتماعي ، ولو انجب الاضطهاد والاضطراب[٣١] .

انه من المسلم به أن الازدياد الكمي للانتاج يعني تغيرا في البناء

الاجتماعي ، هذا لا خلاف عليه . لكن الخلاف يكمن في كيفية احداث تغير كيفي في حياة المجتمع ، وبناء المختلفة .

واذا كان التغير الكمي للانتاج قد زاد من عبودية المنتجين ، ومن التحكم بحاجاتهم وحريتهم ، فان التغير الكيفي لا يحدث ، الا اذا تمكن المنتجون وسائل انتاجهم .

واذا كانت هذه التعريفات تستند في مضمونها لمفهوم التغير الى البعد الاقتصادي او التقني ، فثمة تعاريف اخرى تصدره انطلاقا من المعطيات الزمانية والمكانية ، من حيث شموليته للبناء الاجتماعي ككل او لجزء منه ، وكذلك ايضا من حيث سرعته وتأثيره الخ ...

كل هذه العوامل تعتبر بمثابة مؤشرات لتحديد مفهوم التغير ، وعلى هذا الاساس تم التمييز بين التغير داخل النظام ، وبين تغير النظام ككل[1] ، ان المفهوم الاول يعتبر التغير بطيئا وجزئيا ، أما الثاني فيعتبره شاملا لكل البناء الاجتماعي ، وجذريا وسريعا[2] الى جانب ذلك تم بين العلماء مفهوم التغير تبعا لاتجاهاته ، وموجهاته[3] ، فهناك التغير الخطي المستقيم ، والتغير التعاقبي الخ ... اما موجهاته فهي اما اقتصادية او اجتماعية أو ثقافية الخ ...

وكما نرى ، فان مفهوم التغير عندما اتسع أو تقلص ، وتحدد من حيث ابعاده الزمانية والمكانية ، وفي سائر هذه الحالات يجرد مفهوم التغير من بعده الانساني ، وتتحدث عن قضية انسانية ، تعني ان الانسان غير أمين وكيفي في بنية الوجود الانساني ، والى امتلاك الانسان من تسلط الآخرين .

وبناء على ما سبق يمكن التمييز بين ثلاث مفاهيم للتغير الاجتماعي :

1) ـ التغير كمفهوم فلسفي اجتماعي ، مقتبس عن فلسفة التقدم ،

وهو بمثابة دورة أو حركة داخل النظام ، لا تستهدف هدم النظام الاجتماعي ، وانما المحافظة عليه .

٢) ـ التغير كمفهوم مادي : ويقوم على أن التغير الاقتصادي هو أساس التغير في البناء الاجتماعي ، أما التغير الفكري فليس الا نتاجا لصراع الطبقات .

٣) ـ التغير كعملية جماعية : تحدث من خلال مشاركة الجماهير في كافة المجالات وتسييرها لشئونها دائما (السير الذاتي) .

٣ ـ نظريات التغير :

ان مفهوم التغير لا يمكن تفسيره الا في اطار نظريات التغير الاجتماعي ، ومع أن معظم النظريات الاجتماعية تحتك بشكل أو بآخر في هذا المفهوم ، الا أن ذلك لا يعني أنها قادرة جميعا على تفسير معطياته الحقيقية ، وفهم فلسفته ، وآفاقه التاريخية والانسانية .

واذا كانت نظريات التغير الاجتماعي المبكرة تميزت اما بأنها فلسفية أو وصفية ، وتفسر التغير الاجتماعي من خلال العلاقات الوظيفية ، ملامسة الاسباب التاريخية والاجتماعية جانبا ، فان نظريات التغير الحديثة غالبا ما تجاوز ذلك ، ومع هذا فقد عانت بعاملين أساسيين ، وهما :

١) انها تبحث في التغير من جانب التنسيق ، وعلاقته بالبناء الاجتماعي ، وما ينجم عن هذه العلاقة من صراعات وحراك اجتماعي ، وكذلك من تفكك وتماسك اجتماعيين ، وقد بلغ هذا الاتجاه ذروته لدى الباحثين الوظيفيين والوضعيين المحدثين[٩] .

٢) انها جميعا اعتمدت بشدة النظرة الاوروبية ، أكثر من اعتمادها على وضع فلسفة تحليلية ، شاملة للتغير .

انه من المسلم به ان يحدث التصنيع تغيرا في البناء الاجتماعي ، ولا خلاف في ذلك ، لكن الخلاف يكمن في تحديد العوامل المؤثرة في التغير ، وطبيعته ، كما انه من الطبيعي أيضا أن يجتذب التصنيع المزارعين والفلاحين الى المدن ، الامر الذي يترتب عليه حراك ديموغرافي وتحول في البنى والعلاقات الانتاجية .

وعلى أية حال ، فان نظريات التغير مهما تعددت اشكالها تشترك في بعض سماتها . فقليلا ما تجاوزت في تحليلها وابعادها نظريات الكلاسيكيين ، القائمة على مسألة المجتمع بالكائن العضوي ، المتوازن في نموه ، والتي استمدت الخطوط الرئيسية والبنائية الوظيفية فلسفة التغير .

أما القاسم المشترك بهذه النظريات فهو أنها تتجاهل العلاقات الاجتماعية والانتاجية ، وقوانين المجتمع ، وهي لا تتعمق في دراستها لتتغير من ماهية الظواهر ، وانما تنطلق من التشكل ، كما أنها لا تنظر الى التغير بناء على بنية المجتمع وتاريخه ، بما قوانينها في طبيعة المجتمع ، وانما تكتفي بدراسة التوازن داخل البناء الاجتماعي .

أما اهم نظريات التغير الاجتماعي ، فمن الممكن ايجازها في عدة اتجاهات ، وهي : نظرية الصراعات الاجتماعية ، نظرية التطور والتوازن الاجتماعي ، ونظرية الانساق الاجتماعية ، وأخيرا نظرية التغير الذاتي .

وتمثل نظرية الصراع الطبقي الماركسية اهم هذه الاتجاهات ، وعلى اساسها اعتمد ماركس في تفسيره للتغير الاجتماعي والتاريخي ، ان عملية التغير الاجتماعي انما هي نتيجة حتمية لجدلية التناقض القائم بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج في مختلف الحقب التاريخية .

ان قوى الانتاج تصطدم عند بلوغ مرحلة معينة من مراحل تطورها

مع علاقات الانتاج ، أي مع علاقات الملكية الخاصة ، الامر الذي يجعل هذه العلاقات تتحول من اشكال تطور القوى المنتجة الى قيود تكبلها ، وتحول دون تطورها[١٥] ، مما يؤدي الى الثورة الاجتماعية ، والى ازالة نمط الانتاج القائم ، واحلال نمط انتاج جديد مكانه ، وكذلك الى تغيير البناء الاجتماعي .

ان الانتقال من نمط انتاج الى آخر ينجم عن زيادة التناقض بين القوى المنتجة ، وبين علاقات الانتاج في كل حقبة ، ومما تجدر الاشارة اليه ، أن كل نظام لعلاقات الانتاج[١٦] ، له خصائصه ، سواء مشاعيا ، أم رقا ، أم اقطاعيا ، أم اشتراكيا ، أم شيوعا .

ان ما يميز كافة علاقات الانتاج ، التي عدت السمة الجماعية ، انها انطلقت طبقيا ، يحكم فيها الصراع الطبقي[١٧] .

ان الواقع الطبقي يحكم اذن بمراحل معينة لتطور الانتاج ، وفقرا لتباين المصالح الطبقية بين مالكي وسائل الانتاج ، والمحرومين من ملكيتها ، ينشب صراع طبقي ، تنشأ من خلاله الطبقة العاملة وهي طبقيا ، وتتحول من طبقة بذاتها الى طبقة لذاتها ، قادرة على كسب الصراع ، وازالة النظام الرأسمالي والانتقال الى مرحلة الاشتراكية .

وعليه ، فان التغيرات الكمية ، التي تتراكم تدريجيا ، تفضي في نهاية المطاف الى تغير في الكيف ، فالنظم الاجتماعية المختلفة كالمشاعية والرق والاقطاع والرأسمالية والاشتراكية تتميز فيما بينها كالمشاعية كيفيا ، وتضم المادة الحية تحت الجانب الكمي للعمليات الاجتماعية ، ذلك المصدر الجدلي الداخلي ، المحرك لها ، ان الكم يتغير دائما ، اما داخل حركته فيتحول الى كيف .

وهكذا ، ان تحول الكم الى كيف يحدث بناء قانون التطور ، انه

أنه يساعد على فهم التحولات الاجتماعية . فالتطور الكمي التدريجي يؤدي في مرحلة الرأسمالية الى تراكم الانتاج ، وفي تطور قوى الانتاج والوعي الطبقي البروليتاري ، وبالتالي الى زيادة حدة التناقض في المجتمع الرأسمالي ، كي ذلك في وقت ، تكون فيه الظروف الذاتية والموضوعية مهيأة للتغير .

وهكذا فان نظرية التغير الماركسية تقوم على أن التطور الاقتصادي هو اساس التغير في البناء الاجتماعي . والحقيقة ، ان قصة التغير الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي لا تتفق مع معالم النظرية الماركسية . فما ان قامت الثورة السوفييتية ، حتى وضعت الدولة يدها على الملكية الاجتماعية ، واصبحت تلعب دورا مركزيا في كافة التحولات الاجتماعية . ان الدولة هي التي ترسم خطوات التحول الاقتصادي والاجتماعي وتخطط لها . وتولت الرأسمال المراكم عند الدولة في القطاعات الانتاجية ، وخصوصا في التصنيع الثقيل ، وفي الانتاج الزراعي .

ان الاهمية المركزية للدولة في المجتمع السوفييتي وسيطرتها على كافة ميادين الحياة جعل جهاز الدولة يتضخم بشكل لم يسبق له مثيل . وهذا ما دفع بعض العلماء للحديث عن رأسمالية الدولة في الاتحاد السوفييتي .

أما بخصوص اهمال الماركسية العامل الاجتماعي القومي في حركة التاريخ فقد كتب سيبارت : « أفصح كارل ماركس ، باستهلاله « البيان الشيوعي » ، انه لم يكن تاريخ كل مجتمع حتى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات » . أفصح عن واحدة من اهم الحقائق التي تتضمن عصرنا ، لكنه لم يقل الحقيقة كلها . فليس من الصحيح أن كل تاريخ المجتمع يرتد الى صراع الطبقات وحده لا غير . واذا أردنا أن نعي التاريخ الكوني كله في صيغة واحدة ، فعلينا ، على ما اعتقد ، أن نقول

إن كل تاريخ المجتمع يدور حول قطبين متعارضين هما ، القطب الاجتماعي والقطب الطبقي ، بأوسع معاني كلمة طبقي ، فالبشرية تتجمع وتدرج في بناء ، في مجرى تطورها ، في مجتمعات تتحارب فيما بينها في البداية ثم يبدأ في داخلها صراع أعضائها في سبيل وضع أعلى ... عندئذ نتبين من جهة نزوع مجتمعات بأسرها نحو الغنى والقوة والمكانة ، ومن الجهة الثانية نزوع أعضائها منفردين إلى الاهداف عينها ، هذان هما ، على ما يخيل إلينا ، تياران المتناقضان اللذان يشغلان التاريخ كله ، »[١٢١] .

وإذا كان الصراع الطبقي أساس التغير في الماركسية ، فثمة نظريات أخرى تؤكد على أهمية الصراع للتغير الاجتماعي ، ولكنها لا تتفق مع الماركسية من حيث تصورها لعلاقة بين الصراعات وأبعادها الاجتماعية : ويمثل هذا الاتجاه Dahrendorf, Coser[١٢٢] .

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الصراعات الاجتماعية لا تأخذ شكل التناقض ، وانما شكل المنافسة ، والحراك الاجتماعي والمهني ، بمعنى أنها لا تنتهي إلى الثورة ، وانما تصبح ، بمثابة قوة انتاج »[١٢٣] ، ويزعم هؤلاء أنه يمكن التحكم بالصراعات الاقتصادية سياسيا وتوظيفها في سبيل زيادة فعالية النظام الرأسمالية ، وتدعيمها ، الأمر الذي يجعلها يبدو وكأنها مصدرا أساسيا للتغير في تلك المجتمعات[١٢٤] .

وإذا كانت نظرية الصراع تمثل البعد الديناميكي للتغير ، فإن نظرية التوازن الاجتماعي ، أو النظرية البنائية الوظيفية ، بالإشارة للنظريتين التطورية والوضعية تؤكد على استبعاد الصراعات الطبقية في المجتمع[١٢٥] ، فالمجتمع ليس الا نسقا ، متساند النظم والوظائف ، وهو نظام متوازن ، لا تحكمه الصراعات الطبقة ، وانما السلام الطبقي .

ويعتمد البنائيون الوظيفيون في تحليلهم على نموذجي « التي »

والوظيفة » : الأول يمثل الثبات ، والثاني يمثل التغير ... » ويقصد بالوظيفة العمليات المضبوطة أو الحيالة ، التي تبحث من وجهة نظر القسط ، الذي يساهم فيه لحفاظ على الكائن الحي كنظام مفتوح »[16].

وإذا كانت الوظيفة ترمي الى تحقيق أهداف النظام ، فان الدور الوظيفي هو ما يحقق تحقيقه ، فالوظيفة تحافظ على النظام ، أما الدور فيهدمه[17] . ان الوظيفة تمثل البعد المتغير ، أما النظام فيمثل البعد الثابت ... » بعبارة أخرى : البناء هو الوظيفة الثابتة ، والوظيفة عبارة عن سلسلة من البناءات المتغيرة بسرعة ونظام »[18].

ان هذه النظرة مستوحاة من نظرية كونت الوضعية ، المعتمدة على مفهومي « الثبات » و « الحركة » ، فالنظام يمثل الثبات ، أما العلاقات الاجتماعية فتتغير ، ولما كان النظام أصل متقدم ، فان كل تغير لا يهدف الا الى خدمة النظام والحفاظ على الانسجام بين النظام والتقدم .

وهكذا فان النظرية البنائية الوظيفية ، ونظرية الصراعات قد ناقشا دون شك بنظرية الوسطية .

ان هذه النظريات لا تبحث في التغير ، بقدر ما تبحث في التوازن الاجتماعي ، فهي تعتمد القوانين الاجتماعية ، وتفسر التغيرات الاجتماعية من خلال العلاقة الوظيفية ، وإلى جانب هذه النظريات نجد اتجاهاً آخر ، يمكن تسميته بنظرية الأنساق الاجتماعية المفتوحة ، التي تعتمد في تفسيرها للتغير على نماذج اجتماعية أساسية ، كما هو الحال عند Touraine في كتابه « الحماة والمجتمع » ، والذي دوركهايم في كتابه « تقسيم العمل الاجتماعي » ، الخ ...

ان هذه النظرية البرجوازية ، مثالية ، لا تاريخية ، وهي تشترك مع

... سواها من النظريات الاخرى ، انه لا تنقصها الرؤية التاريخية الصحيحة لفهم معطيات التغير فحسب ، بل تبقى عاجزة عن تفسيره ، وبحكم ذلك فهي تبدو أقرب الى الايديولوجيا منها الى العلم ، ولعل مهمتها الاساسية تكمن في تكييف العلوم الاجتماعية مع التقدم التقني ، بمعنى تكييفه وتجريده عن أبعاده الانسانية .

ب ـ نظرية التسيير الذاتي :

واذا كانت نظريات التغير السابقة تعتمد اما على حسنة القطاع الخاص أو الدولة ، فان التسيير الذاتي انما يقوم على تدبير المجتمع لشؤونه ذاتيا ، وعلى تغيير أبنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بتكييفها ، بحيث يمكن الانسان من المشاركة مباشرة في تكوين الحياة الاجتماعية والاعتماد على ذاته ، وقدراته ، دون اخضاع لأية مؤثرات فوقية ، مهما كانت طبيعتها . ان هذا التنظيم الاجتماعي ليس جديدا ، وانما يستلهم أبعاده من المرحلة البدائية ، حيث دبر الانسان شؤون المجتمع ذاتيا ، وبحرية تامة ، بعيدا عن كافة أشكال السلط البيروقراطي والكهنوتي .

ان التسيير الذاتي مستوحى من المرحلة الطبيعية ، عندما لم يكن الانسان يعرف الدولة كنظام سياسي ملزم ، وعندما كانت العلاقات الاجتماعية بمقتضى شريعة طبيعية ، في ذلك الوقت كان الانسان ، سيدا جميعا ، بمقتضى ما استخلفه الله به[11] .

وللحقيقة ، فان التسيير الذاتي كنظام اجتماعي اقتصادي وسياسي متكامل ، لم يطبق بهذه الكيفية ، حتى الآن ، وحتى في يوغسلافيا ، رغم ما حيث لجأت هذه العلمة ، في تحقيق الاشتراكية ، وذلك بعد ان طرأت بعض التعديلات على النظام القائم ، والذي اعتمد فترة عن وجيزة على مركزية الموارد في عملية التخطيط والتغيير الاجتماعي .

ولذلك فان التجربة اليوغسلافية ما زال يكتنفها الغموض ، نظرا لافتقاد صيغة متكاملة لتسيير الذاتي . كما أن ما يعرف باسم « ديمقراطية التسيير الذاتي » لا تتعدى كونه محاولة لتقديم نظام لتقاسم بعض الاتجاهات البرالية ، ما دامت هذه الديمقراطية لا تعني سلطة الشعب ، وتحكمه بممتلكاته وثروته ، وتسييره لأموره ذاتيا ؛ فالشعب هو صاحب القرار في ديمقراطية التسيير الذاتي ، وهذا التعريف لا يتفق بالضرورة مع مفهوم التسيير الذاتي اليوغسلافي ، الذي طبق في المجال الاقتصادي. وما زال لم يطبق في الجوانب الأخرى ، أو الأصح لن يطبق ، لما تعاني التجربة اليوغسلافية ، تعاني من مخلفات مركزية الدولة ، وازدواجية السلطة ؛ سلطة الدولة من جهة وهي السلطة الحقيقية ، وسلطة المسيرين الذاتيين ؛ من جهة أخرى ، وهي سلطة شكلية . إن هذه الوضعية تهدد التجربة اليوغسلافية برمتها ؛ وتجعلها عرضة للخطر ، ولربما تطويها رياح البرالية في طياتها ، إذا أطلقت العنان للنزعات الفردية .

والسبب في هذه الوضعية تعود في بعض المفاهيم والمصطلحات ، كالمبدئية المصالح السياسية والاقتصادية ، و« عدم احتمال مصالح المنتجين في صيغة واحدة » ، فإن ذلك إنما يدل على أن التسيير الذاتي يتيح إطلاق العنان للنزعات الفردية دون كبح جماحها ، أو تحديد الانتاج بإشباع الحاجات .

إن هذا النظام ، الذي هو أبعد ما يكون في صيغته النهائية عن ديمقراطية التسيير الذاتي ، يهدف إلى إحداث توازن بين القوى الاجتماعية ، أكثر مما يرمي إلى قيام نظام التسيير الذاتي ، وبذلك الوقت يظل هذا التوازن شكليا ، وليس فعليا ، لأن التوازن الاجتماعي لا يتم إلا بامتلاك المجتمع لثرواته ، لأن الديمقراطية ليست مجموعة من الحقوق التمكينية للمواطنين ، وإنما هي تجسيد سياسي لتركيبة اجتماعية

وسياسية معينة وعن توازن معين بين القوى الاجتماعية » (٢٢) ، انه من المسلم به ، أن الديمقراطية انما هي تعبير عن بنية اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة ، وان ديمقراطية السير الذاتي انما تعني وضع ممتلكات المجتمع تحت تصرف الشعب ، وتقويض مقومات السلطة الطبقية غربية وسلطة الصفوات ، ولا يتم ذلك الا اذا اصبح الشعب هو صاحب السيادة المطلقة ، وامتلك اسباب القوة المادية والمعنوية .

اضافة الى ذلك كله ، لا اخفي المجتمع في تسيير شئونه ذاتيا ، يجعل الدولة عيون على كافة الانشطة ، وتعدو بهذه الصورة وسيلة لمنع المنتجين من تحقيق مصالحهم عن طريق التسيير الذاتي ..

ان فلسفة التسيير الذاتي لا تكتمل ، ما لم تتناول تحليل كافة جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، مقترحة كل المعوقات ، التي تقف أمام تحقيق حرية الانسان المادية والمعنوية ، أما معالم هذه الفلسفة فيمكن تلخيصها على النحو التالي :

١) ـ اقتصاديا ، يعني التسيير الذاتي سيطرة المنتجين على المنشآت الانتاجية ، وامتلاكهم لعائدات الانتاج ، ان المنتجين هم الذين يديرون العملية الانتاجية ويتخذون القرارات بشأن تنظيمها والتخطيط لها .

٢) ـ سياسيا ، يعني التسيير الذاتي أن السياسة تصبح نشاطا مباشرا يمارسه الشعب ، فهي ليست حكرا على السلطات والطبقات ، وانما تمثل حقا طبيعيا للشعب برمته ، لكن ذلك لا يتم الا بتمكين الشعب من تسيير أموره السياسية ذاتيا وبدون اية وصاية ، مهما كان نوعها ، وهذا ما نجده ديمقراطية التسيير الذاتي ، التي تدل على ان الشعب هو الذي يملك أسباب السلطة ومقاليدها ، وهو الذي يتخذ القرارات المتعلقة بحياته .

ج) ـ اجتماعيا : تعني ديمقراطية التسيير الذاتي تحقيق المساواة ، والقضاء على الطبقية ، وتكافؤ الفرص أمام الجميع .

ان التسيير الذاتي كمنهج للتغيير لا يكتفي بالنجاح ، ما لم يتحول الى فلسفة اجتماعية متكاملة ، تشمل سائر ميادين الحياة ، وتمكن الانسان من ان يسير العملية الانتاجية ، ويشارك في التخطيط للسياسة الاقتصادية والاجتماعية . فطالما لا تاتلم فلسفة التسيير الذاتي بأبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في استراتيجية مشتركة ، وتعزز حرية الانسان ، وحقوقه ، ظل هذه الفلسفة عرضة للخطر .

وعليه ، ان ما يميز التسيير الذاتي كمنهج للتغيير ، هو أنه يؤكد على حرية الانسان المادية والمعنوية ، ويحطم سائر النظم البيروقراطية والعوتية ، المكبلة لحريته ، وحركته . كما أن ديناميكية هذا المنهج وحوافزه انما تكمن في تحريره للانسان من تسلط الآخرين وتحكمهم به في وتكبيله من امتلاك انتاجه .

ان التسيير الذاتي يمكن المجتمع من تنظيم أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بكيفية تصون حرية الانسان ، وتجعله يتمتع بثمرات انتاجه . ومن هنا تأتي ديناميكية هذا المنهج ، الذي يتعين المجتمع العربي الليبي الى تطبيقه .

٥ ـ العرب بين التنمية القطرية والقومية :

بعد أن استعرضنا مناهج التغير ، ونظرياته ، نوجه اهتمامنا لموضوع طالما شغل فكر الباحثين العرب . ويدور هذا الموضوع حول استراتيجية التنمية العربية والخيار بين التنمية القطرية أو القومية .

وقبل البحث في خصوصيات التنمية العربية ومقوماتها تنبغي الاشارة الى القوانين الاقتصادية العامة ، التي تحكم حركة التطور ، وسيره

المنهجية نحو قيام تكتلات اقتصادية تكون اما شبه متوازنة ، ومستقلة نسبيا ، وقادرة على تصريف المنتجات بشكل يضمن تراكم رأس مال على الصعيد المحلي ، واما تشأ تكتلات اقتصادية ، تعتمد في تصريف منتجاتها على الأسواق الخارجية ، ان الانتاج السلعي لا يمكن تصريفه محليا ، لذلك تعمد هذه المجتمعات الى تصريف دائمي لمنتجاتها في الأسواق الخارجية ، (الاستعمار الاقتصادي) ، ونحسب أن هذه العلاقة هي التي تحكم آلية السوق القومي والعالمي ، فالمجتمعات الانسانية اما تتكامل فيما بينها ، ويسهل هذا التكامل ، كلما كانت متكافئة في تطورها الاقتصادي والاجتماعي ، ومتجانسة حضاريا ، واما تظل مستغيبة ، وتابعة ، وعاجزة عن التخلص من العلاقات الظالمة ، التي تفرزها قوانين التطور الاقتصادي .

ان التغير ، عندما ينبعث من المجتمع يظل طبيعيا وداخليا ، أما اذا فرض عليه ، فيصبح عندئذ خارجيا ، ويوقعه في شرك التبعية ، لذلك ان التغير في الصعيد العربي ، لا بد وأن يأخذ طابعا ذاتيا ، تاصليا ، ومنسجما مع حضارة هذا المجتمع ، وقد أضحى جليا أن « السياسة التنموية في الوطن العربي ، المعتمدة على استيراد التكنولوجيا لم تنجح ، لان هذه التكنولوجيا لا تنسجم مع حضارة المجتمع المستوردة ، ولا بد أن تنشأ سياسة نقل التكنولوجيا آجلا أم عاجلا الى خلل في البناء الاجتماعي ، على اعتبار أن هذه التكنولوجيا تحكس خلفية حضارية واجتماعية ، وانماطا سلوكا اجتماعيا متميزا » ان الحقيقة التي ينبغي أن لا تغيب عن فاكرتنا هي أن التكنولوجيا لا تمثل التطور التقني والعلمي فحسب ، وانما تمثل ايضا وانها فكريا وحضاريا معينا ، وبذلك فانه من العبث أن نجرد الحضارة الغربية عن التكنولوجيا ، فكلاهما يشكلان وحدة متكاملة ، وهذا ما أغفله معظم المفكرين العرب منذ حركة الاصلاح وحتى اليوم .

والحقيقة أن سر تأخرنا ليس مرده إلى تأخر التكنولوجي بل افتقار الانسان ، ذلك المخلوق ، الذي اذا شعر بذاته ، صنع المعجزات ، وسخر كل شيء في خدمته ، ان تكوين الانسان الصحيح هو المفتاح الاساسي للتقدم » .

على أن هذا التكوين لا يتم الا من خلال العودة الى الحضارة والأصالة ، بما لها من توجيهات حضارية من أهمية بالنسبة لتعبئة الطاقات الاجتماعية ، ودفع عجلة التقدم ، وعلى سبيل المثال : ان التعبئة الحضارية ، المتمثلة في تحويل قيم المجتمع ، ومثاليته الى سلوك ، وأخلاقيات انتاج ، لها دور فعال في حركة المجتمع ، فاذا ما أصبحت الحضارة سلوكا ، فانها تكون حصنا منيعا حيال كافة محاولات التقليد والاتصال الحضاري ، التي تنطوي على ابعاد خطيرة للمجتمع ، ولعل أخطر هذه الظواهر هو أن المجتمعات المقلدة والمنتحلة لحضارة أخرى تظل فاقدة للتوازن ، وتعاني من خلل وظيفي في قيمها الفكرية والمادية ، وهذا ما يبدو واضحا للعيان في معظم المجتمعات المتخلفة .

ان هذا المنطق لا يتفق أبدا مع مناهج التغيير السائدة ، التي لا تهتم بالتغيير الا من حيث الكم : كزيادة الانتاج ، والدخل الخ ... وتهمل الكيف ، ولكأن حرية الانسان وحضارته شيء يمكن تكييفه .

ان هذه العمليات تعبر بمثابة أسس عامة للتغيير ، وقد حضرنا في القرائن الاقتصادية العامة ، وتكوين الانسان ، والتعبئة الحضارية ، ونبذ محاولات التقليد والاتصال الحضاري ، لكن التغيير الشامل لا بد وأن يقوم على مقومات أخرى ، ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية وديموغرافية ، وقد وسع الباحثون العرب أمثال بيم على مولى الدار ، مبيين مقومات التغيير ومعضلاته ، وفي هذا الصدد كتب الدكتور محمود الحمشي : « ان المعضلات التي تعاصر عمليات التنمية العربية

كثيرة ، ولكن جذورها معروفة ، إذ هي تنبع من مصدرين اثنين : أولهما ناشئ عن استمداد قسوة شروط التعامل التجاري مع الاقتصاديات الأجنبية خصوصاً البلدان المتقدمة صناعياً منها ، وثانيهما يعود إلى حالة الانحصار الذاتي المتولدة عن الميزان المختلف مع الخيارات النظرية ، وما رافق ذلك من خلال أسباب التيارات الاقتصادية المتطرفة كل على انفراد ، فلقد فرضت الخيارات شروطها وجعلت كل قطر من الأقطار العربية يعاني منفرداً من اختناق أو أكثر من المقومات الأساسية لتنمية الشاملة ، فبعض الأقطار تفتقر إلى الأيدي العاملة ذات المهارات الفنية ، والبعض الآخر يعاني شح الموارد التمويلية ، والبعض الثالث محروم من الأراضي الزراعية أو الخبرات التنظيمية والإدارية ، والأقطار العربية كلها تعاني من ضيق أسواقها المحلية التي لا تسمح أي منها بقيام مشاريع ذات حجوم اقتصادية مجدية فيه ، »[33] ويشير الدكتور عبد الله شريط إلى استراتيجية التنمية العربية بقوله : « أما على نطاق الأمة العربية كلها فإنه لا تتصور فيها تنمية حقيقية إلا إذا قامت على إيديولوجية ذات أبعاد ثلاثة : تعبئة الجماهير فكرياً ، تخطيط تنموي عربياً ، استقلال اقتصادي دولياً »[34] ، وهذا نفس ما يذهب إليه الأستاذ أنور عبد الملك في كتابه « نهضة العالم العربي » ، فهو يرى : « أن في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية الجارية في البلاد العربية لا نستطيع أن نقول أن جدة العملية كانت مسحوبة بمحاولة توحيد هذه البلاد ، لا توحيداً أثنياً بين الأقطار العربية ، ولا توحيداً عضوياً تندمج فيه مختلف الكيانات السياسية في معركة التنمية الوطنية ، ولكن المشكل المطروح والملح أكثر هو :

هل يمكن تحقيق التنمية ـ سواء في نطاق وطن عربي واحد أم في نطاق الوطن العربي الأكبر أو مجموعة من أقطاره ـ فائدة أعلية هي بعد تتمتع بدرجة كبيرة من التطور السياسي والاجتماعي والثقافي ؟ أم

التنمية لا تكون الا اذا تحققت للاكثرية التي ما زال على عاتقها أي تطور يحدث ، سواء على النطاق العربي او على صعيد كل قطر بمفرده ؛ ان الانظمة التي تعتمد عليها التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية ، التي عاشت عبئا منذ عهد طويل ، هي انظمة محنطة ، والحركة السياسية التي كان من المفروض أن تتناول بالتطوير والتثوير كل جوانب التنمية الجماهيرية باعتبارها وسيلة وهدفا في آن واحد ، اكتفى أصحابها بايديولوجية خليطة من العصرية والتقليدية ، معطين الاولوية في كل شيء لمولد ، متجاهلين الظاهرة البنيوية التي هي شرط أساسي لكل تنمية حقيقية وشاملة »[٢٥] .

ثمة حقائق مبينة لايجوز تجاهلها ، أولها : أنه ينبغي على استراتيجية التنمية العربية ان تأخذ بعداً عمودياً ، يتمثل في مشاركة الجماهير الفعالة في عملية التنمية ، فالتغير لاتحدثه العنوان ولا الطبقات ، وانما المشاركة الجماهيرية ، فاذا لم تكن عملية التنمية مصحوبة بايديولوجيا شعبية ، تحقق مصالح الجماهير ، وحريتها ، فلا فائدة منها ، وثانيهما وهو البعد الافقي : ويتجلى في الاندماج الاقتصادي العربي .

ولحسب أن هذين البعدين لا يتحققان الا بتحديد استراتيجية الفكر التنموي العربي ، والقوى الاجتماعية ، التي تضطلع به ، وبذات الوقت فان هذين البعدين يشكلان وحدة متكاملة ، وعلى قياسهما يتوقف نجاح عملية التنمية العربية او فشلها .

وخلاصة : فان المحاولات التنموية العربية لم تراع هذه المعطيات ، وربما يرجع ذلك الى طبيعة البناء السياسي الطبقي السائد في اقطار الوطن العربي ، ان الانظمة العربية لم تأخذ لدى وضع مناهج التنمية ، مصالح الانسان العربي وحاجاته بالاعتبار ، بمقدار ما راعت مصالحها الطبقية الخاصة ، الامر الذي جعل التوجهات التنموية محكومة بالمصالح

الطبقية والاقليمية ، وعاجزة عن اختراق علاقة التبعية ، والقصور الذاتي .

وهكذا ، ان شكل التنمية ، من حيث كونها شاملة أم جزئية ، انما يظل محكوما بطبيعة البنية السياسية ، ويقصد بالتنمية الشاملة ، تلك التنمية المجتمعية ، الشاملة التي ترمي الى سيطرة وطن ما على موارده الطبيعية وتنمية وسائل انتاجه بما يسمح له بالاستقلال الاقتصادي وبتوفير توزيع أعدل ثروة على أبنائه ، واذا كنا نعرّف التنمية بهذا التعريف ، فان المنظور الضيق في البلدان المتخلفة ، وعلى الاخص في وطن مجزأ كالامة العربية — هو دائما منظور يتحدد بالقياس الى فيول أو رقعة التجزئة ليس فقط بما هي عملية تجزئة سياسية ، ثقافية ، ومجتمعية ، ولكن أيضا بما هي جزء من واقع الامر التبعي المفروض على الامة العربية ككل[٣٦] .

ان الاقطار العربية منفردة ، مهما بلغ حجم مواردها وثرواتها الطبيعية ، ستظل عاجزة عن تحقيق تنمية فعلية ، تضمن لها السيطرة على ثرواتها ، وتساعدها على تحقيق استقلال كلي لا استقلال سياسي شكلي[٣٧] ، ما لم تعمل على تحقيق التكامل والاندماج الاقتصادي .

ان التنمية القومية وحدها كفيلة بتحطيم التخلف والتبعية ، كما انها تمكن العرب من السيطرة على ثرواتهم الوطنية وتوظيفها في سبيل خدمة المواطن العربي وكرامته ، وعليه ، فان الخيار بين التنمية القطرية ، والتنمية القومية ، انما يعني اما تكامل التبعية مع الغرب ، او تكامل التخلف مع الغرب ، الاولى تعني استنزاف الثروة الوطنية من خلال التبادل الاقتصادي اللاتكافؤ بين مجتمعات غير متجانسة في تطورها الاقتصادي والاجتماعي ، ان المجتمعات السائرة في طريق النمو كالمجتمع العربي لا تصدر الا المواد الخام الى المجتمعات المصنعة ، في حين انها

تستورد منها المواد المصنعة بأسعار باهظة ، فثمة مبادلة غير متكافئة بين الطرفين ، وهي هذه العلاقة تترتب مجموعة من النتائج ، وأولها قلة تراكم رأس المال في المجتمعات النامية ، بالمقارنة الى المجتمعات الصناعية ، ولذلك فان هذه العلاقة لا تساهم في تطوير قوى الانتاج وانما في تدميرها .

وهكذا : فان المجتمعات النامية ، لم تحظ بعد بالاستقلال التام ، وقد استقلت سياسيا ، وليس اقتصاديا ، كل ذلك يدفعنا الى القول ، ان الاستعمار غير أساليبه ، ولم يغير ماهيته .

ان التقسيم العالمي للعمل ، وفرض التبعية الاقتصادية والسياسية على المجتمعات النامية ، جعله يشوه البنية الانتاجية والسياسية لهذه المجتمعات .

ان هذه الوضعية ، التي تجعل التنمية القومية هي الخيار الوحيد أمام الاقطار العربية ، هي التي تخلص المجتمع العربي من التبعية الخارجية ، وتحقق له الاستقلال التام ، وخلاف التنمية القطرية ، التي تجعل عملية التنمية تخضع لعوامل خارجية ، فان التنمية القومية انما تجعلها تخضع لعوامل داخلية ، وذلك فان التنمية القومية في الوطن العربي ، انما هي « تخطيط استراتيجي »[٢٥] ، « وما هي الا ممارسة للديناميكية الاجمالية للهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، وهي عملية التفاعل بين مختلف الهياكل الموجودة في المجتمع ، ان التنمية اكثر تعقيدا من أن تكون قضية دخل فردي مرتفع او مستوى معيشي متطور كما يتصور علماء الاجتماع الانجلوسكسون ، بل ستظر منها أن تعزز الاستقلالية الاقتصادية وجعل الاقتصاد الوطني متجها الى ذاته ، بدلا من الارتباط الخارجي بالسوق الرأسمالية العالمية ، حيث أنها تدعيم لقدرات الحصة ورفض لأشكال الاحتواء الامبريالية والاستعمارية ..

ان نمط التنمية الموجود في الوطن العربي ، نمط متخلف ، لان اقتصاديات البلدان العربية تعيش حالة من التمزق والانتظار والارتباط بالسوق الرأسمالية والتقسيم العالمي للعمل ، الى جانب تعجر الهياكل الاجتماعية وعجزها عن مسايرة متطلبات عملية التنمية ومستلزماتها كضرورة حضارية وكبديل للسيطرة الاستعمارية المهيمنة والمفروضة على العالم الثالث ... لذا لا بد من قيام تكامل اقتصادي عربي خصوصي وسوق عربية مشتركة تغني العرب عن الاستيراد واستنزاف الطاقات والمدخرات ، ثم تحقيق التوازن المرجو بين الاقطار العربية والتوازن النفسي للمواطن العربي الذي باعتقاده أنه يعيش اقتراباً ثقافياً خاصة بعد هيمنة النمط الثقافي الامبريالي وتحوله الى نمط ثقافي عالمي مفروض على الانسانية بأسرها » [١٣٠] .

واذا كانت التنمية القومية مفتاح الاستقلال ، وتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي للمواطن العربي ، فان التنمية القطرية هي ركن أساسي من أركان التبعية الاستعمارية في الوطن العربي[١٣١] . لان التنمية القومية لا تحقق الاستقرار السياسي والاجتماعي والتكامل الاقتصادي فحسب ، وانما توفر ايضا الظروف الموضوعية لانعتاق المجتمع العربي من التبعية ، ولبناء المجتمع العربي الحديث ، الى جانب ذلك ، فهناك عوامل أخرى ، كحجم القوى العاملة وتوجيهها ، وحجم الموارد الطبيعية ، وكذلك الاسواق الممتدة الضرورية لامتصاص انتاجات ، كل هذه العوامل لا تتوفر الا على الصعيد العربي العام .

كما أن العامل الديموغرافي ، المتمثل في الكثافة السكانية ، والتوزيع السكاني ، ومستوى التأهيل النوعي والمهني للسكان ، وخصوصا العلاقة بين نمو السكان والنمو الاقتصادي ، لا تقل أهميته عن العوامل الاخرى ، ولا بد لسياسة التنمية العربية من أن تهتم بهذا الجانب .

ومن المعلوم أن السياسة السكانية في الوطن العربي لم تلق الاهتمام الكافي حتى الآن ، وأن الكثير من الاقطار العربية يعتمد على العمالة الاجنبية ، ويعتبر ذلك بمثابة مؤشر خطير بالنسبة لسوء الاعداد النوعي والكمي أولا ، ولكيفية توزيع السكان في الوطن العربي ثانيا ، فهناك اقطار عربية تعاني من زيادة في عدد السكان ، في حين تعاني الاقطار الاخرى من نقص في عدد السكان ، كل ذلك يقتضي دراسة هذه الامور بشكل جيد ، وتوزيع سكان الوطن العربي بكيفية تتناسب مع الموارد الاقتصادية في كل منطقة ، وإذا أمعنا النظر في تركيبة السكانية العربية يمكن أن نخلص الى حقيقة ديموغرافية مؤداها : أن التركيب السكاني لهذا المجتمع العربي يعاني من التفاوت في الضغوط والكثافات السكانية، فهناك مناطق تعاني نقصا كبيرا في كثافتها السكانية بالنسبة للامكانات والموارد البيئية، في الوقت الذي تعاني فيه قطاعات أخرى من المجتمع العربي من وفرة في الكثافة السكانية »[٢١] .

« والامر الواضح انه لو نظرنا الى هذه الحقيقة نظرة تكاملية باعتبار أن هناك وحدة وطنية متكاملة الداخلية ، متجانسة الثقافة الروحية والمادية ، تجمع شعب المجتمع العربي ، فاننا لا بد أن نخلص الى أننا لو جردنا الحدود السياسية المصطنعة من آثارها التجزيئية ، لكانت نسب التفاوت في الكثافة السكانية ، وليس احتمال العرب وفقا ما تقتضيه مدلولات الضغوط الديموغرافية المتباينة » . ولذلك فلا بد من وضع سياسة لهجرة على مستوى الاقطار العربية ، تجمع بين الكم والكيف وفقا لحاجة كل مجتمع وظروفه ، وذلك لتحقيق التكامل المنشود الذي يقضي بهدف عودة الى وحدة الامة العربية »[٢٢] .

ونظرا للمعطيات السابقة ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والديموغرافية ، فان النسبة العربية بقيت غير متوازنة ، وما دامت لا تسير

في طريق الوحدة . وعليه فان عوامل اللاتوازن التنموي انما تكمن في أن استراتيجية التنمية العربية ما زالت أسيرة النظرة الاقليمية والمصالح الضيقة . ومما تجدر الاشارة اليه : أن التنمية القطرية لا يمكن ان تكون متوازنة فقط ، وانما تعمق التبعية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وينعكس ذلك كله على حضارة المجتمع ، وأصالته ، وبالتالي على سلوك الانسان . ان التنمية القطرية ، اذ تدعم الانجازات المحلية والاقليمية ، فانها تعوض بذات الوقت وحدة هذا المجتمع الحضارية ، وتستنزف ثرواته وموارده الاقتصادية .

الى جانب ذلك ، فان عوامل التنمية الغير متوازنة ، انما تكمن في ان استراتيجية التنمية تستند الى مناهج ونظريات غير مستمدة من الواقع العربي . ولذلك ، ينبغي أن يرتبط نموذج تصوري للتغير المخطط والهادف في تحريك الواقع نحو الرقي الاجتماعي المرجو ، وفي حدود الامكانات المادية والقوى البشرية ، والطاقة الذهنية الكامنة لدى المجتمع على أنه من الاهمية بمكان أن يكون ذلك النموذج التصوري ذا أصالة ، بمعنى الا يكون مستورد ، أو وافدا أو منقولا بكامله أو بجزئياته النماذج الموجودة في المجتمعات الاخرى ... ومن ثم فهناك خطر المحاكاة المطلقة ، فقد يكون من الخير اختيار صورة أكثر ملاءمة للاعداد الهيكلي والوظيفي للبناء الاجتماعي تحقق الهدف التالي :[١٣٣] .

ان الاعتماد على الذات يقتضي التخلي عن سياسة نقل التكنولوجيا والتصنيع المستورد ، وعوضا عن ذلك فانه ينبغي على سياسة التنمية العربية أن تشرك الجماهير في عملية التنمية ، وتمكين الانسان من تنمية مجتمعه بنفسه[١٣٤] ، ونقل المعرفة[١٣٥] ، بدلا عن نقل الصناعة . ذلك ان شراء الحضارة ، من الخارج أمر سهل ، ولكنه أيضا سهل الزوال . ان التنمية التي ترسخ في المجتمع وتتجذر فيه هي تلك التي يغرسها

الانسان بيده ، والانسان في الوطن العربي ـ مشرقا ومغربا ـ ما زال هو القوة المعطلة التي لا تتحرك ... انقذ حاضر اليوم الذي نؤمن به بان التنمية في بلادنا ليست بضاعة تشترى ، بل قيمة من قيم ايديولوجية العالم المعاصر يجب ان نغرسها الانسان العربي بفكره وروحه وبدنه »[٧٦] ، « ان ايديولوجية التنمية الحقيقية ـ اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ـ هي ايديولوجية اثقل المعرفة ، لا ثقل المصانع ، وثقل المعرفة هو ما تجسده بشرية الانسان »[٧٧] .

ان ايديولوجيا التنمية تكمن في تكوين الانسان ، والاعتماد عليه ، وتنطوي على استيراد التكنولوجيا الجاهزة ، اي المطلوب هو تغيير الانسان ، وتنمية قواه ، واستثمار الاموال في تكوينه وتأهيله ، فهو القادر على تغيير محيطه ، كما أنه العنصر الفعال الوحيد الذي يجب ان يوجه عليه التغير ، انه أداة التغير وغايته .

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نوه الى ان فلسفة التعليم العربية لابد وأن تتغير من حيث الكم والكيف على حد سواء ، مراعية بذلك مقتضيات التغير في المجتمع العربي ، ان التعليم في الوطن العربي لا يجد في مراحله المختلفة ، على فلسفة تربوية واضحة ومشتقة من فلسفته الاجتماعية ذات طابع ثوري يعتمد الاعداد وترسم السبل وتحلل من المعوقات انتاجية صناعية ، وتنمية اجتماعية واقتصادية ، وتأخذ توجيه الجيل الجديد توجيها قوميا ذا طابع انساني تقدمي ، ان غياب الفلسفة التربوية الواضحة للنظام التعليمي أدى الى عدم مسايرة النظام المدرسية ومحتوى الدراسة في المراحل التعليمية المختلفة لواقع المجتمع ومشاكله وحاجاته »[٧٨] ، ان فقدان الصلة الحقيقية الصحيحة أدى الى فقدان التوازن في محتوى التعليم وأنواعه ، ويلاحظ ذلك في محتوى الدراسة ومناهجها ، فالعملية التعليمية ما زالت تركز على نقل ،

بعمل المهارات العملية ، وتنمية القيم ، وتكوين الاتجاهات ، كما انها لا تهتم بالتعليم الخلقي والديني[٣٩] .

ان اعادة النظر في البنية التعليمية السائدة في الوطن العربي تقتضي التركيز على ثلاث محاور : أولا ، أن تكون البنية التعليمية عصرية الطابع[٤٠] وقادرة على تزويد المجتمع بالكوادر الفنية والتقنية اللازمة لمواكبة التطور ، وتجعل من العلم قوة انتاج حقيقية ، ثانيا أن تكون قومية المضمون تنمي الاتجاهات القومية في نفوس الطلاب ، وتكون موجهة لترسيخ مبادئ الوحدة العربية وتحقيقها ، والتربية الموجهة قلبا وقالبا لاستثمار الثروة البشرية للامة العربية ، ينبغي أن تكون تربية قومية ، منبثقة من حاجات المجتمع العربي[٤١] ، وعلينا أن نكون انسانية الهدف ، وتساهم في بناء التقدم وتعزيز حرية الانسان[٤٢] .

وفي الختام ، فقد أصبحت مسألة تعمير الشمال في الوطن العربي ملحة جدا ، وهي مسألة تقتضيها قوانين التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وكذلك طبيعة التحديات المعاصرة ، التي تجابه الامة العربية ، وكان لابد وجودها ، لان تتدارك أمة الاخطار المحدقة بها بسبب عدم تحقيق التعمير الشامل ، الذي يتماشى مع متطلبات العصر .

ان التحديات الحضارية تقتضي التخلي عن مناهج التبعية الفكرية ، والاستعاضة عنها بمناهج تنموية قومية ، تحرض معركة التنمية القومية ، على احترام العصر فيها يدوم لشعب مصير الامة .

* * *

المراجع

١ ـ رابح كتاب

Herbert Marcuse : Der Eindimensionale Mensch Frankfurt, 1968 p. 186.

٢ ـ

R. Dahrendorf : Die Angewandte Aufklärung, Frankfurt. 1963 p. 188.

٣ ـ رابيه دورفي ، حوار المتشائمات ، تعريب الدكتور عادل العوا ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

٤ ـ

H. Stuasser Einluchrung In Die Theorien des Sozialen Wandels (Hrsg). Darm Stadt. 1969. p. 85.

٥ ـ نفس المصدر ص ٢٦ .

٦ ـ نفس المصدر ص ٢٦ .

٧ ـ نفس المصدر ص ١٥٧ .

٨ ـ رابح ك. سيفلن ، دلة من تطور المجتمع منذ بدء التاريخ ، دار دمشق ، الطبعة السادسة ١٩٧٨ م ، ص ٣٥ .

٩ ـ نفس المصدر السابق ص ٢٨ .

١٠ ـ نفس المصدر السابق ص ٤٢ .

١١ ـ

Werner Sombart : Sozialismus und die Soziale Be Wegung im 19. Jh, Frankfurt 1966, p. 15.

١٥ ـ راجع كتاب :

Lewis A. Coser : Theorie Sozialer Konflikte. Berlin 1965.

١٦ ـ راجع :

John Rex : Grundprobleme der Soziologischer Theorie. Freiburg 1970. p. 150 - 166.

١٧ ـ راجع كتابا : سيكولوجية الاجتماع ، تعريب محمد الجوهري وآخرين ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

١٨ ـ مرجع سبق ذكره :

Hermann Strasser u. a. : Einfuhrung in die Theorien des sozialen Wandels. p. 38.

١٩ ـ نقد علم الاجتماع الجوهري للماركسية ، تعريب مراد سيد السرد ، دمشق ١٩٧٤ م ، ص ٥١ .

٢٠ ـ نفس المصدر ، ص ٤٢ .

٢١ ـ محمد عاطف غيث : علم الاجتماع ، الجزء الأول ، الإسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٣١٩ .

٢٢ ـ العلامة عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، دار الفكر ، (دون ذكر تاريخ ومكان النشر) : « فصل في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك مرمى البرع اليها الفناء ، ص ١١٧ .

٢٣ ـ دوزارد كيرزل : اتجاهات تطور النظام السياسي الدستوري الاشتراكي (دراسة لم تنشر بعد) ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٦٦ .

٢٤ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٦٦ .

٢٥ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٩١ .

٢٢ ـ محمود الحمصي : خطط التنمية العربية واتجاهاتها التكاملية والتعاونية ، دراسة للاتجاهات الانمائية في خطط التنمية العربية المعاصرة ، ازاء التكامل الاقتصادي العربي ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١١ ـ ١٢ .

٢٤ ـ عبد الله شريط : المشكلة الايديولوجية وقضايا التنمية ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٨٦ .

٢٥ ـ استشهاد عن نفس المرجع السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٢٦ ـ مجلة ، المستقبل العربي ، الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، العدد ٣٢ ، اكتوبر ١٩٨١ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

٢٧ ـ راجع نفس المصدر السابق ، ص ١١٨ .

٢٨ ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ، العدد ٢٩ ، يناير ١٩٨٢ ، ص ٢٦٠ . انظر في هذا الصدد أيضا : نجيب صبي ، نزوح التنمية في الخليج والتكامل الاقتصادي العربي ، معهد الانماء العربي ، بيروت ١٩٧٦ .

٢٩ ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٠ .

٣٠ ـ مجلة المستقبل العربي ، العدد ٣٢ ، اكتوبر ١٩٨١ ، ص ١١٧ .

٣١ ـ مجلة المستقبل العربي ، العدد ١٦ ، يونيو ١٩٨٠ ، ص ٥٥ .

٣٢ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٥٥ .

٣٣ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٥٧ .

٣٤ ـ عبد الله شريط : المشكلة الايديولوجية وقضايا التنمية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩ .

٢٤ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢٦ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢٧ ـ نفس المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢٨ ـ دور التعليم في الوحدة العربية ، بحوث ودراسات ووقائع الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية (بمشاركة من الاسكوا) ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٤١ .

٣٩ ـ رابح نفس المرجع السابق ، ص ٥٥ .

٤٠ ـ رابح نفس المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

٤١ ـ رابح نفس المرجع السابق ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٤٢ ـ نفس المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(ج)

مظاهـر التحديث في المجتمع العربي الليبي المعـاصر

« دراسة ميدانية »

د. عبد الله المهالي
د. عبد القادر عرابي

(ج)

مظاهر التحديث في المجتمع العربي الليبي المعاصر

« دراسة ميدانية »

د. عبد الله الهماني

د. عبد القادر عرابي

مدخل الدراسة :

يهدف هذا البحث الى دراسة ومقارنة أنماط التحديث السائدة في ثلاث مجتمعات محلية في المجتمع العربي الليبي ، والى التعرف بالعوامل الاساسية المرتبطة بهذه الأنماط .

ومما تجدر الاشارة اليه مسبقا انه لا يوجد حتى الآن اجماع بين علماء الاجتماع حول تعريف وتحديد مفهوم التحديث ؛ علما بأن بعض العلماء قد توصل الى قياس مؤشراته ، فبعضهم يرى أن هذه المؤشرات ذات بعد واحد ، في حين يرى الآخرون أنها متعددة الأبعاد . وعلى سبيل المثال فان المفهوم البنائي للتحديث (رينهارد بيندكس) ينطلق من أن التحديث يتمثل في ذلك النوع من التغير الاجتماعي الذي حدث نتيجة للثورة الصناعية في بريطانيا (١٧٦٠ ــ ١٨٣٠) والثورة السياسية في فرنسا (١٧٨٩ ــ ١٧٩١)[١] ، وعليه فانه يبدو واضحا أن بيندكس

ينظر الى التحديث على انه عملية تغير اجتماعي حدث في شكل تحديث اقتصادي وسياسي ، ومن هنا يمكننا القول ان فكرة سبنسر في الواقع تطابق مع المفهوم الماركسي ، حيث ان الاخير ينظر الى التغير من منظار الصراع بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، بيد أن ماركس يرى ان التغير الاجتماعي هو عملية داخلية ، بمعنى ، أن التغير الاجتماعي عملية تحدث داخل المجتمع نفسه ، وعليه فان النظرية الماركسية تعتبر التغير الاجتماعي عملية ناتجة عن الصراع القائم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، ومن هنا نرى أن ماركس يختلف عن كثير من علماء التغير الاجتماعي أمثال سبنسر Spencer وغيرهم من الذين يرون أن التغير الاجتماعي عملية ناتجة عن عوامل خارجية وداخلية على حد سواء .

يعتبر سبنسر من أبرز الذين تحدثوا عن ظاهرة التحديث ، مؤكدا على أنه يتوم على عمليتين أساسيتين ، وهما التغير البنائي والتكاملي[٢] .

لقد أثارت فكرة التباين البنائي اهتماما كبيرا بين المهتمين بظاهرة التحديث وخصوصا على المستوى البنائي ، بالاضافة الى أن مفهوم التباين البنائي يمكن اعتباره التعريفات الاجرائية Operational definition ان التحديث الاجتماعي في نظر سبنسر يشير الى التحول من النمط الاجتماعي التقليدي الى النمط الاجتماعي الحديث ، وهذا التحول يتمثل في أربع قطاعات أساسية وهي : التكنولوجيا ، الزراعة ، الصناعة والحراك السكاني .

واذا كان التحديث في مجال التكنولوجيا يتميز بالانتقال من البنية التقليدية ، ومن الوسائل التكنولوجية البسيطة الى الاستخدامات العلمية المتطورة ، فان التغير في مجال الزراعة يتميز بالانتقال من مجال الزراعة البسيطة الى زيادة ملحوظة في التبادل التجاري ، في القطاع

الصناعي يتسم تحديث من خلال احلال الآلات و طاقة عوضا عن أدوات الانتاج السائدة في المجتمع التقليدي .

أما بخصوص العامل الديموغرافي فيرى سبنسر بان هذه العملية تأخذ طابع الحراك الاجتماعي الافقي ، حيث تتميز بهجرة اعداد كبيرة من سكان الريف الى المدينة ، مكان تمركز الصناعة والانتاج .

ان هذه التحولات في الابنية الاقتصادية والسياسية والديموغرافية والتعليمية تتمخض عن تحول في البنيان الاجتماعي ، ذلك أن دخول تكنولوجيا الحديثة في مجال الانتاج واستعمال الآلات الحديثة في مجال الانتاج يؤديان الى تطوير الصناعة والزراعة ، وبالتالي الى تغير شامل في البنيان الاجتماعي ، والى خلل ديموغرافي في البنية السكانية ، يتمثل في هجرة أعداد كبيرة من العاملين في القطاع الزراعي الى المدينة . ويشير سبنسر الى أن هذا التحول أدى أيضا الى جعبرة التعليم وان تغير في العلاقات الاجتماعية ، ولا سيما على صعيد الاسرة وخروج المرأة للعمل ، وتخلصها من أدوارها التقليدية . وبذلك فان الاسرة الحديثة لم تعد اسرة ممتدة تربطها علاقات قرابية قوية وانما تحولت الى اسرة نووية . ومما لاحظه سبنسر أيضا ، بان الاسرة الحديثة قد فقدت معظم وظائفها ، متخلية عنها للمؤسسات الرسمية وان بعد الاسرة من هذه الوظائف الا وظيفة الانجاب والتنشئة الاجتماعية[2] .

بالرغم من أن نظرية سبنسر تمثل اطارا عاما للتمييز بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة ، الا انه لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا في دراسة التحديث في البلدان النامية ، نظرا لانها لا تتجاوز في تحليلاتها نطاق المجتمعات الغربية وخصوصياتها ، وبذلك فانه من الصعب الاستناد اليها في تفسير عملية التغير الاجتماعي في المجتمعات النامية التي لها معطياتها الحضارية والتاريخية المميزة لها .

ويعتبر دانيل ليرنر D. Lerner من الرواد الأوائل الذين تناولوا ظاهرة التحديث بالدراسة والتحليل وذلك في دراسته الأمبيريقية المقارنة لمجتمعات الشرق الأوسط وقد أكد ليرنر على أن ظاهرة التحديث إنما هي عملية تغير اجتماعي تنطوي على سلسلة من العمليات المتشابكة هي :

١ ـ انتشار وسائل الاتصال الجماهيري (الراديو والسينما) .

٢ ـ التحضر .

٣ ـ المشاركة السياسية والاقتصادية .

٤ ـ التعليم الجماهيري[١] .

ويرى ليرنر أن هذه العوامل متداخلة فيما بينها . وفي كتابه « تحول مجتمعات الشرق الأوسط » حاول ليرنر تطوير نموذج لتحديث مجتمعات الشرق الأوسط ، موضحا أن التحديث انما هو عملية انتقال المجتمع من الوضعية التقليدية الى الوضعية الحديثة . وأن العملية الأساسية في هذا التحول هي الحساسية الاجتماعية أو التعاطف مع الآخرين Empathy . ومن خلال دراسته تبين له وجود نمطين من الأفراد : الأول ، ويتمثل في أولئك الذين يمتازون بكونهم أكثر تعليما ، وأكثر تحضرا ، وأكثر تعرضا لوسائل الاتصال الجماهيري ، ومن ثم فهم أكثر الناس مشاركة في الأمور الاقتصادية والسياسية . أما النمط الثاني من الأفراد فهم أولئك الذين يمتازون ببعض أو كل خصائص النمط الأول وبالتالي فهم أقل حراكا وديناميكية ومشاركة في الحياة الاقتصادية من الجماعة الأولى .

ان نظرية ليرنر ، وان كان بالامكان الاستفادة من بعض الثغرات التي استخدمها في دراسته ، الا انها تعاني من قصور واضح يتجلى في منهجيتها وكيفية تطبيقها لعملية التحديث في المجتمعات الشرقية ، فهي

لا تراعي العوامل التاريخية والحضارية والاقتصادية والسياسية لهذه المجتمعات ، وانما تؤكد على أهمية الجوانب السيكولوجية في عملية التحديث ، مما يجعله لصيقة هذه المجتمعات المتميزة ، ولا شك ان عملية التحديث في مثل هذه المجتمعات لا يمكن أن يكتب لها النجاح ، الا اذا أخذت هذه النظريات خصائص هذه المجتمعات وتاريخها بعين الاعتبار .

يعتبر بارسونز Parsons من أبرز الذين تناولوا ظاهرة التغير الاجتماعي على المستوى المجرد وتمثلت اسهاماته فيما يسمى بمتغيرات النمط Pattern Variables وهذه المتغيرات هي :

١ ـ العمومية في مقابل الخصوصية .

٢ ـ الأداء أو الانجاز في مقابل النوعية .

٣ ـ التخصص في مقابل الانتشار .

٤ ـ الحياد الوجداني في مقابل الوجدانية .

٥ ـ المصلحة الجمعية في مقابل المصلحة الذاتية[٥] .

ويؤكد بارسونز بأن هذه المتغيرات هي مؤشرات للتحديث باعتبار ان المجتمع يتحول من مجتمع تقليدي الى مجتمع حديث ، اضافة الى أنه يمكن تطبيقها على المستويين البنائي الاجتماعي والفردي . ويرى بارسونز أن أهم الصفات التي يمتاز بها المجتمع الحديث هي العمومية في مقابل الخصوصية ، وعليه فلقد ركز على العمومية كنقيض الخصوصية لتقييم السلوك ، بيد أن القانون يمثل أعلى درجة من العمومية والتعميم لكونه ينطبق على جميع افراد المجتمع ، بغض النظر عن مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية . لقد ذهب بارسونز في تدرجه هذا الى أبعد من المجتمع الحديث الى « العمومية الكونية »[٦] .

ان النموذج النظري الذي تناوله بارسونز شبيه الى حد كبير بنظرية دوركايم في التغير الاجتماعي وخصوصا في كتابه « تقسيم العمل » «Division of Labor» حيث أنه (دوركايم) ميز بين نمطين من التضامن الاجتماعي : التضامن الآلي والتضامن العضوي .

وبعد أن عرضنا بايجاز لأهم نظريات التغير الاجتماعي والتحديث تبين أنه لا يمكن الاخذ بها كمنطلق نظري لتحليل عملية التغير الاجتماعي والتحديث في المجتمعات النامية ، ولذلك سنتناول الآن المدخل الفردي لدراسة التغير الاجتماعي والتحديث .

تحتل دراسة المواقف والاتجاهات الحديثة مكانا بارزا في البحوث المتعلقة بالتحديث ويعتبر ألكس إنكلز (Alex Inkeles) من أبرز علماء المدخل الفردي للتحديث وقد صمم مقياسا شاملا للتحديث أطلق عليه Overall Modernity Scale اختصارا لـ (OMS) [1].

ويعرف انكلز التحديث باعتباره عملية تغير في مختلف الوظائف المترابطة ، بمعنى آخر : ان عنصر البناء الاجتماعي تقود الى تغير التحديث وهي حد الاساس ، فان الافراد لا يولدون وهم مزودون بالقيم والمعايير السائدة ، وانما يستمدونها من المجتمع بفضل التنشئة الاجتماعية ، حيث تصبح هذه المعايير محددة لسلوكهم الاجتماعي .

ان الوجهات السلوكية للفرد مصدرها المجتمع ، وان هؤلاء الافراد يأخذون من الهيئات والمؤسسات الاجتماعية القيم والمعايير التي

---

(1) تتكون هذه المقياس من : المشاركة المدنية ، التطوع للعمل بالمشروعات ، الاهتمام بالتعليم ، المواطنة ، الكفاءة ، حب المطالعة ، وسائل الاتصال الجماهيري ، التقرارات الجديدة ، التخطيط ، توقيت الزمن ، نمو الرأي العام ، الطموح ، الاتجاهات الاستهلاكية ، الاتجاهات الحياتية ، تطور الاسرة ... الخ ، انظر الفصل الثاني حيث اشارة اليه في بحث الموضوع في نهاية هذا البحث من ص ٨٠ ـ ٨٢ .

تحدد سلوكهم ومواقفهم واتجاهاتهم الاجتماعية ؛ ولعل أبرز مؤسسات التنشئة المبكرة هي الأسرة ، أما في مراحل التنشئة المتأخرة فإن المدرسة والمسجد يلعبان دورا أساسيا في توجيه سلوك الانسان وتعليمه ، أضف الى ذلك الدور الذي تلعبه المؤسسات الاعلامية وكذلك ايضا المناطق الحضرية ذات الكثافة السكانية المرتفعة .

الى المكلز في دراسته للسودان عينة في كندا وأمريكا اللاتينية وجد أن ثمة علاقة موجبة وقوية بين متغيري التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري والتحديث الافراد ؛ ذلك أن الزيادة في التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري تؤدي الى الزيادة في التركز السكاني وزيادة التعليم والارتقاء في السلم المهني[١٨] .

ومن الدراسات القيمة في هذا الاتجاه دراسة جوزيف كاهل الذي اهتم بدراسة القيم في المجتمعين البرازيلي والمكسيكي ، لقد حاول جوزيف كاهل قياس درجة التحديث في المجتمع البرازيلي والمكسيكي ، وذلك عن طريق دراسة القيم عند الافراد ، حيث أكد على أن الشخص المحدث هو ذلك الفرد الذي يملك ما يسميه المحديث على حسب تعبيره ، وهذا اللب يتكون من عدة قيم ، تبدأ من العصابية ، ضعف الرابطة الاسرية ، تفضيل الحياة المدنية على الحياة الريفية ، الميل الى الفردية ، والميل السيئ نحو الطبقية في المجموعة الواحدة وينتهي بالمشاركة المرتفعة في الاتصال الجماهيري والتوسع في فرص الحياة[١٩] . واهم ما وصلت اليه هذه الدراسة :

١ ـ أنه يمكن قياس درجة التحديث من خلال القيم السائدة في المجتمع .

٢ ـ بالرغم من أن عناصر التحديث متزايدة في عقول الافراد ، الا

أنه يمكن أن يكون بعض الأفراد حديثين في بعض القيم وتقليديين في قيم أخرى .

٣ ـ لا توجد اختلافات جوهرية في التحديث بين التجمعات الريفية البرازيلية والمدينة الكبيرة الخ ... [١٠] .

بالاضافة الى النتيجة السابقة وجد كاهل أنه اذا ما وصل المجتمع درجة عالية من التصنيع تكون خصائصه مشابهة الى حد كبير خصائص المجتمعات الصناعية ، وخصوصا فيما يتعلق بتقسيم العمل ، وانخفاض العمل الزراعيين وارتفاع نسبة العمال الفنيين ، ودرجة عالية من التقنية ، وتمركز اعداد كبيرة من السكان داخل العواصم الكبيرة ، وبناء اقتصادي يقوم اساسا على التخصص ونسق من التدرج الاجتماعي وانتشار التعليم وعدد مراكزه ، واتساع شبكة الاتصال الجماهيري الخ ... [١١] .

وقد درس ظاهرة التحديث على المستوى الفردي (أي الفرد كوحدة للتحليل) كل من روجرز وسينغ Everett Rogers and Lynne Svenning [١٢] لذا تناولا عملية التحديث بين الفلاحين في كولومبيا ، مؤكدين في دراستهما على العلاقة بين وسائل الاتصال الجماهيري وتحديث الافراد والتحديث من وجهة نظرهما ما هو الا عملية اتصال ضرورية تنتقل من خلالها الافكار الجديدة من المصادر الخارجة كالحكومات والوكالات والمراكز الحضرية الى سكان الريف [١٣] ، بالاضافة الى التركيز على وسائل الاتصال الجماهيري استخدم روجرز وسينغ مفاهيم أخرى كالاستبصار بالعير Empathy والمشاركات السياسية ، والابتكار ، والتوجهات النفسية والعلمية ، ودوافع الانجاز والتعوزموتيفيشن

---

(١٠) مقتبس من مفهوم الكوزموبوليتانية الذي لا يتطابق بشكل الاجتماعي السائد .

وتبني الأفكار الحديثة كعوامل اساسية ذات علاقة وثيقة بتطوير وسائل الاتصال الجماهيري ... .

باختصار : ان مناقشة النظرية الفردية المتعلقة بالتحديث هي الاخرى ذات علاقة وثيقة بهذه الدراسة لأنها تساعدنا على بيان الكيفية التي يتأثر بها الفرد من خلال تعرضه بالمدن مختلفة كالتعليم والتركيبات الاقتصادية المختلفة والاعلام الخ ... وتحدث التعرض بموقف الفرد من القضايا المختلفة كموقفه من تحرير المرأة مثلا ، واكثر من ذلك ، ان هذا الاتجاه يساعدنا على معرفة التغيرات التي تحدث في المواقف وانماط سلوك الافراد ، الذين تعرضوا بدورهم الى عملية التحديث .

بعد أن انتهينا بالمناقشة تعريف وقياس التحديث والتغيرات المتصلة به يمكننا أن نؤكد على أن المفاهيم والمناهج الخاصة بالتحديث صدرت من قبل العلماء الغربيين من واقع المجتمعات الغربية ومن ثم طبقت هذه المفاهيم والمناهج والنظريات على البلدان النامية .

ونحن كباحثين عرب ، يجب أن نتذكر دائما وبصورة مستمرة النتائج والقصور الذي تعاني منه هذه النظريات والمناهج ، خاصة وأن السير الثقافي والاجتماعي والحضاري والسياسي لا بد من مراعاته لدى تطبيق هذه النظريات والمناهج .

ومما يميز عملية التحديث في البلدان النامية (ولا يشذ المجتمع العربي المسلم عنها) أنها تقوم على الشروط التالية :

١ ـ الثورة كأداة اساسية لتحديث الشامل .

٢ ـ ظهور الدولة ككيان لها هويتها الخاصة .

انه من الاهمية بمكان أن نشير الى نمط التحديث في البلدان النامية يختلف عنه في الدول الغربية ، فبينما تلعب العوامل السياسية في البلدان

التابعة دورا كبيرا في احداث وتوجيه التغير ، فان دورها قد ينحصر سلبيا في المجتمعات الصناعية .

واذا نظرنا الى التغير في ليبيا نجده يأخذ نمطا مختلفا عن الانماط السائدة في العالم اليوم ، وتتجلى ظاهرة التغير في احداث تغير جذري في الابنية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ويتمثل هذا التغير في امتلاك الشعب لثروته وتأميمها ★ .

التحديث في ثلاثة مجتمعات محلية :

قبل أن نبدأ عملية التحديث في ليبيا كان التطور في المجتمع المحلي بطيئا ، والحراك الاجتماعي ضعيفا ، أما اليوم ، ومع توسيع شبكات الاتصال الجماهيري ، وتنوع الانشطة الاقتصادية ، وتطور العلاقات الانتاجية ، وارتفاع الاجور وتحولهم الى وسيلة للرزق ، ان كل ذلك ادى الى احداث تغير سريع في هذه المجتمعات المحلية ، هذه التغيرات تعكست بشكل واضح على النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعلى سلوك الافراد واتجاهاتهم .

ولدى مراجعتنا التراث السوسيولوجي لا نجد الا بعض الدراسات التي تناولت بالتحليل المتغيرات الخارجية ، التي أثرت في البناء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع المحلي الليبي ، ولعل اهم اوجه القصور التي عانت منها هذه الدراسات هو انها غير قادرة على فهم التغير البنيوي الشامل ، فانصرفت الى دراسة التغير الجزئي ، بعيدة

★ للمزيد من التفصيل حول ظاهرة التحديث في ليبيا ، يمكن الرجوع الى محمد عبد الله بهلول ، مفهوم التحديث في المجتمع الليبي المعاصر ، بحث مقدم لندوة علمية : ليبيا تاريخ وثورة ، بنغازي ٢٧ ـ ٢٩ ديسمبر ١٩٨١ ، تحت اشراف المعهد الايطالي للشرق الاوسط ، ومركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية .

إلا من التغير الشامل ، وعن التغير الثوري ، الذي احدث تحولات جذرية شاملة ، ونحن إذ نورد اهم عوامل التغير في المجتمع المصري الحديث ، فاننا لا نفهمها بشكل مجرد ، وانما نراها مترابطة ومتداخلة فيما بينها ، وتتجه للثورة الشاملة ، أما اهم هذه العوامل فيمكن ايجازها على الوجه التالي :

١ ـ حركة التعليم

٢ ـ تطور الانساق الاقتصادية المختلفة

٣ ـ انتشار وسائل الاتصال والمواصلات

٤ ـ البناء السياسي

٥ ـ الهجرة الريفية/الحضرية

٦ ـ توسيع قاعدات النسق العام

ان تحليلنا لانماط التحديث في ثلاثة مجتمعات محلية ليبية يهدف البحث الى الاجابة على السؤالين التاليين :

أولا ـ ما هي الانماط الاساسية التحديث السائدة في هذه المجتمعات المحلية ؟

ثانيا ـ ما هي العوامل الاساسية التي تؤثر في هذه الانماط ؟.

ويبدو أن هذه العوامل تلعب دورا اساسيا في تغير البناء الاجتماعي وتوازناته المختلفة وان التعرض لكل هذه المؤسسات يؤدي الى تغير في القيم والاتجاهات ، فاذا فرض أن الافراد العاملين في مؤسسة صناعية هم اكثر الناس قابلية للتحدث من غيرهم ، اي ، أن الافراد الاصغر سنا ، والاكثر تعرضا لوسائل الاعلام الجماهيري ، والاكثر تعليما ،

والذين يعملون مهناً غير زراعية ، وذوي خلفيات حضرية ، هم اكثر الافراد ذهبية للتحديث ، وتبني مواقف وانماط سلوكية حديثة .

المنهج المستخدم في هذه الدراسة :

لقد جمعت هذه البيانات استناداً الى دراسة ميدانية اجريت في عام عام ١٩٧٨ ، وتكونت عينة الدراسة من ٣٠٠ ثلاثمائة أسرة موزعة بتساوي على ثلاثة مجتمعات محلية ، وقد اختيرت هذه الاسر عن طريق العينة العشوائية المنتظمة ، اجريت المقابلات مع كل رب اسرة ، واقتصرت المقابلة على الذكور فقط وذلك لعدم وجود امكانية مقابلة الزوجة ، انتهس المقابلة على اسئلة تدور حول حياة الافراد ومستوياتهم التعليمية والمهنية ، ومن الممكن ايجاز المعلومات الواردة في استمارة الاستبيان على النحو التالي :

اولا :

١ ــ الطموحات التعليمية والمهنية بالنسبة للمبحوث .

٢ ــ انماط الاستهلاك داخل الاسرة .

٣ ــ دور المرأة في المجتمع وخروجها للعمل ، ومشاركتها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكذلك مشاركتها في اتخاذ القرارات التي تهم الاسرة والمجتمع .

٤ ــ تنظيم الاسرة .

ثانيا : متغيرات اجتماعية :

١ ــ التعليم

٢ ــ العمر

٣ ــ المهنة

٤ ـ التعرض لوسائل الاعلام الجماهيري

٥ ـ مكان الاقامة الاصلي ريفي/حضري .

التفسير :

يهدف هذا البحث كما ذكرنا سابقا الى دراسة ظاهرة التحديث ، ويمكن قياس هذه الظاهرة عن المستويين الفردي والاجتماعي ، ويهتم هذا البحث لدراسة الانماط الاساسية للتحديث السائدة في المجتمعات المحلية ، وكذلك العوامل الاساسية التي تؤثر في هذه الانماط ، ومن هنا فقط تضمنت استمارة جمع البيانات الى جانب المتغيرات التي تعنى بالبيانات الخلفية ، اسئلة يمكن اعتبارها كمؤشرات لقياس ظاهرة التحديث مثل : الطموحات التعليمية والمهنية والتوقعات المرجوة ، نمط الاستهلاك ، تحرير المرأة ، ومواقف الافراد حول تنظيم الاسرة .

١ ـ الطموحات والتوقعات :

اختير هذا المتغير التابع في هذا البحث ليشمل على ثلاثة مؤشرات :

أ ـ طموحات المبحوث لتحسين مستواه التعليمي .

ب ـ توقعات المبحوث المستقبلية للعمل لتحسين اوضاعه المهنية والاقتصادية .

جـ ـ طموحات المبحوث للحصول على سكن افضل .

وقد صنفت كل الاجابات الخاصة بهذا المتغير ، حيث أعطيت درجة واحدة للاجابة ، التي تمثل الاتجاه الايجابي المحدث ، وأعطيت درجة صفر للاجابة التي تمثل المواقف التقليدية ، فكلما زادت الدرجة ، كلما سجل الفرد درجات أكثر على هذا الميزان ، كلما اعتبر أكثر قابلية

التحديث ، بدأ درجة هذا الميزان صفرا بصفر وتنتهي بثلاث درجات ، وبعد الحصول على درجة التحديث على ميزان المطبوعات والنوعات أمكن قياس العلاقة بين هذا الميزان وبعض المتغيرات ذات الأهمية في هذا الصدد ، كما سنرى فيما بعد في هذا البحث .

٢ ـ نمط الاستهلاك :

تضمنت الاستمارة ميزانا لقياس نمط الاستهلاك ، فالمتغير الذي يتكون من ست مفردات هي :

أ ـ آلة حديث .
ب ـ آلة اسطوانات .
جـ ـ آلة حياكة .
د ـ غسالة .
هـ ـ آلة تسجيل .
و ـ سيارة .

وقد تم تصنيف الأسرة إلى مجموعتين ، الأولى تتكون من أولئك الذين يملكونها ، والثانية من أولئك الذين لا يملكونها ، وأعطيت درجة واحدة للذين يمتلكون هذه الأدوات الحديثة ، ودرجة صفر للذين لا يملكون هذه الأدوات .

ولمعرفة النظري للدرجات على هذا الميزان يبدأ بصفر ويصل الى ست درجات .

٣ ـ مواقف حول تحرير المرأة :

يتكون هذا المقياس لتحرير المرأة من أربع مفردات لقياس مواقف الأفراد حول تحرير المرأة :

أ ـ قبول المبحوث للدور الذي تقوم به المرأة خارج المنزل .

ب ـ موافقة المبحوث على عدم ارتداء النساء « للحجاب » في الأماكن العامة .

جـ ـ رضاء المبحوث عن الدور الذي تقوم به المرأة داخل نطاق الأسرة من اتخاذ القرارات فيما يتعلق بميزانية الأسرة والتوفير .

د ـ موافقة المبحوث على تولي المرأة مناصب قيادية ومهنية .

كل الاجابات على هذه الأسئلة صححت وأعطيت درجة واحدة للمواقف الايجابية حول ميزان تحرير المرأة ، وأعطيت درجة صفر للاجابة التي تمثل مواقف سلبية .

بدأ درجات هذا الميزان نظريا من الصفر وتنتهي الى أربع درجات .

٥ ـ مواقف حول تنظيم الأسرة :

يتكون هذا المقياس من مفردتين أساسيتين لقياس الاتجاهات حول تنظيم الأسرة :

أ ـ مواقف المبحوثين حول تحديد الأسرة (تنظيم) .

ب ـ مواقف المبحوثين حول تنظيم الأسرة (رسميا صادر عن مؤسسات الدولة) .

وقد وضع المقياس : بحيث أعطيت درجة واحدة للاجابات ذات الاتجاه الايجابي ، ودرجة صفر للاجابات ذات الاتجاه السلبي . درجة المبحوث على هذا الميزان هي عبارة عن مجموع درجاته على السؤالين . المدى النظري للدرجات على هذا الميزان يبدأ من صفر وينتهي الى درجتين .

التغيرات المستقلة :

في هذه الدراسة استخدمنا عددا من المتغيرات المستقلة وهي :

١ ـ العمر : يقيس هذا المتغير عمر المبحوث في الفترة التي أجريت فيها الدراسة . صنف العمر الى أربعة فئات :

١) الفئة الاولى من ١٨ ـ ٢٥ شباب ،

٢) الفئة الثانية من ٢٦ ـ ٤٥ وهي متوسطي الاعمار ،

٣) كبار السن من ٤٦ ـ ٥٥ ،

٤) المسنين من ٥٦ فما فوق ،

٢ ـ التعليم : قيس هذا المتغير بعدد السنوات الدراسية الرسمية التي انجزها المبحوث ، وقد تم تناولها لتنظيم البيانات الخاصة بمتغير التعليم من أعلى الى أدنى :

أعلى :

١٣ ـ ... سنة دراسية فأكثر

١٠ ـ ١٢ سنة دراسية

٧ ـ ٩ سنة دراسية

١ ـ ٦ سنة دراسية

أدنى :

لا شيء

٣ ـ متغير المهنة : تم قياس هذا المتغير أيضا على أساس نوعية النشاط المهني الذي يزاوله المبحوث ، وقد تم النشاطات التالية لتنظيم

البيانات الخاصة بالمهنة من أعلى إلى أدنى :

أعلى :

المهندون وفيما حكمهم

الأطباء وفيما حكمهم

الموظفون وفيما حكمهم

أدنى :

عمال المهن الدنيا

٤ ـ وسائل الاتصال الجماهيري : لقد وضع ميزان لقياس مدى التعرض والتأثر بوسائل الاتصال الجماهيري ، وتدور الأسئلة المتعلقة بهذا المتغير حول متابعة الجرائد والاستماع للإذاعة المسموعة ، ومشاهدة الإذاعة المرئية ، وحسبت الإجابات على الأسئلة الى ثلاث فئات ، حيث أعطيت ثلاثة درجات (٣) للذين لديهم درجة عالية من التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري ، ودرجتين (٢) للذين لديهم درجة متوسطة من التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري ، ودرجة واحدة (١) للذين لديهم درجة منخفضة من التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري .

٥ ـ الحضرية الحضرية (ريفي/حضري) : لقد اعتمدنا في قياس هذا المتغير على البيانات التي أدلى بها المبحوث ذاته ، واستخلصنا من خلال ذلك خلفيته الاجتماعية : فيما إذا كان حضرياً أم ريفياً أم تعبر عن مرحلة انتقالية من البداوة والحضارة ، وحسبت الإجابات الى مجموعتين : الأولى تضم أولئك الأفراد ذوي الخلفية الحضرية والانتقالية* والثانية وتضم أولئك الأفراد ذوي الخلفية الاجتماعية

(*) يقصد من مفهوم انتقالية الأفراد ذوي الخلفية الاجتماعية الانتقالية ما بين البداوة والحضارة .

الريفية المختلفة وأعطيت للمجموعة الأولى درجة واحدة ، في حين أعطيت للمجموعة الثانية درجة صفر .

نتائج هذه الدراسة :

سنستعرض في هذا الجزء من الدراسة العلاقة بين أربعة موازين أساسية سبق أن ناقشناها ، ثم نبين العلاقة المشتركة بين متغيرات الوسط العليم ، البيئة ، واستعراض لوسائل الاتصال الجماهيري ، ثم الخلفية الحضرية (ريفي/حضري) ومدى قدرة هذه المتغيرات معا على التنبؤ لكل ميزان من الموازين الأربعة .

دليل المعلومات والموقعات :

جدول (١)

العلاقة بين المتغيرات المستقلة ودليل المعلومات والموقعات
في ثلاثة مجتمعات محلية

المتغيرات المستقلة	المجتمعات المحلية			
	حضرية	قبلية حضرية	قبلية ريفية	مجتمع القبيلة الكلية
العمر*	٠,١٠	٠,٠٨	٠,٣٢	٠,٣٠
التعليم	٠,٤٠	-٠,١٩	-٠,٢٢	-٠,١٧
البيئة	٠,٢٠	-٠,٠٦	-٠,١٨	-٠,٢٠
التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري	٠,١١	٠,٢٥	-٠,٠٦	٠,٠٩
الخلفية الحضرية	٠,٢٠	-٠,٠٩	-٠,٠٨	-٠,٠٦

* تشير إلى أن هذه الارتباطات ذات دلالة إحصائية عند مستوى ٠,٠٥ .
** تشير إلى أكثر من ذلك من أدنى إلى أعلى .

تبين من الجدول (١) أن الارتباط بين العمر ودليل الطموحات والتوقعات يصل الى ٠,٢٧ في مجموع العينة الكلية و ٠,٢٠ في عينة المجتمع الحضري ، بينما نجد أن درجة الارتباط تبلغ ٠,٠٥ في المجتمع شبه الحضري ، أما درجة الارتباط في المجتمع الريفي فتبلغ ٠,٣٧ .

هذه الارتباطات تدل على مدى الاختلاف بين العينة الكلية والعينات في الثلاثة مجتمعات محلية : ان كبار السن لديهم درجة عالية من الطموحات والتوقعات أكثر من جيل الشباب ، هذه الظاهرة تتجلى بشكل خاص في المجتمع الريفي ، والحقيقة أن هذه النتائج تستدعي الانتباه وخصوصا فيما يتعلق بالعلاقة بين متغيري العمر ودليل الطموحات والتوقعات ، بتعبير آخر : هل يعني ذلك أن فئة الشباب أقل طموحا من فئة الكبار ؟ على العكس من ذلك ، ولكن النتيجة هنا جاءت غير متوقعة نتيجة لعدة عوامل ومن بين هذه العوامل :

١ ــ هناك عدد كبير من سكان القرى لم يتحصلوا على مستوى معين من التعليم والتدريب المهني أو على مؤهل جديد ، وعليه تعادوا الى مستويات اقتصادية واجتماعية عالية في مجتمع تتوفر فيه فرص العمل والصعود لجميع الافراد .

٢ ــ هذه النتيجة ، ربما ترجع (وهذه احتمالية قوية) الى أن سكان القرى والمناطق النائية ينظرون الى سكان المدن كمثل أعلى Role Model يحتذى به ، ويجعلهم يطمحون الى تحسين أوضاعهم الاجتماعية (أي خروج النسق الاجتماعي القروي) اقتداء بالانجازات الوظيفية والتعليمية للآخرين الذين هم خارج نسقهم الاجتماعي[١٠] .

وكما نلاحظ فهناك علاقة ارتباط سالبة بين دليل الطموحات والتوقعات ومتغير التعليم ، والمهنة ، والطبقة الحضرية (ريفي/حضري) على مستوى العينة الكلية ومستوى عينة المجتمعات المحلية ، باستثناء

البيئة الحضرية حيث نجد أن هناك علاقة ارتباط بين متغير تعليم والمهنة ودلين الطموحات و توقعات . ان هذه العلاقة وان كانت حميدة لا أنها ذات طابع موجب .

ان هذه الارتباطات السابقة في كلا المجتمعين شبه الحضري والريفي اذا ما قورنت بمجتمع الحضري تدل على أن الافراد في هذه المناطق يشعرون تماما بأن المكانة الاجتماعية والاقتصادية العالية تتطلب ان يحصل الفرد على تعليم عال ، وهذا بدوره يوفر فرصا متعددة لتحسين المكانة الاجتماعية وزيادة الحراك الصعبي والاجتماعي عند الافراد ، وعليه نجد أن الافراد في المجتمعات الحضرية لديهم درجة عالية من الطموحات والتوقعات .

كما لا يخفى على أحد الدور الكبير الذي تضطلع به وسائل الاتصال الجماهيري ، في تحديد الاتجاهات وطموحات افراد الريف اذا ما قورنوا باهل الحضر ، ذلك أن وسائل الاتصال الجماهيري تلعب دورا كبيرا في نقل المعرفة وتعميمها وخصوصا المتعلق منها بخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المزمع انجازها في المناطق الريفية .

وبغية لارتباط بين (م ر) ، فان متغيري التعليم ووسائل الاتصال الجماهيري يلعبان دورا مهما في تحديد مستوى الطموحات والتوقعات في المناطق الحضرية ، بينما يبدو واضحا ان متغير وسائل الاتصال الجماهيري يلعب دورا أساسيا في تحديد مستوى الطموحات والتوقعات بالنسبة لعينة الكلية وعينة المناطق شبه الحضرية والريفية ، بينما الاهمية تكمن في المتغيرات الاخرى في تحديدها لمثل الطموحات والتوقعات (انظر جدول ١) .

مما سبق يتضح لنا أن متغير المتغيرين (وسائل الاتصال الجماهيري والتعليم) ذا دلالة واضحة وكبيرة في تحديد دليل المستوى التوقعات

لا أنه يجب ان نشير الى ان هذه العلاقة قد يشوبها نوع من التحيز خصوصا وانه يكون وراء هذه العلاقة متغيرات اخرى يعجز ارتباط بيرسون (ر) عن الوقوف عليها ، ولكي نتحقق من صدق هذه العلاقة استخدمنا اسلوب الارتباط المتعدد Regression Analysis الذي يساعدنا في تحديد اثر المتغيرات الدخيلة ، وبذلك يمكننا حساب العلاقة الحقيقية بين هذين المتغيرين .

تشير معامل الارتباط المتعدد المعياري Standardized Regression Coefficient (بيتا) الى الاهمية النسبية لمتغير وسائل الاتصال الجماهيري في تحديد دليل الطموحات والتوقعات عند اجراء تحليل الارتباط المتعدد ، (فعلى سبيل المثال : ان معامل بيتا Beta لمتغير وسائل الاتصال الجماهيري (٠,٨٥) للعينة الكلية ، (٠,٩٠) لعينة المجتمع المحلي الحضري ، (٠,٢٣) لعينة المجتمع المحلي الريفي) ، يتبين من هذه المعامل ان متغير وسائل الاتصال الجماهيري يلعب دورا كبيرا ومستقلا في تحديد دليل الطموحات والتوقعات ، بينما المتغيرات الاخرى كالعمر ، والتعليم ، والمهنة ، والحلقة الحضرية (حضري/ريفي) فلا تنطوي على نفس الاهمية لتفسير هذا الدليل .

ان متغير التعليم يلعب في المجتمع الحضري دورا كبيرا ومستقلا في تحديد هذا الدليل ، اذ يفسر (٨٪) من التباين Variance في هذا الدليل ، اما في تحليلنا لمتغيرات العمر ، والتعليم ، والمهنة ، ووسائل الاتصال الجماهيري والحلقة (حضري/ريفي) فقد تبين لنا ان درجة الارتباط المتعدد بين هذه المتغيرات مجتمعة وبين الطموحات والتوقعات هي : (٠,٩٣) للعينة الكلية ، (٠,٩٣) لعينة المجتمع المحلي الحضري ، (٠,٥٦) لعينة المجتمع المحلي الحضري ، (٠,٩٣) لعينة المجتمع المحلي الريفي ، بمعنى آخر : ان هذه المتغيرات الخمسة مجتمعة تفسر

جـدول (٢)

دليل المعرجات والتوقعات

(معامل بيتا Beta= للبيارية)

المعرجات	الاتجاهات التحليلية		
	طبيعة متغيرات	رياضية	موجودة الدينة الثانية
التقليدي ٣٠٨ر٠	البيتا (ـ ٢٢٤ر٠)	المعدل ٣٨٠ر٠	المعدل ٢٣٦ر٠
الدور ٢٧٢ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري ٢٩٠ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري ٢٣١ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري ١٨٠ر٠
الثقافة البشرية (ـ ٢٣ر٠)	الثقافة العضوية (ـ ١٣٩ر٠)	الهندسة ١٥٠ر٠	العلمية العضوية (ـ ١٤١ر٠)
وسائل الاتصال الجماهيري ٢٦ر٠	المعدل ٢٣ر٠	ـ ـ	الهندسة (ـ ١٤٦ر٠)
الهندسة (ـ ٢٦ر٠)	التصميم (ـ ٢٢ر٠)	ـ ـ	التدريس ٨٤ر٠
الارتباط المتعدد (R) = ٣٦٩ر٠	٣٥٩ر٠	٥٧٩ر٠	٣٤٦ر٠
مربع الارتباط المتعدد (R٢) = ١٠٠ر٠	١٢٧ر٠	١٨٠ر٠	١٢٣ر٠

تفسر ١٣٪ (مربع الارتباط المعدد = ٠,١٣) لعينة الكلية ، ١١٪ (مربع الارتباط المعدد = ٠,١١) عينة المجتمع المحلي الحضري ، ١٢٪ (مربع الارتباط المعدد = ٠,١٢) عينة المجتمع المحلي شبه الحضري وأخيرا ١٩٪ (مربع الارتباط المعدد = ٠,١٩) لعينة المجتمع المحلي الريفي من التباين لدليل الطموحات والتوقعات (انظر جدول رقم ٢) .

جـ

ومن خلال هذا التحليل يتبين لنا بأن الأفراد الأكثر تعليما ، والأرقى في السلم المهني ، والأكثر تعرضا لوسائل الاعلام الجماهيري هم أكثر الناس طموحا ، بمعنى آخر ، انه كلما سجل الأفراد درجة عالية على سلم هذه المتغيرات (التعليم ، والمهنة ، ووسائل الاتصال الجماهيري) ، كلما زادت درجتهم على مقياس الطموحات والتوقعات .

دليل نمط الاستهلاك :

جدول (٣)

العلاقة بين المتغيرات المستقلة ودليل نمط الاستهلاك

في ثلاثة مجتمعات محلية

المتغيرات المستقلة	المجتمعات المحلية			
	حضرية	شبه حضرية	ريفية	مجموع العينة الكلية
العمر**	-٠,١٦	-٠,٣٠*	-٠,٢٢*	-٠,٢٦*
التعليم	٠,١٩*	٠,٤٨*	٠,٣٩*	٠,٤٠*
المهنة	٠,٢٠*	٠,٣٢*	٠,٢٦*	٠,٢٥*
التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري	٠,١٢	٠,٢٣*	٠,١٥	٠,١٦*
الفعلية المقارنة	٠,٠٢	٠,٠٩*	٠,٠٧	٠,٠٥

* تشير إلى أن هذه الارتباطات ذات دلالة إحصائية على مستوى ٠,٠٥ .

** العمر ترمز من أدنى إلى أعلى .

يتضح من البيانات الواردة في جدول (٣) أن هناك علاقة ارتباط وثيقة بين كل المتغيرات المستقلة ودليل نمط الاستهلاك في المجتمع ماعدا الثلاثة (إضافة إلى المهنة الكلية) ويلاحظ بالنسبة للمجتمع الحضري أن العلاقة بين هذه المتغيرات ودليل نمط الاستهلاك العام علاقة تتجه بشكل نحو الانخفاض إذا ما قورنت بالعلاقة بين المتغيرات المستقلة ودليل نمط الاستهلاك في المجتمع المحلي الريفي وشبه الحضري ، هذا الانخفاض في هذه العلاقة يبدو منطقياً في بيئة حضرية ، حيث أن سكان المدن وسلوكهم الاستهلاكي على من الاستهلاك (وسائل التكنولوجيا الحضرية: المواصلات، جهاز الراديو، التليفزيون) ويبدو في كثير من الأحيان علاقة نمط الاستهلاك بالوضع الاقتصادي والاجتماعي ضعيفة جداً ويتضح ذلك جلياً في انخفاض الحساب لنمط الاستهلاك حيث وصل متوسط نمط الاستهلاك في المدينة (٣٠٠) إذا ما قورن بـ (٥٠٠) في المنطقة شبه الحضرية و (٦٠٠) في المناطق الريفية .

ولما استخدمنا أسلوب الانحدار التدريجي لكي نقف على المتغيرات وأهميتها الترتيبية (جدول رقم ٤) تبين لنا من فحص هذا الجدول أن متغيرات التعليم ، والمهنة ، والخدمة الحضرية والسن والتعرض لوسائل الإعلام الجماهيري قد تميزت أهميتها النسبية عند إجراء تحليل الانحدار التدريجي وتعتبر أن متغير الخدمة الحضرية والتعليم والمهنة متغيرات من أهم المتغيرات المسهمة في تحديد مستوى نمط الاستهلاك ، ومن خلال تحليلنا لهذه المتغيرات نجد توصلنا إلى أن نسبة الارتباط المتعدد (٨٠٠) في المدينة الكلية ، أي أن هذه المتغيرات مجتمعة (٦٤٪) من التباين في دليل نمط الاستهلاك ، بينما بلغت نسبة الارتباط المتعدد (٥٠٠) و (٦٠٠) في المجتمعات المحلية شبه الحضرية والريفية ، بمعنى آخر ، أن هذه المتغيرات مجتمعة تفسر

٣٥٪ (مربع الارتباط المتعدد = ٣٥ر٠) و ١٥٪ (مربع الارتباط المتعدد = ١٥ر٠) من التباين في نمط الاستهلاك في المجتمعين المحليين شبه الحضري والريفي على التوالي .

بالرغم من الاهمية النسبية لمتغيرات العمر ، والتعليم ، والمهنة ، ووسائل الاتصال الجماهيري والحضرية الحضرية فقد تغيرت اهميتها في التحليل التدرجي ، بيد ان هذه المتغيرات احتفظت بأقل اهمية في البيئة الحضرية ، لقد كانت حصيلة الارتباط المتعدد لكل هذه المتغيرات معا ٤٧ر٠ وهي هذا في لغة الاحصاء ان هذه المتغيرات معا تفسر ٢٢ر٠٪ (مربع الارتباط المتعدد = ٤٧ر٠) من التباين في نمط الاستهلاك في المجتمع المحلي الحضري ، بينما يبين لنا في المجتمع شبه الحضري من البيانات التي امامنا ان متغير الحضرية يبقى في استعارة من الناحية الترتيبية النسبية لمتغيرات الاخرى (انظر جدول ٤) .

يتضح ايضا من نفس الجدول ان الارتباط المتعدد لجميع المتغيرات معا وصل الى ٩٩ر٠ ، بمعنى آخر ، ان هذه المتغيرات معا تفسر ٣٥٪ (مربع الارتباط متعدد = ٣٥ر٠) من التباين ، دالة على نمط الاستهلاك ، أما في المجتمع المحلي الريفي ، فاننا نلاحظ أن متغيري التعليم والمهنة يحتلان اسهاما جوهريا وحقيقيا في الوصول الى نمط الاستهلاك ، فعندما اجري التحليل الاحصائي (الانحدار التدرجي) تبين لنا أن متغيرات العمر ، والتعليم ، والمهنة ، ووسائل الاتصال الجماهيري والحضرية الحضرية (حضري/ريفي) معا استخلصت عن ارتباط ٦٣ر٠ ، والذي يعني احصائيا أن هذه المتغيرات معا تفسر ١٥٪ (مربع الارتباط المتعدد = ١٥ر٠) من التباين في نمط الاستهلاك .

جدول (٤)

تحليل نمط الاستهلاك

(معامل بيتا "Beta" انحدارية)

المتغيرات المستقلة			
متغيرات	قيم متغيرات	دلالتها	مجموع قيمة الكلف
الهندسة ٤١٢ر٠	العلاج الطبيعي ٢٥٥ر٠	التعليم ٢٤٨ر٠	التعليم ٢٣ر٠
وسائل الاتصال الجماهيري ٢٤٢ر٠	الهندسة ١٦٨ر٠	الهندسة ٢٠٩ر٠	الكلف العقرية ١٧٠ر٠
المحاسبة ٤٦ر٠	المحاسبة (ـ ١٨٢ر٠)	المحاسبة ٥٥ر٠	الهندسة ٩٦ر٠
العلوم الطبية (ـ ٢٢ر٠)	وسائل الاتصال الجماهيري ١٢٨ر٠	الكلف العقرية ٥١ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري ١١٦ر٠
التعليم ٢٢ر٠	التعليم ٤٧ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري ١٨ر٠	المحاسبة (ـ ٨٥ر٠)
الارتباط المتعدد (R) ٢٧ر٠	٥٩٤ر٠	٤٩١ر٠	٤٨٦ر٠
مربع الارتباط المتعدد (R^2) ٠٢٧ر٠	٣٤٣ر٠	٢٤٠ر٠	٢٣٦ر٠

دليل تحرير المرأة :

جدول (٥)

العلاقة بين المتغيرات المستقلة ودليل تحرير المرأة

في ثلاثة مجتمعات محلية

المتغيرات المستقلة	المجتمعات المحلية			
	مطروبا	نوبة حضرية	ريفية	مجموع العينة الكلية
العمر**	-٠,١٢	-٠,٣٥*	-٠,٢٠*	-٠,٢٥*
التعليم	٠,٢٢	٠,٥٠*	٠,٣٦*	٠,٣٣*
المهنة	-٠,٠٢	-٠,٢٥*	-٠,١٤	-٠,١٦*
التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري	٠,١٠	٠,٢٠*	٠,١٨*	٠,٢٥*
الخلفية الحضرية	-٠,٠٢	-٠,٣٠*	-٠,١٠	-٠,٠٧*

* تشير إلى أن هذه الارتباطات ذات دلالة إحصائية على مستوى ٠,٠١

** العمر مرمز من أدنى إلى أعلى .

عند فحص البيانات السابقة (جدول ٥) يمكننا القول بأن متغيرات التعليم ووسائل الاتصال الجماهيري وعمر المرأة كمتغيرات ذات أهمية تحديد دليل تحرير المرأة في هذه الثلاثة مجتمعات محلية ، بينما تبدو المهنة أقل أهمية في هذا الخصوص . أما متغيري التعليم والتعرض لوسائل الاتصال الجماهيري فيظهران من ناحية واضحة بأنهما المجتمع الحضري ، وفي الوقت نفسه نجد أن الصورة مختلفة في المجتمع شبه الحضري حيث أن كل هذه المتغيرات (العمر ، التعليم ، المهنة ، التعرض لوسائل الإعلام الجماهيري والخلفية الحضرية) لعبت دورا أساسيا في تحديد دليل

تحرير المراد هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان متغيري السن والحضرية اكثر اهمية في تحديد نمط الدليل في المجتمع الريفي .

مما سبق يتبين لنا ان تعليم ، تعرض لوسائل الاعلام الجماهيري يعتبران دورا أساسيا في احداث التغير في مواقف الافراد ، بمعنى آخر ، انه كلما ارتفع مستوى التعليم ، كلما زادت درجة التعرض لوسائل الاعلام الجماهيري ، وكلما تغير موقف الفرد تجاه المرأة ودورها في المجتمع (المتغير التابع الدراسة) ، أما متغيري الحالة والاقامة فهما الاكثر اهمية في احداث هذه التغيرات .

واذا اجرينا تحليل الانحدار التدريجي (آخر جدول ٦) الذي يفسر لنا التغيرات واهميتها النسبية نجد أن متغيري التعليم والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري هي الاكثر اهمية بالترتيب في التحقق من الفرض السابق ، فقد كان معامل بيتا المعيارية المتعلقة بمتغير التعليم يساوي ٠,٣٠٥ أي أن متغير التعليم يفسر ١٠,٥٪ (مربع الارتباط المتعدد = ٠,١٠٥) من التباين في دليل متغير المرأة ، أما معامل بيتا المعياري لمتغير وسائل الاعلام الجماهيري فقد كان ٠,٢٩٩ أي أن هذا المتغير يفسر ٨,٩٪ فقط (مربع الارتباط المتعدد = ٠,٠٨٩) من التباين في نفس الدليل ، عندما نجمع هذه التغيرات معا نحصل على رقم متعدد ٠,١٩٤ ومعنى هذا احصائيا أن هذه المتغيرات قد تفسر ١٩٪ (مربع الارتباط المتعدد = ٠,١٩٤) من التباين في دليل متغير المرأة ، يتبين لنا أيضا من الجدول السابق أن نمط السائد في العينة الكلية ظهر بشكل واضح في كل من المجتمعات الثلاثة المدروسة ، حيث نجد أن متغيري التعليم والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري يشيران أهمية خاصة في تحديد دليل المرأة .

جدول (٦)

دليل تحرير اقراة

(معامل بيتا "Beta" الجزئية)

المجتمعات المحلية			
مصر	نسبة حضرية	ريفية	بحيرة الجبل الشمالي
التعليم ٠,٤١٨	التعليم ٠,٣٤٤	التعليم ٠,٣٣٩	التعليم ٠,٣٣٢
وسائل الاعلام الجماهيري ٠,٢٠٩	وسائل الاعلام الجماهيري ٠,٢٠٩	وسائل الاعلام الجماهيري ٠,١٣١	وسائل الاعلام الجماهيري ٠,٢٩٩
الهند (ـ ٠,١٤١)	المغرب (ـ ٠,١٤٥)	المغرب ٠,١٢٩	الهند (ـ ٠,١٦٥)
المغرب ٠,٠٩	الهند (ـ ٠,٠٥٨)	الهند (ـ ٠,٠٧٥)	المغرب (ـ ٠,١١٠)
الاصل الحضري ٠,٠١٥	ـ ـ	الاصل الحضري ٠,٠٤٩	خلفية الحضرية (ـ ٠,٠٧٢)
الارتباط المتعدد (R) = ٠,٤٠٥	٠,٣٩٨	٠,٣٨٥	٠,٤١٣
مربع الارتباط المتعدد (R^2) = ٠,١٦٤	٠,٣٤٨	٠,١٤٨	٠,١٧٦

دليل تنظيم الأسرة :

جدول (٢)

العلاقة بين المتغيرات المستقلة ودليل تنظيم الأسرة

في ثلاثة مجتمعات محلية

المتغيرات المستقلة	المجتمعات المحلية			
	حضرية	شبه حضرية	ريفية	المجموع الكلي
السن*	-٠,٥٠	-٠,٤٨	-٠,٣٩	-٠,٤٨
التعليم	٠,٤٠	٠,٣١	٠,٢٦	٠,٣٤
المهنة	٠,٣٠	٠,٢٤	٠,١٦	٠,٢٢
التعرض لوسائل الاعلام الجماهيري	٠,١١	٠,١١	٠,٠٨	٠,٠٩
الاتجاه نحو الانجاب	٠,١٢	٠,٢٦	٠,٠٩	٠,٢٥

* تشير الأرقام السالبة إلى وجود علاقة عكسية على مستوى ٠,٠١

** السن مقاس بعدد السنوات

يلاحظ من الجدول أن التعليم والسن والمهنة والخلفية الحضرية ظهرت باعتبارها متغيرات ذات دلالة احصائية بالنسبة لتحديد مواقف الأفراد واتجاهاتهم من تبني تنظيم الأسرة فيما يتعلق بالمجتمع الكلي للعينة ، أما بخصوص المجتمع الحضري فإنه يبرز في نفس بنية العينة الكلية .

أن متغيرات التعليم والسن والخلفية الحضرية والمهنة والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري تمثل أهمية بالغة في الارتباط بتبني تنظيم الأسرة في المجتمع الحضري ، أما في المجتمع الريفي فيبدو واضحا

أن متغير السن هو الذي يرتبط بدليل تنظيم الأسرة ولا يمثل بقية المتغيرات أهمية تذكر ، كما نلاحظ أيضا من الجدول السابق أن هناك علاقة ضعيفة بين التعرض لوسائل الإعلام الجماهيري ودليل تنظيم الأسرة في كل من العينة الكلية وعينة المجتمع الريفي ، باستثناء المجتمع شبه الحضري حيث أن العلاقة بين هذين المتغيرين تبدو أنها متوسطة القوة ، هذه الارتباطات المنخفضة بين المتغيرين تبدو واضحة لأن المبحوثين في هذه المجتمعات يميلون إلى تسجيل درجات شبيهة عند الإجابة على السؤال المتعلق بتقييم لبرامج تنظيم الأسرة .

يوضح لنا عدا الجدول معامل بيتا ٠٫٥٥٨ للمتغير المستقل ٠٫٢٢٨ ومتغير السن (ـ ٠٫٢٠٣) للعينة الكلية كمتغيرين أساسيين ومستقلين في تحديد دليل تنظيم الأسرة ، ولكن عندما نحلل خمس متغيرات معا كوحدة واحدة بين لنا من الجدول أن الارتباط المتعدد يبلغ ٠٫٥٥٨ أي أن متغيرات معا تفسر ٣٠٫٩٪ (مربع الارتباط المتعدد = ٠٫٣٠٩) من التباين في دليل تنظيم الأسرة في العينة الكلية ، أما إذا فحصنا نفس الجدول نجد أن المجتمع الحضري يسير في نفس الاتجاه ، أي أن متغيري تعليم ومتغير يلعبان دورا أساسيا ومستقلا في تحديد دليل تنظيم الأسرة وحده معامل بيتا لمتغيري التعليم والسن (٠٫٣٥٧) ، و (ـ ٠٫٢٩٠) ، فإذا أخذنا كل هذه المتغيرات معا في الاعتبار نحصل على ارتباط متعدد ٠٫٤٣٥ (مربع الارتباط المتعدد = ٠٫١٩٠) أي أن هذه المتغيرات معا تفسر ١٩٪ من التباين في دليل تنظيم الأسرة في عينة المجتمع الحضري ، أما فيما يتعلق بعينة المجتمع شبه الحضري فإن بيانات الجدول تدل أيضا على أن الأبعاد المستخدمة في الدراسة (العينة الكلية وعينة المجتمع الحضري) ، حيث

جدول (٨)

دليل تنظيم الأسرة

(معامل بيتا "Beta" الجزئية)

للمجتمعات المحلية			
حضرية	طبية حضرية	ريفية	مجموع العينة الكلية
التعليم ٢٤٧ر٠	التعليم ٢٧٤ر٠	التعليم (ـ ٢١٤ر٠)	التعليم ٢٢٨ر٠
العمر (ـ ١٩٠ر٠)	العمر (ـ ٢٤٥ر٠)	الحالة الحضرية (ـ ١٨٢ر٠)	العمر (ـ ٢٠٢ر٠)
الجنسية ٢٤١ر٠	الحالة الحضرية ٢٤٣ر٠	الجنسية (ـ ١٨٢ر٠)	الحالة الحضرية ١٧٠ر٠
وسائل الاتصال الجماهيري ١٤٠ر٠	الجنسية ١٠٠ر٠	وسائل الاتصال الجماهيري (ـ ١٠٩ر٠)	الجنسية ٠٥٠ر٠
ـ ـ	وسائل الاتصال الجماهيري ١٣٠ر٠	التعليم (ـ ١٠٩ر٠)	وسائل الاتصال الجماهيري ٠٢٠ر٠
الارتباط المتعدد (R) ٤٣٧ر٠	٣٨٨ر٠	٢١٥ر٠	١٨٩ر٠
مربع الارتباط المتعدد (R٢) ١٩٠ر٠	١٤٩ر٠	٠٤٦ر٠	٠٣٥ر٠

تجد أن هذه المتغيرات الخمسة تفسر أكثر من ٣٥٪ من التباين في دليل تنظيم الأسرة ، أما في عينة المجتمع الريفي فان العمر (بيتا ٠,٤٤٧) وحده هو المتغير العنيف والمستقبل بالنسبة لدليل تنظيم الأسرة ، أن باقي المتغيرات لا يعتد بها بالنسبة لتحديد هذا الدليل ، ولكن عندما نأخذ كل هذه المتغيرات في الاعتبار نجدها تفسر ١٠٪ فقط من التباين في تحديد دليل تنظيم الأسرة في المجتمع الريفي .

لا شك أن هذه النسبة تعكس ان هناك علاقة ضعيفة بين هذه المتغيرات ودليل تنظيم الأسرة ، وهذه بطبيعة الحال نتيجة متوقعة في المجتمعات الريفية بصفة عامة — والمجتمع المصري لا يشذ عن هذه القاعدة — حيث أن الأفراد في المجتمع المحلي الريفي يميلون الى زيادة عدد أفراد الأسرة لما لهذا العدد الكبير من الأطفال من أهمية اجتماعية واقتصادية .

خلاصة البحث :

هذا البحث قسم أساسا لدراسة أنماط التحديث على مستوى المجتمع المحلي ، وبالتالي تناولنا بالتحليل أربع أبعاد للتحديث وعلاقته بخمس متغيرات هي : العمر ، التعليم ، المهنة ، التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري والخبرة الحضرية (حضري/ريفي) ، كما اعتمدنا في بيانات هذا البحث على مقابلة أجريت مع المبحوثة أسرة مقسمة بالتساوي على ثلاث مجتمعات محلية ، وتم اختيار هذه الأسر عن طريق العينة العشوائية المنتظمة ، وأجريت المقابلة مع رب الأسرة ، وفيما يلي موجز أهم نتائج البحث :

أولا : ان الارتباط بين المتغيرات المستقلة (العمر ، التعليم ، المهنة ، التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري ، الخبرة الحضرية) ودليل

للطموحات والتوقعات تختلف من مجتمع محلي لآخر ، فمتغير العمر ، التعليم ، والمهنة تبدو أهميتها واضحة في المجتمعات المحلية الثلاثة أكثر من متغيري التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري والعلاقات الحضرية ، خصوصا فيما يتعلق بارتباطها بدليل الطموحات والتوقعات .

غير أن النتيجة تبدو مختلفة اذا أدخلنا أسلوب الانحدار التدرجي المتعدد Multiple Regression ، حيث نجد أن متغير التعرض لوسائل الاعلام الجماهيري أكثر المتغيرات ارتباطا بالنسبة للتنبؤ بدليل الطموحات والتوقعات في المجتمعين شبه الحضري والريفي ، أن متغير التعليم يصبح بالغ الأهمية بالنسبة لتحديد نفس الدليل في المجتمع الحضري ، كما نستنتج أن وضع المتغيرات الواردة في معادلة الانحدار التدرجي قد تغير وأن متغيرات العمر ، التعليم ، المهنة ، التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري والعضوية مما يفسر نسبا مئوية التباين في دليل الطموحات والتوقعات في المجتمع الريفي أكثر منه في المجتمعين الحضري وشبه الحضري .

ثانيا : نستنتج من البيانات الواردة في هذا البحث أن الارتباطات المتبادلة بين المتغيرات الأساسية ودليل نمط الاستهلاك انما هي أكثر أثرا في تحديد نمط الاستهلاك في المجتمع شبه الحضري منه في المجتمعين الحضري والريفي . وذلك لما يسم به المجتمع الحضري من خصائص اجتماعية بنائية في مرحلة الانتقال من الوضع الريفي الى الوضع الحضري ، حيث أن متغيرات الخلفية الحضرية ، والمهنة والعمر ، والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري لها أثر كبير بالنسبة للتنبؤ بدليل نمط الاستهلاك في المجتمع شبه الحضري ، أما التعرض لوسائل الاعلام الجماهيري والعمر ، والمهنة لم يكن لها أثر واضح في تحديد نفس الدليل في المجتمع الحضري ، بالنسبة للمجتمع الريفي فان متغيري التعليم والمهنة يليان

دورا أساسيا في تحديد نمط الاستهلاك . هذا من جهة ومن جهة أخرى اذا حللنا كل المتغيرات معا نتضح أن هذه المتغيرات تبقى ذات أهمية واضحة لأنها تفسر مدى التباين في دليل نمط الاستهلاك في المجتمعات شبه الحضرية ، الحضرية والريفية .

ثالثا : أظهرت النتائج أيضا ، أن التعليم والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري متغيران ثابتان وأساسيان في تحديد مواقف الافراد واتجاهاتهم حول مكانة المرأة ودورها في المجتمع ، وقد أكدته النتائج أيضا ، أن متغير العمر يعتبر متغيرا ثابتا ومستقلا في المجتمعات الثلاثة بالنسبة لتحديد دليل تحرير المرأة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى تبين لنا من هذا التحليل أن متغيرات العمر ، والتعليم ، والمهنة والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري والخلفية الحضرية أكثر أهمية ودلالة في تفسير دليل تحرير المرأة في المجتمع شبه الحضري ، منه في المجتمع الحضري أو الريفي .

رابعا : أظهرت تحليلات البيانات الميدانية أن الارتباط بين دليل تنظيم الاسرة والمتغيرات الجمعية كانت أكثر وضوحا في المجتمع شبه الحضري منه في المجتمعين الحضري والريفي ، فلقد بينت التحليلات الاحصائية أن التعليم ، والعمر والخلفية الحضرية والمهنة هي أكثر المتغيرات أهمية في تحديد نمط الدليل ، فبالرغم من الاختلافات في العملية الترتيبية لهذه المتغيرات من مجتمع محلي لآخر ، الا أن التحليلات أكدت أن متغير العمر هو أكثر المتغيرات أهمية في تحديد دليل تنظيم الاسرة في المجتمعات الثلاثة المدروسة ، وبذلك لوحظ أن العمر والتعليم هما أكثر أهمية في المجتمع الحضري وشبه الحضري ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أظهرت التحليلات الاهمية الكبرى لمتغيري الخلفية الحضرية والمهنة في تحديد دليل تنظيم الاسرة في المجتمع المحلي

شبه الحضري ، عندما حللنا المتغيرات الخلفية معا أظهرت البيانات الميدانية أن هذه المتغيرات (العمر ، والتعليم ، والمهنة ، والتعرض لوسائل الاعلام الجماهيري ، والخلفية الحضرية) أكثر أهمية بالنسبة لتحديد تنظيم الاسرة في المجتمع شبه الحضري منه في المجتمعين الآخرين ، الحضري والريفي .

الاسهامات العلمية والتطبيقات العملية :

أ ـ الاسهامات العلمية :

لم تنل ظاهرة التحديث في المجتمع الليبي المعاصر لا زالت محدودة على المستويين النظري والعملي ، وظلت لفة الدراسات الجادة لمحاولة فهم هذه الظاهرة فيما اعتقد ، غير أننا نؤكد أنه بالرغم من وجود بعض الدراسات التي تناولت موضوع التغير الاجتماعي في ليبيا الا انها لم تبحث الا في الجوانب النظرية لهذا الموضوع ، وخلاة تلك الاسهامات النظرية الصرفة ، فان جهوده في هذا البحث انصبت بالدرجة الاولى على تحليل مظاهر التحديث والعوامل المؤثرة في هذه العملية ، ان هذه المحاولة الجديدة من نوعها هي محاولة لدراسة التحديث من منظور مقارن Comparative approach على مستوى المجتمع المحلي ، مستخدمين أساليب احصائية متقدمة لاختبار الفروض وعلى هذا الاساس يمكن القول ان الاسهامات العلمية لهذا البحث في رأينا تكمن في :

١ ـ تناول هذا البحث تحليلا كاملا لمظاهر التحديث على مستوى المجتمع المحلي (هذا الاتجاه لم يكن سائدا في البحوث السابقة في دراسة ظاهرة التغير الاجتماعي في المجتمع الليبي المعاصر) .

٢ ـ تمثل هذه الدراسة خطوة منهجية متقدمة لدراسة مظاهر التحديث على مستوى المجتمع المحلي .

ب ـ التطبيقات العملية :

من خلال هذه الدراسة يتبين لنا أن هناك علاقة ارتباط قوية بين بعض المتغيرات الاجتماعية وأبعاد التحديث ، كما أن هناك علاقة ضعيفة وفي أغلب الأحيان منعدمة بين هذه المتغيرات ، وما أكدته النتائج أن هناك علاقة بين التعليم وتبني حقوق المرأة ، أي أنه كلما زاد التعليم لدى المبحوثين كلما زادت قابليتهم في تبني الاتجاهات الايجابية حول قضايا المرأة ، إذن التعليم يعتبر متغيرا أساسيا في تحديد اتجاهات الأفراد وسلوكهم واتخاذهم مواقف معينة بالنسبة لتحرر المرأة ، وعلى هذا الأساس فإن التركيز على المؤسسات التعليمية ودورها في عملية التحديث أمر ضروري في كل المجتمعات النامية والرامية على حد سواء ، إن التعليم يلعب دورا أساسيا في عملية التحديث وفي احداث التغير في مواقف الأفراد واتجاهاتهم الايجابية حول المرأة ودورها في المجتمع ، وهذا يجعل المرأة تشارك في العملية الانتاجية وتتخصص في الأدوار التقليدية المنتجة لحركتها ، وطبيعتها وتساهم بكل حرية وعزم في عملية التقدم الاجتماعي والثوري ، ولما كان الهدف الأساسي لمجتمع البحث هو التغير الموجه (التحديث) فإننا نرى أنه من الضروري التركيز باستمرار على قطاع التعليم ، ووسائل الاعلام الجماهيري باعتبار باعتبارهما مؤشرين حقيقيين يمكنان المرأة التحديث كما أنهما يعتبران وسيلة هامة من وسائل التحديث ، إن زيادة الاهتمام بالمرأة في الخدمات والمرافق ، والصناعات ، والتنمية المكانية واختيار المراكز الحضرية ، وزيادة الأنشطة الاقتصادية ، كل هذه العوامل متضافرة قد تحدث معها تغير جذري في البنية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمناطق الريفية ، ومما لا مجال للشك فيه أن هذه التغيرات ستنعكس على السلوك الاجتماعي للأفراد وعلى اتجاهاتهم الايجابية ، ومشاركتهم الفعالة في عملية التحول الاجتماعي والثوري .

كما اوضحت البيانات في هذا البحث بأن المبحوثين الاصغر سنا هم اكثر قابلية للتغير من الجيل الكبير ، وهذا لا شك مؤشر ذو دلالة كبيرة في مجال التغير الاجتماعي والتحديث حيث أن هذا الجيل سيكون عنصرا فعالا في حركة التغير الاجتماعي .

وختاما من كل ما تقدم يمكننا أن نشير الى أن الهوة الاجتماعية والاقتصادية بين قرى ومدن الجماهيرية بدأت في التقلص وان المجتمع العربي ليس بدعا يسير نحو اساليه والعدالة الاجتماعية نتيجة التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة في تحديث المجتمع السير وتحوله من مجتمع متخلف الى مجتمع عصري جديد قائم على تكافؤ الفرص أمام الافراد وعلى جهود تعليم والقضاء على احتكار المعرفة من قبل فئة معينة وعلى وضع وسائل الاتصال الجماهيري في خدمة الشعب وتوعيته .

* * *

الهوامش :

1. Neil Smelser, Essays in Sociological explanation
Prentice Hall. Inc.; Englewood Cliffs New Jersey 1968, p. 109
2. Ibid. p. 120.
3. Ibid. p. 128.
4. Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society :
Modernizing The Middle East. New York, Free Press. 1958
5. T. Parsons «Some Considerations on the Theory of Social Changes» Rural Sociology, 26, II Sept. 1961.
6. «Evolutionary Universals in Societies»
American Sociological Review, Vol. 29, No. 3, June 1964, pp. 339 - 57.
7. A. Inkeles, et al. Becoming Modern : Individual Change in Six Developing Countries. Harvard University Press, Cambridge mass. 1974, pp.
8. Ibid. p. 145.
9. Joseph Kahl A. Measurement of Modernization :
A Study of Values in Brazil & Mexico.
Austin & London : University of Texas Press. 1968

١٠ ـ د. جيهنة سلطان سيد الليثي : التحديث في المجتمع المصري المعاصر ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع والترجمة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠.

11. Kahl, 1968.
12. Everett Rogers, et. al. Modernization Among Peasants : The Impact of Communication
New York: Free Press. 1969
13. Ibid. p. 38
14. Ibid. p. 32.
15. Ibid., p. 213.

التركيب العمري والنوعي للسكان

الفيليبين

١٩٥٤ ـ ١٩٧٣

الدكتور طلعت عبد الله الهاشمي

التركيب العمري والنوعي للسكان

الليبيين

١٩٥٤ ـ ١٩٧٣

الدكتور فتحي عبد الله ليالي

يعتبر التركيب العمري والنوعي للسكان دورا على جانب كبير من الاهمية في الدراسات السكانية ، ذلك لانه الهيكل الذي يترتب عليه أفراد المجتمع ذكوره واناثه في فئات عمرية عمرية أو عشرية ، ومصدر هذا النوع من البيانات هو التعدادات العامة للسكان ، التي تصدر بصفة دورية كل عشر سنوات أو اقل ، ورغم ما لهذا الموضوع من أهمية الا أننا نجد الكثير من الباحثين لا يرغبون دراسته ، ولعل السبب في ذلك هو ما تنطوي عليه بيانات التعدادات العامة للسكان من مشكلات ، ولهذا جاء هدفنا من وراء هذا البحث القاء بعض الضوء على ما يتعلق ببعض مشكلات التركيب العمري والنوعي في التعدادات الليبية ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٣ .

تعتبر مشكلة عدم تبويب جهات الاختصاص نظاما موحدا في طريقة عمل التعدادات العامة للسكان من اول المسائل التي تواجه الباحث ، والقصد من النظام الموحد أن تبوب التعدادات جميعها كانت أو عشرية بأسلوب واحد ، وتضاف عليها في كل تعداد جديد تلك البيانات التي

لوحظ من قبل المختصين أن التعداد السابق مثلا كان في حاجة اليها ، وكثرة ما بين التعدادات كما كانت متساوية ، كان ذلك أجدى عند دراسة البيانات التعدادية ، أو مقارنتها بعضها ببعض ، وايجاد معدلات تعبر عن السكان ، أو سوء بأسفل الشرق ، وعدم اتباع فئات سن متساوية يضيف المزيد من الصعوبات عند تبويب هذه البيانات ، أو تحليلها ، وهذا يسبب ارتباطا به بعض التعدادات من فئات من أحادية ، خمسية أو عشرية في وقت واحد .

تعداد عام ١٩٥٤ مثلا بدأ توزيع السكان حسب فئات السن وموضوع موضوع هذه الدراسة ، بفئات سن أحادية ، سنة تلو الأخرى ، حتى سن السادسة ، وفي هذه الحالة يلجأ الباحث الى جميع الفئات الأحادية ليكون فئات سن خمسية حتى يستقيم توزيع السكان بفئات متساوية ، وتبدأ من فئة سن ١٠ ـ ١٤ سنة بداية الفئات خمسية حتى فئة السن ٧٠ سنة فأكثر ، وتعامل هذه كفئة أخرى يسبقها جميع فئات السن ٧٠ ـ ٧٤ ، ٧٥ ـ ٧٩ ، ٨٠ ـ ٨٤ ، عدة سنة فأكثر ، أو حسب البيانات المتوافرة ، ويبدو ذلك واضحا في فئة عرم الاعمار المنضمة بدون تبويب ، ويقف الباحث هنا أمام استخدام بعض الجداول الاحصائية لتلك هذه الفئة ٧٠ سنة فأكثر الى أربع فئات ، وهي من المسائل التي تتطلب مزيدا من الجهد في سبيل الوصول الى استقامة كاملة بيانات التعدادات العامة للسكان ، وفي بعض الاحوال تكون سببا في تحول الباحثين عن مثل هذه الدراسة .

تعتبر تعداد عام ١٩٦٤ البداية بفئات أحادية ، وابتدأ هذا الفئات الخمسية حتى ٦٤ سنة فقط ، وهذه مشكلة استخدم فئات فئات السن العشرية اعتبارا من فئة السن ٥٠ ـ ٥٩ ، ٦٠ ـ ٦٩ ، ٧٠ ـ ٧٩ سنة ، وتتضمن فئة سن ٧٥ سنة فأكثر ، ويستخدم الباحث في هذه الحالة

نوعين من المعدلات ، الاول ما يستخدم في ذلك الفئات العشرية بوسطى الى فئات خمسية ، والثاني هو معادلة « كاروبو - كنج » التي تستخدم في ذلك فئات السن الاخيرة سنة سنة الاخرى ، وبعد ذلك يجمعها الباحث في فئات خمسية حتى يتوحد نمط الفئات في التعداد كله ، وتنقسم هذه المعادلة الى خمس معادلات كل منها يختص بسنة معينة .

وجد تعداد عام ١٩٧٦ بعد لأول مرة بعام كامل ، بسبب عام السكان الدولي الذي صادف عام السنة ، فقد كان من المقرر عمله عام ١٩٧٤ ، تفاديا لاحتلال الفترات المعدية ، واستخدم التعداد عام انقضاء الخمسة عشر بداية التوزيع ، حتى فئة سن ٥٥ سنة فأكثر ، وزود الباحث بجدول يختص بتوزيع السكان الذكور والاناث حسب احد السن ، وهو من الجداول التي توفر الوقت والجهد الذي يتطلبه التغلب على مشكلة التفاوت في عمر فئات العمر .

بعد ذلك يصبح على الباحث تعيين زمان السن ونوع موطنه تحليله ، ويصبح عليه تركيب العمري والنوعي الى الاشكال البيانية التي تساعده في الوصول الى هدفه ، وهرم السكان من الاشكال البيانية التي تجمع بين ذكور المجتمع واناثه في شكل واحد ، ينقسم الى نصفين بيانيين متقابلين ، احدهما للذكور والآخر للاناث ، وتمثل محاورهما الافقية لاعداد المطلقة او النسب المئوية للسكان ، ومحاورها الرأسية تمثل فئات السن من (صفر - ٤) عند قاعدة الشكل ، الى (٧٥ سنة فأكثر) عند قمته ، او حسب البيانات المتوفرة .

رتبنا اهرام توزيع السكان المصريين في التعدادات الاخيرة بقاعدته عريضة من صغار السن ، شأنها في ذلك شأن جميع الدول النامية ، وتسمى بهرم مدببة تميز هذه المجتمعات عن غيرها ، ولعل السبب في اتخاذ توزيع السكان هذا الشكل هو ما يترتب على عدد المواليد ، الوفيات ،

والهجرة من وال أي بلد ، حيث تزود المؤسسة المجتمع كل يوم ، وتأخذ أولئك من صغار السن وكبارهم ، وتعطي الهجرة أو تأخذ حسب طبيعة هذه المجتمعات جاذبة أو طاردة .

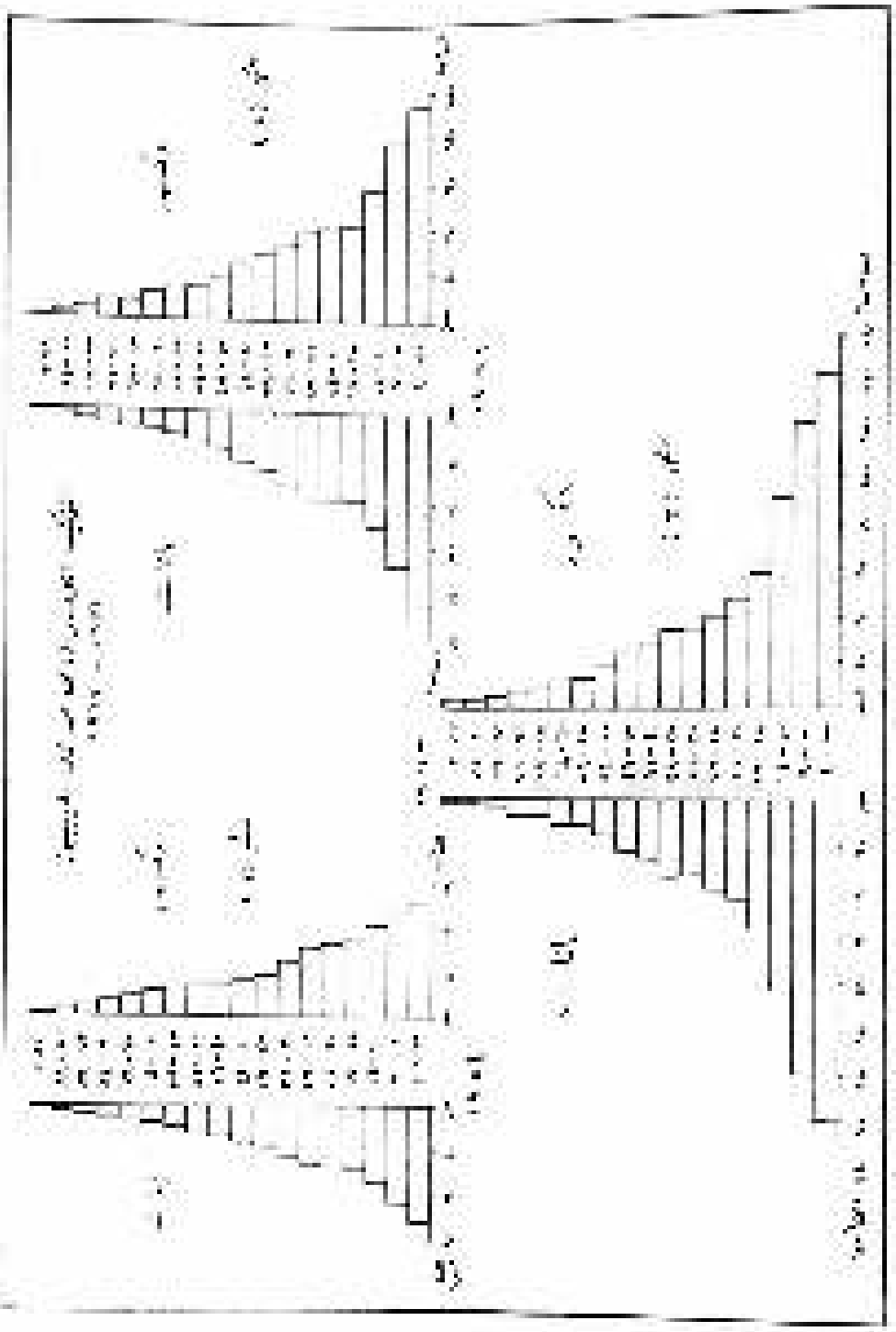
ومن ثم تعتبر المؤسسة ، وليست ، والهجرة من وال المجتمع هي المسؤولة أساسا عن سير هذا الشكل والمخرج ، الأشكال رقم (١) ، (٢) ، (٣) ، ويمكن بعد دراسة هذه الأشكال أن نخلص بالقارئ على بعض الخصائص السكانية الاجتماعية والاقتصادية الهامة ، كما يمكننا أيضا تقسيم الموضوع الى قسمين رئيسيين :

أولا ـ التركيب العمري للسكان :

ونقصد بالتركيب العمري للسكان توزيعهم حسب فئات السن ، وذلك بما أسميناه هرم الأعمار ، ويحتفظ التركيب العمري بناء على هذا التوزيع بالصغار والشباب والكبار من السكان بصفة عامة ، وبما يتشابهم من غيرهم أو تميزهم خلال فترة زمنية بين العددات ، وبمجرد النظر لأهرامات السكان في العددات الثلاثة نتبين أن مدى تباينها ، واختلافها في الحجم وهو ما يرجع الى تطور السكان وتنوعهم من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٧٣ ، وهو ما سوف نراه في دراسة :

أ ـ نمو السكان الطبيعي :

يتضح من دراسة أشكال التركيب العمري للسكان الليبيين السابقة أنهم يزدادون بمعدل عال مدى تسع عشرة سنة ، فقد بلغ عدد السكان ١٠٩٥٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٤ ، زاد هذا العدد عام ١٩٦٤ الى ١٥٢٥٠٠٠ نسمة زيادة قدرها ٤٣٠٠٠٠ نسمة ، أو ما يعادل ٣٩٫٢ ٪ من مجموع السكان في العداد الأول ، وبلغ معدل النمو السنوي للسكان خلال هذه الفترة ٣٫٣ ٪ سنويا ، وفي عام ١٩٧٣ أصبح عدد السكان



٥٥٥ر٥٥٢ر٢ نسمة بزيادة قدرها ٥٥٥ر٥٥٦ر٣ نسمة ، أو ما يعادل ٣٫٥٪ من مجموع السكان في العـــام الثاني ، وبلغ معدل النمو السنوي للسكان خلال الفترة المعادية الأخيرة ٣٫٥٪ سنويا .

وبمقارنة معدلات النمو السنوي السكان الليبيين في جماهيرها بمثيلتها في بعض الدول الأخرى نجد أنها تعلو على الجزائر ٣٫٢٪ سنويا ، سوريا ٣٫٣٪ سنويا ، اليمن الديموقراطية ٢٫٣٪ سنويا ، ايطاليا ٠٫٨٪ سنويا ، فرنسا وسويسرا ١٫٠٪ سنويا ، والسويد ٠٫٣٪ سنويا عام ١٩٧٨ . وقد أكدت الدراسات الاحصائية أن المجتمع الذي يزداد فيه معدل النمو السنوي للسكان بين ٣٫٠ ، ٣٫٢٪ سنويا يحتاج الى فترة تتراوح ما بين ٢٠ ـ ٢٣ سنة حتى يتضاعف عدد سكانه ، ويمكن التأكد من ذلك بمقارنة عدد السكان الليبيين في أول وآخر تعداد .

ويرجع سبب ارتفاع معدل النمو السنوي لسكان عامة الى ارتفاع معدلات المواليد في الجماهيرية العربية الليبية ، فقد بلغ معدل المواليد عام ١٩٧٨ حوالي ٤٦٫٠ في الالف من مجموع السكان ، ومعدل الوفيات ٩٫٥ في الالف فقط من مجموع السكان ، ومعنى ذلك أن الزيادة الطبيعية (الفرق بين المواليد والوفيات) قد حققت ٣٦٫٥ في الالف من مجموع السكان وهي من الحقائق التي ستؤدي من المنتظر أن يكون في غايه الاتساع لأي تغير طرأ على معدلات النمو بصفة عامة ، ومعدلات الزيادة الطبيعية بوجه خاص ، هذا بالاضافه الى عامل الهجرة العائدة في ليبيا ، حيث بلغ عدد العائدين من المهجر ٤٥ ألف نسمة فيما بين عامي ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، أو ٥٫٦ ألف نسمة عام ١٩٧٥ . وهي نسبة تؤثر بلا شك في ارتفاع معدل نمو السكان .

٢ ـ فئات السن الرئيسية :

يختلف الاحصائيون في تحديد مدى فئات السن الرئيسية ، ولكن شائع منها هو تقسيمها الى فئة صغار (صغر ـ ١٤ سنة) ، فئة الباغين (١٥ ـ ٥٩ سنة) ، وفئة الكبار (٦٠ سنة فاكثر) ، والجدول التالي يوضح حجم هذه الفئات في الجماهيرية :

جدول رقم (١)
توزيع السكان للسكان المقيمين حسب فئات السن الرئيسية
١٩٥٤/١٩٧٣

فئة السن	١٩٥٤	١٩٦٤	١٩٧٣
صغر ـ ١٤	٣٨ر٥	٤٤ر٥	٥١ر٥
١٥ ـ ٥٩	٥٢ر٥	٤٩ر٥	٤٣ر٥
٦٠ فاكثر	٩ر٥	٧ر٥	٦ر٥
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصدر : تعداد السكان ١٩٥٤ جدول رقم (٤) ص ٨٢ ، تعداد السكان ١٩٦٤ جدول رقم (٢) ص ٢ ، وتعداد السكان ١٩٧٣ جدول رقم (٤) ص ٤ ، وحسب من بيانات الباحث .

يتضح من الجدول والشكل رقم (٤) أن الاتجاه العام لتوزيع السكان في فئة الصغار يبدو مطردا ، وتمثل هذه الفئة نسبة عالية من الخصائص أهمها أنها فئة غير منتجة ، وتشكل عبئا اقتصاديا على من هم في سن



شكل رقم (٤)

العمل من السكان ، وتضم هذه الفئة أكثر من نصف السكان تقريبا في التعداد الأخير ، وتتعرض الأطفال دون الخامسة في هذه الفئة أكثر من غيرهم لعامل الوفاة ، ويرتبط بزيادة حجم هذه الفئة زيادة متماثلة في السلع والخدمات التي تقدم الى هذا القطاع من السكان .

وبمقارنة نسب هذه الفئة بنظيرتها في بعض الدول الأخرى نجد أنها تقل عن نسبة في مصر بـ٤٢٪ ، الهند بـ٤٠٪ ، والبرازيل بـ٤٨٪ في تعداد ١٩٥٤ ، ويتفوق عليها جميعا في التعدادين الأخيرين .

أما فئة العمل ١٥ ـ ٦٤ سنة ، فيبدو أن نسبة السكان بها تتجه نحو الانخفاض ، على عكس الفئة السابقة ، حيث كانت تشكل أكثر من نصف السكان المسجلين في التعداد الأول ، وفي التعداد الثاني أقل قليلا من نصفهم ، وأكثر قليلا من خمس السكان في التعداد الأخير ، وتسمى هذه الفئة بأنها تضم السكان في سن العمل ، وأنها أكثر الفئات حركة ، نظرا لتأثرها بظروف الهجرة من وإلى المجتمع ، وتتأثر أيضا بالحروب ، وبطبيعة الحال فإنها تصيب عالم الاحصاء في هذه الفئة بالذات من فجوات ، وأخيرا فهي تتأثر بنفس أسباب وملابسات الفئة السابقة .

وبمقارنة نسب هذه الفئة بنظيرتها في بعض الدول نجد أنها تقل عنها في أستراليا المتحدة بـ٥٪ ، اليابان بـ٥٪ ، وانكلترا بـ٥٪ من مجموع السكان .

وتشمل فئة الكبار ٦٥ سنة فأكثر نسبة صغيرة من مجموع السكان في المجتمعات النامية ، وهذا دليل على قصر عمر السكان ، وتتجه نسبة سكان هذه الفئة نحو الانخفاض ، وهو ما تؤكد القاعدة المعروفة أن التجديد المستمر لقاعدة الهرم السكاني يؤدي الى نقص العمر في نسبة ، أما اذا رفعت نسبة الكبار ازداد تبعا لذلك متوسط العمر ، ومن مشاكل هذه الفئة أنها تأثر كثيرا بعامل الوفاة ، وأنها تشكل عبئ

على من هم في سن العمل من السكان ، وانها تضم عددا كبيرا من الاناث والاطفال .

وإذا قارنا نسب هذه الفئة بمثيلتها في المجتمعات الاخرى نجدها تتساوى تقريبا مع معظم الدول النامية ، وتزيد نسبتها في الدول المتقدمة عن مثيلتها بنحو ٨٪ عام ، حيث بلغت نسبتها ٣٥٪ من مجموع السكان في كل من بلجيكا ، والدانمارك ، والمملكة المتحدة ، وسائل هذه النسبة ثلاثة أمثال نسبة الكبار في العدد الاخير للجماهيرية العربية الليبية .

٣ ـ العمر الوسيط :

هو السن التي تقسم مجموع السكان في المجتمع الى قسمين متساويين في العدد دونها وأعلى منه ، وهناك ارتباط عكسي بين العمر الوسيط ، ومعدلات الزيادة السنوية ، فكلما ارتفعت الاخيرة انخفض العمر الوسيط . والجدول التالي يوضح العمر الوسيط لسكان ليبيا ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٣ .

جدول رقم (٢)

العمر الوسيط للسكان الليبيين

١٩٥٤/٧٤ ، بالسنوات .

السنة	العمر الوسيط
١٩٥٤	٢٠٫٥
١٩٦٤	١٨٫٥
١٩٧٣	١٤٫٤

المصدر : تعداد السكان ، والعمر الوسيط من حساب الباحث .

ويتضح من الجدول أن العمر الوسيط ينخفض بشكل مستمر على مدى الفترات المتتالية ، وهو عكس الاتجاه الذي اتخذه نسب صغار السن ، وهذا يؤكد انخفاض العمر الوسيط زيادة نسبة صغار السن في المجتمع والعكس .

وبمقارنة العمر الوسيط بما هو عليه في بعض الدول نجده يفوق في مثله في تايوان ٢٠٫٢ ، الجزائر ٢٠٫٨ ، مصر والكويت ١٩٫٦ سنة ، وسيريلانكا ٢٠٫٨ سنة ، الهند ٢١٫٢ سنة ، وفوق مثيله في سيلي ٢١٫٢ ، والأرجنتين ٢٥ سنة ، اليابان ٢٥٫٣ سنة ، كندا ٢٦ سنة ، بلجيكا ٣٦ سنة ، سويسرا ٣٦٫٢ سنة ، المانيا الشرقية ٣٦٫٣ سنة ، المملكة المتحدة ٣٦٫٥ سنة ، والسويد ٣٦٫٥ سنة .

٤ ـ نسبة الاعالة :

نستطيع من دراسة هرم الاعمار التعرف على حاملية اقتصادية هامة هي نسبة الاعالة ، ويمكن حسابها لصغار السن ، أو لكبار السن ، أو لهما معا حسب ما يتطلبه الدراسة ، ومعناها نسبة من لا يعملون من الصغار أو الكبار إلى من هم في سن العمل من السكان ، وتشير هذه النسبة عادة بارتفاع نسبة السكان في سني الصغر والكبر ، فقد بينت أن هناك ارتباطا عكسيا بين زيادة السكان في هاتين السنين ونسبة الاعالة .

يتبين لنا من الجدول أن نسبة الاعالة تتجه عادة نحو الارتفاع ، فبعد حين بلغت ٨٨٫٠ عام ١٩٥٤ ، ومعناها أن الفرد من هم في سن العمل يعول نفسه وواحد فقط غيره ، بينما قد بلغت ٩٤٫٦ عام ١٩٧٣ ، أي أن الفرد أصبح يعول نفسه وواحدا آخرين غيره ، وتشير هذه النسبة بارتفاعها للفرد ، أما نسبة عالة الكبار فتتسم بالثبات وعدم الاتزان .

جدول رقم (٢)

نسب الاعالة للسكان النشيط

١٩٧٣/٥٤

السنة	نسبة اعالة الصغار	نسبة اعالة الكبار	نسبة الاعالة الكلية
١٩٥٤	٠٫٧٣	٠٫١٦	٠٫٨٩
١٩٦٦	٠٫٩٩	٠٫١٣	١٫١٣
١٩٧٣	١٫٢٠	٠٫١٤	١٫٣٤

المصدر : تعدادات السكان ، ونسب الاعالة من حساب الباحث

ولقد آثرنا عدا الى أن نقدم نسب الاعالة السابق ذكرها منفصلة على كل من الذكور والاناث في سن العمل ١٥ ـ ٥٩ سنة ، فوجدنا أن عدد الاناث في قوة العمل الفعلية ٢٩٫٥ ألف عام ١٩٧٣ ، وهو ما يمثل ٣٫٦٪ من مجموع السكان الداخلين في سن العمل ، ومن ثم لا تشكل نسبة يعتد بها في هذا المجال ، يترتب على ذلك ، وبعد استبعاد بقية الاناث من هذه الفئة ارتفاع نسبة الاعالة ، لتصل الى ٢٫٧ فردا في التعداد الاول ، وفي التعداد الثاني ٢٫٧ فردا أي أن الفرد يعول نفسه وثلاثة أفراد غيره ، وفي التعداد الاخير تصبح نسبة الاعالة ٣٫٢ فردا أي أن الفرد يعول نفسه وأربعة أفراد غيره .

وبمقارنة نسب الاعالة في الجماهيرية بنظيرتها في بعض الاقطار الاخرى نجد انها تتفوق في التعدادين الاخيرين عليها في تايوان ٧٥٫٠ ، مصر ٨٥٫٠ ، الجزائر ٩٢٫٠ ، الهند ٩٠٫٠ ، فرنسا ٥٥٫٠ ، المملكة

المتحدة بمعدل السويد ٨٠ ، وانثاليا ١٠٠ ، أي أن الفرد في هذه الدول من هم في سن العمل حوله نفسه وواحد غيره تقريبا .

ثانيا ـ التركيب النوعي للسكان :

يمكننا من دراسة هرم الاعمار بيانا ان نصف السكان في المجتمع هم ذكور وانثى ، حيث يتضح هذا التصنيف عن مدى التوازن الطبيعي في المجتمع ، وعادة ما تسير المجتمعات التي تتفق فيها نسب الذكور مع نسب الاناث بالتوازن الطبيعي ، وان كان ذلك يختلف من مجتمع الى آخر وفق ما تمليه ظروف المجتمع الاجتماعية والاقتصادية . وعندما نقسم السكان الى ذكور واناث نتألمنا بعض النسب السكانية الهامة منها :

أ ـ نسبة النوع :

تعبر نسبة النوع عن عدد الذكور لكل مائة من الاناث ، أو عدد الاناث لكل مائة من الذكور ، وتبين هذه النسبة مدى التوازن الطبيعي بين سكان اي منطقة من المناطق ، وسكان جميع المجتمع ككل ، على اساس مجموع الذكور والاناث ، أو حسب فئات السن المختلفة ، وعندما تقترن الاخيرة في معرفة مدى تباين هذه النسبة من فئات السن .

وفي الاعداد التالية يتضح تفوق الذكور على الاناث بشكل عام ، ويمكن التأكد من ذلك بعد استعراض بيانات الجدول التالي :

جدول رقم (٤)

نسب النوع في الجماهيرية العربية الليبية

١٩٥٤ ـ ١٩٧٣

السنة	ذكور	اناث	نسبة النوع
١٩٥٤	٥٤٠٣٦٤	٥٠١٢٣٥	١٠٧٫٨
١٩٦٤	٧٨٨٦٥٧	٧٢٦٨٤٤	١٠٨٫٥
١٩٧٣	١٠٥٧٩١٩	٩٩٤٤٥٣	١٠٦٫٤

المصدر : حسابات السكان ، ونسبة النوع من عمل الباحث

ومنه يتضح أن نسبة النوع تؤكد ما تقدم من فروق واضح للذكور على الاناث في كل التعدادات الليبية ، وعدد الحفيفة افضل بكثير عما لو كان العكس من النواحي الاجتماعية على وجه الخصوص .

وتجدر الإشارة هنا الى أن الابحاث السكانية المعاصرة تؤكد على ارتفاع نسبة النوع في البلاد الحديثة عنها في البلاد القديمة والعكس بالنسبة للاناث ، وينسحب هذا على عدد كبير من دول العالم من كندا ، والولايات المتحدة ، واستراليا ، والسبب ان هذه البلاد تستقبل سيلا من المهاجرين يكونون من الرجال في مقتبل العمر ، يرحلون من بلاد قديمة ، استنفدت معظم طاقاتها الاقتصادية ، وازدحمت بالسكان ، بشكل يدفع بالكثيرين منهم الى الهجرة .

واذا قورنت نسبة النوع في الجماهيرية ببعض دول العالم لوجدنا تفوق على مثيلتها في مصر ١٠٣ ، الهند ١٠٧ ، السويد ٩٨ ، والمملكة المتحدة ٩٩ ذكرا لكل مائة انثى .

وتختلف نسبة النوع داخل البلد الواحد ، بسبب الهجرة الداخلية ، والدليل على ذلك هو ارتفاع نسبة النوع في المراكز الحضرية الكبيرة اذا ما قورنت بغيرها من المناطق .

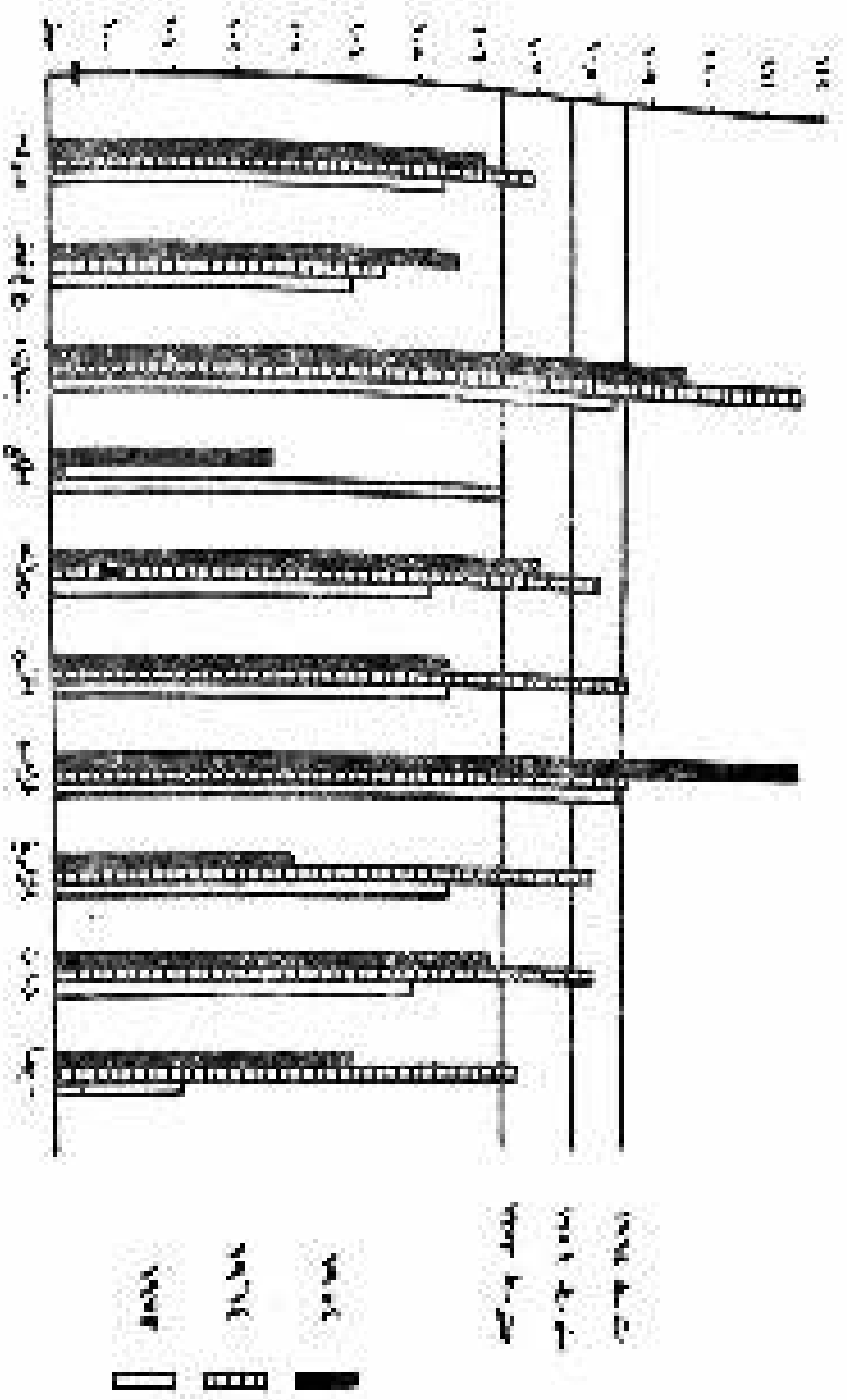
جدول رقم (٩)

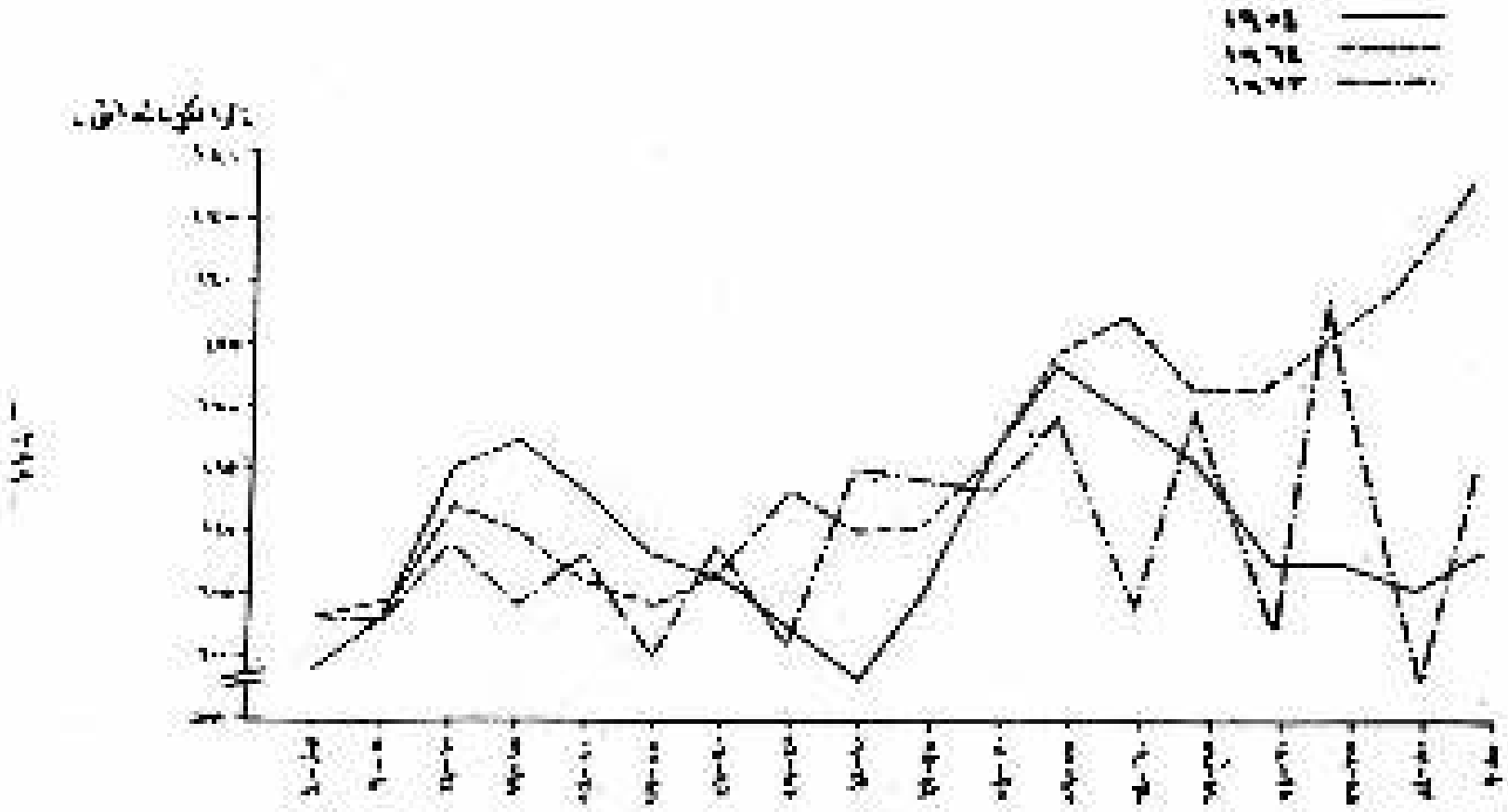
نسبة النوع حسب المناطق في الجماهيرية

١٩٥٤ ـ ١٩٧٣

المنطقة	١٩٥٤	١٩٦٤	١٩٧٣
طرابلس	١٠٦٫١	١٠٦٫٨	١٠٥٫٤
الجبل الأخضر	١٠٤٫٦	١٠٤٫٢	١٠٣٫٤
بنغازي	١٠٩٫٦	١١١٫٦	١٠٨٫٣
الخليج	١٠٢٫٦	٩٦٫٥	١٠٦٫٤
مصراتة	١٠٧٫١	١٠٨٫١	١٠٥٫٢
الخمس	١٠٥٫٩	١٠٦٫٦	١٠٥٫٥
طرابلس	١١١٫٦	١٠٨٫٦	١٠٨٫٤
الزاوية	١٠٩٫٩	١٠٨٫٠	١٠٥٫٥
غريان	١٠٦٫٢	١٠٨٫٠	١٠٤٫٩
سبها	١٠٣٫٩	١٠٦٫٧	١٠١٫٠
المجموع	١٠٧٫٦	١٠٨٫٥	١٠٦٫٤

المصدر : النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ١٩٧٣ جدول رقم ١٢ ص ١٢ .





شكل رقم (٦١) نسبة المتوج حسب حالات السن التعليمية في الجمهورية العربية الليبية ١٩٦٤ - ١٩٧٣ .

ويتضح من الجدول رقم [٥] والشكل رقم [٥] أن نسبة النوع عموما مرتفعة في جميع المناطق ، عدا منطقة الخليج عام ١٩٦٤ حيث انخفضت نسبة النوع لتحتفظ بالذكور بالتفوق الوحيد على عدد الذكور ويحقق المتوسط العام للجماهيرية عام ١٩٥٤ منطقة مصراته فقط ، وباقي مناطق طرابلس وبنغازي فوق المتوسط ، أما مناطق درنة ، غريان ، الخمس ، الجبل الأخضر ، سبها ، زاوية ، والخليج فقد جاءت دون المتوسط العام ، وفي عام ١٩٧٤ حقق المتوسط العام للجماهيرية أكثر من منطقة حيث نجد مناطق : مصراته ، الخمس ، طرابلس ، الزاوية ، غريان حقق المتوسط العام ، بينما مناطق درنة ، سبها ، والجبل الأخضر دون هذا المتوسط ، وبنغازي هي المنطقة الوحيدة التي تقع فوق المتوسط العام للجماهيرية ، وهذا يدل على ان منطقة بنغازي كانت أكثر مناطق الجماهيرية جذبا للمهاجرين الذكور من مختلف مناطق الجماهيرية آنذاك ، وفي تعداد ١٩٨٣ لا يمثل المتوسط العام سوى منطقة الخليج وحدها ، اما طرابلس وبنغازي فتأتيان فوق هذا المتوسط ، وباقي مناطق الجماهيرية دونه .

وترجع أسباب ارتفاع نسبة النوع في العقد الاخير في طرابلس وبنغازي الى بعض الظروف الاقتصادية والاجتماعية الهامة ، منها مثلا سوء الاحوال الاقتصادية في المناطق الداخلية ، وتوفر بعض الخدمات والخدمات الاجتماعية والصحية في المدن مما أثر استخراج النفط والتوسع في المشاريع العمرانية والاقتصادية ، هذا بالاضافة الى تركز بعض المرافق العلمية كالجامعات والمعاهد والمدارس الداخلية في مدينتي طرابلس وبنغازي .

وتختلف نسبة النوع ايضا حسب فئات السن التفصيلية حيث يتضح لنا من الشكل رقم [٦] أن هذه النسبة غير ثابتة ، فهي في العقد الاول

كانت منخفضة في فئة الاطفال أقل من ٥ سنوات . يدل هذا الانخفاض على نقص عدد الاناث عن عدد الذكور في هذه الفئة . وربما يكون السبب في ذلك هو رغبة الاسر في اختيار نوع المولود اذا كان ذكرا ، أو سقوط عدد كبير من المواليد الذكور عند الميلاد ، أو ارتفاع نسبة وفيات الاطفال الذكور في مثل هذه السن عن مثيلتها لدى الاناث . ولا يعود عدد الاناث الى النقص ذلك على عدد الذكور الا في فئة العمر ٤٠ ـ ٤٤ سنة ، وربما يكون تفسير ذلك هو هجرة عدد كبير من الذكور ، واستقرارهم مدة طويلة خارج الدولة التي هاجروا منها ، كما أن اعداد هذه الفئة كانوا في عام ١٩٣٤ أي قبل الميلاد الاول بمحاذاة عشرين عاما ، في سن العشرين ، وهي السن المناسب للتجنيد أو التجمع عند المصريين الطوال .

وتزداد نسبة الذكور عموما من أول الى آخر فئة عمرية ولكن ما يمكن ملاحظته هو أن نسبة النوع في هذا التعداد ارتفعت بدرجة لا مثيل لها في التعدادين السابق أو اللاحق . فقد بلغت نسبة النوع في فئة العمر ٥٥ ـ ٥٩ سنة ١٢٤ ذكر لكل مائة انثى ، وعند فئة السن ٥٠ ـ ٥٤ سنة فأكثر ارتفعت الى ١٣٧ . ولعل السبب في ذلك يرجع الى بعض الاخطاء في بيانات السن وخاصة في هذا التعداد ، اذ أن الاناث لا يعرفن اعمارهن خاصة كبار السن .

والعدد الاخير يوضح ما يزيد من التوازن بين الذكور والاناث أكثر من التعدادين السابقين ، والملاحظ هو أن عدد الذكور قل بنقوة عن عدد الاناث من أول الى آخر فئة باستثناء فئة السن ٥٠ ـ ٥٤ سنة ، حيث تفوق عدد الاناث ، ولذا رجحنا أن الوراء باستثناء هذه الفئة جنودهم مواليد عام ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ ، ومعنى ذلك أنهم بلغوا سن العشرين عام ١٩٢٩ . وأنهم بذلك قد عاصروا الحربين الاولى والثانية ، وأثناء حرب التحرير الليبية . ومن ثم غاب عدد الذكور في هذه الفئة .

٢ ـ نسبة الاطفال الى النساء :

يمكن ايجاد نسبة الاطفال الى النساء من بيانات السن والنوع ، وذلك بقسمة عدد الاطفال الذكور والاناث أقل من خمس سنوات على عدد الاناث في سن الحمل ١٥ ـ ٤٩ سنة × ١٠٠ .

جدول رقم (٦)

نسبة الاطفال الى النساء في الجماهيرية

١٩٧٣/٦٤

السنة	عدد الاطفال اقل من ٥ سنوات	عدد الاناث في سن الحمل	نسبة الاطفال الى النساء
١٩٥٤	١٥٣٧٠١٧	٢٢٠٤٦٤	٠,٦٧
١٩٦٤	٢٧٨٢٣٧	٣٢٠٤٦٠	٠,٨٧
١٩٧٣	٤٢٥٨٨٠	٣٨١٨٥٤	١,١٢

المصدر : حسابات الباحث والنسب من حساب البيانات .

ويتضح من الجدول أن نسبة الاطفال الى النساء اخذة اتجاها عاليا نحو الزيادة خلال الفترات الثلاثة ، فعلى سبيل المثال عام ١٩٥٤ قد بلغت ٠,٦٧ ، أي مقدار واحد تقريبا لكل انثى في سن الحمل ، أو ٦٧ طفلا لكل مائة انثى في سن الحمل ، ارتفع هذه النسبة الى حوالي الضعف تقريبا عام ١٩٧٣ ، أو ما يعادل ١١٢ طفلا لكل مائة انثى في سن الحمل .

وتحسب هذه النسبة عادة عندما تكون بعض البيانات اللازمة لحساب معدل المواليد ناقصة ، وبعد فإن نسبة الأطفال إلى النساء تعتبر بوجه عام مقياسا لا يكون عادة سجل صالح للمواليد ، وحتى في حالة وجود تسجيل للمواليد فإن البيانات لا تنشر مفصلة لكل مجموعات المجتمع التي نرغب في دراسة خصوبتها ، حيث يمكن استخدام نسبة الأطفال إلى النساء كبديل للقيام بهذا التحليل في تقدير المواليد .

مما تقدم يتضح أن لزيادة حجم الأسرة بعيدة في المرتبة على بعض المحددات الاجتماعية والاقتصادية للسكان ، وإن هرم السكان الليبيين إذ يتميز بقاعدة عريضة من الأطفال وصغار السن ، فمعنى ذلك أن هذا المجتمع يمر بالمرحلة الأولى من مراحل دورة الديموغرافية ، التي تتميز بارتفاع معدلات المواليد ، نظرا لعدم استخدام أساليب تحديد النسل أو تنظيمه ، وانخفاض معدلات الوفيات لتقدم الشوى الصحي ، وانتشار الخدمات الطبية ، وإذا كان عدد الذكور في المجتمع الليبي يتكون من عدد الإناث ، فإن ذلك في صالح المجتمع وليس العكس ، وما تأكيد ذلك هو الأمل المتوقع عندما يتجاوز هذا العدد الأكبر مستقبلا في حدود من هم في سن العمل ، ومن ثم يكون المجتمع الليبي قادرا على استغلال موارد الثروة الهائلة التي أنعم الله بها عليه ، وتحقيق الاكتفاء الذاتي في الغذاء والاستغناء تدريجيا عن المعونة الأجنبية .

* * *

المراجع والملاحق -

١ ـ التعدادات العامة للسكان ١٩٤٧ ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٧ .

٢ ـ الجهاز المركزي العام للتعبئة العامة والاحصاء ، مديرية الاحصاء والتعداد ، الحصاءات الحيوية ١٩٧٨ ، القاهرة ١٩٨٠ .

٣ ـ هيئة التخطيط ، مديرية الاحصاء والتعداد ، النتائج النهائية للتعداد العام للسكان ١٩٧٦ ، القاهرة ١٩٧٩ .

٤ ـ هيئة التخطيط ، مديرية الاحصاء والتعداد ، التعداد العام للسكان ١٩٧٦ ـ بيانات تفصيلية ، القاهرة ١٩٧٧ .

٥ ـ جورج مارتين ، ترجمة ... رفعت ابو داود ، اساليب تحليل البيانات السكانية ، القاهرة ١٩٧٨ .

٦ ـ عبد الحميد فراج ، الاسس الاحصائية للدراسات السكانية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

7 — Demographic Year Book 1972, New York, 1979.

8 — K. Vonkelemeyer, «Home Citizen Population Estimates Of Libya by Sex and Age 1972 - 86» Direct in Economics and Statistics, No 1, 1979.

التوزيع النسبي لسكان الليبية حسب فئات السن والنوع

ملحق رقم (١)

١٩٧٣/٥٤

فئات السن	١٩٥٤			١٩٦٤			١٩٧٣		
	ذكور %	اناث %	جملة %	ذكور %	اناث %	جملة %	ذكور %	اناث %	جملة %
أقل من ٥	٧,٨	٧,٨	١٥,٦	٥,٦	٥,٦	١١,٢	٥,٥	٥,٢	١٠,٧
٥ ـ ١٠	٦,٧	٦,٧	١٣,٤	٥,٩	٥,٩	١١,٨	٥,١	٥,٨	١٠,٩
١٠ ـ ١٤	٤,٣	٤,٣	٨,٦	٤,٣	٤,٣	٨,٦	٤,٣	٤,٣	٨,٦
١٥ ـ ١٩	٣,٥	٣,٥	٧,٠	٣,٥	٣,٥	٧,٠	٣,٥	٣,٥	٧,٠
٢٠ ـ ٢٤	٣,٤	٣,٤	٦,٨	٣,٤	٣,٤	٦,٨	٣,٤	٣,٤	٦,٨
٢٥ ـ ٢٩	٣,٢	٣,٢	٦,٤	٣,٢	٣,٢	٦,٤	٣,٢	٣,٢	٦,٤
٣٠ ـ ٣٤	٢,٩	٢,٩	٥,٨	٢,٩	٢,٩	٥,٨	٢,٩	٢,٩	٥,٨
٣٥ ـ ٣٩	٢,٧	٢,٧	٥,٤	٢,٧	٢,٧	٥,٤	٢,٧	٢,٧	٥,٤
٤٠ ـ ٤٤	٢,٤	٢,٤	٤,٨	٢,٤	٢,٤	٤,٨	٢,٤	٢,٤	٤,٨
٤٥ ـ ٤٩	٢,١	٢,١	٤,٢	٢,١	٢,١	٤,٢	٢,١	٢,١	٤,٢
٥٠ ـ ٥٤	٢,٠	١,٩	٣,٩	١,٩	١,٩	٣,٨	١,٩	١,٩	٣,٨
٥٥ ـ ٥٩	١,٧	١,٦	٣,٣	١,٦	١,٦	٣,٢	١,٦	١,٦	٣,٢
٦٠ ـ ٦٤	١,٤	١,٣	٢,٧	١,٤	١,٣	٢,٧	١,٤	١,٣	٢,٧
٦٥ ـ ٦٩	١,٠	١,٠	٢,٠	١,٠	١,٠	٢,٠	١,٠	١,٠	٢,٠
٧٠ ـ ٧٤	٠,٧	٠,٧	١,٤	٠,٧	٠,٧	١,٤	٠,٧	٠,٧	١,٤
٧٥ ـ ٧٩	٠,٤	٠,٤	٠,٨	٠,٤	٠,٤	٠,٨	٠,٤	٠,٤	٠,٨
٨٠ ـ ٨٤	٠,٢	٠,٢	٠,٤	٠,٢	٠,٢	٠,٤	٠,٢	٠,٢	٠,٤
٨٥ فأكثر	٠,١	٠,١	٠,٢	٠,١	٠,١	٠,٢	٠,١	٠,١	٠,٢
الجملة	٥١,٠	٤٩,٠	١٠٠,٠	٥١,٠	٤٩,٠	١٠٠,٠	٥١,٥	٤٨,٥	١٠٠,٠

المصدر : بيانات التعدادات العامة للسكان ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٣ ، وتجميع الفرق من حساب الباحث .

بحث في :

أسس الإعلام في النظام الجماهيري

مقدم البحث

علي المنتصر فرحان

جامعة فاريونس - بغداد

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

محتويات البحث :

أولا : أسس الإعلام في المجتمع الجماهيري :

أ - الأساس الفكري

ب - الأساس التطبيقي

ثانيا : العناصر الأساسية للإعلام في المجتمع الجماهيري :

أ - الإعلام في أداة وسيلة أخرى

ب - الإعلام أين مصدرها الخاص

ج - الإعلام أخر لا يهدف الا الى المجتمع ككل

ثالثا : دور الإعلام في المجتمع الجماهيري :

أ - الإعلام وسيلة تعبير للجماهير

ب - الإعلام أداة توعية للتعبير وسع نطاقه

ج - الإعلام أداة لتحقيق جماهيرية الثقافة والتقدم

د - الإعلام أداة لتعزيز الشعور بالمسئولية

رابعا : فروض البحث -

أسس الإعلام في التنظيم الجماهيري

علي اسعيد الوريمي

أولا – أسس الإعلام في المجتمع الجماهيري :

أ – الأساس الفكري :

ارتبطت مشكلة الإعلام منذ القدم بمشكلة الحرية ، وقد كان الأمر كذلك حتى عندما كان الإعلام في شكله البدائي المتمثل في الصحافة المسموعة ، وقد كان طبيعيا أن تزداد حدة المشكلة حدة مع ظهور وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة ، فبدا لنا ظهر الإعلام كمشكل مستقل رغم أن تركيز الاهتمام انصب على الجوانب الاقتصادية للإعلام حينا وعلى الجوانب السياسية حينا آخر وعلى الجوانب التشريعية والجوانب الاجتماعية في أحيان أخرى .

والذي حدث في كل ذلك هو أن تعدد جوانب الإعلام ، وتشابكه بمختلف مناحي الحياة أدى إلى فقدان الرؤية الشمولية للإعلام في ضوء الحياة الاجتماعية الحديثة ، بالإضافة إلى تركيز الاهتمام على الظاهر الخارجية لمشكلات الأساسية المرتبطة بالإعلام ظنا أن هذه الظاهر هي مشكلات قائمة بذاتها ، الأمر الذي نتج عنه عدة أخطاء نجد من بينها هذه الظاهر ، ولعل أبرز هذه الأخطاء التعويض المتعمد بما يطلق عليه : حرية الإذاعة ، ومبادئ العدل والتساوي

في الوقت الحاضر تغطية الاعلامية لمختلف وجهات النظر ، وانشاء مجالس للصحافة ، والقوانين المتعلقة بالأسس التي يقوم عليها الاعلان التجاري ، والقوانين المتعلقة بالمبادئ التي يقوم عليها العمل الاعلامي ، بيد أنه الاسباب الأخرى ذكرها عاليه بالرغم من الزمن الطويل الذي مضى على مثل هذه الاجراءات الاصلاحية ، فقد بقيت مشكلة الاعلام على ما هي عليه بل وازدادت حدتها في بعض المناطق بالشكل الذي يثير عدة تساؤلات حول المشكلة من أساسها .

مشكلة الحرية الاعلامية اذن ، مثلها مثل مشكلة الحرية السياسية والاقتصادية والدينية والشخصية هي واحدة من مشكلات الحرية عموما بغض النظر عن مضمونها . هذه الحرية لا تتحقق مهما كان هناك من يمنح هذه الحرية او يضمنها ، ولذلك فمن البداية التصديق بانه من الممكن معالجة قضية الحرية من خلال نصوص دستورية او قرارات أو اجراءات ادارية كما أن الحرية ذات طابع شمولي كما سبق وأن ذكر ، اما أن يكون الانسان حرا او غير حر . ولهذا فمن غير المنطقي النظر الى قضية الحرية على أنها عدة قضايا يمكن أن تتحقق الحرية في بعض منها دون البعض الآخر ، فاذا كان الامر كذلك ، اذن كيف يمكن أن تتحقق الحرية الاعلامية ، وكيف نطرح الاطروحة الفكرية السابقة للنظرية العلمية الثالثة الى قضية الحرية الاعلامية ؟

على الرغم من ان التراث الفكري لكل من الليبرالية والماركسية لم يتضمن مسألة الاعلام في مقولاته الاساسية ، الا ان هذه المسألة نالت قسطا من الاهتمام في سياق الحديث عن مسائل اخرى ترتبط بها ، فالليبراليون الذين أقاموا نظمهم السياسية على أساس مبدأ فصل السلطات التقليدية الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية اقترحوا أن هذا التعدد والتنوع في السلطات يسمح بالتوازن القائم بسبب عدم

استبداد أي منها بوسائله وجميع تطورات القيود التقنية لوسائل الاعلام الحديثة ، وقد ظهر عدد من هذه الوسائل فهزت فكرة احتكار الاعلام أو سلطة واحدة ، تتابع ويتابع عن طريقها السلطات وتحرق عنه وتنقده ، أما من الناحية الاقتصادية ، فالعمل الاعلامي مشروع اقتصادي تطور فيه الصحف والبرامج والاشرطة الاعلانية سلعا تخضع لقانون العرض والطلب ، كما تعبر أنصار هذا الرأي أن تنوع الآراء وتعددها أمر أساسي لتكوين رأي عام مستنير الأمر الذي يتطلب تأكيد حرية كل من يملك المال في أن يوجد الوسيلة الاعلامية التي يريد ، الا أن أسوأ الحقائق العلمية التي نتجت عن هذه المخاوف ، والتي كان أبرزها الاحتكار الاقتصادي (عن طريق الشركات الاعلامية الكبرى) ، والاحتكار السياسي (عن طريق الأحزاب السياسية الكبرى) وسيطرة المعلنين وأصحاب المال على الوسائل الاعلامية ، وهيمنة أجهزة السلطة التقليدية على الاعلام ، أصبح كل ذلك سرعان ما يكتسب أن هذه المخاوف عملية أكثر منها فكرية أتت في وقتها الأمر الذي يبرر الوضع الاعلامي في ضوء المبدأ الليبرالي السائد .

أما الماركسيون فانهم لا يرون امكانية الحديث عن الحرية طالما بقيت القاعدة المادية التي تتحكم في قوى الانتاج وعلاقات الانتاج دون تغيير ، وكل ما هو المضمون حرية الاعلام وحرية التعبير عندما يزعم أن المجتمع الاشتراكي الحالة يجد أن هناك نصوصا دستورية تؤكد حرية وحريات مثل حرية الصحافة ، الا أن الأساس الفكري للماركسية يرفض فكرة القانون كما يرفض فكرة الصوت أصلا على اعتبار أن الاعتراف بأن هناك حدودا ما هي عدم التساوي البدائي ، ويعتبر الديمقراطية وسيلة هي تحقيق المساواة الفعلية لكافة الأمر الذي بدأ تحقيق وفقا يبدأ من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته ، تتبع هذه الديمقراطية شيئا غير ضروري ، اذ هذا الانتاج الأخير تعم

من النظر إلى الديمقراطية باعتبارها مسألة تعني وجود الدولة التي تقوم بإجراءات معينة من خلال أجهزتها المتعددة لتحقيق ذلك . وما كان الدولة نفيها لحريته كما رأها انجلز . فإن اختفاء الدولة والتي الديمقراطية أمران أساسيان وفقا لمفهوم الماركسي طالما تحقق المجتمع الاشتراكي الذي تتحقق فيه السلطة المادية كاملة . باختصار . ما يحاول الفكر الماركسي أن يبرزه يتمثل في الآتي :

١ ـ إن العامل المادي هو الأساس في حركة المجتمع .

٢ ـ إن الدولة هي انعكاس للواقع المادي في مراحل تطوره المختلفة .

٣ ـ إن الدولة هي تعبير الحرية والتعبير عن الحقوق يعني عدم التساوي البدائي .

٤ ـ والحل هو إيجاد مجتمع لا تبقى تختفي فيه الدولة[١٠] .

ورغم أن الكتاب الأخضر يظن أن الدولة على أنها [على عكس الأسرة والقبيلة والأمة] تكوين غير اجتماعي ، أو كما يسميها بتحديد هي « نظام سياسي واقتصادي اصطناعي وأحيانا عسكري لا علاقة للإنسانية به ولا دخل لها فيه »[١١] . إلا أنه كما هو واضح من السياق السابق لا يعتبر الدولة مجرد نتاج الواقع المادي أو انعكاس له ، ولذلك فهو لا ينظر إلى الدولة [من حيث هي دولة] على أنها مشكلة تتطلب تصديا لها والعمل على إزالتها . فالكتاب الأخضر يؤكد على أهمية مراعاة الانسجام بين التكوين السياسي والتكوين الاجتماعي لأن أي تعارض بين الأسس سيؤدي في النهاية إلى تهديم النظام السياسي بفعل حركة العامل الاجتماعي[١٢] لذا يجب التركيز عليه لأن هو العامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والإعلامية .

وغيرها من علاقات التي لا تم تكافأ اسسها فانها تقود بالضرورة الى وضع يعين فيه الطرف الاقوى في المجتمع على بقية الاطراف . ان ما يعنيه ذلك باختصار هو ان تحول مصادر القوة المادية والمعنوية الى الجماهير الشعبية بحيث تحتكر هذه الجماهير السلطة والثروة والسلاح وتحقق ديمقراطية التعليم والاعلام والثقافة والمعرفة . ومن هنا ، فان الاعلام لا يمكن ان تحقق حريته طالما بقيت قوة القرار في يد حاكم او حكومة او مجلس ، او طالما بقيت ملكية وسائل الاعلام في يد شخص او فئة او حكومة . وحيث ان ، اداء الحكم هي المشكلة السياسية الاولى التي تواجه المجتمعات البشرية ، فان حرية الاعلام ترتبط اساسا بمشكلة الديمقراطية .

ومن هنا يتعين تصور قيام اعلام حر اذا غابت السمة الجماهيرية واحتكرت السلطة من قبل فرد او فئة او اسرة او قبيلة او حزب او جزء من اجهزة الحكم بدكتاتورية . فالضمان الاساسي لحرية اداء هو الجماهير الشعبية صاحبة السيادة ، هذه الجماهير التي تمنح قرارها في مؤتمراتها الشعبية هي التي تمارس السلطة ، وهي التي تشرع ، وهي التي تصنع لجانها الشعبية التي تنوب عنها في مؤتمراتها ، ولكن هذه الاسباب ومجتمع الجماهيري في ظل السلطة الشعبية المباشرة لا يعرف مؤسسات مأطورة (سواء كانت ذات طابع تكاملي كما في النظم الماركسية او ذات طابع تنافسي كما هو الحال في النظم الغربية) التي تصنع له القرارات او تضع له السياسات وشروطا لممارسة السلطة وتحقيق الديمقراطية ، ولا يوكل قضايا الاقتصاد او التعليم او الثقافة او الاعلام او غيرها الى هيئات حكومية او غير حكومية بل هو الذي يتخذ القرار بشأن كل هذه المسائل من خلال مؤتمراته الشعبية ولجانه الشعبية .

من كل ذلك يتأكد الكتاب الاخضر على ان حرية التعبير لا يمكن

النظر اليها في شكلها الجزئي المستقل في حرية التعبير عن أشكال التدخل التي تفرضها الحكومات أو الاحزاب أو أصحاب المال . ولكي تكون حرية التعبير لا يرتبط بسلطة اتخاذ القرار فمادا تبقى حرية التعبير ؟ فمن أي مصدر خارجي مهما كان نوعه ؟ اذا كان التعبير مجرد أداة للتنفيس عن الكبت الذي تعانيه الجماهير بينما تبقى سلطة اتخاذ القرار في يد أي من أدوات الحكم الدكتاتورية . ولأجل ذلك نجد أن الكتاب الأخضر يؤكد على أنه لا يجب أن تكون هناك سلطة خارج المجتمع ، فالديمقراطية هي « رقابة الشعب على نفسه » ، كما أكد أيضا على أن « الديمقراطية هي الحكم الشعبي وليست التعبير الشعبي »[6] .

ان ما يمكن أن نخلص اليه ازاء ذلك هو أن مسألة زوال الدولة أو بقائها تبقى مرتبطة فقط في حالة سيطرة الثورة كجهاز تحكمي في قرارات مختلف الجماهير الشعبية ، وفي حالة ما تصبح الأجهزة القائمة في المجتمع أدوات ترتبط بها مصالح الجماهير وحقوقهم وحرياتهم وحاجاتهم فالدولة بهذا الشكل المعبر عنه لنا ليست مجرد كيان عام له اسم دولي وشخصية دولية ، ولكن هذا الكيان يتجسد في أجهزة وتنظيمات حكومية وسلطوية وحزبية وطبقية تحمي جماهير محكوم وتسمح للدولة بالبقاء في موقع القوة .

لهذا السبب نجد أنه في ظل الأنظمة الشمولية في الشرق أو الغرب يتكون من الصعب التفرقة بين الدولة والحكومة أو الدولة والحزب أو الدولة والطبقة المسيطرة ... الخ . ويعني أن وضعا كهذا يجعل الدولة تبدو وكأنها شخصية تجسيدية لأجهزة السلطة القائمة في المجتمع ، ومن هنا يأتي الحديث في ظل الأنظمة الشمولية عن الدولة البرجوازية أو البروليتارية كأداة ديكتاتورية . هذا هو بالضبط ما يتجسد في الأنظمة الشمولية ، أن تحتل أجهزة الدولة (بغض النظر عن شكلها)

محل الجماهير في اتخاذ القرار ... في ظل النظام الجماهيري : فالجماهير هي أداة الديمقراطية وصانعتها . ولا يمكن لأي جهة أن تكون وصيا على الجماهير أو وسيطا لها في ممارسة الديمقراطية . الجماهير الشعبية هي المسيطرة داخل مؤتمراتها الشعبية ولجانها الشعبية ولا توجد أحزاب أو طبقات أو تنظيمات سلطوية تتحكم في إرادة الجماهير . ولهذا تبقى مسألة الحديث عن زوال الدولة أو بقائها أمرا آخر ذي علاقة بالنظام الجماهيري . ولا يوجد مبرر لطرحها أصلا .

ب ـ الإعلام التنظيمي :

الانطلاق الأساسي في المجتمع الجماهيري هو أن تكون كافة وسائل الإعلام بيد الجماهير ويترتب على ذلك أن الإعلام هو إعلام الجماهير في ملكيته وتخطيطه وإدارته وتشغيله لا أن ذلك يتطلب إيجاد إطار تنظيمي جماهيري يضمن عدم تسرب التأثير الشعبي وتحول دون هذا التأثير وعوامله وحيث أن أجهزة الإعلام التقليدية في الحكومات والأحزاب والنقابات وغيرها من أدوات الحكم الدكتاتورية تعتبر وسائل إعلام بديلة وتعوق المجتمع الجماهيري ، فإن الشكل التنظيمي للإعلام الجماهيري يستمد وجوده من البناء الشعبي المتمثل في المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية التي هي أساس السلطة الشعبية والطرح الشعبي الجماهيري .

هذا ذلك هو أن الإعلام يستمد وجوده التنظيمي من الأسس التي يقوم عليها النظام الجماهيري ككل والمتمثلة في المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية . هذه المؤسسات هي أساسا نوعان : مؤتمرات شعبية أساسية ومؤتمرات شعبية مهنية . وأعضاء المؤتمرات الشعبية المهنية هم أيضا أعضاء في المؤتمرات الشعبية الأساسية وحيث أن المؤتمرات الشعبية هي أداة السلطة الشعبية ، فإن المؤتمرات الشعبية الأساسية هي التي

مع القرارات المتعلقة بالاعلام شأنه في ذلك شأن القطاعات الاخرى ، بل الى حد كبير لديه مجلسه للاعلام ، وهي التي تحفظ له ، أيا المؤسسات الشعبية المهنية هي التي تتولى اتخاذ القرارات الخاصة بالصحف المتخصصة المتصلة بأمور المهنة وكذلك العمل بالنسبة للبرامج الاذاعية والتليفزيونية لوسائط الاعلامية في اطار مهنتها .

كما ان هذه المؤسسات الشعبية المهنية تضع التصورات الاعلامية المتصلة بأمور المهنة لكي يتم عرضها على المؤسسات الشعبية الاساسية .

ان ما يؤكده كتاب الاخضر فيما يتعلق بهذا الجانب التطبيقي هو ان « المجتمع الديمقراطي هي التي تصدر لجنة شعبية مكونة من كل فئات المجتمع المختلفة ... في هذه الحالة فقط ولا أخرى سواها تكون الصحافة او وسائل الاعلام معبرة عن المجتمع ككل ومعادلة لوجهة نظر واتجاه عام ، وبذلك تكون الصحافة ديمقراطية أو اعلام ديمقراطيا بالفعل » .

ان هذا التقييم المهني لمثل الاعلامية يرتبط بحقيقة ان أصحاب المهنة هم أكثر الناس دراية بشؤونها وقضاياها وهم الذين يهمهم الفكرة وتعبيرها الكفيلان بايجاد نظام اعلامي تخصصي فعال خاصة وان المجتمع الجماهيري في مؤسساته الشعبية وتجاوزه الحزبية لا تسمح طبيعته الجماهيرية بوجود أي تنظيمات حزبية او سياسية أو عرقية أو دينية اخرى ، ولان جانب هذا النوع من الاعلام المهني ، هناك الاعلام الذي لا يرتبط بمهنة معينة ولكنه يهم اتجاهات المجتمع ككل ، وهذا الاعلام يضع في اطاره لجنة الشعبية المكونة من ممثلي المهنة للمجتمع ، كما يضع في سياساته وصوره لقرارات المؤسسات الشعبية الاساسية التي تتولى اتخاذ القرارات التخطيطية والتشريعية المرتبطة بسياسة المجتمع في هذه المجالات لكي تتولى المؤسسات الشعبية تنفيذها .

لـ ملكية المجتمع لوسائل الاعلام ، وقيام المؤتمرات الشعبية الاساسية بالتخطيط الاعلامي وتكوين اللجنة الشعبية الاعلامية من ابناء المجتمع انهيار كامل لجعل الاعلام ، مبررا التعبير الاجتماعي عن المجتمع بكل ابنائه المهيء .

ثانيا :

طبيعة الاعلام من حيث انه ليس قطاع خدمات كالصحة والزراعة والاستثمار مثلا ، وانما هو مجال ذو طبيعة خاصة يرتبط بحرية التعبير لدى الافراد والجماعات والمجتمع المرتبط ككل .

ثالثا :

طبيعة المؤتمرات الشعبية التي تمارس الحكم الشعبي ، وليست بحاجة الى مجرد التعبير عن توجهاتها ، بل تمارسها محددة المؤتمرات الشعبية هي أدوات فعالة ومباشرة في اتخاذ القرار ، وليست أدوات تنفيذية او ادارية تكتفي تقول اسمر المواد الاعلامية بكافة انواعها . اذا ان طبيعة الجماهيرية للاعلام تقتضي الا تكون وظيفة الاعلام والاعلان حكرا على فئة مهنية معينة ، بل يجب ان توجد ، ويجب ان توجد في المجتمع الجماهيري تنظيمات من الصحفيين او الاعلاميين عموما ، لحق الاعمال ، ولكن يجب ان يكون مكفولا لكل افراد المجتمع وكافة فئاته ، اما الفنيون ، والاداريون العاملون داخل القطاعات الاعلامية فهم يعملون تحت اشراف اللجنة الشعبية الاعلامية التي اختارها الفئات المهنية المجتمع ، رغم في تكوينهم مما يؤدي حتما ذلك يوجب على المجتمع ان يسمح لهم بتجاهل ضغوط الاجهزة المهنية .

ورغم أن الكتاب الأخضر الذي يؤكد على أن الإعلام الديمقراطي هو الذي ينبع من جماهير متكونة من كافة فئات المجتمع المختلفة، لا يتطرق إلى الجوانب التشريعية الخاصة بالوسيلة التنظيمية والإدارية لهذا الإعلام، إلا أنه يبدو أنه من الممكن أن تتكون هناك لجان شعبية إذاعية محلية تكونها المؤتمرات الشعبية المهنية المتفرعة لها، لا تكون هناك لجان شعبية للإعلام تمثلها المؤتمرات الشعبية المهنية في مختلف الولايات بحيث تكون في كل ولاية لجنة شعبية عامة للإعلام متكونة من كافة المؤتمرات المهنية، ثم تتكون من هذه اللجان الشعبية للإعلام في الولايات لجنة شعبية عامة للإعلام على مستوى الجماهيرية.

خلاصة القول في هذا هو أن المجتمع الجماهيري ليس مجتمعا تقوم على احتكار أي من الأدوات ذات الطبيعة الاجتماعية بمعنى انتظار من مصدر هذا الاحتكار وحده، لأن الأشخاص طبيعيون، ولا الأشخاص معنويون هو حق احتكار وسائل أو الأدوات ذات الطبيعة الاجتماعية ووسائل الإعلام بعض منها، فلا يمكن تحت ستار الارتباط بالجماهير أن يوقع المشروعية أو من أجل تحقيق غايات اجتماعية تقوم بها لجنة، أو غيرها من التعاريف أيا كانت لا يمكن تحت أي من هذه العناوين سلب الجماهير حرية الإرادة وحق التعبير.

داخل ذلك، فالمجتمع الجماهيري يفترض ضرورة معالجة مظاهر التعبير الاجتماعي وحل مشاكل، كيف يمكن أن نحدد المكان في مجتمع متكون من الجماهير المتحدة والمتفردة وإصلاح أو التعبير عن الفكر بمعنى التعبير الاجتماعي وليس التعبير الذاتي لأن هذا النوع الأخير من التعبير متروك للفرد الذي هو حر في أن يعبر عن نفسه وهو مشروع جزئيا.

ان المجتمع الذي تنظم جماهيره في مؤسسات شعبية ، والذي يمتلك ثروته وسلاحه ووسائل التعليم والاعلام والثقافة لا يمكن أن تسمح لنفسه بأي هياكل اخرى تتناقض مع طبيعته الديمقراطية الحزبية أو الطائفية أو العرقية او الجهوية وبالتالي سلبيا في تكوينات تتناقض جذريا مع الوضعية الجماهيرية الا الذي يجعل التكوينات المهنية (كالنقابات والنقابات والروابط المهنية) هي الاساس الوحيد الذي ينسجم مع هذه الوضعية الجماهيرية .

التي تدخل هذه التكوينات المهنية تقوم مؤتمرات مهنية ولجان نقابية منتخبة واعضاء هذه المؤتمرات كما سبق ان اشرنا هم اعضاء في المؤتمرات الشعبية الاساسية ، بيد ان عدد العمدة في مثل التجمع الاجتماعي لا يمكن أن يفهم منه تعدد المصالح المتضاربة او تعددية اتجاهات ضالة او أي بناء هرمي في هيكلة هذه الدوائر .

ثانيا : الخصائص الاساسية للاعلام في المجتمع الجماهيري :

من الممكن القول ان نستنتج الخصائص الاساسية للاعلام الجماهيري من خلال تتبع الاساس الفكري في شكله الشمولي ، ذلك انه يعتبر الربط الذي وضعه الكتاب الاخضر في فصله الاول بين الاعلام والديمقراطية باعتبار أن الاعلام هو احد قضايا الديمقراطية الا انه لكي نفهم خصائص المجتمع الجماهيري بشكل او بآخر خصائص الاعلام فيه لا بد من ايجاد قاعدة تحليلية اساسية ترتبط فيها الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية على اعتبار أن الفصل بين هذه الجوانب هو فصل تحليلي بحت ، ونظرا لأن هناك من المسائل الاعلامية ما تعتبره بعض المجتمعات ، فانه يبدو من الافضل أن يتم التطرق ايضا الى خصائص التعددية للاعلام التي لا تنسجم مع طبيعة المجتمع الجماهيري وعدمه .

١ ـ الإعلام ليس أداة للديمقراطية :

حين ظهرت الديمقراطية المباشرة في دولة المدينة اليونانية القديمة لم تكن هناك وسائل للإعلام بالوجود الذي نعرفه اليوم . وهكذا كان الأفراد الذين يحضرون ويشاركون في المناقشات هم أداة الديمقراطية وحدها . وعندما ظهرت الديمقراطية البرلمانية الغربية في بعد الموسعون أداة للديمقراطية بل أصبحت الهيئات البرلمانية تنتخب هي الأداة لممارسة الديمقراطية على اعتبار أن هذه الأداة ، ممثلة ، للإرادة الشعبية لكن وإلى جانب الهيئات البرلمانية وجدت هيئات منتخبة وقضائية أما الإعلام الذي ازدادت أهميته ودوره بفعل تطور تقني هائل ، فقد اعتبرته الأنظمة الغربية واحدا من أدوات الديمقراطية النيابية لأنه يمثل القناة التي تربط الحكام المحكومين والوسيلة التي يستطيع بها المرشحون الوصول إلى ناخبيهم . بالإضافة إلى أهمية هذه الأداة في إيجاد رقابة أجهزة السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية على بعضها البعض ، ورقابة الشعب على أجهزة السلطة كلها .

وقد كان هذا الوضع مقبولا لدرجة دفعت المفكرين في هذه الأنظمة إلى اعتبار الإعلام ، سلطة رابعة ، بل إن أحد رؤساء الأمريكيين السابقين (توماس جفرسون) اعتبر أنه من الممكن أن تكون الصحافة أداة تحكم بديلة عن الحكومة إذا وجدت الحكومة أحيانا المستحيلة فقال : « لو كان لي أن أختار بين حكومة بلا صحافة أو صحافة بلا حكومة لاخترت الثانية دون تردد » .

وقد جاء قول جفرسون هذا في وقت تطورت فيه صناعة الصحافة تطورا كبيرا وقد كان من الممكن أن يتغير قول جفرسون هذا لو أنه شهد التطورات التقنية اللاحقة في مجال الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى التي لم تكن موجودة في عهده .

على أية حال ، ومهما يكن الأمر ، فسواء كان للإعلام أداة رابعة الى جانب أجهزة السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية أو أداة بديلة لهذه الأجهزة ، فان ما تدلك عليه هذه الوسيلة هو أن سواء تعددت السلطة أم لم تتعدد ، فالجماهير التي يعنيها الأمر بدرجة لا تين والأخيرة مخفية عن كل هذه الأجهزة ، كما أن تعدد أجهزة السلطة هذا انما يكمن في حقيقته الأمر هذا الواقع ، وسلطة تكون واحدة فقط حينما تكون في يد الجماهير شعبية ، أما حينما تخرج هذه السلطة من يد الجماهير فان الضرورة الحتمية التي يفرضها كون أداة الحكم غير جماهيرية ، غير قادرة على أن تحكم سيطرتها على كل شيء ، هذه الضرورة تقتضي ان تتعدد أجهزة السلطة وحينما تتعدد أجهزة السلطة فيجد الجميع طائفة من الجماعات بحيث يتنافس مراكز القوى من أجل الوصول وفقا لتقريرات الموضوعية التي يعمل فيها هذا الجهاز ومدى قدرته على تأكيد نفسه .

ولعل أبرز مثال على هذا النمط هو نظام السلطة الموجود في الولايات المتحدة الذي يسمح بأن تكون رئيس الجهاز التنفيذي ينتمي الى حزب مختلف عن الحزب الذي تملك الغالبية بالمجلس النيابي .

وهناك نوع آخر من العلاقة بين أجهزة السلطة المتعددة وأعني به طابع شمولي لأجهزة السلطة ، وذلك حينما تخضع جميعها الى أداة واحدة تقع في قمة هرم السلطة .

هذه الأداة قد تكون الملك أو الحزب الحاكم أو الطبقة الحاكمة أو ما شابهها من الأوضاع التي يسيطر فيها أحد عناصر السلطة على بقية العناصر .

الوضع الاعلامي داخل أجهزة السلطة الرئيسية هو الآخر وضع تنافسي وربما قد يبدو الاعلام في مظهره الخارجي وكأنه أداة حرة تعكس تنوع الآراء والاتجاهات السائدة ليصبح الاعلام ، كما نفس

المفكرون الليبراليون الحقيقيون هم سوق حرة للأفكار ، بمعنى أن هذه السوق الحرة للأفكار هي وإن افترض قيامها سرعان ما تتحول إلى أداة لاحتكارية ظرا لعدم تكافؤ الفرص الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في مجتمع ليبرالي ، الأمر الذي جعل هذه السوق تحت وصاية الأقوياء .

هذا هو ما حدث تاريخيا في الأنظمة الرأسمالية الغربية : أن يتحول السر الاقتصادي إلى احتكار وأن تحول السر السياسي إلى احتكار الأحزاب القوية الكبرى للسياسة مما جعل المواطن عاجزا عن أي قرار ، فهو أمام برامج حزبية محدودة كل ما يستطيع القيام به هو أن يقبل أو يرفض هذه البرامج وفي كلا الحالين سيجد نفسه وحيدا .

فلا هو قادر على أن يغير في أمر شيء هذه البرامج إذا شاء ، ولا هو قادر على أن يفعل دون تقيده أن يرفضها .

أما الأحزاب فهي التي تستطيع (أو بالأحرى جماعات ضغطها هي التي تستطيع) أن تنفذ برامجها كما تشاء إذا نجحت أو تبقى معارضتها والتزويد ببرامج حزبية جديدة إن فشلت .

وفي ظل الأنظمة الشمولية ، فإن الاحتكار السياسي والاقتصادي والإعلامي ليس هو النتيجة التي يسعى إليها الأقوياء كما هو الحال في الأنظمة الرأسمالية الغربية ، ولكنه هو الأساس الذي يبنيها عليه . هذا الأمر يبدو واضحا في أنظمة الدولة التي عرفت عهد ما يسمى بالديكتاتوريات في التاريخ ، وتكرر الظهور مجددا لهذا النوع من السلطة يتمثل في أنظمة الحزب الواحد والقائد .

ليس المقصود من ذلك بالطبع تفضيل عهد الأحزاب على الحزب الواحد فكلا الأمرين كما أشرنا سابقا مظهر استبدادي وديكتاتوري ليس له

الا بمعنى واحد وهو ان تقسم السلطة الجماهيرة المباشرة من خلال المؤتمرات الشعبية والنقابات الشعبية .

الاعلام في ظل النظام الشمولي لعبدالناصر هو الاداة الوحيدة في يد الذين يجلسون على سدة الحكم . وهذا الاعلام يسير في شكل موازٍ لاجهزة السلطة الاخرى .

لنجرب هذا هو الذي يحدث من خلال الشيوعية مثلاً أو من خلال برنامج العمل الذي طرحه [شرعية الاشياء والاصل] بهذا يتحول الاعلام من « مخزن افكار للسلطة » الى مخزن متخصص في بيع بضاعة واحدة هي السلعة وحدها ولكن نوعها واحد .

انه لا يجب ان يفهم مما سبق ذكره انه اذا تعاظم الاعلام من قيود الاحتكار الذي يقوم على عدد الصالح المتنافسة او ذلك الذي يقوم على تعدد الصالح لواحد او عدد من الممكن ان يكون اداة شعبية للاتحاد الحر . السبب البدئي في ذلك هو ان الاعلام في طل اي تركيبة احتكارية لا يمكن الا ان يكون احتكاريا . وحتى وان فرض امكانية تحرر الاعلام من قيوده تلك ، فانه لا يمكن ان يكون بديلا عن الجماهير الشعبية صاحبة الحق والمصلحة والسيادة التي لا يمكن ان تتكون بمجرد التعبير عن آمالها وطموحاتها بل لا بد ان تصنعها من خلال مؤتمراتها الشعبية واجهزتها الشعبية التنفيذية .

٢ ـ الاعلام ليس مشروعا اقتصاديا :

يقسم الكتاب الاخير نشاط الاقتصادي للاعلام في المجتمع الجماهيري الى ثلاثة انواع :

١ ـ ان يعمل الانسان لنفسه فيشبع حاجاته المادية . او ان يعمل

لمؤسسة اشتراكية يكون شريكا في انتاجها ، أو أن يقوم بخدمة عامة للمجتمع ويضمن له المجتمع حاجاته المادية »[١٠] .

واذا نظرنا الى النشاط الاعلامي في ضوء التعريف السابق ، وفي ضوء مقولة أن « الصحافة وسيلة تعبير للمجتمع وليست وسيلة تعبير لشخص طبيعي او معنوي ، اذن منطقيا وديمقراطيا لا يمكن أن تكون ملكا لاي منهما »[١١] .

واذا نظرنا الى النشاط الاعلامي في ضوء ذلك نوجد أن التعبير الاجتماعي لا يمكن ان يكون مجالا للنشاط الذي يمكن ان يقوم به فرد او مجموعة أفراد من أجل اشباع حاجاتهم المادية ، فكما انه لا يمكن أن يتوب أحد في ممارسة السلطة أو امتلاك القوة والسلاح ، فكذلك الحال بالنسبة للتعبير الاجتماعي الذي لا يمكن أن يوكل الى فرد او عدد من الافراد الذين يمارسوا التعبير نيابة عن المجتمع .

ومن جهة ثانية فالنشاط الاعلامي نشاط غير انتاجي بالمعنى الحقيقي للانتاج ، بينما تكشف التحليلات الاعلامية عن وجود منتج مادي أو شبه مادي يتمثل في الصحف والنشرات والاذاعة والبرامج ، وتكون هذه الامور قابلة للتداول كغيرها مقابل مادي أو غير مادي ووجود فئة من العمال ممن يقومون بالعمل في مطابع كل هذه الامور ، الكثيرون من النظر الى النشاط الاعلامي على أنه نشاط اقتصادي شأنه شأن النشاطات الانتاجية الاخرى وقد استغل أصحاب المال والشركات الكبرى في العالم الرأسمالي هذه السمة ، فاعتبروا الصحف والمطبوعات والاذاعة والبرامج والوقت الاذاعي سلعا مادية تخضع لمبدأ المنافسة الرأسمالية ، ولما كان النشاط الاعلامي نشاطا مكلفا من الناحية المادية الامر الذي يجعل تكلفة انتاج الجريدة أو البرنامج أو الشريط تفوق كثيرا القيمة التي من الممكن أن يباع بها هذا المنتج ، كسلعة ، فقد عمد العديد

الرأسمالي على الاعلان تجاري كوسيله يمكن بواسطتها ليس فقط تعويض خسارة الناتجة عن بيع المواد الاعلامية بأقل من سعر التكلفة بل وتحقيق ربح مادي ايضا وهو ما كل ذلك ادى في النهاية الى ان تصبح اجهزة الاعلام الرأسمالي ادوات تعبير ليس عن محرري أو مديري هذه الوسيله بل عن ملاكها . وبدرجة اكبر عن ممولين من المعلنين الذين يستطيعون التحكم في مضمون الوسيلة من طريق التهديد بسحب الاعلانات التجارية منها او منحها لها .

قد عبر احد المعلنين الغربيين عن هذه الحقيقة بقوله « بدلا من ان نطلب صحفنا في الماضي باشخاص يفهم ما يريدون قوله . ولكننا اتينا باشخاص يفهم ما يريدون بيعه »[٣] .

واذا عرفنا ان امكانية ايجاد سياسة اعلانية للاجهزة الاعلامية في المجتمع الاشتراكي فان هذا الامر لا يكون ممكنا إ بسبب ارتفاع الثقافة) الا اذا استمر المجتمع يعمل الاوجه الاقتصادية للاعلام الرأسمالي واهمها الاعلان ، صحيح ان مصدر الاعلان في ظل التحكم الرأسمالي يتحول الى المؤسسات والشركات الاشتراكية ، ولكن حتى في هذه الحالة فان مصدر التحكم سيتحول من الشخص الرأسمالي او مؤسسته الرأسماله الى جهات اعتبارية اخرى من الممكن ان لا يكون لها نفس التاثير على حرية وعلى التعبير الاجتماعي ، معنى ذلك ان ضرورة عمل الاعلامي داخل الانتاج تؤدي بالضروره الى جعل الاعلام اداة يتحكم فيها على الاقل قطاع العاملين في هذه الوسائل بشكل يتناسب مع النظر الى الاجهزة الاعلامية على انها ادوات تعبير لمجتمع معين وخاضعة من ضوابط تعبيرية أو ايديولوجية اما المجال الاساسي الذي يدخل العمل الانتاجي من ناحيه الظاهره فهو قطاع الفنانين فقراء الاحوال على عدد كبير نسبيا من العمال ، الا ان هذه الصورة أصبحت في طريقها الى

زوال سبب التقدم التقني الهائل الذي يجعل من المستحيل الاعتماد على عدد قليل من المهندسين والفنيين من أجل اصدار المطبوعات الامر الذي سوف يتيح تحول الكثيرين الى الانتاج الحقيقي . ما الحل اذن لهذا الوضع ؟ الحل كما أكد الكتاب الاخضر هو أن تكون وسائل التعبير الاجتماعي ملكا للمجتمع وعندما أمر حتمي في حالة قيام المجتمع الجماهيري الذي يختفي فيه أجهزة السلط السياسي والاقتصادي ويظل ان المؤتمرات الشعبية هي الاداة الجماهيرية الوحيدة لاتخاذ القرارات هي التي تبت بامور الجماهير ومختصات مختلف القطاعات الموجودة في المجتمع ومن بينها الاعلام كما أن النقابات والاتحادات ورابطات المهن هي مختصة بالمسائل التي تهم بوسعها بالاتفاق على نشاطها الاعلامي التخصصي وهكذا يكون العاملون في قطاع الاعلام الخاص يؤدون خدمة عامة يتكلفهم بها المجتمع ، وهو لأجل ذلك يكفل لهم اشباع حاجاتهم المادية ظهر فيهم بهذه الخدمة . اما حق التعبير الاجتماعي فهو مكفول لجميع أفراد المجتمع .

ان النظر الى القطاعات الخدمية في مجتمع على انها قطاعات اقتصادية تدر ربحا لهو من الخلفيات الرأسمالية التي أفرزت هذه النظرية الجديدة للاعلام والتعميم والمواصلات والخدمة وغيرها . فالتعميم مثلا من الممكن ان تمد سيطرته (وقد أعيدت بالفعل في الاقطار الرأسمالية) لكي يتحول الى مشروعات تجارية تخضع هي الاخرى لقوانين العرض والطلب والرقابة الرأسمالية .

٢ ـ الاعلام الحر لا يوجد الا في المجتمع الحر :

يعتبر الكتاب الاخضر سلطة الشعب هي السلطة الوحيدة المشروعة وأي سلطة خارج سلطة الجماهير هي سلطة تحكمية تعمل ضد الجماهير سواء كانت سلطة فرد أو حزب أو قبيلة أو مجلس أو غيره . وبهذا

فالحرية لا تتحقق اذا سلب الافراد حق امتلاك السلطة . والحرية بهذا المعنى لا يتجزأ . فلا يمكن أن يكون الفرد حرا او غير حر ، وهذا يدحض فكرة تنازل الفرد عن بعض من حريته من اجل ضمان هذه الحرية (فكرة العقد الاجتماعي) .

وفي حالة الليبراليين والماركسيين تصبح وسائل الاعلام جهازا من أجهزة السلطة سواء تعددت الاحزاب أم لم تتعدد . ويصبح الاعلام اداة حزبية معلومة الهدف الذي تسعى التي تمتلكه سواء أكانت تقدما خاصا أم حكوميا .

وحيثما يكون الحكم غير جماهيري ، فمن الذي يحدث انه اذا وقع تعارض بين النظام السياسي والنظام الاعلامي (وهو امر عادة ما يحرص الانظمة السياسية بمختلف انواعها على الا يقع) ، فالنتيجة هي صراع بين الاثنين لا بد ان ينتهي اما بتغيير النظام السياسي لكي يلائم النظام الاعلامي (وهو امر غير واقعي) او ان يتغير النظام الاعلامي لكي يتلاءم مع النظام السياسي ، وهذا ما يحدث في الواقع .

هذا فانه لا يمكن ان يكون هناك اعلام جماهيري الا اذا كانت هناك حرية سياسية واقتصادية واجتماعية . فالاعلام الحر لا يوجد الا في المجتمع الحر ، وهذا هو الذي يتأكد في مقولة ، ان مشكلة حرية الصحافة التي لم تثر اي نزاع حولها في العالم هي وليدة مشكلته الديمقراطية عموما ، ولا يمكن حلها ما لم تحل أزمة الديمقراطية ذاتها .

فالاعلام في الشرق والغرب ليس حرا لانه ليس ملكا للمجتمع ، وبالتالي فهو لا يعبر عنه . ففي بلاد العالم الرأسمالي الغربي يكون الاعلام ملكا للافراد والمؤسسات الخاصة ، وهو حتى وان افترض ان يكون حرا في نقد الجهاز السياسي الحاكم فهو ليس حرا في نقد مالك المؤسسة الاعلامية ، وفي البلاد التي تتبع النهج الماركسي ، فالاعلام

رغم انه لا يقع تحت ملكية الخاصة لا انه خاضع لقوة الحزب الذي لا يمثل الا نسبة ضئيلة من افراد المجتمع (٥٪ من السكان في الاتحاد السوفيتي) ، وهو بذلك للدولة التي توفر له كل المتطلبات الاساسية للانتاج من ارض وأجور ومطابع ومراسلات ومعامل تحسيض وغيرها .

والذي يترتب على ما سبق الاشارة اليه هو عدم صحة ما ترمي اليه الدول الغربية والشرقية من أن الاعلام اداة من الادوات التي تساهم في تأكيد الديمقراطية ، سواء كانت ديمقراطية تعدد الاحزاب واجهزة السلطة أو ديمقراطية الحزب الواحد الاوحد ، فالاعلام لا يحل مشكلة الديمقراطية ، ولعل حل مشكلة الديمقراطية يحل مشكلة حرية الاعلام ، ذلك ان أي سياسة تهدف الى تحقيق حرية الاعلام في ظل سلطة أخرى غير سلطة الشعب يعتبر دجلا وتضليلا يهدف الى توفير حق التعبير وسلب حق الحكم المباشر والذي سلب الحرية بحيث يبدو المجتمع في ظاهره حر الان بعض افراده قادرون على بعض التعبير بينما الذي يحدث في حقيقة الامر هو أن هذا التعبير لا يمتد الى أكثر من مجرد الكلام الذي لا يصاحبه العمل الفعلي الذي يحقق التغيير الفعلي للامور وفق الارادة الشعبية .

ثالثا ـ دور الاعلام في المجتمع الجماهيري :

الدور الذي يمكن ان يلعبه الاعلام في المجتمع الجماهيري انما هو دور مشروط بتكامل الوعي الجماهيري لمختلف أركان المجتمع ، وما سوف يتم تناوله بصدد دور الاعلام ووظيفته في المجتمع الجماهيري يفترض توفر الاسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذا المجتمع .

أ ـ الإعلام وسيلة تعبير للمجتمع :

« إذا لم يكن هناك إلا القوي وحده يتكلم فليس هناك إلا صوت واحد يسمع » ... ذلك هو قول أحد الديمقراطيين المعبر عن الاحتكار الذي هي الذين يمارسونه لأنهم يستطيعون عن طريقه الاستحواذ على سماع الجماهير وإبصارها لما يريدونه وعلى النحو الذي يريدونه أيضا . وأسلوب الاحتكار هو أسلوب قديم ضرب بجذوره في التاريخ الإنساني لمختلف ألوان الحكم الدكتاتورية ، أما في العصر الحديث فقد أنتجت النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة أشكالا جديدة من الاحتكار وفي غياب شريعة ثابتة للمجتمع تكون مصدر معيارا ؛ القيم المتعلقة بالصواب والخطأ ، والحق والباطل ، وحقوق الأفراد وواجباتهم ، فقد صمتت الدساتير التي تكرس الأوضاع الاحتكارية وتعطيها صبغة الشرعية(١) واستنادا إلى الصيغ المقننة في نصوص الدستور تسن المواد القانونية التي يجرم أي فعل لا يرضى عنه أصحاب السلطة وتضع عقاب ملائم له ـ كما تراه هي ، ومن هنا جاءت تشريعات الإعلام المتعلقة بالترخيص اللازم لإنشاء المشروعات الإعلامية ، وأسس مباشرة العمل الإعلامي ، وموانع الحظر التي لا يجب الخوض فيها ، وقوانين السب والقذف والتشهير ، والمحاكم الصحفية ، ومواثيق الشرف ومجالس الصحافة وتجديد رخص الصحف وسحب الامتياز وما شابهها من أمور .

هذه الأوضاع السابق ذكرها تمثل مشكلة أساسية في أنها تقوم على الافتراضات التالية

١ ـ أن التعبير عن قضايا المجتمع هو من اختصاص بعض القادرين اقتصاديا على إيجاد المشروعات الإعلامية أو الذين تنطبق عليهم المواصفات القانونية والدستورية .

ب ـ ان معيار صواب او خطأ ما يعبر عنه هو النصوص الدستورية والقانونية التي تضعها الدولة الحاكم .

جـ ـ ان تنفيذ التعبير (فكرة الناقوس الواحد) يمكن ان يتحقق بفعل التحكم في الرغيف او العرض وفاية مسبقة من قبل الجهة المحددة او بواسطة العقاب على التعبير غير المسموح به (وفاية بعدية) او بواسطة احتكار ملكية الاعلام في يد طبقة الرأسماليين او الحكومة .

وفي واقع الامر ، هذا الوضع الاعلامي الذي نراه اليوم في مختلف الانظمة التقليدية انما ينسجم تماما مع هيكلية السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة . ولذا فالوضع الاحتكاري الذي يمتلكه الاعلام في ظل الانظمة التقليدية انما يشكل موازٍ للاحتكار السياسي الذي يوجد في ظل الحزب الواحد او الاحزاب المتعددة ، وموازٍ للاحتكار الاقتصادي الذي يوجد في ظل ملكية الدولة او شركات الرأسمالية بالشكل الذي عبر عنه احد قادة الرؤساء الامريكيين السابقين (سيريو اغنيو) بعدما اشار الى خطر « التركيز الشديد لوسائل الاعلام كادوات لتشكيل الرأي العام في ايد اصبحت اقل تعريجا »[١٠] .

وفي ظل النظام الجماهيري ، فان هيكلية السلطة التقليدية تستبدل لتحل محلها السلطة الجماهيرية . اذ لا فارق بين الاحتكار الاقتصادي لتحل محله ملكية كل الشعب لكل الثروة ، وفي النظام الجماهيري ايضا يبقى احتكار السلاح كي يصبح في يد كل الشعب . وترتب على ذلك الا تكون هناك جهة خارج الجماهير لكي تحتكر الاعلام سياسيا او اقتصاديا او عسكريا ، وهذا تحقق التعبير فيه بمعناه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي عن طريق احتكار الجماهير لوسائله . وهذا فقط يمكن الحديث عن الاعلام كأداة لتعبير الاجتماعي

فيس هذا شخص أو جهة معينة تتحين على هذه الوسائل ، وكل ما يشغله الأمر هو أن يوجه رسائل تطمئن جماهيري يمنع عنهم تسرب التغيير الشعبي ويحول دون توسعه . وقد سبق تناول هذه النقطة عند الحديث عن الأسس التنظيمية للإعلام الجماهيري .

٢ ـ الإعلام أداة فورية للتغيير وصنع القدر :

يرتبط دور الإعلام في إحداث تغيير وصنع القدر بتطور فكري لعملية التغيير ذاتها ، وظل لأن أغلب نظريات التغير كانت نابعة من ناحية أوربية لوسائل الإعلام الحديثة ، فإن أغلب هذه النظريات أعطت الإعلام تفسيرا يمكن أن يكون له دور مهم في إحداث الانتقال من وضع إلى وضع آخر أكثر تقدما وتطورا ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مشكلة الأخرى أربطه بتحديد دور الإعلام في عملية التغيير الثوري هو أن أغلب النظريات التي تناولت عملية التغيير نظرت إليها بشكل وصفي تاريخي سردي ، فهي تطلب كيف تغير الأمر عما كان عليه ، وبذلك فإنها لا تراعي دور العامل الواعي في تغيير نفسها عن طريق الاستفادة من نظريات التغيير المختلفة ، ومن ثم استثمار الإعلام الحديث الذي لم يكن متوفرا للدول الصناعية الحديثة في بداية نهضتها ، فإن النتيجة ستكون عملية وضع الأسماء من عند أنفسنا أو تقديمها اطلاقا .

إن المشكلة الأساسية في عملية التغيير هذه أنها تنشأ حينما تكون المجتمع التقليدي نفسه في طور جديد بعيدا بعدا من الناحية الحضارية وذلك حينما حدث ما أسماه الرائد هو أن الذي يحدث هو مجرد توجيه لأمر الله ، ذلك ، وهذا هو ما يحدث بالضبط حينما يتقصر التغيير الذي يحدث في المجتمع على استعمال أدوات تكنولوجية جاهزة أو أدوات تكنولوجية أخرى ، بغير أن نعمد إلى استعمال وسائل الإعلام

براسية الدولة ، أو أن يحل حزب محل أحزاب أخرى أو أن تلغى منه كي تحرض طبقة أخرى دكتاتوريتها .

ان وصف هذه الاجراءات التقييدية لا يمكن أن ينطبق على الجماهير ولذلك فالحل الوحيد أمام النظم الحاكمة على الجماهير هو أن توجد البرلمان . الكرملين لا يدعي أن ما يتم هو مجرد أمر مرحلي ، ستنتهي عندما تنضج الظروف ، بيد أن المسألة ليست مسألة ايجاد مبرر لادامة سلطة الدولة أو حكومة أو حزب أو الائتلاف الحزبي ، ولكن انهم هو أن تكون الجماهير البديل الوحيد والمباشر لهذه الاشكال المسيطرة .

ان الحديث عن « الظروف الموضوعية » و « مراحل التطور » هي ترسيمات مشتركة للانظمة الثورية الليبرالية والماركسية على حد سواء ، كل الذي تفعله الماركسية في واقع الأمر هو تركيزها على العلاقات المادية والاجتماعية وتأكيدها على أن هذا التحول الذي يحدث عبر المراحل « المختلفة يتم طبقه » ديالكتيكية » . يقول ماركس : ان المجتمع لا يستطيع أن يخطى بقفزة ولا أن يلغي بقرارات مراحل تطوره الطبيعي ، ولكنه يستطيع اختصار هذه وتخفيف آلامها » (١٠) . اذا المفكرون الليبراليون قد عبروا عن فكرة التطور التدريجي هذه بأشكال مختلفة ، فوجدت كومت براها اختلافا من المرحلة اللاهوتية عن الميتافيزيقية الى المرحلة الوضعية ، اذا هربرت سبنسر يتحدث عن التطور « العضوي » للمجتمع الذي يتم عبر مراحل مختلفة بشكل مشابه لتطور العضوي للحيوان أو النبات ، بينما تحدث أصحاب الحتمل التدريجي الوظيفي عن المراحل التي يخضعها هذا النوع من التطور من الاتصال وظهور المدن والكتابة وغيرها من المسائل التي اعتبرها أصحاب هذا التحليل مسألة تسلسلية تأتي في

مراحل متتابعة[1] ، وفي كل الاحوال ، فان لمنطق لاسببي واحد وهو ضرورة وجود مراحل لتطوره الشيء . وعندما تنهي هذه المراحل ، فان الشيء يعدل بعض الشيء عن تعدده . حينئذ تنضج الماكيه تكون جاهزة لمنطف بعض الشر حين يتطلبه .

لاشك ان هذا الخروج عن التحليل يضفي نوعا من القدرية على ارادة الانسان ، فكل ما يستطيعه او هو تتبع هذه المراحل او هي الاكثر تقليلا لمساحة الزمنية الفاصلة بين كل مرحلة والاخرى ، اما اذا حاول البدء بمرحلة قبل الاخرى من جهوده سيوء بالفشل لانه خارض قوانين التطور .

وهذا النوع من القدرية يوجد شبيه له في كتابات فلاسفة التاريخ الذين يرون الحضارة تشبه شجرة الخالق الحي الذي ولد فينمو ويبلغ اشده في مرحلة الشباب ثم يعتبر تدريجيا نحو الكهولة ثم الموت ، وهم في كل ذلك يعتبرون « قوانين » التطور المستقبلي في حدود ماضي الذي لم يبين منها الا « استماع يتعل عروف معينة أن يعي . وهو بذلك لا يمثل الا جزءا من الحقيقة قد لا يصلح معيارا للتنبؤ عليه .

ويمكن القول ان مصدر هذه الفروقات القياسية ، فسواء كانت مبنية على أساس التحليل المنطقي ام التاريخي أم غيرهما ، فالتطور الاعلامي في سوء هذه الرؤى التطورية أربعة مراحل بشروط « موضوعية » لا بد أن تتحقق في واحدة من هذه المراحل ، وبهذا يكون على المجتمع أن يعرف المرحلة « الملائمة » لتطور الاعلامي حتى لا سبقها فيواجه مشاكل هي كامل البنية أو يتخلف فيضيع عليه فرصة استخدام القدرة الهائلة للاعلام .

ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك ، فإن نظام المراحل هذا يتطلب أن يتغير وجه الإعلام في كل مرحلة لكي يواكبها . ولهذا فوظيفة الإعلام لا يحددها المجتمع بل يحددها طبيعة المرحلة ، الموضوعية ، التي يعيش المجتمع بدايتها ، مرتدا في حالة ما إذا كانت النظرة إلى عملية التغيير تتخذ الشكل الحلزوني الذي يبدأ من نقطة معينة ثم يسير عبر مراحل معينة لتصل إلى نقطة أخرى دون العودة إلى النقطة الأصلية .

أما إذا كان تطور المجتمع ينظر إليه على أنه يسير في شكل دائري معين يتحتم على المجتمع فيه ركود ثم ازدهار ثم ركود مرة أخرى ، فإن ذلك يعني أن استخدام الإعلام في فترة الهبوط غير مهم لأن المجتمع في حركته إلى الأمام على أية حال . وكل ما على سياسة الإعلام هو أن ينتظر بدايا من الوقت اللازم للهبوط ، أما في مرحلة الانتقال من الصعود إلى الركود والانهيار ، فإن استخدام الإعلام لتطوير أفراد المجتمع وإعدادهم من جديد لمواجهة الانهيار ، فهي جهود محكوم عليها بالفشل لأن المجتمع سيسير في طريق الانهيار .

ومن آثار هذه الرؤية الرجعية تلك الفكرة العدمية الجديدة التي تقول بأن متطلبات التنمية هي فوق كل اعتبار ، وأن على الجماهير أن تحيا وأن تموت من أجل تحقيقها وكل متطلباتها في السعة والثروة والسلاح ربما يتم تطوير المجتمع ، وانبعث هذا الشعار بقيام الحكم الدكتاتورية في الدول النامية لأن وجودها يحول ديمقراطية ، بحجة عدم تلوح به الجماهير التي سلب حريتها اختيار طريق التطور الذي تريده .

ولا يمثل لهذا الوضع المأزري إلا أن تحل سنة الشعوب محل أدوات الحكم الدكتاتورية لكي تصبح الشعوب مرادفة للحرية طريق التنمية الذي تريده وتصنع التقدم بنفسها ولنفسها .

ان حرية الجماهير وسعادتها ليست امورا مرهونة باي شروط موضوعية او مراحل تسلسلية ذلك ان هذه الحرية وتلك السعادة ليستا موضوعا لوعود حاكم قدمها فئة عليمة او حزب او طبقة او حاكم او نبية الى الجماهير ، بل هذه الجماهير تحركها الوعية تستطيع ان تحقق ذلك فورا وبدون مراحل ، الجماهير تستطيع ان تسيطر على السلطة الدكتاتورية لاية أداة حكم وتقيم مؤسساتها الشعبية وتختار لجانها الشعبية المتعددة ثم تستوعي على زوجها وسلاحها ومصادر قوته الكامن بحيث لا يبقى مجال لعودة الاحزاب الدكتاتورية والطبقية البائدة ، والاعلام اعتبره احد مصادر القوة المتوفرة (والذي ايضا) التي يمتلكها الجماهير يستطيع ان يلعب دورا في كشف ملابسات هذه المرحلة وغيرها من مواقع الاستغلال لكي تتوعى الجماهير بدورها ، وهو فتاح العصر الحاضر الذي يمكن الحرية والسعادة والعدل والمساواة بين افراد المجتمع ، معتبرة بذلك شعوب الارض بقرب الخلاص من عبودية الطبقة والاستبداد والاستغلال ، واشراق عصر الجماهير .

٣ ـ الاعلام اداة تحقيق جماهيرية الثقافة والمعرفة :

هذه هي أخطر المسائل الحاسمة التي تتكشف عنها ثورة الاتصالات الضخمة الجماهيري هو ترسيخ الثقافة التقليدية ، وتأكيد تبعيتها الاستعمارية وما يزيد في خطورة هذا الدور هو تكريس الاعلام التقليدي لهذه الاوضاع التي تتمثل في نقل الانماط التقليدية للاداب الثقافية والمعرفية السائدة بما تحمله من مضامين سياسية واقتصادية واجتماعية تريد تحكم سيطرة فئوية أو اقلية المسيطرة داخل المجتمع .

وفي ضوء هذا الوضع ، نكون احدثنا عن الثورة الثقافية في مجتمع جماهيري مستقل بما اكتسبه من استقلاله ، لان الذي يحدث في الواقع هو ان هذا المستقل ثقافة ذات طابع شرقي بثقافة اخرى تحمل

عن الجميع . وهكذا يتم تغييب الديمقراطية الحقيقية بالديماجوجية الكاذبة بدلا من الثقافة التي تكرسها وسائل الاعلام والتعليم في مختلف المجتمعات هي خدمة الطرف أو الأطراف القوية المسيطرة داخل النظام الاجتماعي سواء كانت هذه الأطراف الطبقات الرأسمالية أم الأحزاب أم غيرها .

في هذه المشكلة يبرز مداها بشكل أكبر حينما يتكون المجتمع بفعل الأحداث التي تؤدي لتحرير دورها السياسي والاقتصادي الى وضعها في شكل هرمي يتميز فيه من يطلق عليهم اسم النخبة ، عدد الأفراد — لأنها أقلية — لا يجد حلا لمشكلتها في قيام الانتخابات برلمانية سواء تعددت الأحزاب أم لم تتعدد ، ولا حتى في ظروف الاقتصاد الليبرالي ولا الحكومي . ومن ثم فالجماهير هي الوحيدة القادرة لاستيعاب الأحداث التي يستطيع أفرادها اتخاذ القرارات في الأوقات المناسبة حين تكون الآراء متساوية ، وحيث لا توجد أهمية ولا أقلية لأن الجميع يشتركون في صنع كل الآراء المطروحة من قبل كافة أعضاء المؤتمر .

حينما ظهرت نظرية حارس البوابة في المجتمع الأمريكي ، كانت تعبر أساسا عن أن هناك عدة مراكز يكونون أكثر قدرة واختيارا واطلاعا من غيرهم ، ولذا فهم يستطيعون مرور معلوماتهم بمرشحاتهم الى الآخرين أو لا يسمحون ، بحيث يكون بامكانهم أن يتحكموا في نوعية القرار الذي يتخذ . وهذا الأمر كما تبين كل يوم لا ينحصر على ذلك فالأحزاب والحكومات والهيئات والمؤسسات ، ومن بينها أجهزة الاعلام ، تقوم بعملية ترشيح المعلومات والمعارف والثقافات التي تصل الى الجماهير الشعبية أو تصدر عنها .

ونتيجة كل ذلك هي الابقاء على الأمر الواقع واعادة انتاج التمايز الاجتماعي وغير الاجتماعي فالأجهزة الاعلامية الرأسمالية لا يمكن أن

تخدم أغراضا اشتراكية ، ووسائل الاعلام الحزبي أو الحكومي لا يمكن أن تخدم أغراضا جماهيرية ، لأن توجه الجماهيري بصفة عامة يعني الغاء كافة أشكال التوجه الحزبي أو الحكومي .

ن واضحا كيف يعبر السيطرة الحكومية على الاعلام في الانظمة التي تدعي الحرية بعيدة عن التدخل الحكومي ، ففي المجتمع الامريكي مثلا الاجهزة الحكومية مصدرا رئيسيا للاخبار التي لا يمكن أن تكون الا حكومية ، فقد أعلن وزير العدل أحد الباحثين الامريكيين أن أكثر من ٥٠٪ من الاخبار الرئيسية التي تنشرها صحيفتا نيويورك تايمز و واشنطن بوست مصدرها المؤتمرات الصحفية التي يعقدها مسؤولون حكوميون وتشير الصحف التي تصدر عن المكاتب الحكومية[٣٠] .

هذا بالاضافة الى الرقابة ، الشديدة ، التي تمارسها الحكومة الامريكية على منح التراخيص لخدمة محطات الاذاعة وتجديدها كل ثلاث سنوات عن طريق لجنة الاتصالات ( ) ، التي تتكون من سبعة أعضاء يعينهم رئيس الولايات المتحدة بناء على موافقة الكونغرس[٣١] ، كما سيطرة الاحزاب و تكتلات الاحزاب والحكومات على المعلومات التي تصل الى الجمهور عن طريق وسائل الاعلام في العالم الاخرى فهي واسعة وليست بحاجة الى تحليل ، حيث أن عدد الدول تربط بصفة ، الشرعية ، على أساس الحرية والحكومية .

وفي المجتمع الجماهيري ، فالشرعية أو السيادة الشعبية في الشرعية الجماهيرية ، فليس هناك ما يبرر قيام هيئة سياسية أو اقتصادية على الجماهير ، ولذا لا بد من تعظيم الهيئة لمكانته وأوجه استثمار الثروة لأنها ، من وجهي نظر أفراد[٣٢] كما أن تحقيق ، مسؤولية العلم سوف تتكامل مع الاعلام الجماهيري في تحقيق جماهيرية المعرفة التي

تمكن الجماهير من اتخاذ القرارات الصائبة داخل مؤسساتها الشعبية التي هي الأداة الوحيدة للديمقراطية المباشرة .

د ـ الإعلام أداة لتعزيز التفاهم والسلم الدوليين :

ارتبط مشكلة الاتصال الدولي بموال السوفيت بالغيب بسبب انعدام التوازن والعداء والتناقض في أنماط هذا الاتصال بشكل جعل التدفق الإعلامي سيراً في اتجاه واحد من الدول الأكثر نمواً إلى الدول الأقل نمواً .

وتأسيساً على ذلك فقد أدرك بعض المنظمات الدولية وأبرزها اليونسكو جهودها لمعالجة مثل هذه التفاوتات في أثار هذه الجهود وفي إطار جهود الدول المختلفة بدأت بعض الأعمال التحليلية وبعض الإجراءات العملية لمعالجة الاختلالات القائمة في الاتصال الدولي[٣٠] .

بيد أن إيجاد حلول لمثل هذه المشكلات أمر لا يأتي من خلال الحلول الإصلاحية المشتتة في تقديم المعونة والخبرة والمشورة ، فقد ثبت فشل هذه الاجراءات في الإطار الاقتصادي حيث أن المعونات الاقتصادية التي تقدمها بعض الدول الصناعية إلى الدول النامية لم تكن لتزيد وبصورة لافتة من تكاثر الهوة السحيقة ، وتتمثل في إطار الغزو الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في هذه البلدان .

فالمشهد الآن من المعونة هو الحكم والحكومات والطبقات الحاكمة ، وقلما يعود لأفراد الشعب أي نصيب فيه ، وكذلك الحال بالنسبة للمعونة الإعلامية التي يمكن أن تقدم لأي دولة نامية ، فالأثر الإعلامي الذي ينتج عن دعم أو تكريس الوضع الإعلامي الاحتكاري الدكتاتوري السائد ، الأمر الذي يقود في النهاية إلى تكريس النظام الإعلامي الدولي وإطالة عمره .

كما أن البحث حول تشكلات الاتصال الدولي لن يتأتى أيضا من خلال النظر في الأغراض الخارجية لهذه التشكلات ذلك أن عدم توازن هذه الأغراض لمسببات كثيرة مما يجعل العلاج الأفضل له هو تفهم هذه المسببات والحد منها وليس مجرد علاج لنواتجها الخارجية أو نواتج هذه المسببات .

ان الأمر ليس مجرد اعداد وتأهيل جيدة لبنى الاتصالية الدولية الموجودة ولكن العمل الجوهري لابد هو احداث تغيير في هذه البنى الاتصالية لكي تستوعب أهدافها ومستوياتها الدولية بحيث يقود ذلك الى تعزيز توازن علاقات الاخذ والعطاء الاعلامي . ونحن لا نسعى بالموضوعية والنزاهة للمتلقين ذوي الفهم وتدعيم توازن .

ان توجهات الايجابية لأجهزة الاعلام لا يمكن ان تتحقق اذا لم تكسر كل حواجز السلط ، ليصبح مهما كان مصدرها فحينما يخرج هذه الوسائل عن اطارها الجماهيري الذي تكون فيه جميع هذه الوسائل جماهيرية في ملكيتها وادارتها واستخدامها ، تتحول حتما الى أدوات دكتاتورية لحفنة تجيد السيطرة داخل المجتمع ، وحينما تكون أدوات الاعلام والاتصال دكتاتورية داخل المجتمع المحلي ، فانه من الصعب تصور قيامها بأدوار ايجابية على المستوى الدولي .

ان الوضع الحالي للاعلام والاتصال يختلف مستوياته يرتبط بشدة الارتباط بالأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية الأخرى الأمر الذي يتطلب نهجا شموليا في معالجة مشكلات الاعلام والاتصال .

ان من الأسباب الأساسية لتحيز الاعلامي وقيام بعض وسائل الاعلام بتشويه صورة بعض الشعوب والثقافات الأخرى هو عدم خروج هذه الوسائل من اطار جماهير المجتمع التي توجد فيه والتحكم فيها من الأفراد لهذه الوسائل وسيطرتهم عليها .

ولا شك أن استئثار الطابع الجماهيري الشعبي على ملكية وإدارة وبرمجة وإعداد مضمون وسائل الإعلام والاتصال سوف يقطع الطريق على الاستخدام المفرد والتسيير لوسائل الإعلام من أجل أهداف شريرة وطالما ولأن الإعلام قوة هائلة أصبحت تحكم شيئا فشيئا بمجمل التطورات الحديثة ، فإن خروج هذه القوة من أيدي الجماهير يؤدي بالضرورة إلى استخدامها ضد الجماهير داخل الوطن الواحد ، وإلى استخدامها ضد شعوب الأخرى التي لا يرضى عنها أدوات الحكم الدكتاتورية المسيطرة على الإعلام .

إنه من الغريب والمخيف حقا أن عالم اليوم الذي وصل مدى تطوره في قوته الصناعية والعسكرية ، لا يزال النسبة الغالبة من سكانه تعيش تحت رحمة فئة قليلة من الأفراد المتسلطة في الأحزاب والحكومات والدبلوماسية والقيادة والأسر والأشخاص .

معنى ذلك أن أغلب سكان هذه الكوكب لم يقرروا مصيرهم بعد لأنهم لا يزالون خارج السلطة ، ولا تزال ثرواتهم بيد القلة ، ولا يزال سلاحهم حكرا على فئات معينة وطبقته الأساسية هي أدوات الحكم الدكتاتورية التي تسلطت بسبب ذلك أن تحمي السلم الدولي من خطر .

أما دور العلم والمعرفة والثقافة وأجهزة الإعلام فوضعه دوليا لا يختلف كثيرا عن وضع السلطة والثروة والسلاح لأنها هي الأخرى لا تزال في أغلب دول العالم رابحا خاصة لصاحب السلطة أو الثروة أو السلاح أو جميعها معا .

إن الحل عسير والشقي زاد وضعه كهذا هو طريق الثقافة العلمية الثالثة ، الطريق الذي تعبده الجماهير التي تمتلك كافة إمكانات الوعي والتقدم .

رابعا – هوامش البحث :

١ – لمزيد من التفاصيل حول أسس الفكرية الأنظمة الإعلامية المعاصرة أنظر :

F. S. SIBERT, T. PETERSON & W. SCHRAMM. FOUR THEORIES OF THE PRESS. UNIVERSITY OF ILLINOIS PRESS, URBANA, CHICAGO/LONDON. 1956.

٢ – مثال ذلك المادة ٤٧ من الدستور المصري الذي ينص على أن الحرية من واجبات الدولة :

أ – حرية الفكر

ب – حرية الصحافة

جـ – حرية عقد الاجتماعات العامة

د – حرية التجمع والتعاقد (أنظر الرجع (١) ص ١٢٥ .

٣ – أنظر أيضا كتابات ماركس وانجلز والمثل في :

JOHN SOMMERVILLE AND RONALD E. SANTONI, SOCIAL AND POLITICAL PHILOSOPHY, ANCHOR BOOKS : DOUBLEDAY & COMPANY, INC.
NEW YORK, 1963 PP. 342 - 423.

٤ – محمد الدراقي : الكتاب الأخضر ، الفصل الثالث ، ص ١٢٧ .

٥ – نفس المصدر السابق ص ١٤٢ ، ١٤٤ .

٦ – نفس المصدر السابق ، الفصل الأول ، ص ٥٩ ، ص ٦٧ .

٧ – نفس المصدر السابق ، الفصل الأول ، ص ٦٩ .

WILLIAM RIVERS, THE MASS MEDIA, UNIVERSAL BOOK _ STALL DELHI, KANPUR, 1981 P. 3.

٩ ـ هذا التعبير استخدمه لينين عندما كتب في جريدة إسكرا ، يقول ، انها لا تعدو أن تجعل صحيفتنا مسموحا لكل واشنطن فعلى عكس ذلك لاننا سوف نديرها ، فقد نروج مدرسة فكرية ، ضيقة ومحددة ، على الجزين تنتمي إلى كتلة واحدة هي ، الماركسية ، أنظر :

H. FISHER AND J. C. MERRIL, INTERNATIONAL COMMUNICATION, HASTINGS HOUSE PUBLISHERS, NEW YORK, 1970 P. 54.

١٠ ـ نصر القالي ، الكاتب المصري ، الفصل الثاني ، ص ٩٢ ـ ٩٤ .

١١ ـ نفس المرجع السابق ، الفصل الأول ـ ص ٦٨ .

١٢ ـ يرجع هذا الفرق إلى انفاق الأحزاب من ميزانية أو اشتراكات ، أنظر المرجع رقم ٩ ص ٢٤١ .

١٣ ـ نصر عثماني ، الكاتب المصري ، الفصل الأول ص ٢٠ .

١٤ ـ انظر الجانب الخاص بشريعة المجتمع في الفصل الأول من الكتاب الأصفر ص ص ٤٤ ـ ٩٥ .

١٥ ـ يجد القارئ اختلافات أخرى وقعوا من الكتابات المتعددة عن الإعلام الأمريكي المعاصر في :

DAVID J. RIELY FREEDOM OF DILEMMA, SCOTT, FORESMAN AND COMPANY 1971.

١٦ ـ مزيد من الإيضاح والتحليل حول فكرة الحقيقة ، يرجع نصر عامر مرجع القاريء إلى محاضرة نصر القالي بالدورة الأولى للمسرح الأسود ، العالم يختلف ، أبو بنادر والأعمال الجديدة في حياة توفيق الحكيم .

١٩ ـ وردت هذه الفكرة مقتبسة في كتاب دوريس كيرشل ، التضليل الذاتي والنقد السياسي ، اصدار مؤسسة الصحافة والنشر بالقاهرة ص ٣٧ .

٢٠ ـ يجد القارىء مزيدا من التفاصيل حول مختلف نظريات التغير في كثير من كتب التغير الاجتماعي الغربية كما يجد القارىء دراسة مقارنة لهذه النظريات في كتاب :

ROBERT H. LAUER, PERSPECTIVES ON SOCIAL CHANGE, ALLYN AND BACON, INC, BOSTON 1977.

وهناك دراسة نقدية لهذه النظريات من وجهة النظر الماركسية في كتاب جي ال. هادف ، نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر ، ترجمة نور الدين أحمد ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٤ .

٢١ ـ يستعرض القارىء العربي الموزع بين عرض الدراسات التي أجريت في الغرب عن ، مارشال ليونز ، الاعلانيين في كتابه : سيمياء الصورة الاعلانية ، الاسس العلمية لنظريات الاعلام ، دار الفكر العربي ١٩٧٥ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٢٠ .

٢٢ ـ راجع :

STEVEN H. CHAFFEE, POLITICAL COMMUNICATION SAGE PUBLICATIONS, BEVERELY/LONDON 1975, P. 255.

٢٣ ـ عدلي الهواري ، الاعلام والتنمية ، دراسة في خصوص تدريس علم الجتماع الاتصالات ص ٢٧ ، ١٧٦ .

٢٤ ـ رمزي القذافي ، الكتاب الاخضر ، الفصل الثالث ، ص ١٨٦ .

٢٥ ـ تعلق أحد هذه الاشكال الخطية ما تشرحه منظمة اليونسكو من ان ١٥٪ من أعضاء الجمعية العالمية لدراسة مشكلات الاتصال في الولايات المتحدة الأمريكية ، والذي ينتمي بعضهم لدول العالم الثالث .

دراسة تحت إشراف الدكتور الطاهري :

تأكيد الاختلافات في باب الديانات

أو

البواعث النفسية القرآنية للخروج عن الإيديولوجية

بقلم د/ عبد المعطي موعد

- مقدمة : الخلفية التراثية للنص -
- هوية الحسن العاصوني -
- موضوع النص -
- النص -
- تعليقات -
- تفكيرنا حول النص -
- نتيجة عامة -

دراسة لمحمد أبو الحسن العامري :

تولد الاختلافات في باب الديانات

أو

البواعث النفسية الفردية للخروج عن الايديولوجية

بقلم د/ محمد المقني سويد

مقدمة :

يقدم القرآن الكريم لمشركي الدين رفضوا دعوة محمد منذ بدايتها في مكة من الإنسان المسلم من خلال موقف مشركي مكة من حيث التحيز الذي أو التحيز وقد كان هو البعد الوحيد في عقيدتهم الفاسدة ، ويتمثل في معنى التحيز الإيجابي وهو البعد الآخر الذي جاء به القرآن في دعوته الجديدة .

- وقال إبراهيم لقومه ما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » .

(القرآن الكريم سورة العنكبوت الآية ٢٥)

« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

[القرآن : سورة الأعلى الآية ١٦]

« كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

[القرآن : سورة القيامة الآية ٢٠]

« إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » .

[القرآن : سورة الدهر الآية ٢٧]

إذا ما رجعنا إلى نفس الشرائع لأنها تعتبر الأمور المادية الضرورية لاستمرار الحياة الجسمية ، أي أنه أشار إلى أن الحياة العاجلة : تعرف الإنسان بأنه مدرك عن عقيدة تؤمن بوجود إله خالق ليس له أمور عاجلة في الواقع الإنساني المحسوس ، ومن هنا تتولد لدى الإنسان رغبة لرفض الدنيا ، أو الخروج منها ، وهي رغبة كما يسري ، لدى العامري ، فردية ، تطور عندها رغبة من موقف سلبي إلى محاولة مواجهة هذا الواقع بإرادة فعالة ، تبدو في دعوة فردية في سبيل الحياة الآخرة ، والواقع المحسوس ، وهذه النزعة متعددة الجوانب في نفس الوقت ، فهي للفرد ، وللرغبة في الخلود الفردي ، أو لخدمة المجتمع وقد صاغ هذه الخدمة الفردية بأسلوب إيديولوجي اجتماعي .

شخصية أبو الحسن العامري :

هو أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري من فلاسفة الإسلام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

كان معروفا في زمانه ، بل كان من أعلام عصره كما يقول أبو حيان التوحيدي في « المقابسات » ، وقد وصفه السجستاني بقوله : « كان مع

كبار فلاسفة الإسلام ، أمثال الكندي ، والسرابي ، وابن سينا ، وتحدث عنه : مسكويه ، في « التجارب الخالدة » ، وأبو المعالي في « بيان الأديان » والكلاباذي في « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، توفي سنة ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ ميلادية[1] .

موضوع النص :

تحديد الجهات التي يعزى إليها تولد الاختلافات في باب الديانات ، يهم هذا النص في خاتمة كتاب العامري ، في الدين مقولة حول : القول في الشبهات التي تتعلق بها الملحدون للإسلام .

النص :

« الجهات التي يعزى إليها تولد الاختلاف في باب الديانات »

قول العامري :

« ونحن مبتدؤون بأن نذكر الجهات التي يعزى إليها تولد الاختلافات في باب الديانات وإن كانت موضحة للحق ، فنقول : إن جميعها تؤول إلى جهات أربع :

إحداها :

أن يعجب المتدين بعقله ، ويغتر بذكائه ، فيركب رأيا من المقاييس الفاسدة قبل استكناه الأمر بمقدماته ، فينتج نتيجة كاذبة ، وهو يخالها

---

١ — الدكتور أحمد عبد الحميد غراب « دراسة وتحقيق كتاب « الإعلام بمناقب الإسلام » لأبي الحسن العامري » ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ — ١٩٦٧ ، ص ٥ — ٧ .

صادقة ، فيقتضيها دين ويدعو الناس اليه جهلا ، فتم البلوى وتلتوي بكافة الطبقات[1] .

والثانية :

أن يولع الانسان بعلم الاغراب ، والتعمق ، ويستهتر باستثاره بعض بديع لم تنجه ، خواطر الناس ، وهذا يباين تكتب الجدة شئن إذ يسلك طريقه تصح فيها القدوة ، أو يثير مذمة يحكم له باستهجانها في بعض الدور ، وطلب ورده ، فيوجد نفسه الذكر والسمة[2] .

الثالثة :

أن تكون قصد الانسان عند جميع ما يسمح من الأقوال الصادقة ، والمذاهب الحقيقية ، وأن يتسع لآراء المستوفاة التي تتحدج بها مبهمات العامة : لا ليس شيء عند العلماء أروج من المذهب المتضمن ، ذا رأى المعقول .

---

1 ـ يقول الامام أبو حامد الغزالي في أصل الخطر ، وبيان سببه في مزاج جبلتهم (تصديق) ، وتقدير موجبه ... ما معنى ، الاعتقاد بقياس عاقل سلكوا فيه النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال ، وإن كانوا قد تولوا من رتبة الجدل ، فهم أبدا يتجادلون في تكامل ، ويتخاذلون في إظهار الخطر لذة أن تحمل العامة بصدها ، وتقرر عنها لا سيما إذا نسب الشيء إلى مشهور بالفضل ...

2 ـ يقول الغزالي ، وعادة جبلوا على حب التغيير من الجملة ، والتخصص بمفهوم تزداد من مشابهتهم ، واعتقدوا بالمرة أن فئة جادة لزعم أنها مطلعة على الحقائق وأن كافة الخلق في جهالتهم كالعمي المتحيرة والبهائم العجماء ، وهذا هو الداء العضال المتولي على الانكباء فضلا عن الجهال ، وكل ذلك هو غبار الغرب ، وغفرة من الشر المستطير ...) .

(فضائح الباطنية ـ الامام الغزالي ـ تحقيق د. بدوي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٣ ـ ٣٤) .

والرابعة :

أن يقصد تزييف الدين ، وتوهين أسسه ، إما لتعصب ملكي أو لتعصب سياسي أو سوء الخلافة ، أو لإيثار سرق المجانة ، فهو يجتهد في اصطياد المعايب ، بأخبار مزورة ، وينسبها إلى طائفة أصحاب الحديث ، أو إلى أحد رؤساء العامة ، فيوهم ضعفة من أتباعه أنها أساس الملة ، احتيالا منه للكناية فيما أبغضه وأحب الانتقام منه .

فهذه الطرق للآفات استولت على الأديان والملل ، وليست هي المقصورة على دين الإسلام ، بل هي مشتملة على جميعها » .

[كتاب : الإعلام بمناقب الإسلام ، لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري ، حقيق ودراسة الدكتور : أحمد عبد الحميد غراب ، القاهرة ١٣٨٨ ـ ١٩٦٧ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥] .

تعليق :

يقول العامري : « إن كان العقل المختص بالجوهر الإنسي هو أدق بعرف الحق ، وعمل بما يوافق الحق فمن الواجب أن يكون أكمل الناس أجزاهم مرادنا للحق ، وأقدرهم على العمل بما يوافق الحق »[1] يضع العامري العقل معيارا للحكم والمقارنة[2] ، والعقل أمر ثابت ، وهو يرى أن الإسلام بالمقارنة إلى الأديان الأخرى التي عقد بينه المقارنة ، يستجيب بكل ما اختص به من المناقب السنية السديدة الموافق والعقل ، وهو

---

١ ـ أبو الحسن العامري : الإعلام بمناقب الإسلام ، ص ٧٢ .

٢ ـ محمد العامري مقارنة بين أديان ستة وهي : الإسلام ـ الزرادشتية ـ اليهودية ـ دين الصابئة ، البرهمنية والثنوية .

بالتالي أفضل الديانات ، وذلك لقيامه ـ أي الإسلام ـ على الاستجابة الروحية والمادية التي يبحث عنها الإنسان .

فالأمر الذي ذكرناه يختلف تماماً عن أي خروج عن الدين ، أو الإيديولوجية ، هو موقف فردي ، وهو موقف « لا عقلي » فلا أساس في خروجه هذا إلا ما يلبي حوجة الحاسة الأعلى ، وما زعمناه ارتباطه بالجانب الفردي الخاص المحدود .

« ... البحث عن الإعجاب ، والغرور بالذكاء الفردي ، اختلاق مقدمات وحدة والوصول الى نتائج خاصة ، مع توهم هذا الفرد بأنها صادقة ، ومن ثم يعظم هذا الأمر بدرجة أن « فاروق » يعتقد بأنه قد أوجد ديناً جديداً ، وأخذ يدعوه الناس اليه ، ومن ثم تضخم الجانب الخيالي ، وخيالي سكانه لحليته .

« ... الإنسان أينما في اختلاف من الدين هو في حاجة دائمة إلى الحب ، وفي حالة حب الاغتراب والتجديد ، والتميز ، وذلك بوضع صور بيانية دائمة ، تعطي عبارات جديدة غير الاحساس والشعور ، وهو في هذا يبحث عن غايته التي به هي بعد الغور ، ثم التي بعد ذلك الشعور بالرغبة في الحصول على السمعة وحسن الذكر .

« ... يرفض « فاروق » الأصول السائدة ، ويعتقد في رفضه ، ويبحث عن الآراء التي يراها « الغربي » مستنيرة ، وهي تخدع العامة [الجماهير] ، وتروج لديهم .

« ... يعتقد « فاروق » أن حكم العائلة في أساسها ، أو من « الداخل » لأسباب أنها مرتبطة بالفرد ذاته فهي ما « تتعصب سياسي » أو تعصب

نفسي (عرضي) ، وسائل عما الموقف الاخير هي : الصاق تعذيب ، (نشر الدعاية الكاذبة) ونشر التهم الاخلاقية ، والطعن بالاشخاص .

٥ ـ نشر الاخبار الكاذبة عن لسان الزعماء ، ويوجب بهذا المبدأ من أصله أنها من أساس الملة : أي يعمل على اقناع الآخرين بان مجموعة الاكاذيب ، هذه هي اساس المذهب هذا وذاك ، وهو بهذا يرضي بدعة نزعة الانتقام .

يبدو ان مشكلة الخروج من الملة (المذهب) عند الماضي هو أمر فرعي ، وهو موقف ضد العقل وغير موافق للحق ، لان الاسباب الدافعة لهذا الفرق ، هي (ميول ـ ورغبات ـ ونزع ـ تعصب) فقد أشار الماضي في تحليله لظاهرة الفرق ، الجانب السلبي من النقيضين ، أو انه بين ما التمرد من جانب الفرد ، فخروج عن الدين او الايديولوجية ليس دائما ضرورة رغبة في الحصول على الافضل ، والافراب ، وهو ليس موقف موروثا فقط ، فالفرد موجود في المجتمع ، وربطه بالمجتمع علائق معقدة ، وقد يخرج الفرد عن دائرة الاعتقاد مجسدا طموح مجموعة ما من افراد مجتمعه وكذلك الخروج هذا لاسباب اقتصادية ـ سياسية ـ اجتماعية ـ وعقائدية (كتعدد العقيدة ذاتها) .

ان العقل ذاته لدى الماضي ، وهو المقياس للحكم على الاشياء ، خاضع لكل قواعد التبدل والتغير ، وهو بهذا يتبدل مفهومه الحقيقي ذاتها ، والعقل ليس امرا ساكنا مطلقا لكل واقع ، بل تتغير فيه نحو الواقع ، وبالتالي ما عده الماضي « مريدا » في القرن الرابع الهجري ، ولا عقلي وهو مطابق له في الاذهان ، يصبح في عصر آخر عقيدة وصنعا وشاذا او هو آخر .

ونريد بجيبنا عن يدافع عن فكر الماضي هذا ، بان الملة (الدين)

أمر ثابت . والوحي أمر لا يتغير فقد هبط مرة واحدة . فما جاء به كان وسيبقى صحيحا . ولكننا نتساءل فيما اذا كان الوحي ابديا ؛ فوحي والواقع ثابت كثبات الوحي ذاته !

ان الميول والنوازع الفردية الخفية التي تدفع بالفرد لخروج عن إيديولوجية ما . لا يكتب لها الاستمرار والبقاء . في (ميول) تنمي رغبة (ما) واذا استمرت هذه النوازع باحثة عن الاعجاب . والمدح . والعرفان . والولع . والتعصب الخ .. فانها تتحجر مع انحلال الفرد ذاته .

تفكيرنا حول النص :

لقد علمنا الدين بأن الانسان ، بفرديته ، وآليته قد يتضخم ، ويزدان ، ويزهو ، عجبه تدفع به الى (الغرور) ورفض الايديولوجية ، وقد تمتد هذه (الجهود) لدى الانسان فهي بواعث داخلية في الفرد ذاته ، وقد تكون مسرعة ، في اطار هذا الفرد ، ولكنها لا يمكنها أن تكون أساسا في ذلك ، أو رفض هذه الايديولوجية او تلك عندما تخلف اطار اجتماعي ، ويمكن لهذه النوازع الفردية ذاتها شيء من الضعف أن تنطلق من محدوديتها بزيد أو عمر وإن تتسع امرا عاما للجميع .

لم يتعرض (كما نرى) نص المعاصر للمشكلة (مشكلة الخروج عن الملة) بكاملها ، بل أحاط بها من جانبها السيكولوجي الفردي السببي لان في الانسان بواعث وجهات أخرى (غيره) ليست من الولع . والعرفان ، بمكان : تدفع بالفرد لاعادة النظر بهذه العقيدة أو تلك .

نتيجة عامة :

لا يزال النص معاصرا ، وهو يمس صفحة صوت من تراثنا القديم ، لاننا لا نعدم في الوقت الحاضر من وجود أفراد تدفع بهم النزوات ،

والتمزق والميول ، ومختلف أنواع التعصب ، للخروج عن عقيدة ما ، أو رفضها ، أو التنازع ، وهذا الموقف أيضا هو نفسه الآن بالموقف الناتج عن « النسمة الفردية » .

وقد تنضم الكثرة بأفراد آخرين لاعتقاد بأنهم يرفضون هذا المذهب أو ذاك لأنهم وحدهم يملكون الحقيقة المطلقة ، وهم قادرون على تحطيم هذا المعتقد أو تلك الإيديولوجية بالحجج في هذا الميدان الاجتماعية المحطمة .

ومن ناحية ثانية إن نقص هذا الحب عليه أو الدونية عامة ، فهو ليس مجالا محدودا لظاهرة المروق على مستوى الدين الإسلامي فقط ، بل يتجاوز ذلك في ادراكه الى غير الإسلام ، فالتمزق والرغبات والميول لا تنضم بالتالي للخروج عن الإسلام ، وانما تضع المؤمن بعقيدة أخرى غير الإسلام للمروق عن عقيدته : فيقول في خاتمة النص :

« فهذه الطرق لا تعدو المرارة على الأفراد والملل ، ليست هي المقصورة على دين الإسلام ، بل هي مشتركة بين جميعها » .

* * *

UNIVERSITY OF GARYOUNIS

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS AND EDUCATION

VOL. 11

1982